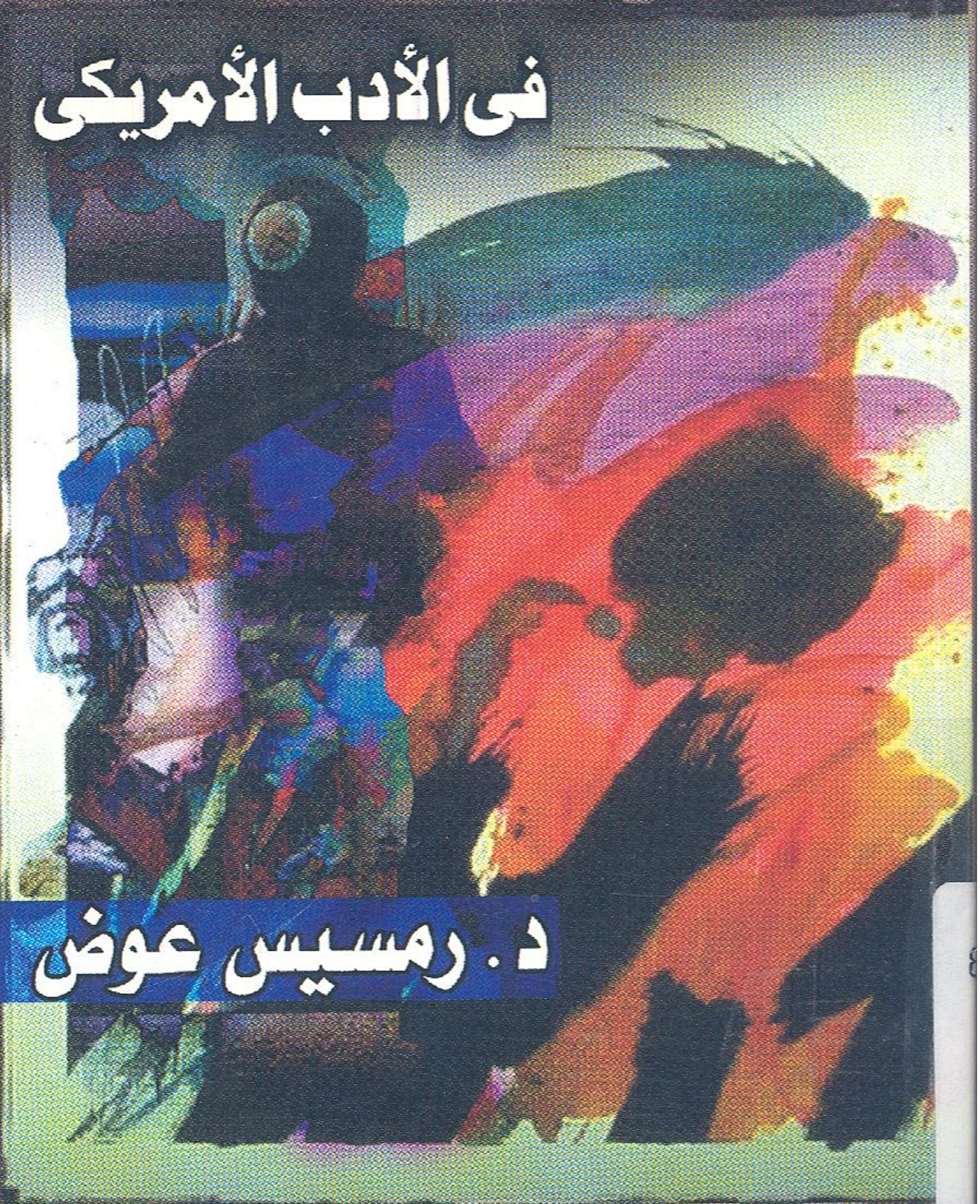
الهولوكست

فى الأدب الأمريكى



د . رمسيس عوض

مكتبة الأنجلو المصرية

الهولوكست فى الأدب الأمريكى

إهـــــــداء ٢٠٠٨

رصيد عام

الهولوكست فى الأدب الأمريكى

د. رمسيس عوض

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

اســم الكتاب : الهولوكست فى الأدب الأمريكى

المؤلـــــف : د. رمسيس عوض

الناشــــر : مكتبة الأنجلو المصرية

الطباعــــة : مطبعة أبناء وهبه حسان

رقم الإيـداع : ١٠٣١١ لسنة ٢٠٠١

الترقيم الدولى : I.S.B.N. : 977 - 05 - 1815- 8

الهولوكست فى الأدب الأمريكى

د. رمسيس عوض

الجزء الأول

الهولوكست كلمة مشتقة من أصل أغريقى ومعناها الحريق الشامل . وقد أصبحت هذه الكلمة تطلق على الابادة الجماعية ليهود أوربا على أيدى الألمان النازيين فى فترة الحرب العالمية الثانية وخاصة الفترة من ١٩٤١ إلى ١٩٤٣ والكلمة العبرية للهولوكست هى الشول Shoal . ولكن كلمة الهولوكست أعم وأكثر شيوعا .

كان الهولوكست النازى مصدر وحى وإلهام لكثير من الأدباء والمؤلفين الأمريكان والأوربيين والاسرائيليين وتخصص فى دراسة أدب الهولوكست عدد كبير من الباحثين على رأسهم لورانس لانجر Langer وألفين روزنفلد Rosenfeld وسيدرا إزراهى Ezrahi وادوارد الكسندر وآلان مينتز Mintz وداڤيد روسكيز Roskies وغيرهم كثيرون . ناهيك عن إليا ويسل Elie Wiesel علما بأن مئات الألوف من الكتب والمقالات والأبحاث صدرت عن الهولوكست بعد الحرب العالمية الثانية حتى وقتنا الراهن . وإنتاج أدب الهولوكست لم يقتصر على اليهود الأمريكان بل امتد إلى الأدب الانجليزى مثلما نجد فى الرواية التى ألفها الروائى البريطانى مارتن أميس بعنوان «سهم الزمن» ، وفى بعض مسرحيات الكاتب المجرى جورج تابورى فضلا عن الأدب الألمانى والنمساوى الخ . .

وأيضا من الخطل أن نعتقد أن التأليف فى أدب الهولوكست فى الولايات المتحدة يقتصر على شاؤول بيلو Bellow وبرنارد مالامود Malamud وآى . ب . سنجر وإدوارد لويس والانت Wallant وسنثيا أوزيك Ozick وويسلى ابشتين Epstein وجورج شتاينر Steiner وريتشارد إلمان Elman وآرثر كوهين وتشايم بوتوك Potok فهناك الكثيرون غيرهم ممن يصعب حصرهم .

يقول بعض الدراسين أن خيال البشر يعجز عن فهم كلمة الهولوكست ومن ثم

فإنه يستحيل وصفه لأنه يخرج عن نطاق الحياة والموت ويحدثنا ايزاك روزنبرج عن عجز المثقف الأمريكي عن فهم حقيقة ما حدث في الهولوكست ، فقد كتب عام ١٩٤٨ يقول :

« نحن لا نزال عاجزين عن فهم ما حدث لليهود في أوربا ولعلنا لن نفهمه أبدا . لقد سطر أبرز شهود العيان الثقات في حياة الجيتو ومعسكرات الاعتقال وفي عبودية اليهود العاملين في المصانع ومراكز الابادة التي يديرها الألمان الكتب والرسائل واليوميات والوثائق . ونحن الآن نعرف كل ما يمكن معرفته . ورغم هذا فإن ذلك لم يساعدنا حتى الآن في فهم ما جرى . . . »

هذا ما يردده الناقد ليونيل تريلنج وخبير الهولوكست إميل ويزل وشاعر اليديش يوري زفي جرينبرج فجميعهم يذهبون إلى أن الهولوكست ليست له سابقة في التاريخ الانساني كله وأنه يتجاوز مفهوم البشر عن الخير والشر : يقول تريلنج أن أبرز الأدباء الذين عالجوا الشر الذي تمارسه الطبيعة البشرية يعجزون عن رسم صورة للإثم الذي اقترفه النازيون في الهولوكست . فهذا الإثم يفوق كل ما صوره الأدباء المتشائمون أمثال جوناثان سويفت وشكسبير ومونتاني في أعمالهم . ويقول ألفريد كازين أن ذكرى الهولوكست سوف تظل حية في مخيلته حتى يموت . ويؤكد جورج شتينر هذا المعنى بقوله إن هذه الكارثة التي لحقت بيهود أوربا لم تشوههم فحسب بل أنها أفقدتهم توازنهم .

والجدير بالذكر أن اهتمام الروائيين اليهود الأمريكان بتصوير الهولوكست ظل حتى عقد الستينات في القرن العشرين محدودا للغاية . ويمكن القول إن اهتمام الروائيين الأمريكان بالهولوكست كان غائباً في أوائل عقد الستينات . ولكن تغيرا طرأ على موقفهم في أواخر هذا العقد . وقد أشار روبرت أولتر إلى غياب اهتمام الأدباء الأمريكان بتصوير الهولوكست في الأدب الأمريكي . غير أنه لم يمض على شكوى روبرت أولتر ثلاثة أعوام حتى انقلب الوضع من النقيض إلى النقيض . فقد كتب لوثان كاهان يقول : «إننا لا نجد كاتبا يهوديا واحدا لا يذكر ما حدث في

معسكر الاعتقال النازى فى أوسشفتز» .

ونحن نخطئ إذا ظننا أن الروائيين اليهود الأمريكان الذين أوردنا اسماءهم (أوزيك - إلمان - كوهين - بوتوك - سنجر - ابشتين - بيلو - شتاينر - والانت - مالامود) كتبوا عن الهولوكست من واقع تجربتهم فجميعهم لم يكتووا بنار الهولوكست على المستوى الشخصى . ولكن هذا لا يمنع من ظهور إشارات إلى الهولوكست فى وقت باكر فى عام ١٩٤٧ فى كتابات كل من روزنفلد وتريلنج وشاؤول بيلو واللافت للنظر أن معالجة الأدباء الأوربيين لموضوع الهولوكست سبق انشغال الأدباء الأمريكان به فى أواخر الستينات كما أسلفنا .

ولعل السبب فى تأخر الأدباء اليهود الأمريكان فى تناول الهولوكست يرجع إلى مجموعة من الأسباب منها أنهم لم يخوضوا تجربته على الصعيد الشخصى وأنهم أرادوا قبل الكتابة عنه دراسته دراسة وافية .

ويرجع اهتمام الكتاب اليهود الأمريكان بالهولوكست فى أواخر الستينات وفى عقدى السبعينات والثمانينات إلى محاكمة أدولف إيخمان النازى المعروف فى أورشليم وتهديد العرب بإبادة اسرائيل وقيام الحرب العربية الاسرائيلية فى عام ١٩٦٧. وإذا كانت محاكمة إيخمان السبب المباشر الذى أثار اهتمام الأدب الاسرائيلى بالهولوكست فإن الأدب اليهودى الأمريكى أخذ يقفو اثره ويحذو حذوه».

والرأى عند عدد كبير من المؤرخين أن نجاح النازيين فى الابادة الجماعية لليهود يرجع إلى التقاليد المعادية للسامية الراسخة فى أوربا والتى أرستها الكنيسة الكاثوليكية فى القرون الوسطى أكثر من رجوعها إلى ايمان النازيين بالفلسفة النازية وضرورة الاحتفاظ بنقاوة الدم الآرى حتى لا يلوثه الرجس اليهودى . هؤلاء المؤرخون يعتقدون انه لولا عداوة أوربا المسيحية التقليدية لليهود لما تمكن النازيون فيما بعد من تنفيذ سياسة الهولوكست . ونحن نجد أن الأدب الأمريكى الذى تناول موضوع الهولوكست اهتم اهتماما فائقا بهذه العداوة الأوربية التقليدية للسامية واعتبرها

السبب الحقيقي فى ظهور الهولوكست النازى فى القرن العشرين وعلى الرغم من أن الأدباء اليهود الأمريكان الذين عالجوا الهولوكست فى كتاباتهم يدركون الفرق من الناحيتين العنصرية والتكنولوجية بين الابادة النازية لليهود واضطهاد أوربا المسيحية لهم فإنهم حرصوا على المقارنة بينهما وابراز أوجه الشبه الأخلاقى الذى يربط بينهما . هذا التشابه الأخلاقى فى نظرهم هو المسئول عن قبول العالم الغربى المسيحى للإبادة النازية لليهود وغض الطرف عنها . وهم لا يرون فرقا بين قول المصلح الدينى البروتستانتى المعروف مارتن لوثر «إن الحياة الانسانية التى ترى فى الشيطان عدوها اللدود رقم ١ ترى فى قسوة اليهودى وسوئه وعنفه العدو رقم ١» وبين قول هتلر فى كتابه (كفاحي) : «واعتقد اننى اليوم أتصرف وفقا لإرادة الله العلى القدير . وعندما أدافع عن نفسى ضد اليهود فإنى أقاتل من أجل نصرة أعمال الله» .

والمهم أن نذكر أن الأدب الأمريكى يركز كل اهتمامه على ضحايا الهولوكست وليس على مرتكبيه من النازيين . فدور هؤلاء النازيين ثانوى فى حين أن دور ضحاياهم محورى . ويذهب الدارسون إلى أن أدباء أمريكا اليهود يعنون بتصوير صراع ضحايا الهولوكست من أجل الحياة فى حين نرى كتاب الهولوكست الأوربيين والإسرائيليين الذين جربوا أهوال الهولوكست بأنفسهم يهتمون اهتماما بالغا بتصوير وحشية النازيين وبربريتهم . ومن ثم فإن كتاب الهولوكست الأمريكان يلجأون إلى الذكريات والكوابيس لتصوير فظاعات الهولوكست . وباستثناء قلة من الروائيين اليهود الأمريكان أمثال إبشتين وإلمان اللذين تدور رواياتهما حول أحداث الهولوكست فى فترة وقوعه نجد أن السواد الأعظم منهم يعتمدون كما أسلفنا على الذكريات والكوابيس فى تصوير المهانة والألم الذى يقاسى منه الناجون من الهولوكست . أى أنهم يصورون التشوهات النفسية والبدنية التى لحقت بهم بسبب الهولوكست بعد انتهاء الحرب الثانية مثلما نجد فى رواية بيلو «كوكب المستر ساملر» ورواية «صاحب محل الرهونات» لوالانت ورواية سنجر «الأعداء» ورواية أوزيك «المجرة آكلة لحوم البشر» ورواية إلمان «من أيام سيمون شتيرن» ورواية شتاينر «باب كريستوبال»

ورواية بوتوك «فى البدء» إلى جانب تصوير الروائيين للمعاناة التى يعانى منها الناجون من الهولوكست وكذلك احساسهم بالذنب لأنهم عاشوا بعد موت أحبائهم وذويهم واصدقائهم .

وأيضاً يقول الباحثون إن جيل اليهود الذين هاجروا من أوربا إلى أمريكا بعد معاناة الهولوكست يختلف عن جيل المهاجرين اليهود السابق على الهولوكست ففى حين نرى الجيل الثانى يسعى إلى الاندماج مع المجتمع الأمريكى نرى الجيل الأول يسعى إلى الانعزال والحفاظ على تاريخه وتراثه والخصائص التى ينفرد بها .

ورغم التشوهات النفسية والبدنية التى يعانى منها الناجون من الهولوكست فإن البعض منهم ينخرطون فى عمليات تجدد النفس واحيائها مثل الاعلان عن ضخ دماء جديدة فى عروق الدين اليهودى والمجتمعات اليهودية فى كل من الولايات المتحدة واسرائيل . ويلاحظ القارىء لروايات كوهين وأوزيك وبوتوك رغبة هؤلاء المؤلفين فى الحفاظ على التراث اليهودى المقدس ونقله إلى الأجيال القادمة . والأدب اليهودى الأمريكى لا يربط بين الهولوكست النازى وانشاء دولة اسرائيل كما أنه لايرى أن الهولوكست هو الذى أفضى إلى انشاء هذه الدولة ولكنه يركز على استجلاء وجه الشبه بين الهولوكست النازى وبين التهديدات العربية بإفناء دولة اسرائيل ورميها فى البحر فضلا عن أن هجرة اليهود إلى فلسطين تمثل جانبا من كتابات هؤلاء المؤلفين . وهذا ما نجده فى عدد من روايات بيلو وسنجر وشتاينر وإلمان .

وتتضمن روايات اليهود الأمريكان احتجاجا على قسوة الله فى معاملة البشر . ويحدثنا خبير الهولوكست إيلى فيسيل عن محاكمة فى رواية «بوابات الغابة» تدور حول أربعة أحبار يجتمعون فى معسكر اعتقال نازى لعقد محاكمة لمواجهة الله بقسوته وذنوبه وآثامه . ويعلن الادعاء توجيه تهمة القتل إلى الله لأنه سمح بتدمير شعبه وتدمير الناموس الذى منحه لهذا الشعب من فوق جبل سيناء . وبالفعل يصدر القضاة أو الأحبار الأربعة حكما بأن الله مذنب فى التهم الموجهة إليه . ونحن نطالع مثل هذا الموقف فى أدب سنجر وبوتوك وشتاينر وإلمان .

ويعتبر روبنشتين واحدا من أبرز المحتجين على سلبية الرب فى مواجهة شرور العالم والهولوكست . ومن ثم فهو يرفض فكرة وجود الله فى هذا الكون العبثى والخالى من المعنى . ولكن إميل فاكنهايم يذهب إلى عكس ذلك تماما فهو يرى ضرورة التأكيد على وجود الله حتى لا يحقق هتلر بعد موته أى انتصار على اليهود .

ورغم أن إليازار بيركوفتش يرى أن الهولوكست ليس له مثيل فى التاريخ الانسانى فإنه يرفض أن يستتبع ذلك إنكار الله لأن اليهود اعتادوا عبر تاريخهم الطويل أن يتعرضوا للخسف والاضطهاد .

وكما أسلفنا ينكر روبنشتين فى كتابه «بعد معسكر اعتقال أوسشفتز اللاهوتى الراديكالى والمذهب اليهودى المعاصر» وجود أية إرادة إلهية فى هذا الكون فهو كون عبثى ليس له معنى أو غاية وأن الإنسان هو الذى يسعى من جانبه لإضفاء المعنى والغاية عليه . ولكن إميل فاكنهايم فى كتابه «وجود الله فى التاريخ» يخالف روبنشتين فى الرأى فهو يرى أن وجود اسرائيل يرتبط بوجود الله وأن ثمة ميثاق يعزز الأواصر بينهما يقول فاكنهايم : «يجب على اليهود أن يستمروا فى استشعار وجود الله فى التاريخ اليهودي» وهو ما يذهب إليه سنجر وبوتوك وكوهين فى أعمالهم الروائية . فاليهود لا ينبغى أن يسمحوا لليأس من الله أن يتطرق إلى قلوبهم لأن هذا اليأس يمثل انتصارا لهتلر وانتصارا للهولوكست عليهم : والرأى عندهم أن اسرائيل تجسد وجود الله فى التاريخ . وهو ما نجده بشكل أو بآخر فى آداب بيلو ومالامود وأوزيك وسنجر وكوهين .

ويذهب إليزار بركوفتز فى كتابه «الإيمان بعد الهولوكست» إلى أن الشر الذى ينطوى عليه الهولوكست «ظلم مطلق» ولكنه يفسر هذا الشر بطريقة تقليدية لا تتعارض مع الدين على الاطلاق . يقول بركوفتز إن الله يشيح بوجهه عن الإنسان أحيانا لسبب يخفى على البشر . وهو يرى أن إخفاء الله لوجهه عن البشر له حكمة فهو ضرورى كى يسهل على الإنسان مهمة ممارسة حرية الإرادة حيث أن تدخله فى حياة البشر معناه حرمانهم من التمتع بهذه الحرية . ولهذا فإن الله لسبب لا نعرفه يسمح

للأشرار بمزاولة الشر وللأخيار بالمعاناة من هذا الشر . وعلى الرغم من اعتراف بركوفتز بأن الهولوكست وما سبقه من اضطهاد لليهود يشككنا في وجود الله وفي حكمته وكماله الأخلاقي فإنه لا يرى في ذلك مبررا لاهتزاز عقيدة اليهود الدينية . وهو يعتقد أن استمرار اليهود في البقاء على قيد الحياة رغم كل ما تعرضوا له عبر تاريخهم الطويل من خسف واضطهاد أكبر دليل على وجود الله . ويشارك بركوفتز فاكنهايم الاعتقاد بأن انشاء دولة اسرائيل عبارة عن بسمة رضا ارتسمت على وجه الله . وقد عبر آي . ب سنجر في أدبه عن هذه الفكرة فنحن نجد أن شخصيته الروائية شابيرو توقفت عن ادانة الله الذي سمح بوقوع فظاعات الهولوكست كي يفرح بمحبة الله الذي جعل من الممكن عودة اليهود إلى أرض صهيون .

ويطرح إرفنج جرينبرج سؤالا مماثلا في مقاله : «سحابة من الدخان وعمود من نار : الدين اليهودي والمسيحية والحداثة بعد الهولوكست» . فهو يسأل أين كان الله ولماذا سكت وهو يشاهد بشاعات معسكر الاعتقال في أوسشفتز ؟ ولماذا أشاح بوجهه عن اليهود الذين يتلظون بالعذاب ؟ وهل هذا الإله جدير بالثقة .ولم يكن ارفنج جرينبدج الوحيد بين الكتاب اليهود الذي بدأ يفقد الثقة بالله فقد شاركه إيليا فيزل نفس الأفكار والمشاعر .

ونحن نشاهد التأرجح بين الشك واليقين في كثير من الأعمال الأدبية الأمريكية التي تتناول الهولوكست مثل روايات بيلو وأوزيك وسنجر ومالامود . ولكن الرواية اليهودية الأمريكية التي تعالج الهولوكست لا تخلو من سعي حثيث نحو استشراف وجه الله . فالطائفة اليهودية الصوفية المعروفة باسم الكاباليين ترى في ذكر الله والتفكير فيه والاخلاص له وسيلة للشفاء من جروح الهولوكست وما شابهه من عذاب . هذه الطائفة الكابالية ترى ضرورة مقابلة الشر بالخير لأن فعل الخير من شأنه أن يساعد الله على تحقيق غايته القدسية . وإذا كان الله قد سمح للشر أن يحدث فإن هذا لا يبرر بحال من الأحوال تخلي اليهودي عن واجباته الروحية ومسئولياته الأخلاقية . وبعد أن ألف الأديب اليهودي البارز إيليا فيزل ست روايات عن

الهولوكست وصل إلى رأى فى رواية «القسم» مفاده أن أفضل وسيلة لمواجهة الهولوكست ليس الكلام أو الكتابة عنه بل بالتزام الصمت إزاءه . «ويختلف أوزيك والمان وكوهين وبوتوك وسنجر وابشتين وبيلو وشتاينر ووالانت ومالامود عن فيزل فى أنهم اثروا التخلى عن الصمت وفضلوا عليه أن يدلى الناجون من الهولوكست بشهادتهم للتاريخ والأجيال القادمة . ولا غرو إذا جاءت هذه الشهادة على ألسنة شخصيات روائية تعمل بالكتابة أو الصحافة أو التدريس كما هو الحال مع أدب آرثر كوهين الذى يرسم صورة للهولوكست كحلقة من حلقات اضطهاد اليهود عبر التاريخ .

يقول الدارسون إن الأدب كما درجنا فى فهمه يعلى من شأن القيم الإنسانية ولهذا فإن تصوير الهولوكست يتناقض معه . واحدى المشكلات التى تواجه تناول الهولوكست فى الأدب تتمثل فى استحداث لغة مناسبة لمعالجة ما ينطوى عليه الهولوكست من فظائع .. لغة تختلف عن اللغة التقليدية القديمة التى استخدمها الآباء فى الماضى للتعبير عن عذاب اليهود . فكاتب الهولوكست لابد أن يجدد لأنه ليس لديه نموذج أو نمط سابق يسير على دربه . ويرى الدارسون أن انتهاج أديب الهولوكست للواقعية التسجيلية يعجز عن تصوير بشاعات الهولوكست لأن هذه الواقعية التسجيلية قمينة بتحويل العمل الأدبى إلى شيء شبيه بالتوثيق أو التأريخ أو محفوظات الأرشيفات . وللتغلب على مشكلة عدم وجود سوابق للهولوكست قام كتاب الهولوكست الأمريكان باعادة صياغة الأنماط الأدبية التقليدية ثم مزجها بالتوثيق التاريخى وتعلم كتاب الهولوكست الأمريكان من كتابات زملائهم فى أوربا واسرائيل ومما أوردوه فى يومياتهم وأرشيفاتهم كما تعلموا من كتابات المؤرخين وعلماء الاجتماع الأوربيين على وجه الخصوص .

وكما أسلفنا يختلف أدب الهولوكست الأمريكى عن نظيره الأوروبى والاسرائيلى فى أنه يتناول ضحايا الهولوكست بعد نجاتهم منه وصراعهم من أجل الحياة الأمر الذى اقتضى من كاتب الهولوكست الأمريكى الاطلاع على اليوميات والوثائق التى تم إماطة اللثام عنها بعد نهاية الحرب العالمية الثانية . وهكذا استعان

أدباء الهولوكست الأمريكان بتاريخ اضطهاد اليهود مثلما فعل سنجر وأوزيك وكوهين ويوتوك إلى جانب ابراز الهولوكست كتقلب الفاجعة مثلما نرى فى أدب مالامود ووالانت والمان وابشتين وشتاينر وبيلو . ولتوضيح هذا نقول إن سنجر كتب عن عذاب اليهود على يد فرعون مصر وكتب كوهين عن عذاب اليهود فى محاكم التفتيش الأسبانية . كما أن أوزيك كتبت عن اليهود الذين اضطرهم الاضطهاد إلى اعتناق الديانة المسيحية . وكذلك يتسم أدب آرثركوهين بالاستفاضة فى الرجوع إلى التاريخ . فلا غرو إذا رأينا المقالات التاريخية والاستطرادات الفلسفية تتخلل رواياته حتى نرى عذاب اليهود فى إطار تاريخى وكجزء فى سياق أوربى عام قائم على اضطهاد أوربا لليهود ويعتبر أندريه شوارتز بارت واحدا من الأدباء الأمريكان الذين استخدموا التاريخ اليهودى واضطهاد اليهود فى القرن العاشر فى روايته «آخر العادلين» . وكذلك فعلت أوزيك نفس الشيء فى روايتها «المجرة أكلة لحوم البشر» . وعلى العكس من ذلك نجد أن الروائى اليهودى ليسلى ابشتين لا يبدى أى اهتمام بالتاريخ اليهودى أو بالديانة اليهودية فقد انصب اهتمامه على احداث الهولوكست وعلى حياة اليهود فى الجيتو . وحتى يرسم صورة للشر نراه يلجأ إلى استخدام عدد من النماذج الأدبية مثل مسرحيات الأغريق عن آلهة الساتير وهى آلهة نصفها الأعلى كالإنسان وله أذنان وقرنان ورجلان كالماعز ومسرحيات الأخلاق التى ظهرت فى أوربا فى القرون الوسطى ودراما عصر النهضة ثم يمزجها بحياة الجيتو اليهودى .

ويلاحظ أن الأدب الروائى الأمريكى الذى يصور الهولوكست يحرص فى نسيجه على رسم صورة لشخصيات تاريخية حقيقية مثلما يفعل كل من شاؤول بيلو وليسلى ابشتين الذى يمزج أحداث رواياته الخيالية بأحداث مستمدة من جيتو اليهود فى وارسو وغيرها من البلدان التى أعطى ليونارد توشنت صورة لها فى كتابه «افريز الجحيم» . ويرسم ابشتين صورة درامية لما يتعرض له يهود الجيتو من الهلاك جوعا ومعسكرات العمل الاستعبادية وضرب اليهود أمام الملأ وتعذيبهم كى يصبحوا عبرة لمن يعتبر وتنفيذ الإعدام العلنى فيهم . والجدير بالذكر أن الروائية سنثيا أوزيك استمدت صورة حصار اليهود فى باريس من كتاب «حكومة فيشى فى فرنسا

واليهود » وأيضا استمد ريتشارد إلمان جانبا من مادته الروائية التى تعالج وضع اليهود في المجر عام ١٩٤٤ من كتاب راؤول هيلبرج «تدمير اليهود فى أوربا » . ويركز إلمان فى صورته على اتباع سياسة منظمة تهدف إلى عزل يهود المجر عن طريق استنان قوانين مكبلة والقيام بطردهم وترحيلهم . فضلا عن اغتصاب نسائهم ومصادرة حقوقهم المدنية .

ونظرا لأن أحداث الهولوكست التى يصورها كل من ابشتين وإلمان وقعت أثناء الهولوكست فى أوربا فإن أحداثهما الروائية تقع على خلفية أوربية أما روايات الهولوكست الأمريكية التى تقع أحداثها فى أمريكا فتستخدم كما أسلفنا الرموز والذكريات والكوابيس مما يساعد المؤلف على استحضار صورة الهولوكست . وقد نجح الروائى اليهودى الأمريكى بيلو فى روايته «الضحية» فى استحضار صورة الهولوكست عن طريق الاستخدام الناجح للكوابيس والأحلام المزعجة إلى درجة كبيرة جدا فى الواقع . وكذلك يستخدم والانت الأحلام المزعجة لنفس الغرض فى روايته «صاحب محل الرهونات» . ومن بين هذه الأحلام المزعجة التى يرسمها والانت صورة أبوين يهوديين يشاهدان ابنهما وهو يغرق فى بحر من البراز بينما هما عاجزان تماما عن انتشاله أو صورة بطل الرواية الذى تجرى له عملية جراحية دون تخديره أو صورة رجل يهودي يرى أمام عينيه زوجته وهى تغتصب . وأيضا يستخدم الروائى اليهودى بوتوك الأحلام إلى جانب تكنيك تيار الوعى لتصوير رد فعل امريكى لما أوردته الصحف الأمريكية من احداث الابادة فى معسكر اعتقال بوشنوالد . وغالبا ما يلجأ أدباء الهولوكست الأمريكان إلى استخدام الأحلام المزعجة لتصوير ما يتعرض له اليهود فى عمليات إزاحة وترحيل ومن اضطراب نفسى أثناء الحكم النازى .

وبالإضافة إلى ذلك يلجأ بعض مؤلفى روايات الهولوكست الأمريكان إلى ادخال الخطب المباشرة عن الجرائم النازية فى أعمالهم الأدبية مثلما يفعل الروائى اليهودى كوهين عن طريق راوى القصة الذى كتبت له النجاة من الهلاك النازى فهو يسجل تاريخ موت ضحايا الهولوكست من الجوع والمرض فى معسكر الاعتقال فى

أوسشفتز . وأيضاً تقوم الروائية أوزيك عن طريق شخصيتها الروائية فاند بتوثيق مختلف الوفيات التي تحدث في المعسكر لتبليغ المخابرات الأمريكية بها . فضلا عن أن شتاينر يضمن بعض رواياته قائمة طويلة بالأعمال الوحشية التي يرتكبها النازيون.

ويلعب الخيال دورا بارزا في رواية الهولوكست الأمريكية مثلما نجد في قصة «الكافتيريا» التي ألفها آي . ب . سنجر والتي يستحضر فيها أرواح زبانية هتلر وفي قصة «عرس في براونزفيل» حيث تعود الحياة إلى اليهود الذين ماتوا في قرية من قرى شرق أوربا .

لقد رأى بعض الأدباء الأوربيين أن كتابتهم لأدب الهولوكست تقتضى منهم الابتعاد عن الأشكال الأدبية التقليدية . ولكن الأدباء الأمريكان احتفظوا في أغلب الأحيان بالأشكال الأدبية الغربية واليهودية وتمكنوا عن طريق استخدام هذه الأشكال الغربية من ابراز العلاقة بين وحشية الهولوكست والحضارة الأوربية التي سمحت لمثل هذه الوحشية بالازدهار . وهذا ما نجده في أدب ابشتين . وفي أدبهما عالج أوزيك وكوهين بعض الأساطير العبرية كما استخدم سنجر وبوتوك الطقوس اليهودية المنتحبة واشارات إلى الكتاب المقدس بهدف وضع الهولوكست في اطار الاضطهاد التاريخي لليهود وكذلك يستخدم أدباء الهولوكست الأمريكان نفس النغمة الباكية والمنتحبة التي نجدها عادة في كتابات الأدباء اليهود في أوربا واسرائيل . فكوهين وأوزيك وسنجر وبوتوك يستلهمون أدبهم من استجابة اليهود التقليدية إزاء الكوارث والنازلات القومية . فلا غرو إذا رأينا اللاهوت والتاريخ اليهوديين يلعبان دورا بارزا في صناعة هذا الأدب والشخصيات الروائية التي يخلقها هؤلاء الأدباء تتحرك عادة في مجتمعات تحتفظ بالقيم اليهودية وليس بالقيم العلمانية . ولا غرو أيضا إذا رأينا هؤلاء الأدباء يتناولون الهولوكست بطريقة دينية وتصوفية فهم يتمسكون بالتاريخ الجماعي لشعب اسرائيل . وهذا ما يميز شخصياتهم الروائية عن الشخصيات الروائية في أدب كل من إلمان ووالانت الذي يتسم بالعلمانية . وفي رواية الهولوكست كما يكتبها هذان الأخيران نرى اهتمامها ينصب على عذاب الأفراد في حين نجد في

روايات آرثر كوهين وسنثيا أوزيك وآي ب . سنجر وتشايم بوتوك ان عذاب الأفراد يترجم إلى محنة جماعية تربطها بتاريخ اليهود أوثق الروابط . إن رواية كوهين «في أيام سيمون شتيرن» ورواية أوزيك» «المجرة الآكلة للحوم البشر» ورواية أندريه شوارتز بارت «آخر العادلين» قمينة بأن تلقى الضوء على تاريخ اضطهاد شعب بني اسرائيل حيث أن مصير أبطال هذه الروايات جزء لا يتجزأ من تاريخ اليهود والحضارة اليهودية حتى ولو كانوا يعيشون في الشتات في حين نرى أن الشخصية اليهودية في رواية بيلو تمثل اليهودى المندمج فى الحضارة الأوربية والذى تصيبه الكوارث نتيجة المصادفة التي جعلته يولد من أبوين يهوديين . والجدير بالذكر في هذا الصدد ان شخصيات إلمان اليهودية في ثلاثيته تفتقر إلى التربية والتعليم اليهودى فضلا عن أن إلمان يفرض الإشارات الدينية عنوة واقتداراً على أدبه الروائي فهى لا تكون سدتها ولحمتها كما هو الحال في روايات سنجر وكوهين وأوزيك الذين يؤكدون البعد التاريخى للهولوكست ويركزون على تشعيباته من النواحي السياسية والاجتماعية والنفسية .

ومن أكثر التكنيكات الروائية شيوعا بين كتاب الهولوكست الأمريكان استخدام ما يمكن تسميته بالتعليقات المضادة وهي تكنيكات مستمدة من أدب الهولوكست المكتوب بلغة اليديش واللغة العبرية . فرواية «ضد رؤيا الخراب» لدافيد سكايز تدل على انتهاج مؤلف الهولوكست الأمريكي أسلوب محاكاة النصوص الدينية المقدسة وقلبها رأسا على عقب بهدف السخرية منها والتعريض بها ؛ ونسف المبادىء الالهية كما وردت في سياقها التاريخي . ونحن نطالع في روايات كل من سنجر وإلمان محاكاة ساخرة للصلوات . هذا الاستخدام المقلوب للصلوات لتدنيس ما هو مقدس ينطوى كما يقول سكايز على قدر هائل من الغضب والسخط على ما في العالم من كوارث وفواجع . ومن الأمثلة الدالة على التعبير عن الغضب من الله لسكوته على ما يجرى أمام عينيه من مظالم تحويل الآية رقم ١١ من الاصحاح ١٥ في سفر الخروج والتى تقول : «من مثلك أيها الرب القادر على كل شيء» إلى «من مثلك أيها الرب الساكت على كل شيء» .

وينبهنا الأديبان لورانس لانجر وألفين روزنفيلد إلى رفض كتاب الهولوكست في أوربا للقوالب الأدبية السابقة وزوايتهم بها عند استخدامهم لها . وهذا ما لا نجده في أدب الهولوكست الأمريكي الذي يولي هذه القوالب الأدبية السابقة اهتمامه . بالعكس نرى كاتب الهولوكست الأمريكي غالبا ما يلجأ إلى الأشكال الأدبية التقليدية ويضيف إليها تدمير المقدسات ومحاكاتها بهدف السخرية منها وابراز العلاقة التي تربط بين ظهور الهولوكست والأعمال الأدبية الراسخة في تربة الثقافة الأوربية فعلى سبيل المثال يستخدم الروائي الأمريكي ليسلي ابشتين مسرحية معاصرة على غرار مسرحية الأخلاق الشائعة في القرون الوسطى لتوضيح الصلة بين التراث المسيحي وعداوة النازية ضد السامية ثم يضيف مسرحية اغريقية عن آلهة الساتير التي سبق ذكرها ليفضح الفساد النازي . وكما أسلفنا نرى أدب الهولوكست في أوربا قد انصرف إلى تصوير معاناة ضحايا النازية وهم يكوون بنارها وتصوير جراحهم أثناء نزفها في حين أن أدب الهولوكست في أمريكا يصور هؤلاء الضحايا بعد نجاتهم من الموت وبعد أن توقفت جراحهم عن النزيف لتترك لهم مرارة الذكرى وندوبها .

رواية المهاجر اليهودي الجديد بعد الهولوكست إلى الولايات المتحدة :

سبق أن أوضحت في موقع آخر أن هجرة اليهود الأولى بأعداد هائلة من شرق أوربا إلى الولايات المتحدة جاءت في أعقاب ما تعرض له يهود هذه المنطقة من مجازر واعتداءات دموية في بولندا وروسيا . ويمكن القول إن الرواية اليهودية الأمريكية ظلت حتى عقد الخمسينات تهتم بتصوير سعي اليهود إلى الانصهار في بوتقة المجتمع الأمريكي . ولكن هذه الرواية ما لبثت منذ عام ١٩٥٧ أن انصرفت إلى تصوير اليهودي الذي هاجر من أوربا إلى أمريكا بعد أن اكتوى بنار الهولوكست . ومعنى ذلك أن اهتمام الأدب اليهودي الأمريكي بظاهرة الهولوكست جاء متأخرا بعض الشيء لأن أحداث الهولوكست النازي بلغت ذروتها في الفترة من ١٩٤١ حتى ١٩٤٣ . وبدأ الأدباء اليهود الأمريكان منذ عقدي الستينات والسبعينات يهتمون بالمهاجرين الجدد الناجين من أهوال الهولوكست بعد أن كان اهتمامهم مقصوراً على مسألة الانصهار أو

الاندماج فى المجتمع الأمريكي وهكذا أصبح المهاجر اليهودى الذى نجا من الهولوكست ورحل من أوربا إلى أمريكا فى نظرهم حاملا للواء التراث اليهودى والتقاليد والأعراف اليهودية التى لحق بها الدمار فى أوربا إلى أرض الولايات المتحدة . ورغم أننا نلاحظ أن هؤلاء المهاجرين الجدد يتسمون بالحداثة ويتصفون بالعلمانية (على عكس المهاجرين القدامى الذين يتميزون بالتقوى والورع والاستمساك بالعقيدة الدينية) فإن كتاب الهولوكست الأمريكان غالبا ما رأوا فيهم استمرارا للماضى وحلقة تربط حاضرهم به ويذهب بعض النقاد إلى أن عددا من أبطال روايات الهولوكست الأمريكية يتميز بالتفكير الفلسفى كما أن كثيرا من القصص التى تدور حول المهاجرين اليهود الناجين من الهولوكست تهتم بمعالجة القضايا الميتافيزيقية والأخلاقية واللاهوتية فهى روايات تشريحية على حد تعبير الناقد نورثروب فراى بمعنى أنها تسمح بالاستطراد الميتافيزيقى والاشارات التاريخية والتعليقات الأخلاقية . ويعتقد هؤلاء النقاد ان أفضل الروايات الأمريكية التى تعالج أمور المهاجرين اليهود إلى أمريكا تلك التى تميل إلى المضامين الفلسفية واللاهوتية أكثر من ميلها إلى استقصاء الجوانب الاجتماعية والنفسية . والرأى عندهم أن رواية المهاجر اليهودى الأمريكية الجديدة تختلف عن مثيلاتها فى الماضى فى أنها تتركز على الاحتفاظ بالهوية اليهودية الثقافية التى تتخذ شكل احتواء الرواية على شذرات من لغة البيديش واللغة العبرية.

خلفية تاريخية :

أظهر فيليب روث مؤخرا فى بعض أعماله الروائية اهتماما متزايدا بماضى اليهود الأوربيين الذين أكتووا بلظى الهولوكست النازى . غير أنه ظل لا يبالى بهذا الماضى حتى عام ١٩٦١ حتى اكتشف بعد مرور خمسة وعشرين عاما أثناء زيارته لبراغ أن ثمة صلة تربطه ببنى جلدته والأهوال التى عانوا منها أثناء الهولوكست . وتوضح الرواية التى ألفها فيليب روث عام ١٩٧٩ بعنوان «الكاتب الشبح» مدى التطابق والتماثل الذى اكتشف هذا المؤلف وجودهما بينه وبين بنى جلدته . وتحدثنا الرواية عن كاتب يروى قصة فتاة جذابة اسمها آن فرانك قدر لها أن تنجو من غرف

الغاز النازية بمعجزة . والجدير بالذكر أن فيليب روث من خلال دار بنجوين للنشر استطاع أن يقدم أدب الهولوكست فى أوربا إلى عدد كبير من الناس . فقد قام من خلال هذه الدار بنشر مجموعة قصص بارزة بعنوان «سيداتى سادتى هذا هو الطريق إلى غرف الغاز». (١٩٧٦) من تأليف تادوز بروويسكى وأعمال الكاتب برونو شولز الذى مات ضحية الهولوكست . ويمثل فيليب روث نموذجا للأديب الأمريكى الذى تمثل أحداث الهولوكست واستوعبها بعد انقضائها .

تقول الكاتبة دوروثى رابينوفتز فى الدراسة التى أجرتها عن الناجين بالفعل من الهولوكست أن موضوع الهولوكست لم يكن فى عام ١٩٦١ يشد انتباه الكثيرين إليه ولكنه ما لبث أن جذب انتباه الناس فى نهاية عقد الستينات بعد نشر الكثير من الكتب والأبحاث والمؤلفات عنه . وتذكر رابينوفتز أن محاكمة ايخمان فى اسرائيل كانت عاملا مهما فى اثارة اهتمام الجمهور الأمريكى بأحداث الهولوكست . ومن المؤسف أن تهديد العرب بالقاء اسرائيل فى البحر ساعد الجمهور الأمريكى على تذكر الهولوكست النازى . وأيضاً ساعد الأمريكان على تذكره أنهم فى أواخر الستينات وعقد السبعينات من القرن العشرين بدأوا يولون هجرة اليهود إلى الولايات المتحدة بالغ الاهتمام . والجدير بالذكر أن عدد اليهود الذين هاجروا من شرق أوربا إلى أمريكا فى الفترة من ١٩٠٠ حتى ١٩١٤ بلغ نحو مليون ونصف مليون يهودى فى حين أن عددا أقل يبلغ نحو مائة واثنين وتسعين ألف يهودى هاجر فى نهاية الحرب العالمية الثانية إلى أمريكا فى الفترة من ١٩٤٤ حتى ١٩٥٩ .

ويجدر بالذكر أيضا أن انخفاض عدد اليهود المهاجرين من شرق أوربا وجنوبها يرجع إلى القيود التى فرضها على الهجرة القانون الأمريكى المعروف باسم قانون جونسون . ولهذا السبب نجد أنه فى الفترة بين ١٩٣٣ و١٩٣٧ لم يهاجر إلى الولايات المتحدة أكثر من ثلاثة وثلاثين ألف يهودى . ولكن اجتياح هتلر والقوات النازية لكثير من البلاد الأوربية أدى فى فترة أربعة أعوام (١٩٣٨ - ١٩٤١) إلى هجرة مائة

وأربعة وعشرين ألف يهودى من أوربا إلى أمريكا . ولكن هجرة اليهود توقفت تقريباً فى عام ١٩٤١ عندما دخلت الولايات المتحدة الحرب إلى جانب الحلفاء ضد المحور . ورغم الظروف الصعبة التى كان يهود أوربا يمرون بها فقد ظلت القيود مفروضة على الهجرة إلى أمريكا ومع ذلك فقد تمكن اليهود من دخول الأراضى الأمريكية بناء على قانون الأشخاص المزاحين (أى المطرودين) من ديارهم الصادر عام ١٩٤٩ . فقد استفاد ٧٣ ألف يهودى من الناجين من الهولوكست من هذا القانون الذى سمح لهم بدخول أمريكا. وفى عام ١٩٥٢ صدر قانون أمريكى يقيد الهجرة يعرف بقانون ماكران والتر الذى توقف العمل به فى عام ١٩٦٥ ، الأمر الذى رفع عدد المهاجرين إلى الولايات المتحدة.

ويرى الباحثون أن اليهود الذين هاجروا من أوربا الشرقية إلى أمريكا فى الفترة من ١٨٨٠ حتى ١٩١٤ يختلفون اختلافا نوعيا عن اليهود الذين هاجروا من أوربا المحتلة إلى أمريكا إبان فترة الطغيان النازى . فالسواد الأعظم من المهاجرين الأوائل كانوا ينتمون إلى الطبقات الكادحة ويتحدثون بلغة اليديش ولهم إلمام قليل باللغة العبرية فى حين أن المهاجرين من أوربا إلى أمريكا فى منتصف عقد الثلاثينات وإبان الحرب العالمية الثانية ينتمون إلى الطبقة الوسطى المتعلمة . وأيضا يختلف المهاجرون الأوائل فى أن هجرة عدد كبير منهم كانت اختيارية وبمحض إرادتهم فى حين أن التعسف والضغط النازى هو الذى أجبر يهود الأربعينات فى أوربا على الهجرة . وتحسر اليهود المهاجرون من أوربا إلى أمريكا فى الفترة السابقة على الهولوكست النازى على أصالة وعراقة الحضارة الأوروبية التى تركوها وراءهم . ولكن عقدى الستينات والسبعينات شاهدا تغيرا فى موقف المهاجرين اليهود لأن أوربا بعد الهولوكست لم تعد ذلك المكان الباهر بعراقته وحضارته . ومعنى ذلك أن اليهودى الذى هاجر من أوربا إلى أمريكا بعد الهولوكست يختلف فى نظرته إلى أوربا عن نظيره الذى هاجر إليها فى فترة ما قبل الهولوكست . ولكن أدب اليديش كان الأسرع فى التعبير عن فظائع الهولوكست . فقد تناول أدب اليديش بشاعاته فى

وقت باكر يعود إلى فترة الأربعينات . وقبل أن تدخل أمريكا الحرب ضد المحور عام ١٩٤١ هاجر الشاعر البريطاني اتيش . دابليو . أودن إلى أمريكا حيث أعلن أن اليهود قد أصبحوا رمزا للاغتراب والتشريد والاقتلاع من الجذور وأنهم صاروا غرباء هذا الزمان بالمفهومين الانطولوجي (الوجودي) والنفسي . وهو نفس ما ذهب إليه دانييل بيل الذى رأى فى اليهود رمزا لغربة الرجل الحديث . ولكن كثيراً من اليهود آمنوا بأن الشتات لابد وأن ينتهي بهم إلى أرض الميعاد فى أورشليم . وإذا كان جانب من اليهود عزوا شتاتهم واضطهادهم إلى غضب الله منهم فإن البعض الآخر بمضى الوقت أخذ يعزوهما إلى فساد الأمم أى فساد غير اليهود . وطرأ أيضا تغير فى نظرة اليهود المحدثين فبعد أن استقروا فى المجتمعات الغربية ونالوا قسطا من رفاهيتها نبذ اليهود فكرة الشتات كعقاب لهم على أوزارهم وأصبحوا يعتبرونه دليلا على اصطفاء الله لهم وعلى أنهم شعب الله المختار . فالله قد سمح بتشتيتهم فى ربوع العالم حتى يبشروا بكلمته وناموسه الذى أعطاه خصيصا لبنى اسرائيل وانبيائهم العظام دون سواهم من البشر . ورغم أن بعض اليهود فى العصر الحديث يرتاحون إلى هذا التفسير العصري للشتات فإن المتدينين والتقليديين منهم لا يزالون يحتفظون بالفكرة القائلة بأن الشتات دليل على غضب الله من شعب اسرائيل الذى زاغ وفسد .

وتنعكس المفاهيم الاحيائية المتطلعة إلى الخلاص فى أدب الهولوكست الذى يعالج المهاجر الناجى من جحيم الهولوكست والذى يتشوف إلى التجدد والاحياء الروحى والاخلاقى رغم ما يشعر به من مذلة ومسكنة وانكسار . هذا الأمل اليهودى فى التجدد الروحى والأخلاقى يذكرنا بقصة سيدنا يوسف فى العهد القديم الذى استطاع بمواهبه الفذة ونشاطه المذهل أن يتغلب على غربته ويندمج فى مجتمع فرعون . ولكن هذا الاندماج لم ينسه قط واجبه نحو تخليص بني جلدته من ذلهم ومهانتهم . والجدير بالذكر أن هذا الناجى من الهولوكست يلعب فى أحيان كثيرة نفس الدور الذى لعبه سيدنا يوسف مع أهله وذويه . فضلا عن أن اليهودى المهاجر من الهولوكست يذكرنا بقصة أيوب الشهيرة الصابر على المحن والمكاره .

وفى بعض الأحيان يلجأ مؤلف أدب الهولوكست إلى تصوير الشتات وعدم قدرة اليهود على الاندماج فى مجتمعهم الأمريكى الجديد عن طريق وضعه فى متن الرواية أجزاء متناثرة من لغة البيديش للدلالة على فقدان يهود المهجر اللغة العبرية التى كانت فى يوم من الأيام توحد بينهم . كما أن بعض المؤلفين يستخدمون برج بابل الوارد ذكره فى العهد القديم للتعبير عن الشتات فهذا البرج يمثل الرطانة بلغات وألسنة مختلفة حلت محل اللغة العبرية الموحدة لصفوتهم . ولا يخلو الأدب اليهودى الأمريكى سواء جاء تأليفه فى وقت باكر أو وقت لاحق من الاشارة إلى التشرذم اللغوى الذى أصاب شعب اسرائيل فى شتاتهم .

وكما أسلفنا لا يغفل أدب الهولوكست الاشارة إلى قصة أيوب الذى ابتلاه الله بأقصى المحن حتى يختبر قوة إيمانه . غير أن هذه القصة توحى إلى بعض الروائيين اليهود بأفكار عبثية فهى تبين أننا نعيش فى كون ظالم يصبح فيه عذاب اليهود فى الهولوكست شبيها بعذاب أيوب الذى ليس له أى مبرر أو داع .

ومن الواضح أن الأدباء اليهود الذين كتبوا فى عقد الأربعينات وأوائل الخمسينيات تجنبوا أن يعبروا أى اهتمام للمحنة التى تعرض لها يهود أوربا على يد ألمانيا النازية خشية أن يؤدى الاهتمام بها إلى تصاعد المشاعر المعادية للسامية فى أمريكا . وفى عام ١٩٤٧ كان آرثر ميلر صريحا فى شرح أسباب تجنبه للخوض فى موضوع معاناة اليهود فقد ذكر أنه خشى أن يتطرق إلى المظالم التى يتعرض لها اليهود فيزيد ذلك من كراهية الأمريكان واضطهادهم لهم . وفى حين نرى أن أدب المهاجرين اليهود الأوائل فى الأربعينات والخمسينات اهتم اهتماما عظيما بانصهارهم فى بوتقة الحياة الأمريكية وما تضمنه من قيم النجاح المادى نرى أن أدب الهولوكست اليهودى الأمريكى انصرف تماما عن معالجة مثل هذا الموضوع . فبعد أن نجح اليهود فى الاندماج الكامل فى المجتمع الأمريكى فى عقد الخمسينات انصرفوا إلى معالجة آثار الهولوكست المروعة فى أواخر الستينيات وعقد السبعينات . ورغم ذلك يمكن القول إن الأدب اليهودى الأمريكى حتى فى فترة انشغاله بمشكلات الاندماج

والانصهار فى الحياة الأمريكية لا يخلو من تأليف بعض الروايات التى تدور حول ماضى المهاجرين اليهود ومن ثم يمكن اعتبارها بشكل أو بآخر تمهيدا لظهور رواية الهولوكست فى أمريكا . ولعل أبرز هذه الروايات التى ساعدت على زيادة الوعى بالهولوكست رواية «صعود دافيد ليفنسكي» التى ألفها أبراهام كاهان عام ١٩١٧ أى قبل الهلوكست النازى بما يقرب من ثلاثة عقود ورواية «لنطلق عليها اسم النوم» التى ألفها هنرى روث عام ١٩٣٤ (أى قبيل حدوث الهولوكست ببضعة أعوام) .

إبراهام كاهان (١٨٦٠ - ١٩٥١) Abraham Cahan

ولد الروائى اليهودى الأمريكى ابراهام كاهان فى روسيا عام ١٨٦٠ وهاجر إلى الولايات المتحدة عام ١٨٨٢ حيث اشتغل بالصحافة وأصبح محررا فى صحيفة اشتراكية انشأها بعنوان «الصحيفة اليهودية إلى الأمام» عام ١٩٠٣ وظل يحررها حتى وفاته عام ١٩٥١ وابراهام من مواليد فيلنا فى ليتوانيا وكان والده مدرسا وجده حبرا. وقد تلقى مؤلفنا تعليمه فى معهد المعلمين فى فيلنا وتخرج منه عام ١٨٨٣ وانخرط فى صفوف الثوريين والماركسيين . وبعد هجرته إلى أمريكا أعطى العمال الأمريكان سلسلة من المحاضرات عن الفلسفة الماركسية وبعد اشتغاله بالصحافة نذر قلمه للكتابة عن موضوعه الأثير إلى قلبه هو حياة اليهودى المهاجر إلى أمريكا .

ألف كاهان عددا من الأعمال الروائية والأدبية بلغة اليديش ولكن أفضل رواياته على الاطلاق هى المكتوبة باللغة الانجليزية وتدور حول أحوال المهاجرين اليهود إلى الولايات المتحدة . وأولى رواياته الانجليزية نشرت عام ١٨٩٦ وهى بعنوان «حكاية جيتو نيويورك» ولكن أهم رواياته على الاطلاق هى صعود دافيد لفنيسكى (١٩١٧) التى تصف الثمن النفسى والانسانى الباهظ الذى تكبده المهاجر اليهودى فى سعيه إلى الاندماج فى المجتمع الأمريكى . وإلى جانب ذلك ألف كاهان «العريس المستورد وقصص أخرى» (١٨٩٨) وسيرة حياة ذاتية فى خمسة أجزاء نشرت فى الفترة من ١٩١٦ إلى ١٩٣٦ .

وقد ترك ابراهام كاهان أثره الواضح فى كوكبة من الأدباء والروائيين الأمريكيين وعلى رأسهم شاؤول بيلو وألفريد كازين ومالامود وفيليب روث وآى . ب. سنجر وموردخاى رتشلو . وتعتبر رواية «صعود دافيد لفنسكى» رائعة كاهان الروائية. وتدور هذه الرواية حول الصعوبات التى تجابه المهاجر اليهودى الذى يسعى إلى الاندماج فى الحياة الأمريكية وفقدانه لأهم عناصر هويته اليهودية المتمثل فى استخدام لغة اليهود القومية . فضلا عن استبشاع هذا المهاجر لحضارة أمريكا المادية بالمقارنة بسمو الحضارة الأوربية ولفنسكى الذى هاجر من روسيا وهو فى الثانية والعشرين من عمره لا يتحدث اللغة الأمريكية كما يتحدث بها الأمريكان . وفى سعيه إلى التأقلم مع المجتمع الأمريكى نراه يحلق لحيته ويغير ملابسه . ورغم أنه يصيب قدرا ملحوظاً من الثراء ويجتذب إليه عددا من النساء فإنه يحس بالفشل فى تحقيق ذاته فالنجاح المادى الذى حصل عليه يعجز عن تعويضه عن عراقة ماضيه اليهودى وما ينطوى عليه من ثراء روحى عريض يقول كاهان على لسان لفنسكى فى هذا الصدد :

«عندما أفكر أحيانا فى ماضيَّ بطريقة عارضة وسطحية فإن التحول الذى اعترانى يصدمنى وكأنه معجزة . لقد ولدت ونشأت فى فقر مدقع . وحين وصلت إلى أمريكا فى عام ١٨٨٥ لم يكن فى جيبى غير أربعة بنسات .

وأنا الآن أمتلك أكثر من مليونى دولار وأصبحت باعتراف الجميع واحداً من أهم رجلين أو ثلاثة رجال بارزين فى تجارة الملابس والعباءات فى امريكا ورغم ذلك فإننى حين أنظر إلى هويتى من الداخل يبدو لى أنها نفس هويتى منذ ثلاثين أو أربعين عاما خلت . فمكانتى الراهنة وقوتى وقدر الهناء الذى توفر لى الخ . . تبدو كلها أشياء تخلو من المعني» . فلا شيء يعوض لفنسكى عن ظمئه إلى المعرفة وعبادة الله.

ويذهب بعض النقاد إلى أن رواية «صعود دافيد لفنسكى» تعالج فيما تعالج النشوة الغامرة التى يشعر بها اليهودى من جراء توبته ومدى استعذابه به للألم والوجيعة . والجدير بالذكر أن والدة لفنسكى أوسعها غير اليهود ضربا حتى فاضت

روحها . ولعل وجه الشبه بين رواية ابراهام كاهان «صعود دافيد لفنسكى» وروايات المهاجرين اليهود الناجين من الهولوكست هو أن الشخصيات اليهودية المحورية فيها يؤلمها أن ترى نفسها فى بلاد المهجر وقد تقطعت الوشائج التى تربطها بماضيها .

هنرى روث Henry Roth :

ولد هنرى روث فى الامبراطورية النمساوية المجرية عام ١٩٠٦ . وكان طفلا فى عامه الأول عندما هاجر والداه إلى أمريكا . وكتب هذا الكاتب سيرة حياته فى قالب روائى فى تحفته الروائية «لنطلق عليه اسم النوم» التى ألفها عام ١٩٣٤ . وتصور الرواية سعى المهاجر اليهودى من الجيل الثانى إلى الاندماج فى المجتمع الأمريكى فضلا عن أنها تعكس المشاعر المعادية للسامية التى بدأت تظهر فى الأفق وإحساس اليهودى بأنه مخلوق يختلف عن البشر المحيطين به . وتعنى الرواية عناية كبيرة باستخدام المهاجر اليهودى للغة الأمريكية العامية إلى جانب لغتى البيديش والعبرية . وتدور الرواية حول شخصية طفل يهودى يدعى دافيد شيرل يبذل جهدا فى تعلم اللغة الأمريكية وفى نهاية الأمر يتمكن الصبى من أن يتحدث نفس اللغة التى يستخدمها أقرانه أى أنه يتمكن بعد جهد جهيد للاندماج فى مجتمعه الجديد من اكتساب الوعى فى مدينة نيويورك . ورغم التصاق أحداث هذه الرواية بالواقع فإنها ليست وثيقة اجتماعية . فالرواية يتخللها جو من الهلوسة الداخلية التى تكشف عن مدى تأثر هنرى روث بتكنيك تيار الشعور الذى استخدمه جيمس جويس . وفى فترة الكساد الذى ساد العالم الرأسمالى فى الثلاثينات شغل روث وظيفة إدارية ثم عمل بالتدريس ثم مساعدا فى مستشفى للأمراض العقلية ثم مزارعا يربى البقر .

تتناول رواية «لنطلق عليه اسم النوم» هجرة طفل يهودى إلى أمريكا حيث يعيش فى فقر مدقع . ويتميز هنرى روث كروائى بقدرته الفائقة على تصوير وعى الطفولة وذكرياتها . وتحكى لنا الرواية قصة حنو الأم على طفلها وحب هذا الطفل لأمه فى مواجهة زوج عصبى وقاس . ويقاسى الطفل من الوحدة ويعيش فى قلق وتوتر دائم . . . قلق اصابه حتى النخاع .

وعندما انتهى هنرى روث من كتابة رواية «لنطلق عليه اسم النوم» انحى عليه رفاقه فى الحزب الشيوعى بالملامة والتقريع وعابوا عليه اغراقه فى العاطفة الأمر الذى دفعه إلى نبذ الكتابة التى لم يستأنفها إلا بعد أن تقدم به العمر . وفى عام ١٩٨٧ أصدر كتابا بعنوان «المنظر الطبيعى المتغير» ثم نشر فى عام ١٩٩٤ أول مجلد فى عمله الروائى الثانى . والجدير بالذكر أن النقاد المحدثين بدأوا يولون كتاب هنرى روث اهتمامهم .

ويشير النقاد إلى وجود أوجه شبه بين رواية أبراهام كاهان «صعود دافيد لفنسكى» ورواية هنرى روث «لنطلق عليه اسم النوم» فكلتاهما يعنى بتصوير اندماج اليهودى فى المجتمع الأمريكى . والفرق بين كلا المؤلفين أن كاهان ينتقد الحياة الأمريكية فى حين أن هنرى روث يقبلها على علاتها .

إن هنرى روث يهتم باستجلاء صورة الطفل اليهودى المهاجر الذى يعانى من اضطهاد المجتمع المحيط به ولا شك أن هذا الاضطهاد هو الذى دفعه فيما بعد إلى استرجاع صورة الضحايا اليهود العزل وهم يساقون إلى الموت فى غرف الغاز . ويتطلع هذا المؤلف إلى الدين اليهودى ويحلم بتجدد الحياة فى هؤلاء الضحايا المستضعفين وفى بعثهم من جديد . يقول هنرى روث إنه أثناء زيارته لأشبيلية فى أسبانيا عام ١٩٦٥ (أى بعد مرور أكثر من عشرين عاما على الهولوكست النازى) شعر بهاتف قوى يحثه على كتابة شئ عن محاكم التفتيش التى تفننت فى تعذيب اليهود واضطهادهم . فألف قصة بعنوان «المساح» تعالج هذا الموضوع . هكذا يظهر هنرى روث اهتماما جليا باحياء التراث والماضى اليهوديين وتجديدهما . وبذلك يكون مؤلفنا من أوائل الكتاب اليهودى الذين مهدوا الطريق لظهور الرواية الأمريكية التى تعالج وعى المهاجر اليهود بفظائع الهولوكست .

رواية الهولوكست الأمريكية :

على الرغم من ازدهار الأدب اليهودى الأمريكى فى عقد الخمسينات فقد ظهر فى أمريكا آنذاك عدد ضئيل للغاية من الروايات التى تعالج الهولوكست الأمر الذى حدا بالكثيرين إلى الكلام عن الشح فى انتاج رواية الهولوكست الأمريكى . يقول الأديب اليهودى ألفريد كازين فى تفسير هذه الظاهرة : «لا يستطيع أى إنسان فى الحقيقة أن يكتب عملا أدبيا من نسج الخيال عن الفظائع النازية لأن العمل الفنى يتضمن المعنى فى حين أن نظام هتلر بأكمله يمثل القضاء المبرم والمنظم على أى معني». ويناقش كثير من الأدباء الأوربيين مثل أ.ألفاريز وت. دابليو. أدورنو وجورج شتاينر صعوبة التعبير عن هذه الظلمة المتمثلة فى الهولوكست فى قوالب فنية . ورغم ذلك فإن هؤلاء النقاد يعترفون بأن عددا من اليهود الأوربيين الناجين من الهولوكست أمثال إيليا ويزل وتادوز بروسكى وبروعوليفى تمكنوا بجهد جهيد أن يحولوا تجربهم المرعبة فى الهولوكست إلى فن . ومن نافلة القول أن نؤكد أن أدب الهولوكست النازى ظهر فى أوربا فى بواكير الأربعينات قبل أن يظهر فى أمريكا فى أواخر الستينات وفى عقد السبعينات . ويشمل أدب الهولوكست الأوربى القصص التى رواها اليهود الناجون من محنتهم فى الجيتو ومعسكرات الاعتقال النازية . ولكن الوضع يختلف بالنسبة إلى أمريكا فكثير من الأدباء اليهود الأمريكان لم تكن لهم أية تجارب مباشرة مع الهلوكست الأمر الذى دفعهم إلى تعويض هذا النقص عن طريق التزود بالمعلومات والاستغراق والتحليق فى الخيال إلى جانب الاعتماد على الذكريات. وكان من الطبيعى أن يمضى وقت كاف حتى تتوفر لديهم المعلومات التى يمكن الاستفادة منها فى تأليف أدب الهولوكست.

وبغض النظر عن شكله أو مضمونه يمكن اعتبار كل أدب البيديش الذى ظهر منذ الحرب العالمية الثانية منتميا إلى أدب الهولوكست ، فالكثير فى هذا الأدب يتناول الهولوكست على نحو مباشر والقليل منه يتناوله على نحو غير مباشر . والجدير بالذكر أن الرواية التى ألفها إيليا ويزل الناجى من الهولوكست بعنوان

«الليل» (١٩٦٠) والمنشورة لأول مرة بلغة اليديش عام ١٩٥٦ تدور حول أحداث الهولوكست بطريقة مباشرة . ومن أبرز الأعمال الأدبية المكتوبة بلغة اليديش والتي تتناول الهولوكست وتعنى في صراحة بفقدان اليهود للغتهم القومية تلك الروايات التي ألفها تشايم جريد وأبرام ستسكفر وجاكوب جلاتشتين . وموضوعات روايات اليديش ليست غريبة على الأدباء الأمريكان ويرجع الفضل في ذلك إلى ترجمة أعمال أديب اليديش الكبير إيزاك باشيفز سنجر . ومن الروايات الأمريكية التي سعت إلى استرجاع الماضي اليهودي رواية «وقت الهرج والمرج» والتي نشرها مؤلفها إ . ل . دوكتوروف عام ١٩٧٥ ورواية «أرضي» التي نشرها كاتبها هيونيسنون عام ١٩٧٦ . وفي الروايات التي ألفها اليهود البولنديون الناجون من الهولوكست رواية جيرزي. كوسنسكي التي تحمل عنوان «الطائر المطلي» (١٩٦٥) بالإضافة إلى كتابات كل من بيوتر رافيز وتادوز برووسكن ومن أهم الكتابات النقدية التي تدرس دراسة وافية أدب الهولوكست المكتوب باللغتين الألمانية والفرنسية ذلك الكتاب الذي أصدره لورانس لانجر عام ١٩٧٥ بعنوان «الهولوكست والخيال الأدبي» إلى جانب الكتاب ألفه تيرنس ديس بريس عام ١٩٧٦ بعنوان «الناجي من الهولوكست» . وكلا الكتابين يعالجان أدب الناجين من الهولوكست في أوروبا ويسمي لورانس لانجر أدب الهولوكست بأدب الأعمال الوحشية . والرأي عنده أن كل أديب يتصدى في كتاباته لأحداث الهولوكست من واقع تجربته كان مقتنعا اقتناعا راسخاً بأنه يعالج موضوعات لم يسبقه فيه أحد عبر تاريخ الأدب كله . كما أنه يرى أنه لا يستطيع أن يتصدى لتناول الهولوكست سوى من اكتوى بناره وانخرط في أحداثه . ولكنه يعتبر الروائي الألماني هنريش بول واحداً من كتاب الهولوكست رغم أنه لم يكن أحد ضحاياه . ويرجع السبب في هذا إلى أن بول في روايته «لعب البلياردو في الساعة التاسعة والنصف» (١٩٦٥) يتحدث عن شعور الألمان بالذنب بسبب مسئوليتهم عن الهولوكست وعدم جدوى احساسهم بالندم على ما فعلوه ويرى الأديب الأوربي جورج شتاينر الذي تجنس بالجنسية الأمريكية عام ١٩٤٤ أن هنريش بول الذي كان جنديا ألمانيا في الجيش النازي مهما

كتب لا يمكن أن يتساوى مع اليهودى الأمريكى فى عمق فهمه وتأثره بالهولوكست . ويقول شتاينر إن التشوهات النفسية التى لحقت بيهود أوربا من جراء الهولوكست تركت الناجين منهم يفقدون توازنهم مثلما يفقد الإنسان توازنه عندما يفقد عضوا من أعضائه أو طرفا من أطرافه . وفى نظره أن اليهودى الأمريكى وحده هو الذى يستطيع معايشة هذه التجربة .

ويعتقد بعض النقاد أن هناك كثيرا من وجوه الشبه بين الموضوعات التى يعالجها أدب الهولوكست فى أمريكا وأدب الهولوكست فى أوربا مثل الاحساس الغامر بدنو الموت وبأنه يحلق فوق الرءوس وبأن المرء يعجز عن التعبير عنه ، إلى جانب الانتهاكات التى يتعرض لها الأطفال . ويذهب هؤلاء النقاد إلى أن الموت يحوم فوق شخصيات روايات بيلو ووالانت وآى ب . سنجر تماما مثلما يحوم فوق شخصيات الهولوكست الأوربية .

ولكن هناك خلافات بين رواية الهولوكست الأمريكية ورواية الهولوكست الأوربية فالأولى لا تركز على ما حدث فى عالم معسكرات الاعتقال مثلما تفعل الثانية . وأيضا تختلف الأولى عن الثانية فى أن الأولى تولى ماضى اليهود اهتماما كبيرا فى حين أن الثانية لا تعنى باستقصاء هذا الماضى . فضلا عن أن رواية الهولوكست الأمريكية تصور اليهودى الناجى من الهولوكست وهو يواجه التجربة والحياة الأمريكية . ومن الفروق بين الروايتين أن بعد أمريكا الجغرافى عن موقع أحداث الهولوكست النازى وكذلك البعد الزمنى الذى يفصل بين الناجين من الهولوكست الذين هاجروا إلى أمريكا وبين هذه الأحداث يجعل من الممكن بل ومن الضرورى أن يربط كاتب الهولوكست فى أمريكا بين ماضى اليهود وحاضرهم فى حين أن معايشة الأديب الأوربى للهولوكست وجها لوجه تجعله يغوص فى الحاضر ولا يذكر الماضى. وأعان الأديب الأمريكى على تذكر الماضى اليهودى اعادة نشر أعمال اليهود المهاجرين السابقين أمثال ابراهام كاهان وهنرى روث وسطوع نجم كاتب اليديش المعروف أى . ب سنجر فى سماء الأدب وحصوله على جائزة نوبل للأدب .

قلنا إن أدب الهولوكست فى أمريكا لم يظهر فى قالب روائى إلا فى أواخر عقد الستينات . ولكن عددا من المقالات عن الهولوكست سبق ظهور الروايات التى تعالجه . ففى عام ١٩٤٩ كتب ايزاك روزنفلد يقول : «يستحيل على المرء أن يعيش ويفكر ويخلق (فنا) دون أن يدلى بشهادته ضد الرعب ... لم يعد هناك خير أو شر . هناك فقط صرخات الرعب التى تخترق الآذان . وليس هناك غير الفزع» .

ويبدو أنه كان أيسر على الأديب الأمريكى فى باديء الأمر أن يعالج موضوع الهولوكست على هيئة مقالات فى حين أن الروائى كان يحتاج إلى وقت كى يستوعب فظاعة التجربة ويتمثلها قبل أن يعبر عنها فى أدب خلاق . هذا الفاصل الزمنى الذى تحدثنا عنه ساعد على بلورة وعى الروائيين بالهولوكست وفى عام ١٩٦٩ ألفت نورما روزن رواية بعنوان «الشر المؤثر» ركزت فيها على تصوير ردود فعل الأمريكى غير اليهودى لمحاكمة ايخمان التى شاهدوها على شاشات التليفزيون . ومن الروايات الأمريكية التى عالجت الهولوكست رواية «أرضى» للكاتب هيونيسنسون و «حكاية يشيم» (١٩٧٦) للكاتب جاى نيجبورن . وكلتا الروايتين تعالجان الهوية اليهودية والفكر الدينى اليهودى التقليدى بدون تقديم أية أعذار أو افراط فى العواطف .

وتدافع الروائية اليهودية سنثيا أوزيك بكل قوتها عن خصوصية الشعب اليهودى . ونحن نراها فى عام ١٩٧٠ تشن هجوما على الأفكار المنادية بعالمية اليهود واشتراكهم فى الخصال العامة التى تتصف بها البشرية جمعاء . والجدير بالذكر أن هذه الخصوصية اليهودية هى أحد أركان وعى اليهود الأمريكان بالهولوكست .

ولا يعنى الكتاب اليهود الذين عالجوا الهولوكست باستجلاء المشاكل التى تواجه اليهودى المهاجر إلى أمريكا أو بمشكلة اندماجه فى المجتمع الأمريكى . ولكنهم فى معظم الأحيان بتصوير مواجهة هذا اليهودى المهاجر للتاريخ الجماعى لبنى اسرائيل. وهكذا أصبح اهتمام اليهودى المهاجر إلى أمريكا ينصب على مواجهة خصوصية الشعب اليهودى وتاريخه وأعرافه وتقاليده . ومهما شعر هذا اليهودى

المهاجر باغترابه عن بنى جلدته فإن تجربة الهولوكست مكنته من الحفاظ على جانب مهم من ماضيه اليهودى ونقل هذا الجانب إلى الأجيال اللاحقة . ومثل هذه الأعمال تتناقض مع مقولة ليسلى فيلدر أن الرواية اليهودية الأمريكية هى بالضرورة تعبير عن انصهار اليهودى فى بوتقة المجتمع الأمريكى . فهذه المقولة تنطبق على الروايات اليهودية الأمريكية التى صدرت فى الفترة السابقة على الحرب العالمية الثانية ولا تنطبق على الروايات التى صدرت بعد الهولوكست . وتدل الروايات اليهودية الأمريكية التى صدرت مؤخرا عن المهاجرين اليهود الناجين من الهولوكست على أن أبطالها يشعرون بالتشريد والتشرذم والغربة والانعزال عن الأمريكان الذين لم يعرفوا فى حياتهم فظائع الهولوكست .

الموت مرتين : خواطر حول

أدب الهولوكست

فى عام ١٩٨٠ نشرت جامعة انديانا بالولايات المتحدة كتاب مهما من تأليف ألفين هـ . روزنفلد بعنوان «الموت مرتين : خواطر حول أدب الهولوكست» . والكتاب يثير عددا من القضايا ويقع فى ثلاثة أقسام . ومن الاسئلة التى يطرحها هذا الكتاب: ما هى خصائص أدب الهولوكست ؟ ومن هم أبرز كتابه ؟ وما هى البلاد التى أنتجته واللغات التى كتب بها ؟ يقول ألفين روزنفلد فى مقدمة كتابه أن أدب الهولوكست المترجم إلى اللغة الانجليزية محدود وأن هذا الأدب يتمثل أصلا فى كتابات البيديش والكتابات باللغة العبرية إلى جانب توفر الكتاب فى كل أنحاء أوربا وأمريكا واسرائيل على التأليف فيه . فالكتابات المكتوبة عن الهولوكست فى اللغات الأوربية مثل البولندية والتشيكية الخ كثيرة . ولا تقتصر الكتابة عن الهولوكست على الأدب فحسب (مثل الرواية والقصة والشعر والدراما والأمثال وقصائد البالاد والأغاني) بل تمتد إلى الذكريات واليوميات والصحف والمقالات الفلسفية والأفلام السينمائية . ويعتبر تشايم كابلان وتيزهاك كاتزنلسون وايمانويل ريخلبلوم من الرعيل الأول من الكتاب الذين تناولوا الهولوكست .

ويتناول الفصل الأول فى كتاب «الموت مرتين» الجانب النظرى المتمثل فى اشكاليات أدب الهولوكست . ويتضمن الفصل الثانى مسحا عاما لليوميات والذكريات والصحف التى تعالج مشكلة الهولوكست والتاريخ . أما الفصل الثالث فيتناول كتاب رواية الهولوكست الذين حاولوا الابتعاد عن التوثيق والتعبير عن أنفسهم فى قالب فني . ثم تركز فصول الكتاب الرابع والخامس والسادس على شعر الهولوكست فى حين أن الفصل السابع يدور حول الفساد الذى أصاب اللغة الألمانية بسبب الفظائع التى ارتكبها النازيون ضد اليهود واستجابات الألمان غير السليمة

لأحداث الهولوكست . ويعالج ألفين روزنفلد فى كتابه مشكلة عويصة تواجه كل أديب أو كاتب يتصدى للكتابة عن الهولوكست . فبشاعات الهولوكست أفظع من أن توصف الأمر الذى يقتضى من الكاتب عنه الالتزام بالصمت في حين أن واجبه يتطلب منه التعبير عن هذه الفظائع والبشاعات .

الفصل الأول : اشكاليات أدب الهولوكست :

يناقش ألفين روزنفلد فى هذا الفصل ماهية أدب الهولوكست ويذهب إلى أن هذا الأدب محاولة للتعبير عن وعى جديد وعن تغير ملحوظ فى الوجود الإنسانى . فالخيال الإنسانى بعد تجربة معسكر الاعتقال في أوسشفتز أصبح شيئاً يختلف تماما عن الخيال الإنسانى قبل انشاء هذا المعتقل . ومع حدوث الهولوكست تغير كل شيء فلم يعد للإيمان المطلق أو المذهب الإنسانى التقليدى أى معنى . غير أن اليوميات التى سطرها تشايم كابلان تعد سلاحا فعالا فى يد هذا الكاتب للتصدى لهذه العدمية . وطبقا لما يقوله ت . دابليو أدورنو إن الكتابة عن الهولوكست أمر مستحيل وقد يكون أمرا غير أخلاقى . وأيضا يعترض رينهارد بومجارت على الكتابة عن الهولوكست لأنها تجعل من عذاب اليهود الجماعى شيئاً سطحيا ولأنها تظلم ضحايا الهولوكست ظلما فادحا بإغفالها تصوير جانب من الفظاعات التى لحقت بهم . وهو نفس ما يذهب إليه ميخائيل ويزتشوجرود حين يقول : «إننى أعتقد اعتقادا راسخاً أن الفن لا يصلح للتعبير عن الهولوكست فالفن يخفف من لسعة العذاب . ومن ثم يتعين حظر تأليف الروايات عن الهولوكست ... إن أية محاولة لتحويل الهولوكست إلى فن تقلل من خطورته ومن ثم تؤدى إلى انتاج فن ردئ» .

ويسوق إلينا روزنفلد أفكارا مماثلة يعبر عنها بعض أدباء الهولوكست مثل إيليا ويزل الذى كتب يقول رغم كثرة تأليفه فى هذا الموضوع :

«وبعد انقضاء جيل لا يزال يمكن القول بل يجب التأكيد على أنه لا يوجد شيء اسمه أدب الهولوكست ولا يمكن أن تقوم لمثل هذا الأدب قائمة . فتعبير أدب

الهولوكست يشير إلى ما ينطوى عليه هذا المصطلح من تناقض فمعسكر الاعتقال النازى فى أوسشفتز ينفي وجود أى شكل من أشكال الأدب فضلا عن أنه يتحدى كل النظم والمذاهب . . . إن الرواية التى تعالج أوسشفتز ليست رواية أو أنها ليست عن أوسشفتز وإنه لمن الكفر محاولة تأليف مثل هذه الرواية » .

وينطوى أدب الهولوكست على مفارقة واشكالية الهولوكست كما يطرحها ألفين روزنفلد تتمثل فى أن الكتابة عن الهولوكست هى بالحتم والضرورة كتابة ناقصة فى حين أن السكوت عن الهولوكست وعدم التعبير عنه ظلم فادح .

وهناك أنواع وأشكال من أدب الهولوكست فمن كتاب الهولوكست من هلكوا فيه ومنهم من نجوا منه ومنهم من نجا لفترة ثم لحقت به الابادة . ومنهم من سجل تجربته عن الهولوكست قبل أن ينتحر . وإذا كان بعض الكتاب قد كتب فى الهولوكست عن تجربة فهناك من كتب عنه دون أن يجربه وبعد فترة على انقضائه . ويرى ألفين روزنفلد انه من الخطأ اعتبار أدب الهولوكست جزءاً من أدب الحرب فهو شيء يختلف تماما عن أدب الحرب رغم أن الهولوكست حدث إبان الحرب العالمية الثانية .

يقول إيليا ويزل فى روايته «الليل» إنه لن ينسى أبدا أجسام الأطفال وقد تحولت إلى «أكاليل من الدخان تحت سماء زرقاء صامتة» . وفى فترة أخرى كتب ويزل يقول وهو يتصفح البوم الصور الفوتوغرافية الخاصة بالهولوكست :

«توقفت لالتقاط أنفاسي وأنا أقلب كل صفحة أمام كل صورة فى الألبوم، وكنت أقول (هذه هى النهاية إذ لا يمكن أن تكون هناك صورة أفظع من ذلك والصورة التالية لابد أن تكون أقل فى فظاعتها وترويعها حيث يستحيل استحداث عذاب أكثر ألما ووجيعة وقسوة . ولكن ما لبثت أن اكتشفت خطئى بعد لحظات . فأنا لم أقدر حق قدره ما يحتفظ به السفاح فى جعبته . فالتحول المطرد إلى التوحش يتجاوز حدود كل ما هو إنسانى . إن الشر يوحى بأنه لا نهائى وبدون حدود أكثر مما يوحى الخير بذلك» .

وقد نظم الشاعر يورى زفى جرينبرج قصيدة مفادها أن تجربة الهولوكست ليست لها سابقة فى التاريخ الإنسانى . وإذا كان للهولوكست شبيه فهو يتمثل فى الجحيم أو فى قصة أيوب أو تدمير هيكل سليمان . حتى هذه النظائر تعجز عن رسم صورة حقيقية لبشاعات الهولوكست . وهذا ما دعا إيلى ويزل إلى القول «إن الهولوكست يتحدى الأدب» ويقول ألفين روزنفلد إن الأدب لا يمكن أن تقوم له قائمة إلا إذا كانت له سوابق أى تقاليد أدبية هى الأصل فى كل تجديد . فليست هناك قصيدة أو رواية أو مسرحية إلا وكانت ثيقة الصلة بما سبقها من قصائد وروايات ومسرحيات . وحيث أن أدب الهولوكست بلا سوابق فإن هذا يصيب قارئه بالحيرة والبلبلة فلا يعرف من أين يبدأ وأين ينتهى .

ويذهب ألفين روزنفلد إلى أن الأدب الروائى الذى أنتجه كل من الأديبين الأمريكى آلان بو والنمساوى فرانز كافكا يقترب كثيرا من أدب الهولوكست . فعلى سبيل المثال يتمتع بو بالقدرة على خلق جو من الرعب والفزع . ولكن القارىء يعلم طيلة الوقت أنه مجرد خيال نسجه الروائى . أما الرعب المتمثل فى الهولوكست فهو واقع معاش وليس ضربا من الخيال الأدبى . ويضيف روزنفلد أن أدب كافكا أكثر تعقيدا من أدب بو وأكثر قربا من فهم طبيعة الهولوكست وخاصة فى قصته «مستعمرة للعقاب» التى يعتبرها روزنفلد قريبة من جو الهولوكست ولكنها لا تتطابق معه . فواقعية الهولوكست تفوق ما ينطوى عليه الأدب السوريالى من خيال مرعب . والفرق بين أدب كل من بو وكافكا من ناحية وأدب الهولوكست من ناحية أخرى أن القارىء يدرك أنه ينبغى عليه قراءة بو وكافكا على أنهما كاتبان رمزيان فى حين أنه يتعين عليه قراءة أدب الهولوكست على المستوى الحرفى وليس المستويين الرمزى والأليجورى لأن أحداث الهولوكست وقعت بحذافيرها وعلى أرض الواقع والفعل مثل تحويل أجساد الأطفال إلى أعمدة من الدخان . يقول ويزل فى هذا الصدد :

« وعلى مقربة منا اندلعت ألسنة اللهب من حفرة ... ألسنة لهب هائلة انهم كانوا يحرقون شيئا . وتوقفت شاحنة عند حافة الحفرة وألقت حمولتها فى الحفرة -

حمولة تتكون من مجموعة من الأطفال الصغار ... ومجرد رضيع . نعم رأيت هذا المنظر .. رأيته بعيني .. هؤلاء الأطفال وقد اشتعل فيهم اللهب» .

ويرى روزنفلد أن اشكالية أدب الهولوكست تكمن في أن قارئه يستبشعه لدرجة أنه لا يرغب في تصديقه . وهو يشك كثيراً في امكانية استمرار الأدب في جو الهولوكست الذي يخنقه . فالأدب في نظره وخاصة الشعر - لا يستطيع الاستغناء عن الرمز في حين أن أدب الهولوكست يخلو تماما من الرمز ويعبر عن الواقع بحذافيره أي يعبر عن تحويل الأطفال اليهود إلى أعمدة من دخان . فهو أدب يقوم على نفي الحياة والوجود بل ونفي لوجود الله . أي أنه يقوم على نفيين وليس على نفي واحد . وأحداث الهولوكست قمينة بأن تصيب ضحيته باللوثة والجنون تماما كما أن اللغة التي يستخدمها أدب الهولوكست تفضي إلى الصمت . وأدب الهولوكست من صنع أشخاص فقدوا عقولهم من فرط ما واجهوه من أهوال فهو بهذا المعنى أدب اضمحلال وتآكل وانحلال . وهو بهذا المعنى أدب غير حقيقي لأنه من صنع أشخاص فقدوا عقولهم . فتشايم كابلان يردد في يومياته قولة : «لا ... هذه ليست الحياة» وعلى الرغم من أنه عاش في وارسو لمدة أربعين عاما فقد غدت وارسو بسبب الهولوكست والاحتلال النازي مكانا غريبا عنه تماما ... مكانا لا يمت إلى سطح الأرض بصلة . ويقول كاتب الهولوكست الايطالي بريمو ليفي شيئاً مشابها : «اليوم وأنا جالس في هذه اللحظة أكتب على المنضدة يخامرني عدم الاقتناع بأن هذه الأشياء حدثت بالفعل».

ومن كتاب الهولوكست الذين يذكرهم الفين روزنفلد الشاعر بول سيلان وصاحب اليوميات تشايم كابلان الذي اختتم يومياته التي تتحدث عن المرسوم النازي لأحكام القبضة الألمانية على ألوف اليهود في وراسو بعبارة تتطاول وتجدف على الله فهي تقول : «ولكن الجالس على عرش السماء يقهقه». من عذاب يهود بولندا: فضلا عن أنه يذكر رواية «آخر العادلين» التي ألفها أندريه شوارز بارت ورواية «الطائر

المطلى» التى ألفها جيرزى كوسنسكى الذى يستخدم لغة العهد الجديد لا لتدعيم الايمان بل لنسف العقيدة المسيحية من جذورها .

وإنها لمفارقة تدعو إلى الدهشة والعجب والأسف أن نجد أن كتاب الهولوكست يستوحون كتاباتهم من الشر فأدبهم مفعم بالعاهات بشكل أو آخر . وهى عاهات تتراوح بين الاصابة بالجنون أو قلع أحد العينين أو التلعثم فى الكلام أو الصمت العيى. ففى إحدى قصائد نيلى ساتشس الأخيرة نراها تقول عن فظاعات الهولوكست إنه يمكن تدوينها على الورق بعد أن تكون احدى عينى الكاتب قد اقتعلت» . ولكن الكاتب يتنزهاك كاتزلسون يرى فى هذه العاهات نوعا من الصمود والقدرة على البقاء رغم كل عوامل الموت والفناء .

ويذهب ألفين روزنفلد إلى أن أدب الهولوكست عجز حتى الآن عن أن يعبر تعبيرا خالدا عن فظائع الهولوكست وأنه ينتظر مولد أديب عملاق يستطيع أن يوفيها حقها والرأى عنده أن كل أديب من أدباء الهولوكست نجح فقط فى تصوير جزئية من هذه الفظائع وأن المجموع الكلى لهذه الجزئيات لم يكتب بعد . ومن ثم فإن هذا الأدب ينتظر ميلاد أديب عظيم فى مثل شموخ ميلتون وقامته قادر على الاضطلاع بهذه المهمة .

الفصل الثاني : الهولوكست والتاريخ :

يقول ألفين روزنفلد فى هذا الفصل أن المؤرخ البولندى اليهودى المرموق الدكتور إيجناسي سكيبر قال أثناء اعتقاله فى معسكر الابادة فى ما يدانيك لألكسندر دونات إن الذى يسطر التاريخ دائما هو المنتصر وأن العادة جرت على أن القاتل هو الذى يروى بزهو مثالب المقتول وعيوبه . ولو أنه قيض للنازيين أن ينتصروا على الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية لأصبحت إبادتهم لليهود عملا بطوليا ومجيدا . ويثير هذا المؤرخ مشكلة خاصة بأدب الهولوكست يقول روزنفلد إنها لم تجد حلا لها حتى الآن فهذا المؤرخ يطرح التساؤل التالى : «ولكن إذا كتبنا (نحن اليهود) تاريخ

هذه الفترة بدمنا ودموعنا ... فمن سيصدقنا ؟ لا أحد يريد أن يصدقنا لأن كارثتنا لا تخصنا وحدنا بل تخص كل العالم المتمدن» (والرأى عند مؤلف هذا الكتاب أن هذا المؤرخ الذى أهلكه النازيون لم يكن يتوقع أن يتمكن اليهود من أقناع العالم بحدوث الهولوكست لدرجة أن من يشك فى حدوثه أصبح الآن يعتبر مارقا ومكابرا) . ولكن الأقدار على أية حال شاءت أن يبقى دونات على قيد الحياة ليروى قصة المذابح التى تعرض لها اليهود فى بولندا . ولم يكن دونات وحده الذى سطر فاجعة الهولوكست ودونها للتاريخ والأجيال القادمة . فقد قام بتسجيل أحداث الهولوكست عدد من الكتاب مثل كابلان وليفى وفلنكرث وريجنلبون ويزل وويلز الخ .. وكان كابلان من أوائل الكتاب الذين تنبأوا بوقوع الهولوكست كما يدل على ذلك ما كتبه بتاريخ ١ سبتمبر ١٩٣٩ عند بداية الحرب العالمية الثانية . وعندما أدرك اليهود أن النازيين عقدوا العزم على إبادتهم سعوا ما وسعهم السعى إلى تسجيل أحداث الهولوكست فى ظروف أشد ما تكون عسرا . يقول كابلان فى هذا الشأن إنه لم يكن من السهل عليه أن يدون قصة الهولوكست فقد كان فى معظم الأحيان محروما من إضاءة الكهرباء كما تجمدت يداه من شدة البرودة لعدم وجود تدفئة .

يوميات الهولوكست :

كتب تشايم كابلان يوميات وارسو باللغة العبرية فى الفترة من ١ سبتمبر ١٩٣٩ إلى ٤ أغسطس ١٩٤٢ . وهذه اليوميات تغطى فترة حساسة للغاية من مصير اليهود وما لحق بهم من تقتيل وخسف واضطهاد على يد الاحتلال النازى . ورغم ما عاناه من احباط وتثبيط للهمم فقد أصر كابلان على مواصلة تسجيل يومياته وعقد العزم على ألا يترك يوما واحدا يمر دون تسجيل جانب من هذه اليوميات . وشعر كابلان ان واجبه يحتم عليه عدم الاستسلام لليأس ويقضى منه أداء ما اعتبر أنه مهمة تاريخية . ولكن الأهوال التى شاهدها كانت فى كثير من الأحيان أكبر من قدرته على تسجيلها فهو يقول تارة : «إن قلمى يعجز عن وصف المصائب التى حلت بنا فى الليلة الماضية» وتارة أخرى يقول : «ليست لدى القوة على الإمساك بالقلم فى يدى فأنا

كسير ومحطم» ورغم ظروفه البالغة القسوة فقد تمكن كابلان من كتابة وثيقة تاريخية نادرة تتكون من أربعمائة صفحة من أروع ما خطه القلم .

وقد تركزت وثيقة كابلان على ثلاثة موضوعات هي قسوة النازيين التى تصل إلى حد السادية وذلة ومسكنة ضحاياهم من اليهود وسلبية غالبية الشعب البولندى وقبولهم للأحداث على علاتها . والذى أدهش كابلان هو امعان النازيين فى إذلال اليهود قبل القيام بالاجهاز عليهم . ويحدثنا كابلان عن هذا الاذلال بتفاصيله المرعبة. فالجنود النازيون على سبيل المثال يأمرون اليهوديات بتنظيف الجرادل من البراز . وعندما يسألن عن أدوات التنظيف يأمرهن النازيون باستخدام بلوزاتهن فى إزاحة البراز . وبعد تنفيذ اليهوديات لهذا الأمر يقوم العساكر الألمان بلف البلوزات المليئة بالبراز على وجوههن وهم يقهقهون قائلين إن اليهود يساعدون انجلترا اليهودية فى حربها ضد الفوهرر . وأيضا يروى كابلان أن النازيين أرغموا حبرا يهوديا فى لودز على أن يبصق على التواره . وتحت تأثير الخوف ظل هذا الحبر يبصق على كتابه المقدس حتى جف حلقه من اللعاب . عندئذ توقف عن البصق فسأله الجنود الألمان عن السبب فرد قائلا إن فمه لم يعد فيه لعاب . عندئذ قاموا بالبصق داخل فمه حتى يتمكن من مواصلة البصق .

والرأى عند روزنفلد أننا نخطيء إذا رددنا هذه القسوة السادية إلى جذور نفسية مريضة فهذا الشر فى اعتقاده ينبع من جذور فكرية أى من جذور الأيديولوجية النازية التى لا تعتبر اليهود آدميين وتخشاهم لأنهم يتسلحون بالكتاب (التوارة) والسيف . ومن ثم فالنازيون يشنون عليهم الحرب لقهر أرواحهم وليس مجرد قهر أبدانهم . إن محنة اليهود فى بولندا من وجهة نظره تتمثل فى أن البولنديين كانوا يقبلون معاملة النازيين لليهود على هذا النحو الوحشى لأنهم كانوا لا يحملون مشاعر الود والعطف على بنى اسرائيل . وتألم كابلان عندما رأى الله يخذل بنى جلدته ويتركهم لمصيرهم الحالك الظلمة .

ويصور كابلان مقاومة الجيتو اليهودى فى بولندا ضد البربرية النازية وكيف

كان اليهود يديرون مدارسهم ويقيمون شعائرهم الدينية سرا وكيف أنهم كانوا عن طريق أطفالهم يهربون الأشياء التى تشحذ هممهم وتقوى ايمانهم بدينهم . ولعبت يوميات كابلان فى تبديد شيء من الظلمة المخيمة على حياة اليهود . فبطولته تكمن فى تحديه لكل عوامل اليأس والاحباط . فحتى لا تنتصر النازية عليه لم يكن أمام كابلان غير سبيل واحد هو مواصلة كتابة يومياته وتسجيل سعى النازيين الحثيث إلى سحق روح اليهود الأسرى فى جيتو وارسو . وحتى عندما أظلمت الدنيا فى عينى كابلان تفجرت فيه روح الصمود والتحدى فداوم على تسجيل أحوال هذا الجيتو . ويصف كابلان هذه الروح اليهودية الصامدة والمتحدية بقوله : «هناك قوة خاصة غير مرئية تغور فى أعماقنا (أى اليهود) ... وهذا هو السر فى حمايتنا واحتفاظنا بالحياة . والدليل على ذلك أنه لا توجد بيننا حالات انتحار» .

يقول ألفين روزنفلد إن «يوميات وارسو» عمل أدبى رفيع المستوى وان نغمته الباكية تذكرنا بالأدب الدينى اليهودى المنتحب . ويصف كابلان نفسه قبل قتله هو وزوجته فى معسكر الاعتقال فى تربلينكا بأنه حفيد النبى أشعيا . وهو يحكى أن أصدقاءه الذين يعلمون بأمر يومياته تصحوه أن يتوقف عن تدوينها لأنه ليس هناك بصيص من أمل فى أن ترى طريقها إلى النشر أو الأجيال القادمة . ولكنه رفض الاستماع إلى النصحية لأنه رأى فى الاستمرار فى كتابتها حتى آخر رمق فى حياته نوعا من أداء المهمة التاريخية التى لا يجب عليه التخلى عنها .

يقول الفين روزنفلد إنه إذا كان تشايم كابلان يعتبر النائح على جيتو وارسو . فإن ايمانويل رينجلبلوم هو واضع أرشيفها الأساسى فقد كان قبل الحرب العالمية الثانية مؤرخا محترفا . وعند اندلاعها نظم خلية سرية من الباحثين أطلق عليها اسم المحتفلون بيوم السبت واضطلع هؤلاء الباحثون بالتسجيل الكامل لمجريات الحياة اليومية فى الجيتو اليهودى . كتب رينجلبلوم معظم سجلاته بلغة البيديش لتغطى الفترة من يناير ١٩٤٠ حتى ديسمبر ١٩٤٢ فى صحيفة مهمة تحمل عنوان «مذكرات من جيتو وارسو» . وعلى الرغم من أن هذه المذكرات تمهيدية ومتناثرة ولا يمكن

اعتبارها تاريخا كاملا لأن الظروف لم تسمح لكاتبها باستكمالها ، فإنها سجل مهم للغاية لحياة الجيتو اليهودى . وهذه اليوميات مكتوبة بلغة أشد ما تكون ايجازا وتشير إلى هتلر وموسيلينى بأسماء مستعارة . والمذكرات تزخر بتفاصيل الحياة الاجتماعية والسياسية فى الجيتو . ويتحرى رنجلبلوم الموضوعية والحيدة الكاملة فى تسجيل هذه التفاصيل . فهو يروى الأحداث الوحشية التى يرتكبها النازيون ضد اليهود دون أن يعلق عليها أو يقدم تقييما لها .

والجدير بالذكر أن رنجلبلوم أخفى مذكراته بعناية فى علبة لبن مصنوعة من المطاط قام بدفنها فى مكان ما فى الجيتو اليهودى . ورغم أنه بقى على قيد الحياة بعد ثورة الجيتو فى وارسو ضد النازيين فقد اكتشفوا المخبأ الذى اختبأ فيه مع زوجته وابنته الصغيرة ثم قاموا باعدامه على وجه السرعة خارج المخبأ . وبعد نهاية الحرب اكتشفت مذكراته وسط حطام الجيتو وهو نفس ما حدث ليوميات كابلان التى تم تهريبها خارج أسوار الجيتو .

وقد احتفظت الأيام بمذكرات أقل أهمية من مذكرات كل من كابلان ونجلبلوم ومنها المذكرات التى دونتها مارى برج فى السادسة عشرة من عمرها والتى تبدأ بالأحداث التى وقعت فى اكتوبر ١٩٣٩ . واستمرت مارى برج بعد ذلك فى تدوين مذكراتها بانتظام تقريبا لمدة ثلاثة أعوام ونصف . وفى عام ١٩٤٥ ترجمت يومياتها من البولندية إلى الانجليزية بعنوان «جيتو وارسو : يوميات» . وهى من أوائل روايات شهود العيان التى وصلت إلى الغرب . وأيضا ألف الكسندر دونات كتابا عن حياة اليهود فى وارسو بعنوان «مملكة الهولوكست» إلى جانب كتاب تيزهاك كاترنلسون البائس «يوميات فيتل» . والجدير بالذكر أن هذين الكتابين الأخيرين يلقيان شيئاً من الضوء على ثورة اليهود فى جيتو وارسو عام ١٩٤٣ فى حين أن كتاب مارى برج لا يشير إليها .

ويرجع الفضل فى إماطة اللثام عن الأعمال البطولية والكفاح المسلح الذى قام به يهود بولندا فى مواجهة البطش والتنكيل النازى إلى الكتاب الذى ألفه ماريك

إيدلمان بعنوان «قتال الجيتو» وكتاب برنارد جولدشتين بعنوان «النجوم تشهد» وكتاب فلادكاميد «على جانبي السور» وجميع هؤلاء الكتاب من الناجين من الجيتو الذين انتهت حياتهم نهاية مأساوية .

ومن أدباء الهولوكست في وارسو جانوسز كورزاك مؤلف «يوميات الجيتو» الذي كان يدير ملجأ للأطفال اليهود اليتامى قبل استشهاده على يد النازيين . كتب كورزاك يومياته في الفترة من مايو إلى أغسطس ١٩٤٢ في وقت خلود نزلاء الملجأ من الأطفال والاداريين إلى النوم . ومن القطاعات التي يرويها هذا المؤلف قوله : «كانت هناك على الرصيف جثة طفل ميت . وبالقرب منها كان ثلاثة أطفال يلعبون لعبة الحصان والسائق . وعند نقطة معينة لاحظ الأطفال وجود الجثة فابتعدوا عنها بضع خطوات ليستمروا في اللعب» . ويبدو أن كوزراك كان يكتب هذه اليوميات كي يتغلب على وجيعته ويحتفظ باتزانه العقلي أي أنه كان يكتب بدافع شخصي محض وليس بهدف التسجيل أو التوثيق ويذهب ألفين روزنفلد إلى أن جانوسز كورزاك في كتاباته يقترب بأفكاره المبعثرة والمشتتة والمتناثرة من روح كافكا العبثية .

ويقدم تيزهوك روداشفسكي في «يوميات جيتو فلنا» آمال ومخاوف شاب يهودي يشاهد انهيار مدينة فلنا التي كان اليهود في يوم من الأيام يعتبرونها اروشليم أوربا الشرقية . وأيضا قام يافع آخر في الشهور الأولى من عام ١٩٤٤ بكتابة يوميات مماثلة إلى حد ما بعنوان «يوميات ايشاهايمان» تقع أحداثها هذه المرة في المجر. ويمزج الكتابان بين أحاسيس الطفولة والفهم الناضج لطبيعة الأحداث التي يرويانها. فضلا عن مدى ما يعاني منه أطفال الجيتو من عجز أليم عن حماية أنفسهم . والجدير بالذكر أن اليافع تيزهوك روداشفسكس قتل وهو في الخامسة عشرة من عمره هو وعائلته . كما أن ايفا هايمان التي تصغره بعامين هلكت في معسكر الاعتقال في أوسشفتز . واللافت للنظر أن عددا من الأحداث واليافعين قاموا بإنتاج جانب من أدب السجون والمعتقلات للتعبير عن دهشتهم من العنف والشر اللذين يستشريان في عالم الكبار والراشدين .

وتضم كتابات الصبية والمراهقين عن الهولوكست تلك اليوميات التى ألفتها فى هولندا آن فرانك بعنوان «يوميات فتاة صغيرة» وكذلك اليوميات التى ألفها فى بلجيكا موشى فلنكر بعنوان «يوميات الشاب موشيه» . ويرى ألفين روزنفلد أن يوميات الصغار كتبت فى ظروف أقل فى قسوتها من الظروف التى كتب فيها الكبار يومياتهم . فهؤلاء الصغار لم يكونوا يدركون نوايا النازيين لإبادتهم . وقد كتبت آن فرانك (وهى ابنة لوالدين لاجئين يهوديين فرا من ألمانيا إلى هولندا) يومياتها باللغة الهولندية فى الفترة من صيف عام ١٩٤٢ حتى صيف عام ١٩٤٤ أثناء اختبائها من القوات النازية . وتروى لنا الفتاة آن فرانك القيود الخانقة التى رسفت فيها بسبب اختبائها إلى جانب مشاحناتها الكثيرة مع عائلتها بسبب تفتح حواسها الباكر على الجنس الآخر . والجدير بالقول إنه إلى جانب قتامة «يوميات آن فرانك» فإن روحا من الفكاهة والدعابة والاشراق تشيع فيها وهو ما لانجده فى «يوميات الشاب موشيه» المتسمة بالجدية والتى يسيطر عليها نوع من اليأس الدينى مرجعه الاعتقاد بأن إله اسرائيل خذل شعب اسرائيل . فموشيه يتساءل باستمرار : «ماذا يعنيه الله بكل المصائب التى تحل بنا وعدم تدخله لمنع هذه المصائب من الحدوث» . وأمل الغلام موشيه فى الحياة أن تنتهى الحرب ويتمكن من أن يبدأ الحياة من جديد فيصبح رجل سياسة فى فلسطين اليهودية . ولهذا نراه يبذل قصارى جهده لإتقان اللغة العبرية التى كتب بها يومياته إلى جانب اللغة العربية وذلك قبل أن يهلك فى السادسة عشرة من عمره فى معسكر أوسشفتز .

مذكرات اليهود الناجين من الهولوكست :

بعد أن تناول ألفين روزنفلد اليوميات المؤلفة عن الهولوكست نراه ينتقل إلى معالجة المذكرات التى كتبها اليهود الناجون من الابادة النازية . وهؤلاء الناجون من الموت يعانون أشد المعاناة من الاحساس بالذنب لأن أحباءهم وأصدقاءهم ماتوا فى حين أنهم لا يزالون أحياء . وينوء كاهل الناجين من الهولوكست تحت عبئين : عبء مرارة الذكريات التى يتجرعونها وعبء استحالة تصالح الناجين مع أنفسهم . وكاتب

الذكريات عن الهولوكست يريد أن يروى حكايته للناس (أولا) لكى يعلم العالم حقيقة ما جرى (ثانيا) للاحتفال بذكرى ضحايا الهولوكست (ثالثا) كى يتمكن بشكل أو آخر من الاستمرار فى الحياة . وبمجرد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها تاق كثير من الناجين من الجيتو ومعسكرات الاعتقال إلى رواية قصصهم الأليمة . وحتى بعد انقضاء عقود على هذه الحرب استمر الناجون فى رواية فجيعتهم . ومنهم من التزم فى روايته بالواقعية الشديدة ومنهم من رأى أن مأساتهم من هولها لا يمكن أن تنتمى إلى دنيا البشر ومن ثم قاموا بصياغتها فى قالب نثرى غير مألوف . وتنتمى مذكرات جوزيف كاتز التى تحمل عنوان «الذى عاد» إلى النوع الأول . وكاتز يهودى ألمانى أودع فى أحد معسكرات لاتفيا التى أحتلها النازيون . وهو لم يدون مذكراته يوما بيوم أثناء فترة اعتقاله بل استرجع الأحداث بعد اطلاق سراحه ليسجلها حسب ترتيبها الزمنى .

ولكننا نجد فى الجانب الآخر روايات عن الهولوكست أكثر تعقيدا وذات صبغة أدبية واضحة مثل كتاب دافيد روست «المملكة الأخري» وكتاب تشارلوت دلبو «لا أحد منا سوف يعود» . وكلا الكتابين أشد ما يكونان قربا من الشعر المنثور ويجمعان بين المناحى الانطباعية والرمزية والسوريالية . فهما يرسمان جوا تسيطر عليه الأحلام المزعجة والكوابيس المضطربة والبعيدة كل البعد عن الاتساق . وفي بعض الأحيان يكتب الناجون من الموت ذكرياتهم من وجهة نظر علمية اكلينيكية . وهذه الكتب فى العادة من تأليف أطباء مثل ذكريات «القلب الذى يعرف» التى ألفها برونو باتلهايم و«الإنسان يبحث عن المعني» (وهو نسخة منقحة وفريدة من كتاب سابق بعنوان «من معسكر الموت إلى الوجودية »، الذى ألفه فكتور فرانكل . وبغض النظر عن أهمية هذه الدراسات فإنها تتسم بقدر من الموضوعية وتحويل التجارب الذاتية إلى بيانات علمية . ويبدو أن اتباع بعض كتاب المذكرات لهذا المنحى العلمي وتناول الوحشية النازية بموضوعية وحياد هو نوع من حماية الكاتب لنفسه ودفاعه عن ذاته . مثل ما نرى فى مذكرات ميكلوس نيسزلى التى تحمل عنوان «معسكر أوسشفتز للاعتقال»

تقرير طبيب شاهد الأحداث بعينه . والجدير بالذكر أن هذا المؤلف كان كبير الأطباء في محرقة المعسكر . وهناك أيضا المذكرات التى ألفها أيليا أ. كوهين «الهوة السحيقة : اعتراف» وهو طبيب سجن وستربورك نقل فيما بعد إلى معسكر اعتقال أوسشفتز .

وهناك مذكرات ممتازة ذات طابع شخصي ودلالة تاريخية ووثائقية رغم أنها شهادات ذاتية ومن بينها الكتب الآتية «مملكة الهولوكست» تأليف ألكسندر دوتات و«ليلة الضباب» تأليف ايوجين هملر و «كل شيء إلا حياتي» تأليف جيردا كلاين و «دخان فوق بيركنو» تأليف سيويرينا زماجلفسكا «لا أستطيع أن أغفر» تأليف رودلف فربا و «طريق جانوفسكا » تأليف ليون ويلز . وتتضمن جميع هذه الكتب مشاهد من القسوة والرعب اللذين ليس لهما مثيل فيما سبق من كتابات . ويلغ الاستغراب بكاتب الهولوكست دافيد روسيت مبلغا جعله يقول إنه أحيانا لا يصدق ما يسطره قلمه من فظائع وبشاعات . يقول روسيت فى هذا الشأن : «حتى أنا وبعد مضى أكثر من عام قضيته هناك لا أستطيع الحديث عن الهولوكست دون أن يعتريني شعور بأني أخترع (فظائعه) أو أنني أروى حلما طاف فى منام شخص آخر غيري» .

وتعتبر ذكريات بريمو ليفى «البقاء حيا فى أوسشفتز» (التى سبق نشرها بعنوان «إذا كان هذا هو الإنسان») ورواية «الليل» تأليف إيلى ويزل من أقوى الكتابات المعبرة عن بشاعة الهولوكست على الاطلاق . والراويان لكلا الكتابين من الناجين من معسكر الاعتقال فى أوسشفتز . ومؤلف الكتاب الأول بريمو ليفى كيميائى يهودى إيطالى من أشد الناس تأثرا بالمذهب الانسانى الغربى وبأدب دانتى . أما مؤلف الكتاب الثانى إيلى ويزل فهو شاب يهودى مجرى يعبر عن عذابه بلغة ومفردات الدين اليهودي الكلاسيكية . وتقطر رواية ليفى بالمرارة وعبث الحياة الانسانية . ورغم أن رواية ليفى تصور بشاعة الطبيعة البشرية فإن بصيصا من الأمل والنور يخترمها . وتغطى رواية ليفى الفترة التى تبدأ فى ديسمبر ١٩٤٣ وتنتهى فى يناير ١٩٤٥ من

اعتقال مؤلفها فى معسكر أوسشفتز . ويتسا ءل ليفى عن جدوى إعمال العقل فى عالم بربرى وهمجى ويخلص إلى نتيجة مفادها أن العقل والفكر أشياء ليس لها لزوم. حتى اللغة نفسها فقدت معناها وصارت مجرد لغو . ويستخدم ليفى للتعبير عن لاعقلانية الهولوكست أسلوبا يتخلص فى أنه يتعين على المعتقل فى معسكرات الاعتقال النازية أن ينسى كل ما تعلمه فى حياته من عادات وقواعد وسلوك وأن يبدأ فى تعلم كل شيء من جديد إذا أراد أن تتوفر له فرصة البقاء على قيد الحياة . والدرس الذى يتعلمه نزيل المعتقل النازى الذى يريد الاحتفاظ بشيء ولو بسيط من آدميته وكرامته الانسانية هو أن يغسل يديه حتى لو كان الإناء الذى يغتسل فيه قذرا. فالهدف من الاغتسال هنا ليس النظافة ولا مراعاة قواعد الصحة العامة بل كدلالة على أنه لم يفقد حيويته اللازمة للتمسك بآدميته والبقاء على قيد الحياة حتى يروى للعالم فظاعة ما حدث كما تدلنا الفقرة المقتبسة التالية :

«نحن عبيد ومحرومون من كل حق ومعرضون لكل اهانة ومحكوم علينا بالموت . ولكننا لا نزال نملك قدرة واحدة . ويجب أن ندافع عن هذه القدرة بكل ما أوتينا من قوة حيث أنها آخر شيء نمتلكه – القدرة على رفضنا الموافقة على ما يحدث . ولهذا يجب علينا بكل تأكيد أن نغسل وجوهنا دون صابون وبالماء القذر وأن ننشف أنفسنا بالجاكتات التى نرتديها . . . ويجب أن نقوم بتلميع أحذيتنا ليس لأن اللوائح تطلب منا ذلك ولكن من أجل الحفاظ على كرامتنا ومراعاتنا أصول اللياقة . ويجب علينا أن نسير ونحن منتصبو القامة ولا نجر أرجلنا خلفنا ليس من باب التحية للنظام البروسى (الألماني) ولكن من أجل الاستمساك بتلابيب الحياة وحتى لا تسمح للموت أن يدب فينا » .

ويذكر ألفين روزنفلد أن ايلى ويزل فى روايته «الليل» أضاف بعداً جديدا إلى الهولوكست يتمثل فى فقدان الثقة فى الايمان الدينى .

ويروى لنا إيليا أ. كوهين فى ذكرياته انه عندما أطلق سراح السجناء فى معسكرات الاعتقال داهموا مخازن المخابرات النازية بحثا عن البضائع والمنقولات فى

حين اكتفى راوى هذه الذكريات بسرقة آلة كاتبة وبعض الأوراق والأظرف . فاستغرب زملاؤه من تصرفه وتصوروا أن به مسا من جنون . ولكن الآلة الكاتبة ترمز إلى رغبة ضحايا الهولوكست الملحة فى تدوين شقائهم . فسرقة الراوى لأدوات الكتابة تبين أن الحرية الحقيقية لا تكمن فى مجرد اطلاق سراح الجسد بل تكمن فى أن يروى الكاتب السجين حقيقة ما حدث .

ويختتم الفين روزنفلد الفصل الثانى بقوله إننا نخطيء إذا ظننا أن هذه الكتابات الآنفة الذكر هى كل ما كتب عن الهولوكست فمراكز الأبحاث فى العالم تحتفظ بألوف الذكريات التى تعالجه الأمر الذى وفر للمؤرخ أو الموثق مادة تفوق فى كمها ما كتب عن أية حقبة فى التاريخ الإنسانى كله . وبالإضافة إلى الكتب هناك عدد هائل من خطابات الأفراد والاعلانات والمراسيم وتقارير رجال الأعمال والدبلوماسيين والملفات والمذكرات الخ . وهناك أيضا قوانين نورنبرج التى أصدرها النازيون لحرمان اليهود من حقوقهم ومحاضر مؤتمر وانسى الذى يبدو أنه وضع الخطة لإبادة اليهود .

الفصل الثالث : الخيال فى أقصى حالاته تطرفا :

يبدأ هذا الفصل بفقرات مقتطفة من ذكريات ليون ويلز التى تحمل عنوان «الطريق إلى جانوفسكا» وتحدثنا هذه الذكريات عن فظائع يشيب لهولها الولدان مثل القاء الأطفال اليهود الصغار وأمهاتهم فى النار كى تتحول أجسادهم إلى رماد ناعم فضلا عن القاء عظام الضحايا فى آلات جهنمية صنعت خصيصا لطحنها بينما الموسيقى تصدح بأعذب الألحان . ويكرر ألفين روزنفلد ما سبق أن ذهب إليه من أن هذا النوع من الأدب جديد تماما على الإنسانية وليست له سوابق فى التاريخ البشرى كله باستثناء بعض قصص كافكا . هذا الأدب يخلو تماما من الرمز والخيال ولكن حقيقة أدب الهولوكست تفوق الخيال وتتجاوزه وتتمثل صورة الأديب الناجى من الهولوكست فى رجل يخفى حزمة الأوراق التى يكتبها حول بطنه ويشد عليها بحزامه .

ولكن ماذا عن الكاتب الذى لم يخض تجربة الهولوكست بنفسه ؟ بعض الكتاب الذين لم يجربوا الهولوكست بأنفسهم مثل جون هيرس فى «الحائط» وليون يوريس فى «ميلا ١٨» يعتمدون فى رواياتهم على استرجاع الوثائق والسجلات التى تصور حياة الجيتو . والرأى عند بعض النقاد أن أدب الهولوكست يضرب بجذوره فى الماضى حتى قبل أن تقوم للنازيين قائمة كما يدلنا على ذلك آى . ب . سنجر فى رواية «العبد» وبرنارد مالامود فى رواية «المثبت» وكلتا الروايتين تدوران حول إبادة اليهود فى بولندا وروسيا القيصرية بل إن البعض يطالع بدايات الهولوكست النازى فى اضطهاد الكنيسة المسيحية فى القرون الوسطى لليهود منذ ألف عام .

ويقول الفين روزنفلد إن هناك من روائيى الهولوكست من عبر عنه بطريقة واقعية تكاد تقترب من المذهب الطبيعى مثل بوروسكى وكزنتسوف ولستج وسيميرون وج . ف شتايتر . فبوروسكى يرسم لنا خسة الإنسان ونذالته من أجل البقاء على قيد الحياة . فالراوى لرواية «سيداتى سادتى . . هذا هو الطريق إلى غرفة الغاز» يهودى يتعاون مع السلطات النازية ويخون بنى جلدته من أجل مأكل طيب وشراب لذيذ وملابس قشيبة بعكس ما نراه فى رواية شوارتز بارت «آخر العادلين» التى تصور نبل وشموخ المقاومة الروحية لليهود ضد الخسف النازى . وأيضا من روائيى الهولوكست من يصوره بطريقة سوريالية وعبثية واسطورية مثل دلبو جاسكار وكوسنسكس ولند وراويز والجدير بالذكر أن بورسكى الذى نجا من الموت فى معسكرى الاعتقال فى كل من أوسشفتز وداتشو والذى عاش بعد الحرب العالمية الثانية ليحتل مركزا مرموقا فى بولندا وضع حدا لحياته فى وارسو وهو لم يبلغ الثلاثين من عمره .

ويتناول هذا الفصل دراسة الرعب الناجم عن الهولوكست والذى يتمثل فى رواية كوسنسكى «الطائر المطلي» فى عملية نسف القطار المقل لأعداد غفيرة من اليهود إلى غرف الغاز ومعسكرات الاعتقال كى يخرج عن القضبان ويتحول ركابه إلى أشلاء متناثرة وشائهة . ويعتبر ألفين روزنفلد أعمال بوروسكى وكوسنسكى الروائية من أفظع وأبشع ما كتب فى أدب الهولوكست . وإذا كان الأديب بيوتر راويز يوضح

أن روايته ليست سجلا تاريخيا فإن كثيرا من أدباء الهولوكست يؤكدون على صحة وسلامة روايتهم من الناحية التاريخية . وتختلط الأمور فى عقول بعض مؤلفى أدب الهولوكست فلا يعرفون على وجه التحديد والدقة إذا كانوا يتحدثون عن أحداث غير حقيقية أو أحداث حقيقية . فتشارلوت دلبو فى نهاية روايتها «لا أحد منا سوف يعود» تتساءل : «لم أعد موقنة من صحة ما كتبت ولكنى موقنة من أن الذى كتبته قد حدث بالفعل» . ويضيف روزنفلد أننا نجد أن عددا كبيرا من الروايات التى تدور حول الهولوكست يتضمن مقدمات تشهد على صحة ما جاء فيها من الناحية التاريخية الأمر الذى يعنى أن الخيال الإنسانى وحده يعجز عن تصديق أن الأحداث الروائية حقيقية . فرواية «الساعة» التى ألفها كارلو ليفى تطرح السؤالين التاليين : «هل حدثت هذه الأشياء بالفعل ؟ » و «حيث أن اللغة قاصرة عن التعبير كيف يتسنى للمؤلف أن يروى حكايته بطريقة مقنعة ؟» وأمام الفظاعات التى ارتكبها النازيون ضد اليهود مثل صنع قطع الصابون من دهون أجسامهم تصبح اللغة فى كثير من الحالات عاجزة عن التعبير مثلما نجد فى أدب روايز الروائى وفى رواية «آخر العادلين» التى ألفها شوارتز بارت . والرأى عند ألفين روزنفلد أن أدب الهولوكست يصل إلى ذروته من حيث المقدرة على التأثير عندما يبتعد عن السرد الروائى التقليدى ويتحول إلى نوع من الشعر أى حين يتحول إلى صورة وأخيلة كما هو الحال فى أدب دلبو وبوروووسكي وكوسنسكى وشوارتز بارت وسيمبرون وكذلك أرنوست لستج فى روايته «صلاة من أجل كاترينا هاروفيتسوفا» التى تقول إن ذرات الرماد المتبقية من حرق جثث الضحايا اليهود سوف تصبح جزءاً لا يتجزأ من كل شيء يحيط بالبشر .

الفصل الرابع : شعر الخرس والنهاية :

يقول ألفين روزنفلد إنه كان يعتقد فيما مضى أن بعض الموضوعات بطبيعتها تصلح كمادة للشعر وأن بعض الاستخدامات اللغوية تصلح للتعبير عن هذه المادة . ولكن الوضع لم يعد كذلك منذ منتصف القرن العشرين بل حتى منذ مجئ الشعر الرمزى الفرنسى الذى عالج موضوعات عادية فضلا عن بعض الموضوعات المتسمة

بالقبح وبحلول الرعب النازى تغيرت معايير الشعر وقواعده إذ لم تعد للحياة الإنسانية أية قيمة وعلى حد قول رولف هو تشهوث على لسان شخصية الطبيب منجيل فى مسرحية «النائب» : «الحقيقة أن معسكر الاعتقال فى أوسشفتز ينفى الخالق والخلق والمخلوق كما أن فكرة الحياة ماتت ... وقد يكون هذا بداية عهد جديد عام يبشر بخلاص البشر من العذاب . ومن وجهة النظر هذه لا تبقى لدينا غير جريمة واحدة نرتكبها هى أن نلعن خالق الحياة . فأنا أحول الحياة إلى رماد . وهذه هى الشفقة بمفهومها الحديث . »

يقول آلفين روزنفلد إن الموت فى الماضى كان يثير المشاعر التى تجد فى الشعر أحسن تعبير . أما الموت الوحشى والمنظم الذى يلحقه النازيون بالجنس البشرى فشيء آخر خارج نطاق المفاهيم الشعرية التى عرفتها الإنسانية . والذى عجزت الوحشية النازية عن تحقيقه هو أن تجد فى الشعراء من يحتضن أو يتبنى وجهة نظرها . بالعكس كل ما فعلته هو أنها أرغمت أفضل الكتاب فى أوربا على الصمت أو الهرب. غير أن الجيتو اليهودى أنتج ما يمكن تسميته بشعر الهولوكست . وهو شعر اشترك فى تأليفه شعراء من كل الأجناس وهو يختلف فى تجاربه وأسلوبه من شاعر إلى آخر . إلى جانب أختلاف الشعراء فى القيمة والمنزلة الشعرية . وقد أخرجت أوربا الشرقية عددا من أهم وأشهر هؤلاء الشعراء . ومن الشعراء من استخدم اللغة الألمانية مثل سيلان وكولمار وساشس . ومنهم من استخدم لغة البيديش مثل جلاتشتين وجريد وكاتزنلسون وليفتك ومانجر ومولودفسكى وسوتزيفر وزيتلين وباجيس . ومن الشعراء الآخرين من تناول الهولوكست فى بعض المناسبات مثل فلدمان وهنجت وهيل لاتيون وليفرتوف وميلوسز ونيلينسزكى وبلات ورادنوتى ورزونيكوف وروزفيز وسيمبسون ونيتشنكو وظهرت فى أمريكا كوكبة من الشعراء الشبان الذين سعوا إلى التعبير عن الهولوكست رغم أنهم لم يعاصروه . وقد تناول هؤلاء الشعراء الأمريكان الشبان الناقد وليم هيين فى كتابه «قصائد الصليب المعقوف» (١٩٧٧) و«مخبأ الفوهرر الحصين» (١٩٧٨) . والرأى عند روزنفلد أن القصائد التى كتبها كل من بول سيلان ونيلى

ساشس تعلن عن نوع جديد من الشعر يمكن تسميته شعر النهاية أو الفناء وهو شعر يستمد وجوده من العدم وليس من الحياة . وإذا كان الله قد خلق الإنسان من العدم ومن حفنة تراب نفخ فيها من روحه فإن الشاعر الجديد يحدثنا عن الله الغائب والذى لم يعد له اسم . أى أن لغة شاعر الهولوكست تتناقض تماما مع لغة سفر التكوين الواردة فى الكتاب المقدس . هذه اللغة تنفى ما أورده العهد القديم من وجود خالق ويضيف روزنفلد أن الذى يقرأ بعض قصائد سيلان لا يجد فيها أثرا لوجود الله بل يجد نوعا من الصمود والعناد والتحدى اليهودى كما يجد تطلع شعب محطم إلى إله غائب وسماء خالية من وجوده .

والجدير بالذكر أن معظم شعر الهولوكست لم ينظم أثناء حدوثه بل بعد انتهائه . ومن ثم يخلق بالدارسين أن يسموه شعر ما بعد الهولوكست والقصائد التى ألقتها نيلى ساشس وخاصة فى دواوينها الأولى مليئة بالبكاء والنحيب والابتهال على ضحاياه مثل قصائد «كورس الموتي» و «كورس اليتامى» و «كورس الناجين» وجميعها قصائد تتناول الهولوكست بشكل مباشر فهى تتحدث عن الدخان المتصاعد من المحارق وعن الجلد المسلوخ وإستلال السكاكين . والشاعرة تعنى أخوتها وأخواتها الموتى كما أنها تصف شعرها بأنه «موسيقى الوجيعة الممتدة» . ويذهب روزنفلد إلى أن أفضل أشعار نيلى ساشس ينتمى إلى أدب الصمت المرتبط بعجز الكلمات واللغة عن التعبير . وتتمثل أحسن قصائدها فى ديوانيها الأخيرين أولهما بعنوان «الموت لا يزال يحتفل بالحياة» الصادر عام ١٩٦٥ والثانى بعنوان «الغموض الوضاء» الصادر فى الفترة من عام ١٩٦٣ حتى ١٩٦٦ . يقول روزنفلد إن أدب الصمت ليس جديدا وليس وليد الحرب العالمية الثانية . فجذوره ترجع إلى القرن التاسع عشر ولكنه بلغ ذروته بعد الهولوكست النازى حيث ترنو الشاعرة إلى لغة الصمت ونهاية الشعر . تقول نيلى ساشس فى احدى قصائدها :«عندما جاء الرعب العظيم خرس لساني» . وهذا الخرس ليس لغة استعارية تستخدمها الشاعرة بل حقيقة واقعة فقد أصيبت حرفيا بالخرس والعجز عن الكلام لفترة من حياتها . وكثيرا ما تصف الشاعرة حالة الخرس الناجم عن الرعب الشديد بالسمكة التى تشوهت خياشيمها «فكافحت فى بأس

من أجل استنشاق الهواء ». هذا الرعب دفع الشاعرة على حد قولها إلى البحث عن لغة تخلو من الكلمات . لغة تستطيع أن تعبر بها عن حشرجة الموت أو لغة داخلية لا تنبس بها الشفاه وتجد في التنفس الصامت نظيرا لها . ولهذا تتساءل الشاعرة «هل الروح مجرد تنهيدة؟» وتقول الشاعرة إنه لا يمكن استرجاع اللغة إلا إذا غاص المرء في الظلمة التى سبقت خلق العالم . وهكذا اهتدت نيلي ساشس إلى حل مفاده أن اللغة حين تنتهي يمكن أن يسمع لها صوت . وأيضاً تقول الشاعرة في هذا الشأن :« انتظر الأنفاس حتى تتقطع فسوف تشدو له أيضاً» .

ويحدثنا ويزل عن وفاة والده فى معسكر اعتقال باتشنوالد بلغة واضحة التجديف على الله . يقول : «ولكنه أسلم روحه ليس لإله أبائه وأجداده ولكن لدعى قاس متعطش على الدوام ... سلمها إلى الله العدو . فقد قتلوا إلهه واستبدلوه بإله آخر» . ويعترف الصبي ويزل بأنه لم يصل على جثمانه كما تقتضي بذلك تقاليد اليهود لأنه شعر بعدم جدواها .

ويبدو أن أدب الهولوكست يركز كثيرا على مسألة التنفس فالكاتب تشايم كابلان يقول عن جو معسكرات الاعتقال الخانق نتيجة الازدحام وضيق المكان : «لست أبالغ عندما أقول أننى بلغت حالة من ضيق التنفس .. فبكل بساطة ليس هناك هواء».

الفصل الخامس : الصراع مع إله صامت :

يقول إلياس كانيتي فى مفكرته عام ١٩٤٣ : «لم يعد بإمكان المرء أن يذكر اسم الله بعد الآن . فالله قد أصبح مدموغا إلى الأبد . فهو يحمل على جبينه العلامة التى تميز قابيل» وغنى عن البيان أن قابيل فى الكتاب المقدس هو الذى قتل هابيل . ويقول إلياس كانتى فى موضع آخر من مذكراته : «ألسنا نرى الناس وهم يرسلون إلى الموت بحمولة القطار الذى يقلهم» .

وكتب ريتشارد روبنشتين فى أغسطس عام ١٩٦٦ مقالا فى مجلة «تعليق» بعنوان «مناظرة حول العقيدة اليهودية» جاء فيه :

«عندما أقول إننا نعيش فى زمان موت الله فإنى أعنى بذلك أن الخيط الذى يربط بين الله والإنسان وبين السماء والأرض قد انقطع . إننا نعيش فى كون بارد وصامت وخال من المشاعر بدون مساعدة من أية قوى هادفة ونعتمد على مواردنا الذاتية . فبعد الذى حدث فى معسكر أوسشفتز للاعتقال ماذا يمكن لأى يهودى أن يقول عن الله غير هذا ؟» ويدل شعر كل من بول سيلان ونيلى ساشس على أنهما أوليا هذا التساؤل عظيم اهتمامهما .

ولد سيلان في رومانيا عام ١٩٢٠ وسط جالية يهودية كبيرة العدد . ورغم ولادته فى أوروبا الشرقية فقد كان معظم اليهود فى مسقط رأسه يتحدثون الألمانية ويتطلعون إلى فيينا كعاصمتهم الثقافية . ولم يكن سيلان فى شبابه متمسكا بأهداب الدين ولكنه آل على نفسه العودة إلى التراث اليهودي الشائع فى محل ميلاده حيث شاهد النازيين يدمرون وينفون والديه في أحد معسكرات الموت . وزج النازيون بسيلان فى معسكر اعتقال ولكنه تمكن من الهرب منه . ورغم أنه عاش معظم حياته الراشدة فى باريس فقد كان يؤثر استخدام اللغة الألمانية رغم قدرته على الترجمة من عدة لغات هي الروسية والفرنسية والانجليزية والإيطالية والبرتغالية والعبرية . وفى عام ١٩٥٠ تزوج وأمضى بقية حياته فى باريس وقبل وفاته بعام واحد قام بزيارة اسرائيل حيث قدم قراءات من شعره ويبدو أن سيلان انتحر قبل أن يبلغ الخمسين من عمره فقد اكتشفت جثته فى نهر السين فى ربيع عام ١٩٧٠ . والجدير بالذكر أن صديقته الشاعرة نيلى ساشس التى توفيت فى نفس الفترة التى توفى فيها سيلان تقريباً آثرت هى أيضاً استخدام اللغة الألمانية فى التعبير عن نفسها ويبدو من القصيدة التى ألفها سيلان بعنوان «زيورخ» أنه يتجاذب أطراف الحديث مع الشاعرة نيلى ساشس عندما يلتقيان بعد أحداث الهولوكست فى زيورخ فى مناسبة عيد صعود المسيح حول محنة اليهود ومأساتهم . وهو الموضوع الذى يشغل بال أى يهودى حين

يلتقى بواحد من بنى جلدته . ويتطرق الحديث بين الشاعر والشاعرة عن الله فيتحدث سيلان ضده فى غضب وتحد يصل به إلى حد الكفر بالله . حتى الشاعرة نفسها بسبب غصتها ومرارتها لا تستطيع أن تسبح لله أو تمتدحه .

والكلمات التى يستخدمها سيلان فى قصائده متقطعة وأقرب ما تكون إلى اللعثمة . وهى كلمات تخرج من قلب الظلمة والفراغ وتعجز عن اضاءة ولو جانب بسيط منهما . ومن ثم فهى تنتمى إلى لغة عيية وقاصرة أقرب ما تكون إلى لغة الصمت . وهى لغة تتمثل بوضوح فى قصيدة سيلان «الوقوف» . لقد هجر الله السماء التى انشقت لتكشف عن الندوب الغائرة فيها . ولم يبق أمام الشاعر غير تقديم أنشودته الصامتة وصلاته الخرساء . ويشكو الشاعر من الله لأنه يصم أذنه عن سماع صراخه . وقد عبر سيلان عن هذا الصمت فى عدد من قصائده مثل «المزمور» و «فتحات القنطرة» و «الذى خنقه الطين» و «ذات مرة» . وتؤكد قصيدة «المزمور» أن الله غير موجود وتصفه بأنه «لا أحد» .

وحين تسلمت نيلى ساشس جائزة نوبل للأدب عام ١٩٦٦ قالت إنها كرست كل أشعارها للتعبير عن مأساة اليهود . سعت هذه الشاعرة فى قريضها إلى رسم صورة لفيافى الصرخات لعلها تجعلها مفهومة ومحتملة من الناحية الإنسانية . وهى صرخات ندت عن ضحايا الهولوكست . ولكن يبدو فيما بعد أن الألم فى حد ذاته راق لها . وقد وصلت الشاعرة فى قصائدها إلى حافة الصمت . ولكن الصمت عند سيلان يختلف عن الصمت عند نيلى ساشس فسيلان فى قصائده المهمة يشير إلى احتمال وجود قوة علوية تكمن فى قلب هذا الصمت أو تتجاوزه فى حين أن صمت نيلى ساشس فى أغلب الأحيان صمت ينم عن الفراغ الكامل الذى ينعدم فيه رجع الصدى ولكن يلاحظ أن الشاعرة فى قصائدها الباكرة عبرت عن وجود احتمالات لتجاوز هذا الصمت ووميض يخرج من قلب الظلمة فى حين أن شعرها اللاحق يعبر عن الصمت المطلق وحتمية الموت . وقد نظمت نيلى ساشس مجموعة من القصائد عن أرض اسرائيل تشير فيها إلى بعث الشعب اليهودى واحيائه من جديد عن طريق انشاء دولة

قومية لهم . غير أن الجانب الأعظم من قصائدها عالج أسلوبها فى مواجهة رعب الهولوكست الذى اجتاحها عن طريق ترويض النفس على تحمل المكاره والصبر عليها . وكذلك عالجت القصائد رغبة الشاعرة فى أن تخفف وجيعة بنى جلدتها عن طريق احتضان كل أوجاعهم بين جنباتها . ويبدو أنها لم تستطع أن تبتعد عن ليل الهولوكست البهيم الجاثم فوق صدرها . حتى الناجون منه ظل طيفهم يلاحق خيالها فهى تبكيهم كما بكت راحيل فى الكتاب المقدس على أبنائها لأنهم ليسوا بموجودين . وقد ذكرت الشاعرة عن نفسها أنه كتب عليها الخروج كى تبحث عن الرعب . وهى التى قالت عن فظائع الهولوكست إنه لا يمكن تدوينها على الورق إلا بعد قلع احدى عينى من يقوم بتدوينها . وعندما تتوقف الشاعرة عن التعبير عن الألم الممض نراها تعبر عن خرسها واشتياقها إلى الردى . وفى أخريات حياتها تحولت عبارات الشاعرة إلى مجرد شذرات متناثرة وغامضة . وكما سبق أن ذكرنا عاشت الشاعرة فى قلب الظلمة دون أن تجد بصيص نور يخترمها أو ومضة معنى تشرح لها الألم الذى يطحنها . ولأن كاهلها ناء تحت وطأة الفظاعات النازية فإنها مثل سيلان نذرت نفسها لدراسة كتابات اليهود الدينية لعلها تجد فيها ما يخفف شقاءها ويهديها إلى الطريق لله . ولكن شعرها يخلو تماما من أية إشارة إلى نجاح مسعاها فى هذا الشأن .

ويختتم ألفين روزنفلد هذا الفصل بتوجيه انتباهنا إلى روح التحدى لله التى تتجلى فى شعر نيلى ساشس الأمر الذى يذكرنا بقول إفيل فاكنهايم فى المناظرة التى عقدتها مجلة «تعليق» : «أليس مطلوبا من اليهود المنتمين إلى جيل معسكر أوسشفتز للاعتقال أن يفعلوا ما درج اليهود على فعله فى ساعات الظلمة الحالكة منذ إبراهيم وأرميا وأيوب – أن يدخلوا فى صراع مع الاله الصامت وأن يشهدوا بصراعهم هذا على وجوده» . والجدير بالذكر أن إميل فاكنهايم واحد من أشد أدباء الهولوكست صراعا ضد الله . ولكن هذا الصراع فى كثير من الأحوال يتأرجح بين رفض الله والاستسلام له وبين مقتضيات التعبير اللغوى والامساك عن الكلام .

الفصل السادس : شعر البقاء على قيد الحياة :

يبدأ ألفين روزنفلد هذا الفصل بقوله انه حاول ان يبين العلاقة بين إبادة اليهود فى شرق أوربا وبين انهيار اللغة التى يستخدمونها . وقد اتضح هذا بجلاء فيما سطره كتاب الهولوكست الذين يكتبون بلغة البيديش التى شاعت بين جماهير اليهود فى أوربا الشرقية . ولكن إبادة الجاليات اليهودية هناك أدت بدورها إلى اندثار لغة البيديش بعد فترة دامت ما يقرب من ألف عام . عندئذ دب اليأس فى قلوب شعراء البيديش إذ لم يعد هناك جمهور يستمع إلى شدوهم الأمر الذى حدا بشاعر البيديش المسكين إلى البحث عن مترجم ينقل صوته إلى أناس من غير المتحدثين بلغة البيديش. وتدور القصة التى ألفتها الكاتبة الأمريكية سنثيا أوزيك بعنوان «الحسد أو لغة البيديش فى أمريكا» حول هذا الموضوع حيث نرى شاعر بيديشى يدعى إيدشتين يسعى دون جدوى إلى العثور عن مترجم لأشعاره الأمر الذى أصابه باليأس والاحباط وكاد أن يصيبه بالجنون .

ورغم هذا فقد أنتج شعراء البيديش أفضل قصائدهم فى العقود التى تلت الحرب العالمية الثانية . وتدل القصائد التى نظمها جلاتشتين شاعر البيديش البارز عن الهولوكست أن الله ليس غائبا ولكنه لم يعد يسيطر على مصير شعبه فهو إله مثل اليهودي متعب ومنهوك ويرزح تحت وطأة التاريخ . إله يشعر المرء أمامه بالاشفاق أكثر مما يشعر نحوه بالرهبة والخوف . والمرء لا يسأله العزاء بل يقدم إليه المواساة والسلوى . فجلاتشين يصرخ بسخرية رقيقة : «لست أحب إلهى التعيس بعد أن صار الأن ظالما وشبيها بالبشر» . ويذهب جلاتشتين أن هناك ثمة علاقة بين هوان البشر وهوان الله . فألوهية الله تزول نتيجة المجازر التى تحدث لشعب بنى اسرائيل . ومعنى هذا أن الهوان الذى يصيب المخلوق يصيب الخالق أيضا .

يقول روزنفلد أن جلاتشتين بعد الهولوكست أخذ يبحث عن كلمات جديدة يعبر عن الفاجعة التى حلت باليهود . فالكلمات القديمة لم تعد تجدى والعودة إليها لا تنفع

لأن استخدام الألفاظ القديمة معناه أن الدنيا لم تتغير وأن عالم ما بعد الهولوكست هو نفس عالم ما قبل الهولوكست .

الفصل السابع : تحطيم الكلمة :

يبدأ ألفين روزنفلد هذا الفصل بقوله إنه يوم ١٠ مايو ١٩٣٣ بعد مرور أربعة شهور ونصف على وصول هتلر إلى السلطة حدث في برلين ما لم يسبق حدوثه من قبل منذ العصور الوسطى . ففي منتصف ليل هذا اليوم خرج آلاف الطلبة حاملين المشاعل في طوابير عسكرية وتوقفوا في الميدان الواقع أمام جامعة برلين قبالة كومة هائلة من الكتب أعملوا فيها حرقا بمشاعلهم ثم ألقى المتظاهرون بالمزيد من الكتب في النار حتى بلغ عدد الكتب المحترقة نحو عشرين ألف كتاب . وتكرر هذا المشهد في عدة مدن أخرى . ويضيف روزنفلد أن الشاعر اليهودي الألماني الكبير هايني أول من تنبأ باحراق البشر فقد كتب يقول إن الأمر يبدأ باحراق الكتب ثم ينتهي باحراق البشر . ولم يمض عقد واحد على اشعال النار في الكتب حتى بدأ النازيون بالفعل في حرق الآدميين . وعند اشعال النار تجمع للفرجة على الكتب المحترقة أربعون ألف طالب في جامعة برلين ليخطب فيهم وزير الدعاية جوزيف جوبلز قائلاً : «إن ألسنة اللهب هذه لا توضح نهاية العهد القديم فحسب بل تضيء الطريق للعهد الجديد أيضا» . ويجدر بالذكر أن بعض كتاب الهولوكست مثل أندريه شوارتز بارت اعتقد خطأ أن هذه البربرية النازية مؤقتة وأنها لن تدوم . ولم يخف جوبلز هدفه من وراء حرق الكتب فقد أراد تطهير الثقافة الألمانية من كل أثر أجنبي فيها وبخاصة أثر اليهود الفكري ويذكر ألفين روزنفلد إن مظاهر البربرية والهمجية النازية امتدت لتشمل شرائح المجتمع الألماني المتعلمة والمثقفة .

والرأي عند روزنفلد أن النازية لم تكتف باحراق الكتب بل عملت على افساد اللغة الألمانية بأن حولتها إلى أشكال وصياغات تخاطب العاطفة وتؤثر فيها وتغلبها على العقل الذي يحلل ويدقق . إن اشتراكية هتلر القومية نجحت في تحويل السياسة إلى لاهوت وفي علمنة اللاهوت (أي تحويله إلى شيء علماني) كي يتسنى لها

تسييسه . ولعبت اللغة دورا مهما فى عملية التحول المشار إليها. ومن نتائج هذا التحول أن النازية نجحت فى اضفاء القدسية المسيحية على ممارستها السياسية البشعة.أى أن النازية نجحت فى تحويل الولاء التقليدى للمسيحية إلى ولاء جديد لهتلر. ويكفى للنازى أن يكون لديه أقتناع راسخ بأن هتلر على صواب دائما حتى يتبعه دون تفكير.

وقد كان الصحفى والشاعر اليهودى النمساوى كارل كراوس شديد اليقظة للتغيرات الهدامة التى أدخلها النازيون على استخداماتهم للغة الألمانية . عمل كراوس محررا لصحيفة «الشعلة» لمدة سبعة وثلاثين عاما . وبعد وصول النازيين إلى السلطة فى يناير ١٩٣٣ احتجبت هذه الصحيفة عن الصدور لمدة تسعة أشهر . وعند عودتها إلى الصدور فى شهر أكتوبر من ذلك العام نشرت قصيدة لكراوس جاء فيها : «لا تسألوا عما كنت أفعله طيلة هذا الوقت . لقد ظللت صامتا . ولا تسألونى لماذا التزمت الصمت . فقد سقطت الكلمة فى سبات حين استيقظ عالم (النازية) . وفى قصيدته اللية الثالثة تصدى الشاعر للهجوم على النازية من منطلق انحطاط اللغة التى تستخدمها . ومن المعروف أن كراوس نذر نفسه تماما للغة التى وصفها بأنها العاهرة التى حولها إلى عذراء . وفى عام ١٩٢٢ ألف كراوس مسرحية بعنوان «آخر أيام الانسانية» هاجم فيها دور اللغة وسوء استخدامها اليومى فى تعويد الناس على فظاعات الحروب . يقول كراوس فى «الليلة الثالثة» انه أصبح من الواضح أن النازية سحقت ثراء اللغة الألمانية تحت أقدامها محولة إياها من لغة استعارية غنية إلى لغة حرفية جرداء وقاحلة . ويقول كراوس فى هذا الشأن :

«عندما يتحدث سياسو السلطة عن وضع السكين على رقاب معارضيهم أو أغلاق أفواههم أو التلويح لهم بقبضة اليد فإنهم يستخدمون هذه اللغة الاستعارية بمعناها الحرفى» وكما قال حاكم نازى من حكام الأقاليم :

«نحن لا نقول عين بعين وسن بسن . لا . فإذا قلع أحد عينا لنا فسوف تبادر بتهشيم رأسه . وإذا أسقط لنا سنا فسوف نقوم بتحطيم كل فكه»

واللافت للنظر أن الأدب الألماني عانى من القحل والجفاف في فترة الحكم النازي فقد رحل عن ألمانيا ما يقرب من ألفين وخمسمائة أديب ممن آثروا الهجرة والنفي الاختياري . وكان على رأسهم أدباء شوامخ مثل توماس مان وهنريتش مان وبرتولت برخت وستيفان زيفايج وروبرت موسيل واريش ماريا ريمارك وفرانز فيرفل . كما أن بعضهم آثر الانتحار مثل ستيفان زيفايج ووالتر هاسنكليفر وارنست تولر وكيزت تشوالكس ووالترينيامين . والتزم البعض الصمت كما سلك البعض الآخر سبيل المداهنة فكانت النتيجة أن الأدب الألماني في عهد هتلر عجز عن إنتاج أديب ألماني واحد له قيمته رغم محاولات جوبلز المستميتة في خلق تيار أدبي جديد بهذا الأسم ويعتبر الأديب الألماني الأصل جورج شتاينر الذي هاجر فيما بعد إلى أمريكا من أوائل الذين قالوا إن النازية أنهكت اللغة الألمانية لدرجة لا يمكن اصلاحها . فقد نجحت فقط في التعبير عن جو الجحيم . وظلت هذه اللغة منتهكة لمدة أثنى عشر عاما هي فترة الحكم النازي تعبر عما لا يمكن الحديث عنه أو التفكير فيه . وبالتدريج فقدت الكلمات معناها الأصلي واكتسبت تعريفات شبيهة بالكوابيس فكلمة يهودي أو بولندي أو روسي أصبحت تعني قملة ... وحشرة عفنة يجب على الشعب الآري الصالح أن يسحقها .. مثل الصراصير التي تسير على حائط قذر» .

وإلى جانب ذلك يضرب روزنفلد أمثلة على افساد النازية للغة الألمانية في معسكرات الاعتقال . فقد درج الحراس الألمان عندما يأتي اليهم سجناء يهود جدد يسألون «كم قطعة وصلت اليوم» أي أن الإنسان تحول في نظرهم إلى مجرد قطع . ويذكر ويزل أن أحد قدامى السجناء في معسكر الاعتقال ضرب والده وطرحه على الأرض لأنه استخدم ألفاظ مهذبة مثل «من فضلك» و«عفوا» الأمر الذي اعتبره نشازا في جو المعسكر الفظ . ويخبرنا روزنفلد أن بعض الكتاب الألمان حاولوا في أنتاجهم الروائي استخدام لغة معسكرات الاعتقال الفظة ومنهم جونتر جراس . فضلا عن أن بعض كتاب المسرح حاولوا استخدام هذه اللغة الخشنة في الحوار المسرحي عند تقديم معسكر أوسشفتز للاعتقال على خشبة المسرح . ويعترف الكاتب المسرحي رولف

هوتشهوث باستحالة ذلك فى المذكرات التى كتبها بعنوان «أضواء جانبية على التاريخ» واختتم بها مسرحيته «النائب» . يقول هوتشهوت ان استخدام اللغة الاستعارية التى استعلمها الشاعر بول سيلان فى بعض روائعه الشعرية لا تصلح لتصوير بشاعات الهولوكست على خشبة المسرح وأن كلا المذهبين الطبيعى والسوريالى يعجزان عن تصويرها . فالمذهب الطبيعى يعجز عن التعبير عن كل ما حدث فى أوستشفتز وسوف ينتهى الأمر به إلى التخفيف من أهوالها فى حين أن المذهب السوريالى من شأنه أن يوائم بين فظاعة الأحداث وقدرة الإنسان على التخيل» ولهذا آثر هوتشهوث ألا يركز على فظائع معسكر الاعتقال حتى يعالج فضيحة المجتمع والمؤسسات وعلى رأسها الكنيسة الألمانية التى التزمت الصمت إزاء جرائم هتلر الأمر الذى يشككنا فى الأساس الأخلاقى للحضارة الأوربية .

وتتناول مسرحية «النائب» جريمة السكوت على الهولوكست . وبالتالى فهى تعنى عناية خاصة باللغة التى تفوق فى أهميتها أحداث المسرحية الدرامية . وقد خطرت مسرحية «النائب» على بال مؤلفها عندما اكتشف شخصية بروتستانتى متدين يدعى كيرت جيرشتين دفعه الاشمئزاز من الوحشية النازية إلى الاندساس فى صفوفها للقيام بتخريبها من الداخل . وكيرت جوشتين واحد من شهود العيان القلائل على إبادة اليهود . وتشير المسرحية إلى ضلوع البابا بسكوته على جرائم النازية . ويمثل البابا وطبيب المعسكر الذى يشرف على عمليات الابادة الشر المطلق . ورغم أن البابا المذنب لا يظهر فى المسرحية إلا قليلا فإنه لا يغيب عن بال النظارة أبدا . فلا غرو إذا رأينا عددا من الكرادلة ورجال الكنيسة الكاثوليكية ينحون باللوم على المسرحية لهجومها على بابا الفاتيكان بيوس الثانى عشر . ومسرحية النائب تعتبر مزيجا من الفن والتوثيق التاريخى . وتقترب مسرحية «النائب » كثيرا من الدراما المسيحية الرمزية . وتخبرنا المسرحية فى أحد فصولها أن القوات النازية ألقت القبض على اليهود فى أوربا واقتادتهم إلى مصيرهم المحتوم تحت نوافذ المقر البابوى الأمر الذى يؤكد أن الساكت عن الحق شيطان أخرس . والبابا هنا يشبه بيلاطس البنطى الذى غسل يديه

من دم المسيح قبل أن يسلمه إلى جلاديه . واللغة التي يستخدمها البابا لغة مزخرفة وخطابية ليس لها معنى ولا تقول شيئاً مما يؤكد أن البابا إنسان عديم الشعور لا يأبه بمصير أحد . ويبحث هوتشهوث مؤلف المسرحية فى التاريخ عن السوابق التى مهدت لظهور الهولوكست وجعلت حدوثه أمرا ممكنا فيلوم القديس اجباتيوس ليولا لأنه سبق هنريتش هملر فى تمهيد الطريق إلى استخدام المحرقة بكتابه الديني والكنسي المعروف «تمرينات روحية» . ومن الغرابة بمكان أن يقتطف مؤلف المسرحية فقرة سطرها شلنبرج صديق هملر المؤتمن على أسراره جاء فيها (وهو أمر غير مؤكد) أنه كان يحتفظ بمكتبة كبيرة وممتازة تحوى العديد من الكتب والمراجع التى تصف النظام الجيزويتى وأن هملر اقتدى بهذا النظام القائم على الطاعة المطلقة والترتيب الهرمى فى تنظيم الحركة النازية رغم أنه ينسب إلى هملر قوله بزهو «لن نهدأ حتى نقتلع المسيحية من جذورها» .

الفصل الثامن : استغلال الوحشية :

يبدأ هذا الفصل بالحديث عن المسرحية الشعرية التى ألفها بتير فايس بعنوان «التحقيق» التى تقوم على الحقائق والتوثيق التاريخى . والرأى عند فايس أن هذا النوع التوثيقى من المسرحيات يناسب التعبير السياسي كما هو واضح من مقاله «مادة النماذج : مذكرات نحو تعريف المسرح الوثائقى» . وتدور مسرحية «التحقيق» حول محاكمة مجرمى الحرب التى عقدت فى فرانكفورت فى الفترة من عام ١٩٦٣ إلى عام ١٩٦٥ .

وقد حضر فايس عددا من جلسات هذه المحكمة . فضلا عن أنه طالع التقارير التى نشرها برند نومان عنها . وتعمد فايس أن يصور شخصيات مسرحيته على نحو متماثل وكنسخ من الكربون تخلو من أية خصائص فردية متميزة . فعند التحقيق مع مجرمى الحرب النازيين فيما اقترفوه من جرائم جاءت جميع اجاباتهم واحدة فقد تذرعوا كلهم بأنهم ينفذون الأوامر ويؤدون واجبهم . ولهذا السبب نجد أن المسرحية تعطى الانطباع بأن محكمة فرانكفورت لا تقدم مجرمى الحرب النازيين المسئولين عن معسكر أوسشفتز إلى المحاكمة بل تقدم النظام النازى بأسره إلى هذه المحاكمة . ومن ثم فإن هؤلاء المجرمين ليسوا سوى رموز لهذا النظام الاجرامى . ويفسر فايس النازية بأنها

مجرد رأسمالية تعتمد على تسخير المهزومين وإستعبادهم للحصول على الفوائد والمغانم . وهو تفسير لا يروق لألفين روزنفلد ولا يروق لكثيرين من أدباء الهولوكست ممن يختلفون مع فايس الذى رأى فى معسكرات الاعتقال نوعا من استغلال العمالة الرخيصة ثم إبادتها . ويرجع السبب فى هذا التفسير إلى إيمان فايس بالنظام الاشتراكى واعتقاده أن سجناء معسكرات الاعتقال لا يختلفون بالمرة عن حراسهم . فجميعهم ضحايا للنظام النازى . ويتهم ألفين روزنفلد المؤلف فايس بأنه رسم شخصيات مسرحية تخلو من الشعور والعاطفة ... شخصيات متماثلة لا تميز فيها بين شخصية وأخرى فجميعهم مجرد رموز فى معادلة سياسية . وقد بلغ بفايس الحياد مبلغا جعله يرى أن النازيين وزعوا الابادة على اليهود وغير اليهود بالعدل والقسطاس. وشرح فايس فكرته فى مقابلة أجريت معه قائلا : «إن النازيين قتلوا ستة ملايين يهودى . هذا صحيح . ولكنهم قتلوا أيضا ملايين آخرين (من غير اليهود) . إن كلمة يهودى فى الواقع لم تستعمل أبدا فى المسرحية .. إننى لم أعد أرى نفسى يهوديا بقدر ما أرى نفسى واحدا من شعب فيتنام أو الزنوج فى جنوب أفريقيا . اننى ببساطة أرى نفسى واحدا من المظلومين فى هذا العالم ... إن مسرحية «التحقيق» تدور حول سوء استغلال السلطة لأبعد الحدود الأمر الذى يجعل الناس غرباء عن أفعالهم . وتصادف أن تكون هذه السلطة ألمانية . ولكن هذا مرة أخرى أمر لا أهمية له . ولهذا فإنى أعتبر أن معسكر أوسشفتز يتسم بالصبغة العلمية حيث كان يمكن استخدامه لإبادة أى أحد .. لقد كان يمكن لليهود أن يقفوا بجانب النازيين وأيضا كان يمكن لليهود أن يصبروا السفاحين . ومن ثم فإن مسرحية «التحقيق» تعالج مشكلة انسانية عامة» .

ويمضى الفين روزنفلد فى تناول عدد من كتاب الهولوكست الأمريكان مثل وليم شتيرن وبيلو وسنثيا . وبالنظر إلى أننى سوف أتوفر على دراسة الهولوكست فى الأدب الأمريكى فإنى اكتفى عند هذا الحد فى عرض كتاب روزنفلد «الموت مرتين : خواطر حول أدب الهولوكست» .

الجزء الثانى

أدباء الهولوكست اليهود فى أمريكا

شاءول بيلو (١٩١٥ -)

Saul Bellow

ولد شاءول بيلو يوم ١٠ يونيه ١٩١٥ بالقرب من مونتريال فى مقاطعة كويبك بكندا . وفى مونتريال عاش مؤلفنا التسعة أعوام الأولى من عمره فى أشد أحياء مونتريال فقرا . وهو ينحدر من والدين يهوديين جاءا من مدينة بطرسبرج إلى كندا فى عام ١٩١٣ حيث تورط الأب فى عدد من المغامرات التجارية الفاشلة . وفى طفولته تعلم بيلو اللغات العبرية واليديشية والفرنسية والانجليزية . وبدأ مطالعة العهد القديم وهو فى الرابعة من عمره . وفى عام ١٩٢٤ انتقلت أسرته إلى مدينة شيكاغو حيث وقعت أحداث الكثير من رواياته . وانصرف مؤلفنا منذ حداثته إلى الانغماس فى قراءة الأدب وتعلم فى جامعتى شيكاغو ونورث وسترن التى تخرج منها عام ١٩٣٧ بمرتبة الشرف فى علوم الاجتماع والأنثروبولوجيا . وفى نهاية هذا العام قرر أن يصير مؤلفا . وكما شرحت فى كتابى «اليهود فى الأدب الأمريكى المعاصر» كان الشغل الشاغل للمثقفين اليهود فى عقدى الأربعينات والخمسينات انصهارهم فى بوتقة الحياة الأمريكية . ولعبت مجلة بارتيزان ريفيو دورا بارزا فى التحامهم بالثقافة الأمريكية . وفى هذه المجلة نشر بيلو عام ١٩٤١ أول قصة قصيرة له بعنوان «مونولوجا الصياح» . ولأن بيلو ينتمى إلى الجيل الثانى من اليهود المهاجرين إلى أمريكا فإنه لم يحاول تأكيد هويته الدينية كما فعل الجيل الأول منهم بل سعى إلى تأكيد هويته العلمانية بعيدا عن هوية الآباء والأجداد الدينية . ورغم أن بيلو فى أولى مراحل دراسته العليا فى أوائل عقد الثلاثينيات انخرط فى زمرة التروتسكيين فإنه قطع علاقته بهم فى مطلع الأربعينات . وفى عام ١٩٤٣ ساهم فى اعداد دائرة المعارف البريطانية . وفى عام ١٩٢٤ أصدر رواية «الرجل المتدلي» التى تدور حول الاستبطان والقلق الوجودى . وتعكس هذه الرواية الجو السياسى الذى ساد معظم

المثقفين الأمريكان واحساسهم بخيبة الأمل في الأوضاع القائمة . وبعد «الرجل المتدلي» أصدر بيلو رواية «الضحية» عام ١٩٤٧ . ويرى بعض النقاد أن روايته «مغامرات أوجي مارتش» (١٩٥٣) لفتت أنظار الكتاب اليهود فى أمريكا إلى تناول الموضوعات اليهودية وتتبع ماضى يهود أمريكا الاثنى ، الأمر الذى جعل البعض يطلقون على الأدب الأمريكى فى الخمسينات اسم العقد اليهودى وقد ألف كاتبنا هذه الرواية فى فترة حصوله على منحة جوجنهايم . وكما أوضحت أيضا فى كتابى «اليهود فى الأدب الأمريكى المعاصر» تدل المناظرة التى نظمتها مجلة بارتيزان ريفيو بعنوان «بلادنا وثقافتنا» عام ١٩٥٢ على أن معظم المثقفين اليهود الأمريكان نبذوا اتجاهاتهم الراديكالية الباكرة وآثروا التوائم مع مجتمعهم والاندماج فيه . وقد حصل بيلو بفضل هذه الرواية على جائزة الكتاب القومى عام ١٩٥٤ .

وإلى جانب الروايات ألف بيلو سبع مسرحيات ومجموعتين من القصص القصيرة «الذهاب إلى أورشليم والعودة منها : رواية شخصية» (١٩٧٦) وفيما يلى بيان بعناوين بقية أعماله : «انتهز اليوم» (١٩٥٦) . «هندرسون ملك المطر» (١٩٥٩) - «هيرزوج» (١٩٦٤) - «التحليل الأخير» (١٩٦٥) - «ذكريات موسبى وقصص أخرى» (١٩٦٨) - «كوكب مستر ساملر» (١٩٧٠) - «موهبة همبولدت» (١٩٧٥) - «شهر ديسمبر فى حياة العميد» (١٩٨٢) - «هو وقدمه فى فمه وقصص أخرى - (١٩٨٤) - «الكثيرون يموتون من وجع القلب» (١٩٨٧) - «اتصال بيلاروزا» (١٩٨٩) - «سرقة» (١٩٨٩) - «شيء يذكرك بى : ثلاث حكايات» (١٩٩١) - «الحساب يجمع : من الماضى المعتم إلى المستقبل المشكوك فيه» (١٩٩٤) - «الفعلي» (١٩٩٧) .

وقد حصل بيلو على العديد من الجوائز : حصل ثلاث مرات على جائزة الكتاب القومى وجائزة بولتيزر وصليب الفارس للآداب والفنون كما أن جامعتى هارفارد وييل منحتاه درجة الدكتوراه الفخرية وفى عام ١٩٧٦ منح جائزة نوبل للآداب .

ويرتبط مؤلفنا ارتباطا وثيقا بالكليات والجامعات فقد مارس التدريس بعد الحرب العالمية الثانية فى جامعات مينوسوتا ونيويورك وبرنستون وبارد . وفى عام ١٩٦٣ التحق بالعمل فى جامعة شيكاغو . ورغم أنه يصف نفسه بالليبرالية فإن النقاد يذهبون إلى أن أحداث إنتاجه الأدبى تدل على نزعته إلى المحافظة مما شجع شانئيه على اتهام كتاباته بالرجعية . وأخيرا استقر بيلو مع زوجته الخامسة فى بوسطن حيث يقوم بتدريس الأدب فى جامعة بوسطن .

أبرز أعمال بيلو الأدبية وموضوعاتها :

تعالج معظم الروايات التى ألفها بيلو مشاكل العالم الحديث الفكرية والثقافية والاجتماعية والروحية . والرأى عنده أن الروائى مؤرخ يستخدم الخيال الأمر الذى يجعله يتفوق على العالم فى اقترابه من الحقائق المعاصرة وفى القدرة على تناولها . وهو صاحب قراءات مستفيضة ومنتقاة مما جعله على دراية كاملة بالأدب الغربى والتقاليد الأدبية الراسخة فيه . وجميع رواياته تدور حول بطل يهودى أمريكى من طبقة الحضر المثقفة والتى لا تستطيع (كما جاء فى حكم لجنة نوبل على أدبه) أن تتخلى عن إيمانها بأن قيمة الحياة تتوقف على كرامتها وليس على ما يصيبه المرء من نجاح . رفض بيلو الايمان بأن الإنسان يعيش فى أرض خراب وسعى إلى العثور على النواحى الايجابية فى الحياة ومن ثم إلى تجاوز اليأس والاغتراب . غير أن الناقد البريطانى مالكولم برادبرى لاحظ أن أدبه اتجه مؤخرا إلى النظرة التشاؤمية . ولكن احساسه بالدعابة يخفف بعض الشيء من هذه النظرة التشاؤمية .

ويتميز الأسلوب الذى كتب به بيلو روايتيه الأوليين «الرجل المتدلي» و «الضحية» بالحرص على توخي الشكل فى الكتابة . وفى منتصف عقد الستينات اعترف بأن حرصه الواضح على توخى الشكل المطلوب فى الكتابة الروائية يرجع إلى عقده الاجتماعية المكبوتة . فهو أجنبى ولا يريد أن يعيب عليه أحد سوء استخدامه للانجليزية أو التقاليد الأدبية الراسخة . ولكنه استطاع فى الخمسينات أن يتخلص من

عقده وتمكن من تطوير أسلوب نثرى جديد يتميز بالمزج بين الأسلوب الراقى والانجليزية الجارية على لسان المواطن الأمريكى العادى والتى تتخللها من آن إلى آخر استخدامات حية للغة اليديش .

يقول الأديب الفريد كازين إنه يعتبر دستيوفسكى الأب الروحى لأدب بيلو - الأدب الأمريكى المكتوب بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة . وأيضا تتضمن رواية «الرجل المتدلي» أصداء تعكس تأثرها بكافكا والوجودية الفرنسية . فضلا عن أن بيلو استطاع أن يصور بنجاح مشاعر الإنسان المغترب . وتصور رواية «الضحية» صورة الوحدة والوحشة التى يعانى منها يهودى يعيش فى مدينة نيويورك وهى صورة مستمدة من روايتى دستيوفسكى «الزوج الأبدي» و «القرين» . وتعالج «الضحية» الأضرار الناجمة عن معاداة السامية فى السنوات التى أعقبت الحرب العالمية الثانية مباشرة . فى عام ١٩٦٣ اضطلع بيلو بتحرير كتاب بعنوان «أعظم القصص القصيرة اليهودية» فضلا عن أنه قام فى وقت باكر بترجمة القصة المهمة التى ألفها شاعر اليديش الكبير آي.ب . سنجر بعنوان «جيمبل المغفل» وتنتمى روايته «مغامرات أوجى مارتش» إلى نوع البيكاريسك الذى يروى قصص الشطارة على غرار قصص الشاطر حسن فى الأدب العربى .

وفى أواخر عقد الأربعينات تعرف بيلو على عالم النفس ويلهلم رايخ وتأثر به فى روايته «أنتهز اليوم» و «هندرسون ملك المطر» . وتخلو رواية بيلو «هندرسون ملك المطر» من الشخصيات اليهودية ولكن بيلو يعود إلى معالجة هذه الشخصيات فى روايته التالية «هيرزوج» . وهيرزوج باحث تخصص فى دراسة الرومانسية يمثل الطبقة المثقفة أكثر مما تمثلها شخصيات بيلو الروائية السابقة . ولأن المؤلف ضمن الرواية الكثير من سيرة حياته فإنه يمكن اعتبارها سيرته الذاتية مثل وصفه الجيتو اليهودى الذى عاش فيه فى مونتريال وأصابت هذه الرواية ذيوعا كبيرا بين القراء الأمريكان بوجه عام واليهود بوجه خاص . يقول بيلو فى هذا الشأن إن هيرزوج راقت للقراء اليهود والمطلقين والذين يكلمون أنفسهم وخريجى الجامعات وقراء طبعات الكتب

الرخيصة الثمن وإلى الذين يأملون أن يعيشوا حياتهم ولو لفترة وجيزة .وكذلك تتناول رواية «هيرزوج» فيما تتناول زيجة المؤلف الثانية الفاشلة .

ويرى النقاد أن أوربا دائمة الحضور فى أدب بيلو حتى وهو يكتب عن الحياة الأمريكية . فضلا عن أن الهولوكست دائم الحضور فى أغلب رواياته حتى وإن كان بطريقة غير مباشرة .

الهولوكست في أدب شاءول بيلو :

لا تقتصر اشارات بيلو إلى الهولوكست على أدبه الخلاق فحسب بل إلى كتاباته غير الخلاقة أيضا وعلى رأسها كتابه «الذهاب إلى أورشليم والعودة منها» (١٩٧٦) حيث يدافع بقوة عن حق اليهود فى الحياة وفى إقامة وطن قومى لهم والحفاظ على تراثهم الثقافى كما أنه يهاجم الظاهرة التاريخية المرضية التى تتمثل فى عداوة السامية والاعتداء المتكرر على اليهود . يقول بيلو فى الكتاب المشار إليه بشأن اقامة دولة اسرائيل :

«هناك حقيقة واحدة فى حياة اليهود لم يطرأ عليها أدنى تغيير نتيجة انشاء دولة اسرائيل . فاليهودى لا يستطيع أن يعتبر حقه فى الحياة قضية مسلم بها . الآخرون يمكنهم ذلك ولكن اليهودى لا يمكنه ... إن اليهود بوصفهم يهودا لم يكن فى مقدورهم أبدا أن يعتبروا أن حقهم فى الحياة حق طبيعى ... إن اليهود أصبحوا يعتنقون الأفكار القومية لأنهم وحدهم بين شعوب الأرض لا يتمتعون برسوخ حقهم الطبيعى الذى لا ينازعهم فيه أحد فى البقاء أحياء فى البلاد التى يولدون فيها . فهم لا يزالون محرومين بكل وضوح من هذا الحق . بل إن الغرب الليبرالى نفسه ينكره عليهم» .

قلنا إن معظم أعمال بيلو الروائية تتناول موضوع معاداة السامية كما أنها تتضمن إشارات مستمرة إلى الهولوكست حتى وإن كان محورها لا يدور حوله . وينطبق هذا على أولى رواياته «الرجل المتدلي» (عام ١٩٤٤) التى كتبها فى ذروة

الهولوكست . فرغم أن هذه الرواية لا تتحدث عن الهولوكست فإنها تشير إلى الفكرة الشائعة في أوربا عن اليهود وإلى أنهم تجسيد للشر وأحيانا يستخدم بيلو الاستعارة للتعبير عن الهولوكست . فشخصية جوزيف فى الرواية تحلم بأنها تبحث فى غرفة مليئة بالجثث الناجمة عن مجزرة . ونحن نرى أن المؤرخ موسى فى رواية «هيرزوج» (١٩٦٤) شديد الارتباط بالثقافة اليهودية والتاريخ اليهودى . ففى زيارته إلى جيتو وارسو يجد «أن الحجارة لا تزال تفوح برائحة القتلى أثناء الحرب» . ثم أن شخصية همبولدت فى رواية «موهبة همبولدت» (١٩٧٥) ترفض دعوة إلى القاء سلسلة من المحاضرات فى برلين لأنه يخشى أن يقوم النازيون القدامى باختطافه وفى نظره أن قضاء سنة فى ألمانيا سوف يذكره دوما بالدمار الذى أحدثته معسكرات الاعتقال وبالأرض المشبعة بالدماء وبأبخرة المحارق التى لا تزال تلوث الجو فى أوربا » ثم أن حبكة قصته «صلة بيلاروزا» (١٩٨٩) تدور حول الخواطر التلقائية التى ترد على ذهن بطلها بشأن هارى فونشتين أحد الناجين من الهولوكست .

ولكن بيلو يتناول الهولوكست بوضوح وجلاء فى روايته «الضحية» (١٩٤٧) و «كوكب المستر ساملر» (١٩٧٠) ولكن معالجته لموضوع الهولوكست اتخذت منحى رمزيا فى الرواية الأولى ومنحى واقعيا فى الرواية الثانية .

نبدأ برواية «الضحية» فنقول إن بيلو يعتبر من أوائل الذين عالجوا معاداة السامية . حتى النقاد أنفسهم لم يلاحظوا بادئ الأمر إشاراته الرمزية إلى الهولوكست . والرأى عند مؤلفنا إن اضطهاد النازيين لليهود هو نتاج قرون متصلة من معاداة للسامية فى أوربا .

تقع أحداث رواية «الضحية» على خلفية الكساد العظيم الذى ساد العالم فى الثلاثينات قبل نشوب الحرب العالمية الثانية . وتدور حول رجل يشعر بالتفوق بسبب انحداره من أصل استعمارى اسمه كيرى ألبى ورجل يهودى أمريكى ينتمى إلى الجيل الأول من المهاجرين يدعى أساليفنثال. ورغم أن أساليفنثال ضحية ألبى فإن ألبى يشعر بأنه ضحية أسا . وقبل أن تبدأ أحداث الرواية بسنوات قلائل قام ألبى بترتيب مقابلة

لشغل وظيفة بين اليهودى أسا ورئيسه فى العمل روديجر وهو رجل يتسم بالوقاحة وسوء الخلق . ويرد أسا على وقاحة الرجل بالمثل فيغتاظ الرجل من ألبى الذى توسط لديه لتدبير المقابلة ويطرده من العمل وتثور ثائره ألبى على صديقه اليهودى أسا ويحمله مسئولية طرده من العمل ويطالبه بدفع تعويض عن الأضرار التى لحقت به بسببه كما أنه يمطره بوابل من الشتائم التقليدية التى توجه إلى اليهود . وترجع عداوة ألبى للسامية إلى احساسه بالتفوق على المهاجرين لأنه انجليزى ومن أهل البلد . فضلا عن أنه يشعر أنه من طبقة الحكام التى جاء اليهود المهاجرون لزحزحتها وأخذ مكانها . وكما أسلفنا على الرغم من أن الضحية الحقيقية هو أسا فإن ألبى يعتبر نفسه ضحية الحتمية الاجتماعية والإحلال الاجتماعي» . والجدير بالذكر أن غير اليهود دأبوا على القاء اللوم على اليهود واعتبارهم مسئولين عن الضائقة المالية والمتاعب الاقتصادية التى تواجه المجتمع . وهو اتهام تقليدى جاء النازيون فيما بعد لتأكيده وجعلوا منه مبررا لطرد اليهود من الوظائف والأعمال ومصادرة ممتلكاتهم . ونظرة ألبى لليهود تشبه نظرة أنتونيو إلى شيلوك فى مسرحية شكسبير المعروفة «تاجر البندقية» فهم فى رأية أصل كل الشرور وأنانيون يستغلون الأمم ويسعون إلى الانتقام منها وامتصاص دمائها .

ولكن اليهودى أسا فى الواقع يتألم لمحنة ألبى ويرفض اتهام ألبى له بأنه السبب فى طرده من عمله ويؤكد أن السبب الحقيقى يرجع إلى إدمانه للخمر . ومع ذلك فهو يشعر بأنه ألحق اساءة بألبى دون أن يدرى نتيجة تطاوله على رئيس ألبى فى العمل . ولهذا يشعر أسا بالشفقة نحو ألبى ويستضيفه فى بيته ويكرم وفادته . غير أن ضيفه يستغل كرمه فيأتى بومس ليضاجعها فى فراشه . وفى نهاية الرواية يطرأ على أسا تغير إلى الأحسن فقد تعلم أن يعرف نفسه على حقيقتها ويعالجها عن طريق الاستبطان .

وتعالج رواية «الضحية» كما هو واضح من أحداثها مشكلة المسئولية الأخلاقية عن الاساءة التى يلحقها المرء بالغير عن عمد وغير عمد . ويتمشى سلوك

أسا مع القانون اليهودي الذى ينص على ضرورة دفع تعويض عن أية اساءة غير مقصودة قد يلحقها المرء بالآخرين .

وإلى جانب الكشف عن معاداة السامية سعى المؤلف فى روايته إلى استجلاء ردود فعل اليهود إزاء هذه المعاداة . فأسا يختلف عن والده . ففى حين كان والده المهاجر لا يكترث بزراية الأمريكان لليهود كان ابنه يتوق إلى أن يقبله المجتمع الأمريكى عضوا فيه ويؤلمه كثيرا أن يشاهد مظاهر العداء للسامية .وفى حين كان والده حريصا على الحفاظ على هويته اليهودية التى تميزه ويفضل العزلة عن الناس كان ابنه يصبو إلى أن يصير مساويا لغير اليهود وندا لهم .

وأسا يختلف أيضا عن صديقه دانييل هاركافى الذى قبل التفرقة العنصرية والاهانات الموجهة إليه بسبب يهوديته وابتلع هذه الاهانات وكأنها لم تحدث .

وفى حين يرى أسا الأعداء يتربصون به من كل صوب نجد أن هاركافى يتعامى عن العداوة . ويستخدم المؤلف الصراع الدائر بين اليهود وغير اليهود لإماطة اللثام عن الطبيعة المعقدة للعداء ضد السامية . ويبرر ألبى عداوته لليهود بقوله إنهم يسعون إلى ازاحة السكان الأصليين من الناحية الاقتصادية حتى يأخذوا مكانهم . ويذكر ألبى دور اليهود فى نشر التلوث الثقافى وإثارة المشاعر العنصرية . والرأى عند أسا أن هذه المبررات ليست سوى محاولة من جانب أوربا فى القرن العشرين للتغطية على مشاعر الكراهية التى تحملها ضد اليهود والتى ورثتها عن سالف القرون والعصور . وعندما يتحدث ألبى عن اليهود تراه دائما يشير إليهم كطائفة انعزالية ومنكفئة على ذاتها .

ويشير بيلو على نحو رمزى إلى الهولوكست عندما يربط عن طريق استخدام الأخيلة واللغة الاستعارية بين عداوة ألبى للسامية وعداوة النازيين لها . والبى فى موقفه المعادى لليهود يشكو من انتشار النفوذ اليهودى فى أمريكا تماما كما كان الألمان فى عهد هتلر يشكون من سيطرة اليهود على الحياة الألمانية . وهو يقتبس بعض التشبيهات والاستعارات الشكسبيرية للتدليل على أن اليهودى شيء قمئ يثير المقت فى النفوس فاليهود فى نظره أبناء الشر المتمثل فى شخصية شكسبير المعروفة

كاليبان التى تمثل قمة الشر والقبح والانحطاط . وغنى عن البيان أن النازيين كانوا يعتبرون اليهود سلالة أدنى من الإنسان . ولكن لا يكتفى ألبى بالاعتراض على نشر اليهود للثقافة اليهودية بين الأمريكان بل يشير أيضا إلى قوانين نورنبرج التى أصدرها النظام النازى عام ١٩٣٥ والتى تحظر على أي إنسان يثبت أن نسبة الدماء اليهودية فيه تزيد على ٢٥٪ أن يعزف موسيقى الآريين أمثال باخ وبيتهوفن وموزارت . ويصر ألبى على أنه ينبغى على اليهود أن يمتنعوا عن تفسير الموسيقى الأمريكية والأدب الأمريكى وهو ينتهر يهوديا عندما يسمعه يشدو بأغنية أمريكية قائلا له : «ينبغى عليك ألا تغنى هذه الأغنيات القديمة لأنه لابد أن تكون قد تربيت عليها حتى تستطيع غناءها .. غنى أحد المزامير ... أو أية أغنية يهودية .. شيء يمكنك أن تشعر به فى قلبك» . وأيضا يستنكر ألبى أن باحثا يهوديا تجرأ ونشر كتابين عن الشاعرين الأمريكيين إمرسون وثورو . فهو على يقين من عجز اليهودى عن استيعاب وتمثل الفلسفة الغربية والأدب الغربى . وفى رفضه لهذا الموقف العنصرى المتغطرس من جانب ألبى نرى أسا يشير إلى الهولوكست قائلا : «إن الملايين منا قد لقوا حتفهم» . ولهذا يرى النقاد أن بيلو فى رواية «الضحية» يناقش العداوة للسامية من منطلق الهولوكست النازى . وهو يشير إلى مظاهر الهولوكست عند الحديث عن الشتائم والاهانات التى توجه إلى أسا بسبب يهوديته ويربطها ببعض الممارسات المعادية لليهود مثل إرغام الكنيسة فى القرون الوسطى لهم على ارتداء شارة صفراء لتمييزهم عن سائر العباد ومثل خنقهم بالغازات السامة . وأيضا تذكرنا محاولة ألبى الفاشلة لاغتيال اليهودى أسا باستخدام موقد أى وابور جاز بخنق النازيين لهم عن طريق المحارق وغرف الغاز كما أن المؤلف لا يكف عن ذكر الشارات الصفراء عندما يشير إلى وقاحة صاحب العمل وذويه فى معاملته . وهو دائم الربط بين اللون الأصفر وصنوف الاضطهاد التى يتعرض لها اليهود . ويضيف بيلو إلى هذه الصورة الدالة على معادة السامية رمزا آخر يتمثل فى القطارات الخانقة الازدحام التى كان النازيون يستخدمونها فى شحن اليهود وإرسالهم إلى معسكرات الموت . وهكذا يشير المؤلف

الشجون حول مصير اليهود البائس على أيدى النازيين باستخدام رموز الاضطهاد لهم المتمثلة فى اللون الأصفر والغازات السامة والقطارات المزدحمة . فضلا عن أن بيلو يرسم جوا مليئا بالكوابيس والأحلام المزعجة الشبيه بالجو الذى يخلقه كافكا فى أدبه.

كوكب المستر ساملر :

عندما تقارن بين رواية «كوكب المستر ساملر» وما سبقها من روايات يتضح أن اليهود أصبحوا فى هذه الرواية يحتلون محورها ويشكلون ركيزتها الأساسية بعد أن كان دورهم فى الروايات السابقة جانبيا وهامشيا . ويختلف الروائى الأمريكى بيلو فى معالجته لليهود عن أقرانه الأوربيين أمثال إيلى ويزل وتادوز بورنسكى . فهذان الروائيان الأوربيان يصوران الأعمال الوحشية التى يمارسها النازيون فى معسكرات الاعتقال . أما بيلو فيصور الناجين من الهولوكست وهم يتذكرون أحداث الماضى وفظائعه التى لا تفارق أذهانهم . كما أنه يصور الاضطرابات النفسية والسلوكية التى يعانى منها هؤلاء الناجون بسبب الأهوال التى واجهتهم . وإذا كانت هذه الطريقة فى تقديم الهولوكست لا تصور بشاعاته المباشرة فإنها تنجح فى نقل صورة هذه البشاعات على المدى الطويل . فالناجون من الهولوكست الذين هاجروا إلى أمريكا لا ينسون مطلقا الفظائع التى حدثت لهم فى أوربا . ومن بين آثار الهولوكست المدمرة التى يعانى منها ضحاياه على المدى الطويل القضاء على قدرة الإنسان الخلاقة وعلى قدرته على الحب . فضلا عن إصابته بالبلبة الدينية .

نشر بيلو روايته «كوكب المستر ساملر» عام ١٩٧٠ أى بعد مرور ثلاثة أعوام على الحرب بين اسرائيل والعرب فى يونية ١٩٦٧ وتضمنت موقف المؤلف من هذه الحرب ورأيه فيها . ومعظم الرواية يدور فى ذهن بطلها ساملر كما أن جزءاً كبيرا منها يدور حول وفاة ابن عمه الدكتور إلياجرونر الذى أسدى إلى ساملر وابنته شولا الجميل. وكانت وفاة الدكتور إليا جرونر سببا فى أن يمعن ساملر التفكير فى معنى الحياة والموت والأخلاق .

ورواية «كوكب المستر ساملر» تعالج موضوع الهولوكست النازى باستفاضة . وهى تهاجم اليسار الجديد وثقافة المجتمع الأمريكى فى فترة الستينات وتتجه إلى المحافظة . وساملر شديد الاهتمام بمصير اسرائيل ولا يلقى بالا لسير الإنسان على سطح القمر لأول مرة فى التاريخ البشرى . ويعتبر النقاد الرواية أكثر أعمال مؤلفها اغراقا فى اليهودية واحدى أبرز الروايات المكتوبة عن اليهود الذين نجوا من الموت فى الهولوكست النازى وقد مر بطلها ساملر بتجربة يشيب لها الولدان إذ قام النازيون فى بولندا اعتقادا منهم أنه ميت بالقائه فى مقبرة جماعية تضم جثة زوجته . وتمكن الرجل من الزحف طليا للحياة بعد أن قلعت احدى عينيه . واستطاع بمساعدة ابن عمه الدكتور إليا جرونر الهجرة إلى أمريكا . ونحن نراه دائما يلبس نظارة داكنة ليخفى وراءها عينه التى قلعها النازيون بمؤخرة بندقية ويحمى أيضا عينه السليمة من الأذى . والعين المقلوعة تذكر ساملر على الدوام بأهوال الهولوكست . ويبدو أن المؤلف يكن لساملر احتراما خاصا فهو يطلق عليه لقب مستر فى حين أنه يذكر كل أبطاله الروائيين دون ألقاب ويتجنب هذا الرجل الحديث عن تجاربه أثناء الحرب الثانية ويسعى إلى النظر إليها عن بعد وبموضوعية . فضلا عن أنه يرى أن عبقرية النازيين تكمن فى أنهم نجحوا فى تقديم أبشع الجرائم التى يرتكبونها على أنها شيء عادى ومألوف وهو يحاول أن يفهم معنى التشوه النفسى الذى أصابه من جراء الهولوكست كما يحاول أن يفهم معنى أن يكون الإنسان انسانا . ولأن ساملر ينحدر من عائلة ليبرالية متحررة فى الفكر والعقيدة فقد كانت صلته بالدين اليهودى ضعيفة . والرواية تتسم بالتشاؤم والقتامة رغم وجود بعض الجوانب الايجابية فيها كما أنها تجمع بين الجدية التامة والدعابة الطلية . ومن أكثر المناظر مدعاة للتفكه والضحك والسخرية منظر يهودى عميل محب للسيطرة والاستعراض عينه النازيون ملكا على يهود الجيتو ينهى ويأمر – وهو الخادم المأمور المطيع – فى نصف مليون شخص من بنى جلدته ، بينما النازيون يتسلون عليه . وأسم العميل المتعاون مع الألمان هو رومكونسكى الذى يقارن بيلو بينه وبين العميل النازى المعروف ايخمان . وأغلب الظن أن المؤلف استقى معلوماته عن هذا العميل المثير للاستهزاء من مقال نشره المؤرخ سولومون بلوم عام ١٩٤٩ .

وأحداث الرواية تستغرق يومين وتركز على خواطر ساملر وأفكاره وتجاربه بينما ابن عمه طبيب النساء الدكتور إليا جرويز يسلم الروح فى المستشفى وهذا الطبيب - كما أسلفنا - انسان عطوف وشفوق ساعد ساملر وابنته شولا على الهجرة إلى أمريكا بسبب تعلقه الشديد بأسرته وولائه لها . والجدير بالذكر أن شولا - ابنة ساملر - فقدت عقلها واتزانها بسبب الأهوال التى لقيتها أثناء الحرب العالمية الثانية. وهى فتاة غير سوية لا تتورع عن سرقة أبحاث عالم هندى يدعى الدكتور لال عن الوصول إلى القمر .

وتجسد شخصيات الرواية بطرق مختلفة أزمة الحضارة الغربية فى الزمن الحديث وقد عمل بطلها بالصحافة فى مجلة كوزموبوليس الصادرة فى لندن فى الفترة بين الحربين العالميتين الأولى والثانية حيث تعرف بالكاتب البريطانى هـ.ج ويلز على نحو ما أسلفنا وآمن بدعوة ويلز إلى إقامة دولة عالمية وبقدرة الإنسانية على الارتقاء بنفسها عن طريق التقدم العلمى إلى مدارج الكمال . ولكن تجاربه المريرة نتيجة الهولوكست من ناحية وما رآه من جنون يسود المجتمع الأمريكى فى أواخر الستينات من ناحية أخرى بدد كل ثقته فى البشر وتقدم الانسانية وعندما استقر به المقام فى أمريكا أدرك أن أمريكا المعاصرة لم تعد الملجأ الذى يوفر له الأمن والحماية لأن ما يسميه رومانسيتها المظلمة انتصرت على المذهبين الانسانى والتنويرى كما سادتها ثقافة الاستهلاك والطلب . ورأى ساملر أن أمريكا بجشعها المفرط وايغالها فى الفردية أصبحت قلب الغرب المريض . والصور التى يعطيها المؤلف لأمريكا فى أواخر الستينات صورة محافظة تكشف عما أصاب الحياة فيها من تدهور ثقافى وانحلال روحى . هى صورة قاتمة تنذر بالشؤم . يقول بيلو فى روايته فى هذا الشأن :

« إن نيويورك تجعل المرء يفكر فى انهيار الحضارة وفى سدوم وعامورة أى يفكر فى نهاية العالم . إن النهاية هنا لن تكون مفاجأة لأحد .. فى يوم واحد قام قيصر روما بسفك دم أربعمائة وثلاثين ألفا من مجتمع التكنكتيرى لدرجة أصابت روما بالفزع . ولست على يقين من أن هذا يمثل أفظع الأزمنة ولكن يلوح فى الأفق أن

كل شيء ينهار ويتساقط الأمر الذى يؤثر فى . لقد كنت أكره الناس الذين يصرحون بأن هذه النهاية . ولكن ماذا يعرفون عن النهاية . وإنى من واقع تجربتى الشخصية وواقع القبر الذى خرجت منه - إذا سمح لى أن أقول هذا - عرفت شيئاً عن هذه النهاية . غير أن الصواب جانبنى فكل إنسان يمكن أن يشعر بالحقيقة بين حناياه» .

وتختلف رواية «كوكب المستر ساملر» عن «الضحية» فى أن «الضحية» تستخدم الرمز فى رسم صورة الهولوكست فى حين أن «الضحية» تعطينا صورة واقعية عنه . ورغم واقعية هذه الرواية فإنها لا تخلو من الاشارة إلى اللون الأصفر الذى قلنا إنه يرمز إلى اضطهاد العالم المسيحى لليهود بإرغامهم على ارتداء شارة صفراء حتى يسهل على المسيحيين التعرف عليهم . ومعنى هذا أن رواية «كوكب المستر ساملر» تجمع بين الواقعية والرمزية . وتقع أحداثها فى مدينة نيويورك . ويتخذ المؤلف مما تعانيه هذه المدينة من شقاء ومرض وانحلال رمزا لحال العالم كله . وتشبه هذه الرواية فى تركيبها ومبناها روايات أخرى عن الهولوكست لكتاب آخرين مثل رواية «صاحب محل الرهونات» و «الثامن والعشرون من أيلول» و «المجرة أكلة لحوم البشر» . وجميع هذه الروايات تبدأ وتنتهى فى الفترة التى أعقبت الهولوكست وتعتمد على الذكريات فى تصوير بشاعته واستجلاء ما تعرض له ضحاياه من تشوهات نفسية وبدنية . فلا غرو إذا رأينا البطل ساملر يستغرق فى الاستبطان .

ولم تنجح العشرون عاما التى قضاها ساملر فى أمريكا فى أن تجعله يحيا حياة عادية فهو لا يزال يتساءل إذا كان له مكان بين الأحياء ويصل إلى اقتناع كامل بأنه شخص يختلف تماما عن غيره من البشر الذين لم يجربوا أهوال الهولوكست فى حياتهم . يقول ساملر فى هذا الشأن :

«إننى أدرك شذوذ تجربتى . وأحيانا أتساءل إذا كان لى مكان هنا بين الآخرين . إننى افترض أنى بشر مثلكم . ولكنى أختلف عنكم . وإنى أشك فى قدرتى على الحكم على الأشياء لأن قدرى فى الحياة كان متطرفا . لقد كنت شابا مجتهدا وغير مؤهل للأفعال ولكنى رأيت نفسى فجأة فى خضم هذه الأفعال : الدم - المدافع -

القبور – المجاعة . أنها عملية جراحية شديدة العسر ولا يمكن للمرء أن يخرج منها سالما ... وبحكم ظروفي كنت أسأل نفسي أسئلة بسيطة .. مثل هل أنا حي حقيقة ! أو أنه لم يبق عندي غير وهم بأني حي ؟ وأنا أعرف الآن أن الإنسانية تخص بالموت بعض الناس بعينهم» .

كان سامل قبل الهولوكست يؤمن على غرار هـ.ج. ويلز بإقامة نظام عالمي مبني على التسامح وعلى الموقف العقلاني والعلمي في الحياة . وقد أمضى سامل المحب للثقافة الانجليزية عشرين سنة من حياته في لندن حيث كان يعمل صحفيا ومراسلا لصحف وارسو . وقبل نشوب الحرب الثانية عاد إلى بولندا ليطالب ببعض الأراضي التي تمتلكها عائلته . وفي بولندا انهارت أحلامه وتحطمت آماله فهي لم تكترث بعشقه للثقافة الانجليزية كما أنها لم تعتبره واحدا من أبنائها بل عاملته كيهودي غريب عنها .

ثم نشبت الحرب الثانية وحدث الهولوكست نتيجة غزو ألمانيا النازية لبولندا وأصابه الهولوكست بأضرار بالغة على نحو ما أسلفنا فقد لحق الشلل بجهازه العصبي وكانت آثار الهولوكست تظهر عليه من وقت لآخر في شكل صداع كلي كما كانت حالات الصرع تنتابه .

والمهم أن تجربة الهولوكست جعلته يتشبث بيهوديته ويؤيد إقامة وطن قومي لليهود بكل ما أوتي من عزم وقوة . ويتجلى لنا هذا في موقف سامل من حرب الستة أيام بين اسرائيل والعرب عام ١٩٦٧ . فرغم تجاوزه لسن السبعين وفقد البصر في احدى عينيه نراه يبادر بالسفر إلى اسرائيل كي يقف بجوارها في محنتها . تقول الرواية عن سامل :

«لم يكن بمقدوره أنه يجلس في نيويورك يطالع الصحافة العالمية . على الأقل لأنها المرة الثانية خلال الخمسة وعشرين عاما التي يتعرض فيها نفس الشعب للفناء ... شعر بضرورة الذهاب إلى موقع الأحداث . سوف يذهب هناك كي يرسل التقارير

.. ويفعل شيئاً . وربما كى يموت فى المجزرة . ولهذا لم يكن باستطاعته الجلوس فى نيويورك .. نيويورك تلك المدينة الداعرة المشاغبة المرتجفة .. وذهب ساملر فى تطرفه إلى أبعد الحدود . ولأن اليأس ربما ذهب به كل مذهب أخذ يفكر فى تناول الأقراص المنومة .. السم . فقد كان فى حقيقة الأمر يعانى من جهازه العصبى المرتبك .. الذى أصبح شبيها بالمكرونة الاسباجيتى . تلك كانت أعصابه البولندية القديمة تنقح عليه من شدة الألم . »

وهناك كما نعرف علاقة وثيقة بين الهولوكست النازى وهجرة اليهود إلى اسرائيل .

ويرى المؤلف شا ول بيلو مثل إيليا فيزل إن الناجين من الهولوكست يتحرقون شوقا للادلاء بشهادتهم كى يذكروا العالم الذى استقبل محنتهم فى صمت باشتراكه فى اقتراف جريمة إبادة اليهود . والفصل الأخير من الرواية يعطينا بالتفصيل صورة مجسمة للقبر الجماعى الذى دفن فيه ساملر وتمكن من الخروج منه سالما :

«إزداد عمق الحفرة وانشطر تراب وأحجار مسقط رأسهم فى بولندا . كان قد فقد الابصار لتوه وبدا وجهه كوجه أذهلته المفاجأة . ولم يحس بالدماء تسيل منه ... حتى رآها تلطخ ملابسه . وبدأت المدافع تطلق نيرانها . ثم جاء صوت مختلف من الأرض .. صوت احتكاك معدن منبعث من جاروف ... لقد تشبث بأظافره للخروج (من الحفرة) . ولو كان أسفل الحفرة لكان قد أختنق . ربما هناك فى تلك الحفرة من دفنوا أحياء . »

لا شك أن هذا الوصف للهولوكست الذى يأتى فى خاتمة الرواية وصف مباشر وفيزيقى أو طبيعى ويختلف عن أوصاف الهولوكست الواردة فى الفصول السابقة والتى تعتمد على ما يثيره من شجون وذكريات .

وتتطلع روح ساملر الممزقة بعد نجاته من الموت بأعجوبة إلى الفهم الروحى فالجسد بعد أن قابل الموت وجها لوجه أصبح شيئاً غير ذى بال . فالمهم أن تهدأ الروح

ونجد تفسيرا لما يحدث . تقول الرواية فى هذا الشأن :

«أراد من الله أن يتحرر من العبودية لما هو عادى ومحدود وأن يكون روحا متحررة من الطبيعة ومن الانطباعات ومجريات الحياة اليومية .. وهل يمكن لإنسان خرج من القبر أن يرغب فى أى شيء غير الروح» .

وتتناغم هذه الفقرة مع فقرة أخرى أوردها بيلو فى كتابه «الذهاب إلى أورشليم والعودة منها» الذى عبر فيه عن بالغ تحمسه ومناصرته لاسرائيل .

تقول الفقرة :

«يمكن اعتبار الهولوكست درسا أو مشروعا مقصودا بشأن اعادة التعريف الفلسفى . أنتم أيها الناس المتدينون والمستنيرون . أنتم أيها المؤمنون بالحرية والكرامة والتنوير .. أنتم تظنون أنكم تعرفون ماهية الإنسان . سوف نبين لكم ماهية الإنسان وماهيتكم . أنظروا إلى المعسكرات والمحارق التى أقيمت لنا وانظروا إذا كان بإمكانكم أن تحملوا قلوبكم على الاهتمام بهذه الملايين من الناس» .

ويخطيء القارئ إذا ظن أن ساملر الناجى الوحيد من الهولوكست فهناك من حوله ناجون آخرون الأمر الذى يجعل من الضرورى على ساملر أن يذكره . فالكثيرون غيره أصابهم ما أصابه من تشوهات نفسية وجسدية من جرائه . وإذا كان ساملر وأمثاله تعرضوا للإبادة لأن بولندا أرادت تطهير أراضيها من كل اليهود فإن روسيا ليست أفضل حالا من بولندا وألمانيا النازية . فرغم أن الرسام اليهودى ايزين – احدى شخصيات «كوكب المستر ساملر» – جرح فى معركة ستالنجراد فإن الجنود الروس لا يتورعون عن الالقاء به خارج قطار يتحرك . فلا غرو إذا رأيناه بعد نجاته من الموت يرسم لوحات معبرة عن القبح والتشويه . ولا غرو إذا رأينا الهولوكست يدمر طاقته الخلاقة وقدرته على الابداع .

ويصف ساملر لوحات إيزن بأنها نتاج «عقل ملتاث وروح مروعة» . والأشخاص الذين يرسمهم إيزين أقرب إلى الجثث والأجداث منها إلى البشر . والأثر

الذي يتركه الهولوكست فى نفس ساملر يختلف عن الأثر الذى يتركه فى إيزين . فإيزين بسبب الاضطهاد يتحول إلى شخص يتعطش إلى ممارسة العنف فى حين أن الاضطهاد يجعل ساملر بعد أنتهاء الحرب العالمية الثانية يعيش فى عالم الكتب والروحانيات ويطالع أعمال المؤرخين والفلاسفة . ويختلف تأييد إيزين لاسرائيل عن تأييد ساملر لها . فإيزين يجد متنفسا لعنفه فى الانضمام إلى صفوف الجيش الاسرائيلى ليقاتل العرب بشراسة . فى حين أن ساملر يعبر عن ولائه لاسرائيل بالكلمة وكصحفى يكتب التقارير عن الصراع العربى الاسرائيل من وجهة نظر اسرائيلية وطبيعة ساملر المتأملة تجعله عاجزا عن فهم ممارسة إيزين للعنف ، فهو لا يفهم أن يقوم اليهودى بممارسة العنف ولكنه يفهم فقط أن يكون اليهودى ضحية عنف الآخرين . (والرأى عندى أن ساملر يعيش فى وهم فقد أثبتت الأحداث الأخيرة فى الأراضى الفلسطينية أن قدرة اليهود على ممارسة العنف لا تختلف عن قدرة النازيين والروس والبولنديين على ممارسته) .

وتعانى شولا ابنة ساملر من الاهتزاز النفسى والانفصام الثقافى والدينى نتيجة اختبائها من النازيين لمدة أربع سنوات متصلة فى دير بولندى . ويعيب ساملر على ابنته التواءها ولجوئها إلى السرقة والاحتيال (فقد سرقت من عالم هندى اسمه الدكتور لال مخطوطاته عن نزول الانسان على سطح القمر) ولكنه يفسر هذا بأنه نتيجة ما قاسته من جوع وشظف وحرمان . وترجع بلبلة شولا الدينية إلى الفترة الطويلة التى أمضتها مع الراهبات المسيحيات فى أحد الأديرة البولندية وإلى الأثر الذى تركته حياة الدير فيها . وتعتبر شولا التى تتمتع بالذكاء رغم لوثتها أن الهولوكست النازى هو مجرد تكرار للاضطهاد الرومانى لليهود فى غابر الزمان . وينتهى الأمر بشولا أن تختار اسرائيل وطنا لها .

ومن الأمور اللافتة للنظر أن أدب الهولوكست سواء كان فى أوربا أو أمريكا كثيرا ما يدور حول البلبلة الدينية كما رأينا فى حالة شولا التى تأرجحت بين الديانتين اليهودية التى تربت عليها والمسيحية التى وفرت لها أمن وحماية الدير لها من النازية

حتى ساملر نفسه الذى ينحدر من أبوين شديدى التمسك بالعقيدة اليهودية كان قبل اندلاع الحرب يزهو بتحرره الفكرى . ولكنه يعود إلى حظيرة الديانة اليهودية بعد أن أنكوى بنار الهولوكست . يقول ساملر فى هذا الشأن :

«فى خلال فترة الحرب فقدت إيمانى بالدين وكرهت دائما طرائق المتمسكين بأصوله وتقاليده . ورأيت أن الله لا يتأثر بالموت وأنه غير مكترث بالجحيم .. أو ليس هناك اهتمام بالعدل؟ أو ليس هناك شيء يستحق الشفقة والعطف؟ هل الله مجرد تميمة تشغل بال الأحياء؟»

إن الردة المؤقتة عن الدين شاعت بين اليهود الذين اكتووا بأتون الهولوكست. ويوجه ساملر إلى الله نفس الاتهام الذى سبق لكاتب الهولوكست الأوربى فيزل أن وجهه إليه . فساملر يوجه إلى الله نفس الإدانة لفشله فى الحفاظ على الميثاق وهو يبذل نفس محاولة فيزل لنبذ الله نبذا كاملا كما يظهر نفس إلحاحه غير الإرادى نحو الإيمان . وتدل سيرة حياة ساملر على التأرجح بين نقيض الشك والإيمان . فأثناء الحرب غمرت البهجة ساملر المنكر لله عندما أفلح فى قتل جندى ألمانى . غير أن إيمانه بالله ما لبث أن عاد إليه عقب شفائه من الهولوكست النازى . ويسترد ساملر صحته وعافيته الروحية ويبل من الهولوكست ومعاداة السامية البولندية تماما عندما يعترف بأن لأعدائه حاجاتهم الانسانية الواجبة تلبيتها ويصف بعض النقاد حالة ساملر الروحية بأنها تأرجح بين نقيضين «بين معرفته بعدم اكتراث الله (بالإنسان) كما يتضح من تجربة الهولوكست والايماءات الدالة على وجود الله فى مجريات الحياة اليومية» : ولا يجد ساملر فى عمره المتقدم غير الفلسفة والتاريخ والأدب الغربى وسفر الجامعة فى الكتاب المقدس يلوذ به . وينتهى ساملر بتأكيد إيمانه المفقود بكل من الله والإنسان .

وهناك شخصية أخرى تدعى بروتش فى رواية «كوكب المستر ساملر» نجت من الهلاك فى الهولوكست . وهى تعبر عن تصميمها على رفض الله والديانة اليهودية بسبب شعورها العميق بخيبة الأمل لأن الله لا يقيم وزنا لعذاب شعبه ولكن هذا الكفر بالله على أية حال لا يدوم .

ومن المناظر المروعة فى رواية «كوكب المستر ساملر» أن بروتش يتمثل نفسه ميتا ويرقد مسجى على الأرض بينما زميله فى السجن يقيم القداس على روحه . وهناك أيضا غرق بعض المساجين فى حفر البراز التى تصب فيها مراحيض المعسكر وصدور الأمر للحراس النازيين بعدم أنقاذهم حتى تغلظ قلوب الحراس فلا تعرف الرحمة إليها سبيلا . ويرسم بيلو فى هذه الرواية صورة مفزعة لجيتو اليهود البولندى حيث يتسلى النازيون بإقامة مسجون يهودى مخبول ملكا على نصف مليون سجين يهودى .

تقول الرواية فى وصف سكان هذا الجيتو :

«تحول الجيتو إلى معسكر عمل . وألقى القبض على الأطفال . وتم نفيهم تمهيدا لإبادتهم وانتشرت المجاعة . كما تم احضار الموتى لوضعهم على الرصيف جثث رقدوا فى أنتظار وصول العربة لنقل الجثث» .

ويرفض آرثر ساملر أن يلتمس الأعذار لشرور النازية . وعندما تطلب منه احدى قريباته التعليق على رأى المؤرخة اليهودية المرموقة هاناه أرندت القائل بأن النازى المعروف ايخمان وأمثاله بشر عاديون وليسوا وحوشا كاسرة إذا أنهم يؤدون واجبهم بأمانة واخلاص نراه يعترض على هذا الرأى ويرفض زعم هاناه أرندت أن الشر الذى يمارسونه لايرجع إلى سوء خلقهم وطباعهم بل يرجع إلى طبيعة النظام الشمولى الغاشم الذى يخدمونه . فساملر يصر على ضرورة أن يتحمل الفرد المسئولية الأخلاقية عن أفعاله . والرأى عند ساملر أنه ليس هناك عذر لهؤلاء النازيين فقد نشأوا وترعرعوا فى ظل مجتمع مسيحى سابق على ظهور النازية ومن ثم ينبغى عليهم التمييز بين الخير والشر وأن يتنبهوا إلى العلاقة الوثيقة التى تربط بين عداء السامية وقتل اليهود . وبسبب تعرضه للقسوة اللاعقلانية يسعى ساملر إلى ترسيخ مكانة العقل والنظام والتقاليد والكرامة الانسانية لمواجهة الفوضى التى تعيث فى كل مكان . ويزدرى ساملر نظرية المؤرخة هاناة أرندت التى تساوى بين ممارسة الشر وممارسة الأعمال الاعتيادية والمألوفة لأن المساواة بينهما قمينة بتبرئة الانسان من أفعاله فالحياة

الإنسانية شيء مقدس لا ينبغي انتهاكه والتقاليد الانسانية والمسئولية الأخلاقية والجماعية أشياء لا يجوز للإنسان أن يوليها ظهره هذا ما تعلمه ساملر من تجربة الهولوكست التي دلته على أن المعيار الأخلاقي أساسي في الحكم على الأشياء وأن الله يلزمنا بتطبيق هذا المعيار الأخلاقي : فضلا عن أن الهولوكست علمه قدسية الحياة وأهمية القيم الروحية اليهودية .

ويطرح النقاد تساؤلا يهم العرب على نحو مباشر : «ماذا حدا ببيلو إلى الكتابة عن الهولوكست في «الضحية» عام ١٩٤٤ ثم في «كوكب المستر ساملر» عام ١٩٧٠ . فالرواية الأولى مكتوبة في فترة الهولوكست النازي والرواية الثانية بعد الحرب بين اسرائيل والعرب في يونية ١٩٦٧ . وبالأسف نرى أن بعض النقاد يعزون عودة بيلو إلى معالجة موضوع الهولوكست النازي عام ١٩٧٠ إلى تهديد العرب بالقاء اسرائيل في البحر عام ١٩٦٧ . وهم يدللون على ذلك ببعض الفقرات في الرواية . وهو ما يؤكده بيلو في كتابه «الذهاب إلى أورشليم والعودة منها» حيث يبرز هذا المؤلف أوجه الشبه بين الخطاب العربي والخطاب النازي . يقول بيلو عن تجربته الصحفية كمراسل لصحيفة نيوزداي في سيناء أثناء حرب ١٩٦٧ إنه عثر على بعض الكتب الهزلية التي تتفكه على اليهود وتصورهم بطريقة كاريكاتورية شبيهة في عدائها للسامية بالكتب والمجلات التي كان النازيون ينشرونها كي يشاهدها الجنود العرب الأميون . وأيضا يتهم بيلو العرب بترويج كتاب مزور ينسبونه بهتانا إلى اليهود هو كتاب «بروتوكولات حكماء صهيون» كما أن بيلو يدافع بقوة عن حق اسرائيل في البقاء في كتابه «الذهاب إلى أورشليم والعودة منها» . يقول بيلو أن الدول المختلفة وقفت صامتة ومكتوفة الأيدي وهي ترى العرب يهددون بافناء اسرائيل عام ١٩٦٧ تماما كما التزمت الصمت وهي ترى النازيين يقومون بالفعل بابادة اليهود . ورفض ساملر على نحو ما أسلفنا أن يعيش في أمان في نيويورك وهو يرى اسرائيل تتعرض للخطر عام ١٩٦٧ . ولهذا قرر الوقوف بجانبها والانضمام إلى صفوفها في مواقع مختلفة : الأردن وسوريا وسيناء واسرائيل . وسافر إلى الشرق الأوسط

كمراسل صحفي لجريدة بولندية . والجدير بالذكر أن ساملر يستخدم نفس الكلمات التي وردت في يوميات المؤلف والتي تحمل عنوان «يوميات اسرائيلية» والتي أعدها المؤلف لنشرها في صحيفة نيوزداي . تقول الرواية أن ساملر أظهر عطفا وغثيانا لمرأى الجثث المصرية التي دب فيها العفن في شبه جزيرة سيناء وهو نفس ما أورده بيلو في التقرير الصحفي الذي كتبه من سيناء إلى جريدة نيوزداي بتاريخ ١٣ يونية ١٩٦٧ . ويردد ساملر نفس ما يورده المؤلف عن تدمير الأسلحة الروسية التي كانت بحوزة الجيش المصري .

ويلاحظ القارىء تغيرا ملحوظا في ولاء ساملر عام ١٩٦٧ فقبل ذلك التاريخ كانت زياراته إلى اسرائيل مجرد زيارات سياحية ولكن حرب ١٩٦٧ حددت ولاء الكامل لهذه الدولة . لقد بدأ ساملر حياته ليبراليا متحررا وعاشقا للثقافة الانجليزية فإذا بالهولوكست يغير مساره ويجعله ينذر نفسه للدفاع عن اسرائيل خاصة أثناء حرب ١٩٦٧ . ويرى بيلو شأنه في ذلك شأن كثير من أترابه اليهود أن وجود اسرائيل أمر بالغ الأهمية بالنسبة لتأكيد الهوية اليهودية واستمرار اليهود على قيد الحياة . وهو لا يخفي قلقه على أمن اسرائيل وفخره بانجازاتها في كتاب «الذهاب إلى أورشليم والعودة منها» .

ويرى ألفين روز نفلد أن آرثر ساملر نموذج سابق لكتاب الهولوكست وأنه رجل يمتلك معرفة مزدوجة ويجمع بين أمرين : فهو ملعون لأنه يعرف مدى قدرة الإنسان على ممارسة الغي والضلال وصنع كل هذه البربرية، ولكنه مبارك لأنه يعرف أن بإمكانه أن يتسلح بالعزم والقوة والاصرار على البقاء على قيد الحياة والخلاص من هذه البربرية. والرأي عند روزنفلد أن بصيرته أقرب ما تكون إلى بصيرة الأنبياء .

ويذهب بعض النقاد في تفسير رواية «كوكب المستر ساملر» إلى أنها إدانة صارخة للمذهب الإنساني العلماني . فقد أدى تحرر الإنسان من الدين والأخلاق إلى حدوث فظائع الهولوكست وتحويل ولاء البشر لله إلى ولائهم للعلم والمذهب الإنساني . فضلا عن أن الحداثة شجعت الإفراط في العقلانية وعلاقات المنفعة التي مهدت إلى

ظهور الحركات الشعبية الشمولية والتخلى عن الأحكام الأخلاقية. إن احتفال الانسانية بالمذهب الإنسانى باعتباره تحريرا لها من الاعتماد على الله والطبيعة يميط اللثام الآن عن مدى دعم وتعزيز القدرة على إحداث الموت وممارسة الشرور الشيطانية . والرأى عند هذا النفر من النقاد أن ساملر يؤدى دورين هما الكشف عن أخطاء المذهب الإنسانى إذا أطلق له العنان والدفاع عن بديل يهودى علمانى يحل محله : هذا المذهب الإنسانى الذى ينادى بأن الإنسان هو معيار كل شيء ثبت اخفاقه وافلاسه . ومن ثم وجب استبداله بقيم أكثر جدارة واستحقاقا من هذه المقاييس المؤدية إلى الهلاك .

(٢) إدوارد لويس والانت (١٩٢٦ - ١٩٦٢)

Edward Lewis Wallant

ولد ادوارد لويس والانت الذى مات فى شرخ الشباب فى ١٩ أكتوبر ١٩٢٦ من أب يهودى مات مختنقا بغاز الخردل أثناء تأدية خدمته فى الجيش الأمريكى فى فترة الحرب العالمية الأولى . وكان هذا الأب مصدورا يقضى معظم وقته فى المستشفى الأمر الذى لم يمكنه من رؤية ولده إلا قليلا . ومات الأب وابنه طفل فى السادسة من عمره مما جعل الطفل يشب ويترعرع فى حضن أمه الولهة به . وكبر ادوارد فى جو عائلى هادئ ينتمى إلى الطبقة الوسطى . وكان لوفاة والده الباكرة أثرها العميق فى نفسه فقد تكررت إشاراته فى كتاباته إلى الطفولة اليتيمة من الأب كما أنه حاول أن يجد تفسيرا لهذا اليتم الباكر . ونظراً لأن جده لوالدته كان يعيش معه تحت سقف واحد فقد دأب الصبى ادوارد والانت على الجلوس على ركبتيه والاستماع إلى حكاياته عن موطنه الأصلى روسيا . وانعكس اهتمام ادوارد والانت بروسيا فى أولى روايته «الموسم الإنساني» (١٩٦٠) . وفى روايته التى لم تر طريقها إلى النشر وهى بعنوان «أوديسا سمسار» أو «رحلة سمسار» نراه يروى بكثير من التفصيل تجاربه كصبى سباك وبناء وصبى يقوم بتوصيل الأدوية إلى منازل الزبائن فى أحدي الصيدليات . وإلى جانب «الموسم الإنساني» و «صاحب محل الرهونات» (١٩٦١) ألف كاتبنا «سكان عقار مونبلوم» (١٩٦٣) و«أطفال عند البوابة» (١٩٦٤) و «بصر الفنان»(١٩٦٣) .

ويلقى المقال الذى سطره بعنوان «عن الفنان» الضوء على تطور عاداته فى القراءة فقد بدأ بمطالعة الروايات الغثة مثل مغامرات طرزان ثم تحول بعدها إلى قراءة الأدب الجاد مثل روايات تشارلس ديكنز ومارك توين . وأدرك والانت بمضي الوقت أن الأدب يؤثر فى حياة الناس ويبدد الملل الذى يسيطر على حياتهم ويثير خيالهم

ويجعلهم أكثر انسانية. وعندما تخرج والانت فى أحد المعاهد العالية عام ١٩٤٤ اشتغل بالاعلان المرئى كى يكسب قوته اليومى .

وفى أكتوبر ١٩٤٤ انضم إلى البحرية الأمريكية حيث عين فى مسرح العمليات العسكرية فى أوربا . ويلاحظ أنه التزم الصمت نحو تجاربه الحربية وامتنع عن الحديث عنها باستثناء بعض الخطابات القليلة التى أرسلها إلى عائلته .

ولكن روايته غير المنشورة «أوديسا سمسار» تشمل أحيانا وصفا بارعا لمعركة «نورماندي» .

وبعد تسريحه من الجيش عام ١٩٤٦ عاد إلى مدينة نيوهافن ثم سافر إلى نيويورك حيث التحق بمعهد برات للفنون فى خريف عام ١٩٤٧ . وفى العام التالى تزوج من حبيبة قلبه وزميلته فى الدراسة جويس فرومكين . وفى عام ١٩٥٠ تخرج من المعهد المشار إليه وكان عاديا فى دراسته . وقد بدأ حياته العملية بالاشتغال بالفنون التجارية فعمل مصمما للإعلانات فى شركة أدوية . واتجه بعد ذلك إلى دراسة الكتابة الخلاقة فى المدرسة الجديدة للبحث الاجتماعى . وهناك التقى وتأثر بأثنين من الأدباء هما دونوولف وهارولدجليكسبرج .

وفى العقد التالى كرس والانت (الذى أنجب ابنا وبنتين) طاقته الهائلة فى تعلم فن الكتابة فى الليل حتى لا يشغله عن عمله الذى يرتزق منه فى الصباح . وفى عقد الخمسينات وجد والانت صدودا من جانب الناشرين باستثناء اتاحة الفرصة له لنشر كتابين هما «سحبت يدي» (١٩٥٥) و«الرجل ذو المظهر اللطيف» (١٩٥٨) اللذين ساعده أستاذه دون وولف على نشرهما . والجدير بالذكر أن والانت التقى مصادفة بدان ويكندن مسئول النشر فى دار هاركورت أثناء ركوبه القطار فنشأت صداقة بين الرجلين واقتنع ويكندن على الفور أن والانت كاتب موهوب بالفطرة . وقام بنشر أولى رواياته «الموسم الإنساني» (١٩٦١) التى لم تذع بين القراء رغم تقريظ النقاد لها . وقد حصلت هذه الرواية على جائزة الرواية التى يمنحها مجلس الكتاب

اليهودى . ولعل النجاح الحقيقى الذى حققه هو تعرفه على مجتمع الأدباء .

وفى عام ١٩٦١ حققت روايته التالية «صاحب محل الرهونات» (١٩٦٢) نجاحا أدبيا وماديا أكبر مما حققته روايته الأولى الأمر الذى أغراه بالتفكير فى التفرغ الكامل للكتابة . ولكن حماه اعترض على ذلك . وفى العالم التالى (١٩٦٢) أوصى الأديبان جون كيارونى ودون وولف باعطائه منحة جوجنهايم الأمر الذى شجعه على الاستقالة من عمله فى مجال الدعاية والاعلانات . وقبل سفره إلى أوربا عرض مؤلفنا مخطوطى روايتين جديدتين على صديقه وناشره ويكندون بعنوان «سكان عقار مونبلوم» و «أطفال عند البوابة» فنصحه بتنقيحهما . وسافر والانت إلى أوربا كى يتسلم المنحة المقدمة إليه فى ٢٩ مايو ١٩٦٢ . واستمتع أطفاله برحلتهم إلى أوربا حيث أمضت العائلة وقتا طيبا دام ستة أشهر فى فرنسا وإيطاليا وأسبانيا . وفجأة نشأت أزمة الصواريخ الكوبية فاضطر إلى العودة إلى أمريكا فى ١٥ نوفمبر ١٩٦٢.

أصبح والانت معتل الصحة دائم الشكوى من الارهاق . ولاحظ صديقه ويكندون نقصا واضحا فى وزنه . ومع ذلك واصل والانت الكتابة . وتم تجديد منحة جوجنهايم لعام ثان . غير أن نوبة قاسية داهمت صحته وأودت بحياته فى ٥ ديسمبر ١٩٦٢ . وقبل وفاته مباشرة تمكن والانت من مراجعة روايته «أطفال عند البوابة» التى وصلت مخطوطتها إلى مكتب ويكندون بعد تشييع جنازته بأسبوع واحد .

وبعد وفاته انهالت عليه مظاهر التكريم فأشاد مهرجان نيوهافن للفن باسهامه الأدبى وتلقت مكتبة جامعة ييل ومكتبة برانديس هيات بأسمه . وتم انشاء جائزة باسمه . وقام المخرج سيدنى ليموت بتحويل روايته «صاحب محل الرهونات» إلى فيلم سينمائى ناجح .

لم يكتب والانت فى حياته القصيرة غير الروايات الأربع الآنفة الذكر . ورغم اختلاف خلفياتها ومواقع أحداثها فإن هناك وجوه شبه كبيرة بينها أهمها أنها تبدأ بانعزال أبطالها عن المجتمع ولكنها تنتهى بادراكهم لأهمية الدور الذى يلعبه الحب

والمسئولية الأخلاقية فى الحياة . فضلا عن أنها تركز على رحلة النفس الوحيدة من حالة الخدر الروحى إلى حالة الخلاص المنطوى على الألم وشخصيات الروايات الأربع المحورية تدرك أن الشلل الذى يصيب مشاعرها هو انتحار أكثر سوءا من الموت نفسه وأن الخدر الأخلاقى جريمة صامتة فى حق الانسانية . ففى رواية «الموسم الإنساني» نجد أن بطلها جوزيف برمان ينسحب من الحياة عقب وفاة زوجته والرواية أنشودة حزينة على المصير البشرى ودعوة إلى بعث الإنسان ومولده من جديد . وبرمان سباك يهودى يواجه معادة السامية بكل شجاعة ويظهر رباطة جأش لموت ابنه فى الحرب العالمية الثانية . وعندما تموت زوجته يرفض مواساة الحبر اليهودى له وتعزيته بقوله إن العذاب هو اختبار روحى للإنسان وهو يلعن الله ويقطع صلته بابنته روثى وبشريكه رايبولد الأثير إلى قلبه . وهو يعتبر الوجود الانسانى شيء قذر أشبه ما يكون بالمراحيض ويصور المؤلف جوزيف برمان على أنه شبيــه بأيوب الذى ابتلاه الله بالمصائب. ولكن هذا الرجل يتعلم فى نهاية المطاف إنه رغم قذارة العالم الذى نعيش فيه فإن قبسا من الضوء يخترمه ويبدد ظلام الروح آتيا على هيئة ومضات فى كون يعجز الإنسان عن فهمه . ولهذا نرى بيرمان أخيرا يؤمن بالمعجزات والعجائب التى تبشر بالحب والخلاص .

ورغم أننا سوف نتناول رواية والانت التالية «صاحب محل الرهونات» بالتفصيل لصلتها الوثيقة بالنجاة من الهولوكست فلا بأس من اعطاء لمحة عنها قبل معالجتها فى جزء مستقل .

تدور هذه الرواية حول مراب يهودى يعيش مع أخته يدعى صول نازرمان قيض له أن ينجو من معسكر الاعتقال فى حين ماتت زوجته وطفلاه فى هذا المعسكر وبسبب ظروفه البالغة القسوة يكتسب هذا الرجل حصانة ضد الألم . فقد تبلدت مشاعره وتجمدت أحاسيسه لأن الشعور من شأنه أن يذكره بما يريد أن يطوى صفحته إلى الأبد. وهو يعيش خاليا من المشاعر فى انتظار الموت والمطلق الوحيد الذى يعرفه صول نازرمان هو المال . ويمضى صول فى إدارة محله غير عابيء بالذين تدعوهم الحاجة إلى

رهن أشيـائهم لديه . ولكن عـدم المبالاة هذه لا تلبث أن تزايله فى الذكرى الخامسة عشرة لوفـاة زوجتـه وطفليـه . ويطوف مـاضى الهـولوكست بمنامه فـيـقض مضجعه بكوابيس يشيب لها شعر الرأس فـهو يرى زوجتـه وهى تغتصب وطفليه وهما يموتان . ويصحو المرابى اليهودى من النوم ليكتشف أنه لا يزال حيا فـيدرك أن مجرد البقاء على قـيد الحياة هو قلب الظلام . فالاستمرار فى الحياة أكثر بشاعة من تذكر الماضى وفظاعـاته . ويستيقظ صول على حقيقة كانت غائبة عنه ومفادها أن الحب أكسير الحيـاة وأن المسئولية الإنسانيـة أمر لابد منه وأن البكاء على الموتى يحيي النفوس والصلاة عليهم شيء له قيمته . وهكذا يولد صول نازرمان من جديد .

ونحن نرى فى روايتـه التـاليـة نفس هذا الموضـوع ولكن فى قـالب كـوميدى فمونبلوم صاحب العـمارة الذى لا يعبأ بسكانه ينتهي بالحرص على مشاعرهم ويتعلم ضرورة أن يكون الانسـان مسـئولا عن أخيـه الإنسـان فـهـذه المسئولية تنير له طريق الخلاص .

ويختـتم والانت رواياته الأربع عن الخلاص برواية «أطفال عند البوابة» وتبلغ رغبة بطلها فى الانعزال عن الحيـاة والبشر إلى حد ابتعـاده عن أسرته واعراضه عن الكنيسة الكاثوليكية وإيمانه بأن الحياة ليست سوى مصادفة عمياء . وعندما تشكو له أمه من تعاستـهـا يرد عليـهـا قـائلا :«إن الأشيـاء تحدث بلا سبب يفسرها » . حتى المسئولية الأخلاقية وهم فى نظره ولكن هذا البطل فى نهاية الرواية يطرأ عليه تغيير روحى جوهرى وعميق فقد تعلم أن الإنسان لابد أن يكون مسئولا عن أخيه الإنسان . وهو نفس الدرس الذى تعلمـه أبطال الروايات الـثـلاث السـابقـة برمـان ونازرمـان ومونبلوم.

الهولوكست فى أدب والانت :

يرجع الفـضل إلى ادوارد لويس والانت فى أنه وضع احدى اللبنات الأولى فى تأليف روايات الهولوكست الأمريكية التى ترسم شخصيات يهودية ناجية منه هاجرت

إلى أمريكا حيث تجتر وتستعيد ذكريات الماضي المريرة . وتكشف روايته «صاحب محل الرهونات» عن معالجته لموضوع الهولوكست .

تدور أحداث الرواية في حي اليهود الأمريكان في هارلم وضواحي وستشستر في صيف عام ١٩٥٨ . ويحمل هذا الناجي من الهولوكست الأوربي البالغ من العمر خمسة وأربعين سنة واسمه صول نازرمان الندوب النفسية والبدنية التي ألحقها النازيون به . وفي معسكر الاعتقال أجرى الأطباء النازيون عددا من التجارب العلمية على جسده مما زاد من حفيظته على النازيين . ولكن تشوهات صول نازرمان النفسية تفوق تشوهاته الجسدية . وتتمثل هذه التشوهات النفسية في هوسه بالماضي واستغراقه الكامل فيه إلى جانب انسحابه من المجتمع المعاصر ، وعزوفه عن الارتباط به بأي شكل من الأشكال . وكان صول نازرمان وهو رب أسرة متفان في حب أسرته يعمل أستاذا بجامعة كراكو في بولندا أثناء الاحتلال النازي لها . وتسبب اضطهاد النازيين له في عزوفه عن الاختلاط بالناس وابتعاده عنهم . وعلى الرغم من أنه لا يزال يطالع أعمال تشيكوف وتولستوي إلا أنه يريد أن يطوي الصفحة السابقة على الهولوكست في حياته . يقول نازرمان :

«لست أثق بالله أو السياسة أو الصحف أو الموسيقى أو الفن . ولست أثق بالابتسامات أو الملابس أو المباني أو المناظر .. ولكني فوق كل شيء لست أثق بالناس وبما يقولون لأنهم صنعوا جحيما بأحاديثهم» .

فلا غرو إذا رأيناه يعرض عن الناس ويصدهم عنه ويبتعد عن الساعين إلى صداقته وعن زملائه في العمل وأفراد عائلته المهاجرين إلى أمريكا بل إنه يعزف عن اقامة علاقة حميمة حتى بعشيقته . فقد علمته أهوال الهولوكست أن العلاقات بين البشر يمكن أن تتهاوى في أية لحظة . ورغم أنه يحيا بجسده في مدينة نيويورك فإنه يعيش بروحه في عالم الهولوكست ومع يهود أوربا الذين أجهز عليهم النازيون . وعبثا تحاول الشرفة الاجتماعية في جيتو اليهود الأمريكي - وهي سيدة أمريكية بروتستانتية اسمها مارلين بيرتشفيلد - أن تقيم الجسور معه وأن تبعث فيه الروح

الطيبة التى تعتقد أن ركام الهولوكست يغطيه فهو دائب السعى إلى الاختلاء بنفسه الأمر الذى يؤكد غربته وانعزاله . ورغم أن هذه المشرفة الاجتماعية تعذره لما يعتصر قلبه من حزن وألم فإنها تمتعض من شدة مرارته وتعجز عن فهم أسبابها الأمر الذى يوضح له عدم قدرة الأمريكان على سبر غور الهولوكست . يقول صول نازرمان فى هذا الشأن مخاطبا المشرفة الاجتماعية الأمريكية مشيرا إلى الهولوكست إن عالمه وما يختلج فيه من عواطف يختلف تماما عن العالم الذى نعرفه لدرجة تجعل هذه العواطف مختلفة فى نوعها وليس فى درجتها . والرأى عند نازرمان أن أوربا مقبرة هائلة دفنت فيها دولة من أكثر الدول الأوربية تحضرا هى ألمانيا النازية . ويضيف نازرمان أن هذه الدولة لم تكن فى أسوأ حالاتها بل ظهرت على حقيقتها .

ويتميز أدب الهولوكست الذى أنتجه والانت بقدرته على تصوير الآثار الناجمة عن الهولوكست النازى عن طريق المقارنة بين اليهود المهاجرين إلى أمريكا قبل حدوث الهولوكست من أجل الحصول على الأمان المالى والرخاء الاقتصادى وبين اليهود الذين هاجروا إليها فرارا من جحيم الهولوكست . فثمة هوة سحيقة تفصل بين هذين النوعين من المهاجرين . يقول نازرمان إنه يشعر بالغربة عن أخته برثا التى هاجرت إلى أمريكا عام ١٩٢٨ أى قبل الهولوكست بسبب تطلعاتها البورجوازية وسعيها وراء المال ولأنها لم تجرب حجيم الهولوكست الذى يهيمن شبحه على مخيلة نازرمان ويلاحقه دوما . ونازرمان فى أمريكا يعيش الهولوكست فهو لايعتبره جزءاً من الماضى بل كل الحاضر والمستقبل . وعلى خلاف ذلك تجد برثا سعادتها فى الحصول على المال والاندماج فى الحياة الأمريكية . وهى عديمة الإحساس بمحنة أخيها وتريد منه أن يحذو حذوها .

ويبرز والانت الفرق بين نازرمان كمهاجر التجأ إلى أمريكا هربا من جحيم الهولوكست وبين ثلاث شخصيات مهاجرة أخرى ناجية منه هى تسى روبين عشيقته ووالدها المريض ومستر جوبرمان الذى يضطلع بجمع الأموال لمساعدة المحتاجين من اليهود . ويعقد والانت مقارنة بين نازرمان وبين هؤلاء المهاجرين الثلاثة مستخدما

إياهم ككورس اغريقي مهمته التعليق على الأحداث وتزويد القاريء بمقياس للحكم على بطل الرواية .

يقول النقاد أن كثيرا من أدباء الهولوكست الأمريكان تأثروا بوالانت وحذوا حذوه في استخدام هذا الكورس في أدبهم مثل شاءول بيلو وسوزان فروميرج شافر .

ويشترك كل من نازرمان وعشيقته تسى في كثير من الأمور فكلاهما من ضحايا الهولوكست وكلاهما فقد أحبائه فيه . ولكن الهولوكست حول تسى إلى امرأة تعيش في حالة من السلبية الكاملة والشلل النفسي وعلاقة العاشقين الجنسية - نازرمان وتسى - تخلو من المتعة الحقيقية فهي أقرب ما تكون إلى المضاجعة بين انسانين آليين . ولكن نازرمان يختلف عن تسى فهي لا تكف عن التعبير عن حزنها العميق في حين أنه يكتم عواطفه ولا يعبر عما يكابده من حزن دفين . وتلقى هذه العلاقة ضوءاً على مدى انسحاب نازرمان من الحياة والمجتمع . ولكنها في نفس الوقت تبين طيبة قلبه فهو لا يتردد في تقديم العون المالى لعشيقته وأبيها القعيد بسبب ما لحق به من أهوال على أيدى النازيين . وتتميز شخصية جوبرمان بالاحساس العميق بالذنب وهو يسعى إلى تخفيف وطأة احساسه بالذنب بتعميقه في نفوس غيره من اليهود ممن شاء قدرهم النجاة من الهلاك في الهولوكست واستغلاله في جمع التبرعات منهم من أجل المحتاجين من بنى جلدتهم . وجوبرمان ليس سليم العقل فقد أثرت معسكرات الاعتقال في قواه العقلية لدرجة أنه يكيل الاتهامات والاهانات لبنى جلدته من ضحايا النازية فقد زين عقله المختل أن يساوى بين الغالب والمغلوب وبين المجرم والضحية . أى أنه ساوى بين النازيين وضحاياهم من اليهود الذين طالبهم بالتكفير عن ذنبهم المتمثل في بقائهم أحياء في حين مات رفاقهم كما حثهم على دفع المزيد من التبرعات إليه من أجل مساعدة اليهود المحتاجين . ويعترض نازرمان على تصرفات جوبرمان فهو يرى أنه ليس له الحق في إدانة الآخرين أو الحكم عليهم فيرد عليه جوبرمان بطريقة مسرحية ويكشف عن ذراعه لإظهار رقم الوشم الذى رسمه النازيون بالدم عليه ويضيف إلى هذا قوله :

«هناك أيضا فى قلبى المزيد من امارات الجدارة والاستحقاق . احضر سكينا من المطبخ وابقر به جسدى فسوف أبين لك جراح الطعنات والرماد المتخلف عن مقتل زوجتى وأبنائى الخمسة وأمى وأختى .. سأبين لكم أمارات الاستحقاق مطبوعة باللون الأحمر .. بالدم . فإذا كنت تريد المزيد شق مخى فسوف ترى فيه صورة الموتى وهم يمشون وصورة المغتصبات وصورة من تدلت أحشاؤهم من بطونهم .»

ولكن صول نازرمان لم يحرك ساكنا أمام هذا الأسلوب الخطابى البليغ لأنه يعرف أن صاحبه كان يتجسس فى معسكرات الاعتقال على بنى جلدته اليهود كى يبقى النازيون على حياته . وعندما يذكره نازرمان بماضيه الخسيس فى الغدر بعائلته نراه يحتج على هذا بقول :

«إنى لا أفعل هذا أبدا لعائلتى .. لست من هذا النوع أبدا وياله من شخص ذلك الذى يقول عنى هذا . أنظر إلى هاهنا لترى أننى أجمع الأموال من أجل اليهود وأن جسدى يدمى من أجلهم من كل أنحاء العالم . فأنا أسعى نهارا وليلا لجمع الأموال من أجل انقاذهم . وأنا أصرخ وأهدد وأضحى بكرامتى كى أفعل شيئاً من أجلهم . ثم يكون هذا جزائى ؟!»

ولكن هذه المناشدة الخطابية تزيد من احتقار بطلنا لجوبرمان واقتناعه أكثر من ذى قبل أن جوبرمان محتال ونصاب يستخدم آلامه للاستجداء . ويطلب من عشيقته ألا تنخدع أو تنساق وراء هذا النصاب الذى يسعى إلى استغلال إحساسها بالذنب .

ولا يسكت جوبرمان على اتهام نازرمان له بأنه خسيس لا يتورع عن تبليغ النازيين عن أهله فيعاير نازرمان قائلا : «لا تقل لى إنك لم تترك موتاك هناك وأنك لم تهرب كالأرنب بأقصى سرعة ». وهى معايرة يبدو أنها لا تخلو من الحقيقة . ولكن نازرمان يستقبلها ضاحكا ومستهزئا وهو يقول : «اجعلنى انخرط فى المزيد من الضحك» . ويستشيط جوبرمان غضبا فيجيب صارخا : «سوف أتصرف . سوف أتصرف فأنت أسوأ من جميع النازيين» .

وتبرز رواية «صاحب محل الرهونات» جانبا مهما وشديد التعقيد فى الطبيعة البشرية فحواه أن الضحية يمكن أن تتحول إلى مستبد والمظلوم إلى ظالم . فنازرمان الذى يشتهى الموت للخلاص من عذاب الكوابيس التى تلاحقه والذى كان ضحية النازية لا يظهر أدنى رحمة نحو زبائنه الذين تضطرهم الظروف إلى رهن أشيائهم لديه.

والهولوكست يحول الإنسان العادى إلى إنسان آلى وحيوان مفترس أى أنه يقضى على انسانية الإنسان . ولكن بعض النقاد يرون أن المؤلف لا يصور الهولوكست كشيء متفرد فى قسوته ووحشيته بل كنموذج متطرف لما يحدث فى الحياة بوجه عام.

قلنا إن نازرمان أستاذ الجامعة فى بولندا تحول إلى مراب وصاحب محل رهونات فى هارلم فى بلاد المهجر وهو العمل الذى تخصص اليهود فى أوربا فى القرون الوسطى فى أدائه . وهناك تشابه بين انحلال مدينة هارلم وتدهورها وشيوع القذارة والأمراض والتلوث فيها وبين تدهور حالة نازرمان بعد تعرضه لفظاعات الهولوكست . حتى المنظر الذى نراه فيه على رصيف المحطة ينتظر قدوم القطار يرمز إلى عدة أمور تعيد العداوة ضد السامية للأذهان فمقدمة القطار ينبعث منها شعاع أصفر قوى يغشى بصره مما يرمز إلى الأمر الذى أصدرته الكنيسة الكاثوليكية فى القرون الوسطى لليهود بارتداء شارة صفراء تميزهم عن المسيحيين . والقطار نفسه الذى يقبل مهاجما عليه يذكرنا بالقطارات التى كان النازيون يشحنون فيها المعتقلين من اليهود تمهيدا لارسالهم إلى المحارق . وإذا كان للعذاب الذى تعرض له نازرمان أية أهمية فهى ترجع إلى تذكرته بما حدث فى الهولوكست . حتى الحياة الأمريكية الهادئة التى يلوذ بها لاتنسيه ما تنطوى عليه الحياة الأمريكية من متناقضات فعمله كصاحب محل رهونات يجعله يتعامل يوميا مع الغلابة والضحايا والمطحونين والمضطهدين فى المجتمع الأمريكى . ورغم أن المؤلف يجد وجوه شبه بين حياة الجيتو فى المجتمع الأمريكى وحياة الجيتو البولندى فى ظل الخسف النازى فإنه يدرك أن اضطهاد اليهود فى الجيتو الأمريكى محدود بالمقارنة بفظائع معسكرات الاعتقال فالاضطهاد فى كلتا الحالتين أبعد ما يكون عن التماثل والتطابق . ورغم ادراك نازرمان للفروق الهائلة بين

ظلم المجتمع الأمريكي لليهود وظلم النظام النازي لهم فإن الظلم والاذلال الذي يلقاه اليهود في أمريكا قمين بأن يذكره بفظاعات الهولوكست ويطلق الكوابيس والتداعيات التي تؤرقه من عقالها . ويلاحظ أن كتاب الهولوكست في أوربا يرون فظائع الهولوكست التي ذاقوا مرارتها بأنفسهم ومن ثم فإن حكاياتهم تكاد أن تكون سيرة مباشرة أو غير مباشرة لحياتهم في حين أن كتاب الهولوكست الأمريكان أمثال والانت وسنجر وشافر وبيلو يعتمدون على شريط الذكريات التي يمتزج فيها الماضي الأوربي بالحاضر الأمريكي ويساوي والانت في روايته بين أنواع مختلفة من العذاب مثل عذاب السود وعذاب اليهود كما أنه يساوي مثلما فعل الروائي اليهودي إلمان بين الهولوكست واضطهاد المسيحيين لليهود وهو يعالج العذاب المقترن بسعي الإنسان للخلاص فنازرمان يعرف الحب في نهاية المطاف .

ويرسم لنا والانت صورة لماضي نازرمان في مقابل حاضره عن طريق تقديم شخصية مابل هويتلي وهي امرأة ساقطة كانت عشيقة صبيه ومساعده في المحل يسوع أورتيز . وتحرك هذه المرأة ذاكرة نازرمان فيتذكر زوجته التي هلكت في الهولوكست والتي وضعها النازيون في بيت دعارة تابع للجيش النازي حيث يقوم الجنود الألمان باغتصابها . وتعرض عليه العاهرة جسدها طمعا في حصولها على تمويله لبعض مشروعاتها الخاصة بتجارة الرقيق الأبيض . ولكن ذكرى الهولوكست تجعله يعرض عن جسدها ويقدم إليها العون دون مقابل كما أن مرارة الهولوكست تجعله يستشيط غضبا عندما يعلم أن موزيليو شريكه في العمل يدير دار دعارة تعمل فيه مابل وأنه عضو في المافيا يستغل عمله في التغطية على عمليات غسيل الأموال التي يقوم بها الأمر الذي دفعه إلى فض الشراكة معه .

ويسعى نازرمان إلى نسيان متاعبه عن طريق الاستغراق في النوم غير أن هذا لا يساعده على حل مشاكله فالأفكار المزعجة التي يقوم بكبتها في يقظته تؤرق مضجعه بالليل على هيئة كوابيس مزعجة مثل حلمه بأنه يراقب أحد ضباط المخابرات النازية وهو يجبر زوجته روث على مص عضو ذكورة أحد النازيين . وفي هذا الكابوس

يحاول الزوج المفجوع صول نازرمان أن يشيح بوجهه حتى لا يرى هذا المنظر المرعب فإذا برجال المخابرات النازية ينهالون عليه بالضرب لارغامه على مواصلة رؤية زوجته وهى تمارس الجنس عن طريق الفم على هذا النحو الشاذ . وهكذا تشير فيه مومس هارلم ذكرى فظاعة الاضطهاد النازى . وهكذا يصبح اللامعقول معقولا وواقعا ملموسا . وينجح المؤلف عن طريق تصوير هذا الجو المرعب فى رسم صورة مفزعة للحياة فى معسكرات الاعتقال النازية وفى الربط بين أحداث الهولوكست والمصائب الحالية . فأحداث الهولوكست مهما حاول نازرمان تبديدها تقتحم وعيه بقوة عن طريق الكوابيس وومضات الذكريات التى ترد تلقائياً على خاطره . وحتى إذا نجح عقل نازرمان الواعى فى قمع أحداث الهولوكست وكبتها فإن عقله اللاواعى يستسلم لها ويستعيدها . ومن الكوابيس التى تقض مرقده رؤية زوجته روث وابنه دافيد وابنته ناعومى وهم يستقلون قطار الموت المتجه بهم إلى المحارق وقد انحشروا بين زحمة الركاب لدرجة أن الرضيعة ناعومى انفعصت على صدر أمها فى حين أن ابنه دافيد وقف ملتصقا بساقى أبيه . ونظر الرجل إلى طفله فتخيل أنه يغرق فى بحر من البراز . وعبثا استنجد به الطفل وعبثا توسلت زوجته أن يفعل شيئاً من أجل أنقاذه فقد شعر بأنه عاجز ولا حول له أو قوة . وأيضا تطوف بمخيلة نازرمان أثناء نومه صورة أبيه الذى تعمد النازيون سحقه عن طريق التيار الكهربائى .

وأيضا يرى نازرمان فى كوابيسه نفسه راقدا فى غرفة عمليات المعسكر وقد التف به العلماء والأطباء الألمان وهم يشوهون جسده بإجراء التجارب عليه . ومن ثم يصبح الرجل مشوها على المستويين النفسى والبدنى . ويصرخ وهو يرى عظامه تنشر وأعضاءه تنتزع ويطلب من الجراحين والعلماء التوقف وعدم المضى فى تجاربهم عليه فتنهره الممرضة قائلة : «التزم الصمت وإلا سنستأصل قضيبك أيضاً» . وكما أن لفيف الأطباء والجراحين يجدون لذة فى اجراء التجارب عليه وانتزاع بعض أعضائه يستمد الحراس النازيون لذة سادية من منظر سجنائهم . ومعنى ذلك أن السادية تجمع بين صفوة الألمان النازيين وحثالتهم . ونكتشف فى الكوابيس التى تقض مضجع

نازرمان أن عمله فى معسكر الاعتقال كان يتلخص فى القاء جثث الضحايا اليهود فى عربة تمهيدا لنقلهم إلى المحارق وهو الأمر الذى غمره بالشعور بالخزى والعار وخاصة لأنه قد يعثر على جثة زوجته وطفليه بين الجثث المتراكمة فى عربة نقل الموتى . وحتى يتحاشى الرجل بشاعة هذا المنظر تعمد أن يشخص ببصره بعيدا عن الجثث حتى لا يراها . ولأن وظيفة نازرمان أقتضت منه نقل الجثث إلى المحرقة فقد لازمه شعور بالذنب عميق . بل إنه شعر بلحم الجثث المحترق يدخل فيه ويصير جزءاً منه . ورغم أن نازرمان أنحى على جويرمان باللائمة لسعيه إلى التحول من مظلوم إلى ظالم فإن الإحساس بالذنب لم يفارق نازرمان كما أن الأحلام المزعجة لم تفارقه . ويرجع احساسه بالذنب أساسا إلى قوة رغبته فى الاستمرار فى الحياة وهى عقدة تلازم جميع الناجين من الهولوكست . تقول رواية «صاحب محل الرهونات» فى هذا الصدد :

«هب الدخان المنبعث من أجسامهم فى اتجاه الشمال حين عضه جوع عظيم. واشتهى أن يأكل وجبة فطائر دسمة واستولت عليه رغبة ملتاثة فى شرب الخمر والقهوة . وغرز أظفاره كالمخالب فى فخذيه ليعاقب نفسه لأنه لم يصلى من أجل ذلك الدخان العابر والمختلط بآثار الدهون .. وفجأة تحولت هذه الشهوة إلى جوع جنسى . وتعجب من بشاعة نفسه فقام بانتزاع بعض شعره» .

وانها لمفارقة أن يحس نازرمان بالذنب بسبب استمراره فى الحياة فى معسكر الاعتقال فى حين أن الدين اليهودى يعتبر حرص الإنسان على حياته واستمساكه بها أمرا مقدسا . ومن المفارقة أيضا أن تتحول رغبته فى الحياة إلى شهوة للطعام والجنس يحرمها الدين اليهودى ويتطلب من الراغب فيها الندم والاستغفار .

ويقوم المؤلف والانت بمزج الكوابيس بشيء من لحظات اليقظة حتى يربط بين ماضى الهولوكست البشع وحاضر مدينة هارلم الأمريكية الذى يضارعه فى بشاعته . فالكابوس الأخير الذى أوردناه والذى يقض مضجع صول نازرمان يرسم صورة مفزعة لمداخن المحارق النازية وهى تنفث دخان الأجساد المحترقة فى السماء .

ويحتفل صول نازرمان يوم ٢٨ أغسطس من كل عام بذكرى عائلته التى هلكت فى الهولوكست . ففى هذا اليوم يتجرع احزان الهولوكست ومرارته حتى الثمالة.

قلنا أن اليهودى نازرمان كان يستخدم صبيا مسيحيا فى المحل من بورت ريكو اسمه يسوع أورتيز الذى تآمر مع بعض اللصوص للسطو على المحل . واتفق أورتيز مع أصحابه زمرة الأشرار أن ينهبوا المحل دون استخدام العنف أو التعرض لصاحبه بالأذى . غير أن واحدا من هؤلاء الأشرار أثناء عملية السطو أطلق الرصاص فى اتجاه نازرمان . وما أن رأى يسوع أورتيز هذا حتى تلقى الرصاصة فى صدره فأردى قتيلا . وهكذا افتدى يسوع أورتيز حياة صول نازرمان تماما كما افتدى يسوع المسيح البشر . وتحركت العواطف الجياشة فى قلب نازرمان واهتاجت مشاعره وأحس بتغيير شامل يعتريه . فبعد أن كان من عادته ألا يقيم وزنا لمشاعر الآخرين باستثناء تسى روبين عشيقته (وهى أمرأة كسول وجشعة كثيرة الانتحاب والعويل على حالها) وأبيها المريض الشكاك والكثير الشكوى والعراك. نراه يتعلم شيئاً جديدا لم يعرفه من قبل هو الحب مما جعل خدره أو تبلده الأخلاقى يزايله تقول الرواية :

«زال عنه كل ما كان يشعر به من تخدير وأفزعته لمسة الهواء على جرحه الحى . ماذا تكون هذه الحساسية العظيمة التى تجتاحه ؟ وما الغرض منها ؟ يا إلهى ما كل هذا ؟ هل هو الحب ؟ هل يمكن أن يكون الحب ؟ ويدأ يضحك بطريقة هستيرية وتوقفت الأصوات التى كانت تسمع بالمتجر» .

ويذهب بعض النقاد إلى أن تضحية الفتى يسوع أورتيز بحياته من أجل حماية مخدومه هي السبب فى بعث صول نازرمان من جديد وفى عودته إلى حظيرة المجتمع والانسانية . ولكن يوجد من النقاد من يعترضون على هذا التفسير الدينى المسيحى لأنه يعتمد على منظر واحد فى الرواية وليس على بقية المناظر التى تدل على أن بعث نازرمان من جديد بدأ قبل هذا بتقديمه العون إلى ضحايا الهولوكست وإلى عشيقته تسى (التى كان يمارس الجنس معها كإنسان آلي) وفسخ شراكته مع موبليو . ناهيك

عن أن شخصية يسوع أورتيز كانت خادعة ومتآمرة وأن تضحيته بحياته في سبيل مخدومه كانت بمحض المصادفة وليس نتيجة القصد والتعمد . ومن ثم فإنه لا يصلح لأن يكون معادلا لفداء السيد المسيح وعلى النقيض من هذا يرى هؤلاء النقاد أن الهدف الذى يرمى إليه المؤلف والانت هو التدليل على أن هناك ثمة علاقة بين العداوة للسامية التى تنادى بها النازية والعداوة للسامية التى دعت إليها الكنيسة المسيحية أى أن والانت يردد ما سبق للروائى الأمريكى اليهودى شاؤول بيلو أنه ردده من أن اضطهاد النازية لليهود ليس سوى تصعيد لاضطهاد الكنيسة لهم فى القرون الوسطى

ومن المعروف أن العالم المسيحى أضمر العداء لليهود لما أظهروه من تفوق فى مجال التجارة وتحقيق الربح وعندما يتساءل البعض فى الرواية عن سر نجاح اليهود المذهل فى عالم المال والأعمال تعرف منها أنه ليس هناك سر أو يحزنون . تقول الرواية فى هذا الشأن :

«يبدأ اليهودى على مدار عدة آلاف السنين . ولا يملك فيها هذا اليهودى غير أسطورة عظيمة ذات لحية كثة . فاليهودى لا يملك أطيانا يزرعها كى تمده بالطعام أو أرضا يستخدمها فى الصيد والقنص أو جيشا يحارب به فكل ما يملكه اليهودى مخ صغير يسكن دماغه إلى جانب هذه الأسطورة ذات اللحية الكثة التى تقويه وتشد من أزره . والتى تقنعه بأنه يملك شيئاً متميزا حتى ولو كان يعانى من الفقر وشظف العيش. ولكن هذا المخ الصغير هو السبب الحقيقى (فى النجاح) . فاليهودى يشترى قطعة قماش ثم يقوم بتقسيمها إلى قطعتين ويقوم ببيعها نظير بنس أو بنسين أكثر من الثمن الذى دفعه فيهما . ثم يشترى بالثمن الذى قبضه قطعة قماش أخرى أكبر قليلا من القطعة الأولى . ثم يقسمها هذه المرة إلى ثلاث قطع يبيعها مقابل مكسب قدره ثلاثة بنسات . ويتعين على اليهودى عند هذه النقطة أن يقاوم اغراء انفاق المكسب على شراء قطعة خبز اضافية أو على بعض الكماليات مثل شراء لعبة لطفله . بل عليه أن يتوجه مباشرة إلى شراء قطعة قماش أو قطعتي قماش أكبر من القطع التى

سبق له شراؤها ثم يقوم بتكرار نفس العملية . ويظل اليهودى يفعل هذا .. ويكرر اليهودى هذه العملية مرار وتكرار لنحو ما يقرب من عشرين قرنا وبهذا يصبح صاحب إرث تجارى وتذيع شهرته كتاجر وشخص يملك موارد سحرية وكمراب وتاجر رهونات ومشتغل بالسحر ...إلخ» .

والرأى عند بعض النقاد أن تفوق اليهود الاقتصادى هو السبب الحقيقى فى ازكاء المشاعر المناهضة للسامية والسعى إلى النيل منهم وبدء التآمر عليهم . ويؤكد هؤلاء النقاد تواطؤ العالم المسيحى مع النازيين ووقوفه مكتوف اليدين أمام تنكيل النازيين بهم .

(٣) برنارد مالامود (١٩١٤ - ١٩٨٦)

Bernard Malamud

حياته :

ولد الروائى اليهودى الأمريكى المعروف برنارد مالامود فى حى بروكلين بمدينة نيويورك يوم ٢٤ أبريل ١٩١٤ من أبوين يهوديين هاجرا من روسيا إلى أمريكا . وقام الوالدان بفتح دكان بقالة صغير فى حى بروكلين استخدمه مؤلفنا كخلفية للرواية التى كتبها عام ١٩٥٧ بعنوان «مساعد البائع» . وتتناول هذه الرواية ما لقيه اليهود من عذاب وطريقهم إلى الخلاص الروحى فى فترة الكساد العظيم الذى ساد أمريكا والعالم بأسره فى الثلاثينات . والواقع أن الجو الذى ترعرع فيه مالامود فى مطلع حياته فى بروكلين أمده بالخلفية المميزة التى تدور عليها معظم أعماله القصصية . فضلا عن أنها أمدته بالخصائص السلوكية والقيم الأساسية والأنماط الخاصة بطريقة الكلام .

وفى الفترة من ١٩٢٨ حتى ١٩٣٢ تلقى مالامود تعليمه فى مدرسة ايرازموس هول العليا فى مدينة بروكلين . ونشر باكورة أعماله القصصية فى المجلة الأدبية التى يصدرها هذا المعهد . وفى عام ١٩٣٦ حصل كاتبنا على درجة البكالوريوس من كلية مدينة نيويورك ثم على الماجستير عام ١٩٤٢ من جامعة كولومبيا عن ملحمة توماس هاردى الشعرية «السلالة الملكية» . وقد كان مالامود يتطلع إلى الاشتغال بتدريس اللغة الانجليزية في بعض مدارس نيويورك الخاصة . ولكن البطالة وظروف سوق العمالة السيئة اضطرته إلى الالتحاق بوظيفة فى مكتب تعداد واحصاء فى واشنطن . ولكنه ما لبث أن عاد إلى مسقط رأسه بروكلين حيث انشغل بالكتابة فى الصباح والتدريس فى مدرسة ايرازموس هول فى المساء .. وفى ٦ نوفمبر ١٩٤٥ تزوج أمريكية من أصل ايطالى تدعى آن الأمر الذى أثار اهتمامه الشديد بالثقافة الايطالية وجعله يكثر من زياراته إلى إيطاليا . فلا غرو إذا رأينا

العديد من أعماله القصصية تتأثر بالخلفية والشخصيات الايطالية .

وفى السنوات الأولى من زواجه ظل مؤلفنا ينتقل من التدريس إلى وظائف أخرى . وكان آخر وظائفه كمدرس آنذاك فى مدرسة هارلم العليا عام ١٩٤٨ - ١٩٤٩ . وقد عكست قصصة الباكرة خبراته مع الأقليات الاثنية التى تعيش فى نيويورك مثل الطليان والسود واليهود . وفى عام ١٩٤٧ أنجب ابنه بول . وفى عام ١٩٤٩ قبل مالامود وظيفة معلم بقسم اللغة الانجليزية فى جامعة ولاية أوريجون . ثم تمت ترقيته إلى وظيفة أستاذ مساعد بهذه الجامعة حيث استمر فى العمل بها حتى عام ١٩٦١ . ورغم شدة انشغاله فى تلك الفترة بالتدريس فإنه لم ينصرف قط عن الكتابة. وتصور روايته «حياة جديدة» مشاعر مالامود المختلطة والمتناقضة من العالم الغربى بوجه عام ومن جامعة ولاية أوريجون بوجه خاص . وفى عام ١٩٦١ ترك مالامود العمل فى جامعة أوريجون ليلتحق بالعمل فى قسم اللغة والأدب فى كلية بننجتون فى فيرمونت التى أولت الفنون عظيم اهتمامها فى حين اهتمت جامعة ولاية أوريجون بالزراعة والعلوم التقنية . وفى عمله الجديد قام مالامود لمدة عام بتدريس منهج خاص بتعليم طرائق الابداع فى الكتابة . وتوفى مالامود فى العشرين من مارس عام ١٩٨٦ وهو فى الحادية وسبعين من عمره . وقد حصلت روايتاه «البرميل الذهبى» و «المثبت» مرتين على جائزة الكتب القومية كما حصلت روايته «المثبت» على جائزة بولتزر .

يقول بعض النقاد إن برنارد مالامود الذى يجمع فى إنتاجه بين الدعابة اليهودية وأدب الييديش يدعو اليهود المهاجرين فى أمريكا إلى الاستمساك بالتقليد اليهودى على نحو علمانى وفى اطار المذهب الإنسانى حيث أن فكره الأخلاقى يتجاوز التراث اليهودى . وأسلوبه فى العادة يتسم بالوضوح والجلاء . ويذكر لنا الناقد العربى الأمريكى إيهاب حسن أن أبطاله أشخاص عاديون يؤثرون العزلة عن الآخرين . ورغم مسلكهم الخشن البعيد عن الرقة والدماثة فإنهم يؤكدون أن الحفاظ على الكرامة الإنسانية من حق كل البشر . ورغم أنهم أسرى ظروفهم فإنهم يشقون طريقهم إلى

التجدد والولادة من جديد في عالم ينذر فيه كل شيء بالظلمة والقتامة . وشخصيات مالامود الروائية دائمة التحول من كباش فداء اجتماعية لتكشف عن قدرتها على أن تقوم بخلاص الآخرين على نحو أسطوري . ولهذا يجمع عالمه الروائي بين الواقع واستخدام الأسطورة .

أعماله :

ألف برنارد مالامود الأعمال الروائية والقصصية التالية : «الطبيعي» (١٩٥٢) - «مساعد البائع » (١٩٥٧) - «البرميل السحري» (١٩٥٨) و«حياة جديدة» (١٩٦٢) - و«المثبت» (١٩٦٧) - «المستأجرون» (١٩٧١) - «حيوان دبلن» (١٩٧٩) - «ولطف الله» (١٩٨٢) - «قصص برنارد مالامود» (١٩٨٣) - «الناس والقصص غير المجموعة» (١٩٨٩) .

وسوف نلقى شيئاً من الضوء على هذه الأعمال قبل التركيز على الهولوكست في أدب برنارد مالامود .

"مساعد البائع" : (١٩٥٧)

تدور أحداث هذه الرواية في مدينة بروكلين الأمريكية حول شخصيتين محوريتين هما موريس بوبر اليهودي الفقير الذي يعاني من شظف العيش وفرانك ألبينو الفتى الكاثوليكي اليتيم الذي ساعده في إدارة محل بقالة وموريس بوبر يشبه أيوب في احتماله للفقر وصبره على مكاره الحياة ولكنه يهودي غير تقليدي فهو لا يراعي السبوت كما أنه يأكل لحم الخنزير النجس . ورغم ذلك فإنه إنسان حكيم وراجح العقل . أما مساعده فرانك ألبينو فهو ينحدر من أصل إيطالي ويكره اليهود من سويداء قلبه . ورغم أن اليهودي بوبر صاحب محل البقالة يكدح ويشقى لساعات طوال في العمل المضني فإن رزقه محدود ونصيبه من الحياة المادية قليل . وهو قبل كل شيء وفوق كل شيء رجل تقي وصالح وذو ضمير حي . ولكن رزقه الضئيل يمنع هيلين ابنته المجتهدة من استكمال تعليمها الجامعي . ويتطلع فرانك ألباين إلى التحول إلى

الدين اليهودي كما يتطلع إلى فهم هذه العائلة اليهودية بعد أن تغير شعوره العدائى نحوها فقرأ كتابا عن اليهود كما قرأ عن الجيتو اليهودى . فضلا عن أنه قبل أن تجرى له عملية ختان تمهيدا لتحوله إلى الدين اليهودى . وهكذا تصبح العلاقة بين اليهودي بوبر والمسيحى فرانك علاقة أستاذ بتلميذه يهديه إلى الأخلاق اليهودية القويمة التى يرى المؤلف مالامود انها تحظر على اليهودى الحاق العذاب بالآخرين لأنه هو نفسه قد عرف العذاب فى حياته وشارك بنى جلدته تاريخهم المفعم بالقسوة والظلم والاضطهاد . وفرانك ألبينو يتطلع إلى أن يصبح يهوديا بهذا المعنى الأخلاقى النبيل ويحاول الاقتداء بمخدومه الورع الصالح . وهناك فى الرواية شخصية جزار ألمانى معادية للسامية يحذر فرانك ألبينو من الاشتغال فى محل يهودى لأنه لن يتورع عن سرقة ردفيه اللذين يجلس عليهما .

وبعض أجزاء هذه الرواية يذكرنا بجو الأحلام والأطياف وتقدم لنا رؤية للخلاص عن طريق الحب والتضحية كما أنها تذكرنا بكثير من الروايات اليهودية السابقة عليها فى أوربا الشرقية التى يظهر فيها البطل اليهودى كرجل ناضج وحكيم يرشد الآخرين إلى طريق الصلاح . فضلا عن أن الرواية تتميز بقدر واضح من المعالجة الساخرة .

وتطرح هذه الرواية مجموعة من التساؤلات هى ما هو اليهودى ؟ هل اليهودية جريان الدم اليهودى فى العروق أما أنها مراعاة التقاليد الدينية أم أنها الارث الثقافى اليهودى أم أنها مجرد مصادفة عمياء أم أنها اختيار من لدن الله لشعبه المختار؟

تقول الرواية على لسان الحبر اليهودى الذى يحدثنا عن وفاة الرجل الصالح الفقير موريس بوبر :

«عندما يموت اليهودى نسأل إذا كان يهوديا .. فهناك طرق كثيرة كى يصبح المرء يهوديا . ولهذا جاءنى أحد وقال لى : «أيها الحبر هل تسمى الرجل الذى عاش

وعمل مع غير اليهود وباع لهم لحم الخنزير الذى لا نأكله ولم يحضر إلى المعبد مرة واحدة خلال عشرين سنة . هل تعتبر مثل هذا الشخص يهوديا ؟ لسوف أقول لمثل هذا المتسائل : (نعم . بالنسبة لى كان موريس بوبر يهوديا صادقا لأنه عاش التجربة اليهودية التى يذكرها كما عاش بقلب يهودى . ربما لم يعش وفقا للتقاليد اليهودية الشكلية . ولكنه اتبع الناموس الذى أعطاه الله لموسى فوق جبل سيناء .. لقد تعذب وتحمل العذاب ولكنه لم يعرف اليأس . إننى أعرف أنه لم يطلب لنفسه غير القليل . بل لم يطلب لنفسه مليما لأنه كان يريد لابنته الحبيبة أن تحيا حياة أفضل من التى عاشها . ولهذا السبب فإنه يهودى . فماذا يريد الله اللطيف بنا من عباده أكثر من هذا ...»

والجدير بالذكر أن رواية «صبى البقال » تعالج الهولوكست بطريقة عابرة وعلى نحو غير مباشر وأن بطلها اليهودى موريس بوبر أقرب ما يكون إلى القديس ولكنه قديس علمانى . والذى تعلمه الصبى فرانك من مخدومه اليهودى بوبر هو التضحية والحب وكيف يعيش كيهودى أى كما يعتقد المؤلف كيف يعيش كإنسان . والرواية كما هو واضح لا تحتقر الفشل فى الحياة فى مجال جمع المال . ومن ثم فهى تشبه رواية «الطبيعى» (١٩٥٢) السابقة عليها التى تدور حول بطل لعبة الباسبول الأمريكية الشهيرة اسمه روى هوبز كما تتناول جمع المال والثروة والجنس . ورغم أن رواية «صبى البقال» لا تعالج الهولوكست معالجة مباشرة فإنها تتناول العداء ضد السامية كما لاحظناه فى موقف كل من فرانك والجزار الألمانى أوتو تجاه موريس بوبر وتقع أحداث الرواية فى عقد الثلاثينات الأمر الذى ينم عن ادراك مؤلفها لفظاعات النظام النازى .

إن قصص وروايات برنارد مالامود كثيرا ما تقدم إلينا ضالا يبحث عن الهداية والحق . وفى بداية رحلته فى الحياة يحاول هذا الضال أن يقطع صلته بماضيه مثلما نجد فى قصته «لوحات فيدلمان» (١٩٦٩) و «سيدة البحيرة» (١٩٥٨) وأحيانا يحاول تحقيق بعض الأهداف الزائفة مثلما نجد فى رواية «مساعد البائع»

وقصته «البرميل السحري» . ولكن هذا الضال سرعان ما يقابل أحد الحكماء العواجيز من المهاجرين أو المنفيين فيتعلم منه كيف يواجه ماضيه لا أن يهرب منه أو يتجاهله كما يتعلم منه الاصلاح من شأن أهدافه في الحياة . وبذلك تنقلب حياة الضال رأسا على عقب ويولد من جديد . وهكذا يترك المعلم العجوز حتى إذا مات أثره فيمن يأتي بعده فهو يعيش في قلب وذاكرة من يتأثرون به ويسيرون على دربه مثلما نجد في رواية «مساعد البائع» . وقصتيه القصيرتين «البرميل السحري» و «الموهيكان الأخير» .

إن مالامود في أدبه الروائي والقصصي يعالج مشكلة الفقر سواء كان فقراً ماديا أو روحياً . ورغم أن أبطال قصصه يخسرون معركة الحياة ويعانون من الفاقة وشظف العيش فإنهم ينضجون ويتطورون مع مرور الزمن ويدركون واقعهم على نحو أفضل .

وبرنارد مالامود كتب عددا كبيرا من أبدع القصص القصيرة مثل «العبايط أولا» التي تصور الشفقة الإنسانية مقابل عدم الاكتراث المطلق كما تصور الجحيم والجنة التي يعيشها الإنسان في داخله . وتجمع قصته «الطائر اليهودي» بين التراجيديا والكوميديا . أما قصته «قبعة الفنان رمبرانت» التي تشبه مسرحية آرثر ميلر المعروفة «موت بائع» والمعنية باستجلاء الفشل فترى فيه أحيانا ما يفوق النجاح في ثرائه الإنساني . ويعود مالامود في قصته «الجيلث ليفين» إلى موضوع سبق أن عالجه في أدبه وهو الخلاص من العذاب عن طريق الاستمساك بالإيمان . وتدور قصته «وفاتي» حول رجلين يعيشان في وحشة واغتراب أحدهما بولندي والآخر صقلي وكل منهما غير يهودي والاثنان يعملان في خدمة ترزي يهودي كما أنهما في حالة شجار دائم ويتدخل اليهودي لاصلاح ذات البين بينهما .

ويتناول المؤلف في روايته «حياة جديدة» بعض الأحداث السياسية المعاصرة مثل الحرب الكورية والمكارثية والديموقراطية الأمريكية في إطار من الهجاء الاجتماعي .

الهولوكست فى أدب برنارد مالامود :

يعني برنارد مالامود فى رواياته وقصصه بتصوير خصوصية عذاب اليهود كرمز للعذاب الإنسانى . وعندما طرح عليه البعض سؤالا عما إذا كان يعتبرنفسه أديبا يهوديا أم لا أجاب بقوله :

«إني أمريكي ويهودى وأكتب لكل الناس .. وأنا أكتب عن اليهود عندما يعن لى أن أكتب عنهم لأنهم يثيرون خيالى . فأنا أعرف شيئاً عن تاريخهم ونوعية تجاربهم ومعتقداتهم وأدبهم رغم أن معرفتى به ليست كبيرة إلى الحد الذى كنت أتمناه وإني ككثير من الكتاب تأثرت تأثرا خاصا بالكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد .وإنى استجيب بالذات إلى المهاجرين من أوربا الشرقية ممن ينتمون إلى جيل أبى وأمى . والكثيرون من هؤلاء المهاجرين كانوا يعيشون فى الجيتو أو الأحياء المخصصة لسكنى اليهود التى نجد وصفا لها لدى كتاب البيديش الكلاسيكيين وبطبيعة الحال تأثرت تأثرا عميقا باليهود فى معسكرات الاعتقال واليهود التائهين والمشتتين فى أرجاء الأرض» .

تركز اهتمام مالامود فى أدبه بالتاريخ والتراث اليهودى والهوية اليهودية مما جعله على يقين من أن لديه شيئاً يقوله ككاتب . والرأى عنده أن الأدباء لم يكتبوا حتى الآن ما فيه الكفاية عن مأساة الهولوكست وإبادة ستة ملايين يهودى . وهو يقول فى هذا الشأن أنه لابد أن يأتى كاتب ويصرخ من شدة الألم حتى بعد مرور عشرين عاما .

ورغم أن مالامود لا يتناول الهولوكست على نحو مباشر فإنه من الواضح أنه يلاحقه كظله . حتى قصصه التى كتبها عن حياة اليهود بعد الحرب العالمية الثانية تنم عن وعى شديد بالهولوكست . وهو وعى يعكسه عالم مالامود الروائى عن طريق الاشارة واستخدام الرموز والأخيلة والاستعارات إلى جانب امتلاء عالمه الروائى بعدد هائل من الشخصيات الناجية من الهولوكست ويتضح لنا هذا منذ أن أصدر فى عام

١٩٥٧ أول مجموعة قصصية له بعنوان «البرميل السحري» فقصة «السنوات السبع» تحدثنا عن مهاجر بولندى نجا بجلده من محارق هتلر . وتروى لنا قصته «لتأخذكم الشفقة» محنة ناجية من الهولوكست تدعى ايفا تعانى من التشوهات الروحية والنفسية على أيدى زبانية النظام النازى . وقصته «القرض» ترسم صورة لامرأة أخرى مشوهة عاطفيا تدعى بيسى تنسب شكوكها وعدوانيتها إلى الأهوال التى لقيتها فى الحملات التى شنها الروس والنازيون ضد اليهود . وبعد مقتل والدها على أيدى السوفيت هربت إلى ألمانيا برفقة أخيها الذى ضحى بفرصة فى النجاة فى سبيل مساعدتها قبل نشوب الحرب الثانية على الهجرة إلى أمريكا فى حين قام النازيون بإرساله هو وزوجته وابنته إلى المحرقة . وهكذا يصور مالامود صورة لناجين بالأمس القريب من الهولوكست فهم لم ينسوا بعد فظاعاته التى تطفو على سطح وعيهم . وهو وعى يمكن أن ينفجر في أية لحظة ويعكر صفو حياتهم فى أمريكا بلاد المهجر .

ومن أكثر قصص مالامود نجاحا فى مجموعتيه القصصتين «البرميل السحري» و «العبايط أولا» تلك القصص التى تصور الاحتكاك الفكرى بين الناجين من الهولوكست والأمريكان السذج والأبرياء الذين يتعلمون منهم حقيقة التاريخ اليهودى . ويمكن القول إن حياة الشخصيات الروائية التى رسمها مالامود فى أدبه والتى تأثرت فى تكوينها بفظائع الهولوكست تتغير تغيرا جذريا وشاملا من جراء اكتوائها بأهوال الهولوكست النازى . ويسير مالامود على نفس الدرب التقليدى عندما يبين لنا أن يهود العالم القديم أى يهود أوربا الذين يتمسكون بهويتهم اليهودية قادرون على تعليم اليهود المهاجرين إلى أمريكا الذين يسعون إلى التأقلم مع حياتهم الأمريكية الجديدة وتبصيرهم بحقيقة تاريخ اليهود . أى أن اليهودى الأوربى الذى ذاق جحيم الهولوكست هو بمثابة معلم يشرح للمهاجر اليهودى الأمريكى حقيقة العذاب الذى كابده بنو جلدته . هذه الأستاذية الروحية تتجلى فى عدد من قصص مالامود مثل «سيدة البحيرة» و «الموهيكانى الأخير» و «المهاجر الألماني» . وهم يعلمون اليهود الأمريكان المهاجرين غير المكترثين بتاريخهم أو ممن يناصبون الهوية اليهودية

العداء ما ينطوى عليه هذا التاريخ من فواجع وإحن . وليست هذه الأستاذية مقصورة على اليهود الناجين من الهولوكست النازى فحسب بل تمتد إلى الناجين من ابادة القيصر الروسى لشعب اسرائيل . فهؤلاء الناجون من وجهة نظر المؤلف هم ورثة التاريخ اليهودى والأخلاق اليهودية . وهم يذكرون أن القحل الروحى الذى يعانى منه اليهود الأمريكان يرجع إلى اهمالهم معرفة مقدساتهم وتعاليمهم الدينية . هؤلاء المعلمون ممن نجوا من الإبادة سواء كانت روسية أو نازية هم الذين يفتحون أعين بنى جلدتهم على تاريخهم الحقيقى حتى يمكنهم استيعابه وفهمه . تقول قصة «المهاجر الألماني» عن النازية :

«في يوم من الأيام بعد هطول الأمطار الباردة لبرهة عقب هبوب العاصفة فرشنا صحيفة على دكة تطل على النهر . وأخيرا بدأ أوستاد يتكلم . وبلغة انجليزية يتحدثها بصعوبة بالغة سعى إلى نقل كراهيته المشبوبة والأبدية للنازيين الذين دمروا مستقبله وانتزعوا حياته من جذورها وألقوا به إلى النسور كقطعة من اللحم التى تنزف دما . وأمطر وابلا من اللعنات على الأمة الألمانية وشعبها غير الإنسانى المعدوم الضمير والذى لا تعرف الرحمة سبيلا إلى قلبه . إنه شعب من الخنازير المتخفى وراء القناع» .

وفى المجموعة القصصية المسماة «البرميل السحري» يرسم مالامود فى احدى قصصه أحد الذين عاشوا فى قلب الثقافة الأوربية فى الفترة السابقة على الهولوكست وهو رجل يدعى بينى سالزمان . ويقوم هذا الرجل بعمل الخاطبة ويترك أثرا واضحا فى شخصية ليونيكل الانتهازى الباحث عن عروس تتناسب مع أطماعه . وأخيرا يهتدى هذا الرجل الانتهازى إلى طريق الخلاص عن طريق الحب والعذاب . ويتناول مالامود فى قصته «الموهيكان الأخير» على نحو فكاهى قصة أحد اليهود الناجين من الهولوكست واسمه سسكند نزح إلى اسرائيل ولكنه لم يتحمل مشقة الحياة فيها فهاجر منها إلى روما متذرعا بأن العمل فى اسرائيل أثقل من أن يتحمله رجل فى مثل صحته المتواضعة فضلا عن عدم قدرته على تحمل التوتر السائد فيها . ويذهب الرجل

إلى روما حيث يعقد صفقات مشبوهة ويجنى مكاسب سريعة ويعيش عالة على اليهود هناك. وبالإضافة إلى المحتال سسكند يقدم إلينا المؤلف شخصية يهودى دعى آخر اسمه فيدلمان عرف هو أيضاً فى نهاية المطاف الطريق إلى الخلاص . غير أن قصته «لتأخذكم الشفقة» و «القرض» رغم أنهما تصوران شخصيات يهودية مهاجرة بعد نجاتها من الاضطهاد تخلوان على غير العادة من قدرة هذه الشخصيات على تحقيق الخلاص .

تدور قصة «سيدة البحيرة» التى سبق أن أشرنا إليها حول يهودى أمريكى شاب اسمه هنرى ليفين يضيق ذرعا بحياته الرتيبة المملة فى أمريكا فيقرر السفر إلى أوربا بحثا عن الحب والرومانسية والمغامرة . ويضيق هذا الشاب اليهودى أيضا ذرعا بماضيه وتراثه اليهودى فيتنكر لهما .وفى سعيه إلى التحرر من ماضيه اليهودى يتخذ لنفسه اسما جديدا هو فريمان (ومعناه باللغة الانجليزية الرجل الحر) . ويذهب فريمان إلى إيطاليا حيث يقابل فتاة يهودية جميلة تدعى ايزابيلا . فيقع أسير فتنتها ويعرض عليها الزواج معتقدا أنها إيطالية أرستقراطية فى حين أن أباها كان مجرد حانوتى . وفى أكثر من مناسبة تسأل الفتاة الشاب اليهودى الأمريكى إذا كان يهوديا أم مسيحيا فيؤكد لها مرارا وتكراراً انه ليس يهوديا . فترفض الزواج منه . ويتضح لنا في نهاية القصة انها ناجية من الهولوكست فى أحد معسكرات الاعتقال . ونحن نراها فى مقابلتها الأخيرة مع فريمان تكشف له عن نهديها لتبين الوشم والرقم اللذين رسمهما النازيون على جسدها البض . وتخاطب ايزابيلا الشاب الأمريكى فريمان قائلة: «لا أستطيع الزواج منك فنحن يهود . وإنى لا أتنكر لماضى لأن له معنى بالنسبة لى . وما تعذبت بسببه شيء غال على» ويوضح كلامها البون الشاسع بين حكمتها وأمانتها وشجاعتها وبين جبنه وخسته والدرس الذى تلقنه لنا هذه القصة لا يخفى على أحد . فقد ظلت ايزابيلا اليهودية تستمسك بدينها وتراثها حتى النهاية غير مبالية باحتقار الناس لهذا الدين وهذا التراث . ومن ثم فهى ذات مبادىء وأسمى بكثير من اليهودى الأمريكى الذى ينكر هويته الدينية ويولى ظهره للثقافة والتاريخ اليهودى فيخسر

نفسه وحبه معا . تقول القصة بشأن هذا الشاب المرتد عن دينه :« إنه يتعين عليه أن يحتضن خصوصية الهوية اليهودية التى لاتنفصم عراها أبدا عن تجربة الهولوكست إذا أراد احتضان ما تمثله ايزابيلا من اكتمال الحياة» غير أن الحيز الذى تشغله ايزابيلا فى هذه القصة يتضاءل أمام الحيز الذى تشغله شخصية فريمان . وايزابيلا تبدو غامضة كالجنية الفاتنة الجميلة الصامتة التى تخرج من عباب البحر» .

وأيضا فى قصة «الموهيكان الأخير» - و «الموهيكان» وهو آخر من تبقى من اليهود المجندين فى شرق أوربا - يلعب شيمون سسكند دور الأستاذ المعلم بصورة أوضح مما نراه فى «سيدة البحيرة» . وسسكند واحد من الناجين من الهولوكست النازي ويلعب دور المعلم الروحي لشاب يهودى أمريكي يدرس النقد وتاريخ الفن يسافر إلى إيطاليا لدراسة الرسم المسيحي . أى أن سسكند فى نفس وضع الشحاذ التقليدى فى أدب اليديش الشعبى . ورغم أنه إنسان مضحك فإنه ينجح فى التأثير الشديد فى نفس تلميذه الأمريكى آرثر فيلدمان ويرشده إلى طريق التوبة والغفران ومعرفة الذات . أى أنه ينجح فى أن يرد إلى الأمريكى صحته وعافيته الأخلاقية . وآرثر فيلدمان رسام وناقد فنى فاشل جاء من أمريكا إلى ايطاليا خصيصا لإجراء دراسة نقدية عن الفنان الايطالى المسيحي جيوتو . وعند وصوله إلى ايطاليا يتعرف عليه الشحاذ اليهودى سسكند . وما أن يتأكد هذا الشحاذ من جنسية الرسام الأمريكى اليهودى حتى يلاحقه فى كل مكان ويعرض عليه أن يرشده مقابل اعطائه مبلغ زهيد ريزته القديمة . ولكن الشاب الأمريكى يضيق ذرعا بالحاح هذا الشحاذ العجوز ويسعى قدر طاقته للتخلص من ملاحقته دون جدوى . فسسكند مصر على ملازمته كظله . ويحاول الشحاذ أن يذكره بالنص الدينى اليهودى الخاص بمسئولية كل يهودي عن مجتمعه . ويرد عليه فيدلمان أنه ليس مسئولا عنه فيقول له الشحاذ : «من إذن المسئول .. أنت مسئول عنى لأنك إنسان ولأنك يهودى .. أو لست يهوديا ؟ » . ولكن فيدلمان يصده ويشيح بوجهه عنه ويرفض الاستجابة لالحاحه . فينتقم منه الشحاذ بأن يسرق من حقيبته الفصل الأول والوحيد من مخطوطته التى كتبها عن الفنان جيوتو .

وتنقلب الأوضاع فيجد فيدلمان في العثور على سسكند الشحاذ من أجل استرجاع مخطوطته المسروقة منه . وهكذا يبحث فيدلمان عن الشحاذ العجوز في الجيتو والمعابد والجبانات اليهودية . وفي بحثه المحموم عن سارقه يرى فيدلمان الشحاذ يدخل معبدا يهوديا ويختلط بالمصلين ويتظاهر بمشاركتهم الصلاة . ويقابل فيدلمان يهوديا آخر من الناجين من الهولوكست ينتحب من أجل ولده الذى قتله النازيون فيرق قلب الشاب الأمريكي له . ويأخذه اليهودي المنتحب إلى مقابر اليهود كي يذكره بمأساتهم فيأسى الشاب لحالهم ويعبر عن عطفه عليهم . ثم يواصل البحث عن سسكند الذي سرق مخطوطته . ومرة أخرى يقوده البحث إلى الجيتو ومقابر اليهود الذين يستخدمون الشحاذ سسكند أحيانا في الصلاة على موتاهم وطلب الرحمة والمغفرة لهم. ويرى الشاب الأمريكي مقبرة عليها نجمة داود ليتيم هلك والده في الهولوكست وقد كتبت على المقبرة الكلمات التالية «إلى أبى الحبيب الذى خانه الفاشيون الملاعين والذين قتله النازيون البرابرة في معسكر أوسشنتز للاعتقال . فيالها من جريمة شنعاء»

وتنجح هذه الكلمات في تحريك مشاعر فيدلمان فينصرف إلى دراسة التاريخ اليهودى كما يشهد عليه الجيتو والقبور اليهودية . وبذلك يطرأ على فيدلمان تغير هائل ويتحول من حال إلى حال . حتى موقفه من سسكند سارقه يتغير . فهو الآن يعترف له بالفضل لأنه نبهه إلى أن ما كتبه عن جيوتو يفتقر إلى الروح .

وتنتهى القصة بفيلدمان وهو يحلم بقيام سكسند من الأموات ومجادلته في معنى الحياة وهدفها . وهنا يرشده الشحاذ العجوز إلى اكتشاف عالم الروح ومعنى الفن في اطار أخلاقيات الدين اليهودي الذى ينادي بمسئولية الإنسان عن أخيه الإنسان وبواجب الإحسان وفعل الخير المقدس .

ويدرك فيدلمان أن مفهومه عن الفن قبل معرفته بأستاذه سسكند كان قاصرا وأن هذا القصور كان السبب في أنه لم يفهم حقيقة الفن ولم يفهم تفسير جيوتو للعذاب الإنساني إلا بعد أن تعلم من الناجين الهولوكست أن لب الدين اليهودى ضرورة أن يكون الإنسان مسئولا عن أخيه الإنسان .

ويتضح لنا مما تقدم من قصتي «سيدة البحيرة» و«الموهيكان الأخير» «ومعناه كما أسلفنا آخر من تبقى من الجيش اليهودي في شرق أوربا» أن البطل في كلتا القصتين يهودي أمريكي أولى ظهره للتاريخ اليهودي وتعاليم الدين اليهودي الأخلاقية . ورغم أن هاتين القصتين لا تستقصيان تفاصيل الهولوكست فإن عذاب ضحايا يؤكد سلامة الثقافة اليهودية والمبادىء الأخلاقية اليهودية بالنسبة لليهودي الأمريكي المنصهر في بوتقة الحياة الأمريكية وأن التاريخ اليهودي لا يزال نافعا ومفيدا لهم .

وإذا كنا نرى الهولوكست قابعا في خلفية أو مؤخرة القصتين السابقتين فإنه يتبوأ مكانا محوريا في المجموعة القصصية التالية التى ألفها برنارد مالامود عام ١٩٦٣ بعنوان «العبابط أولا» التى تحوى قصة «المهاجر الألماني» الذى سبق الاشارة إليها . ففيها نرى اليهودي الألماني (وليس اليهودي الأمريكي) في مركز الصدارة .

ويروى أحداث قصة «المهاجر الألماني» أمريكى اسمه مارتن جولدبرج يقوم بتدريس اللغة الانجليزية لمهاجر يهودي ألماني في الخمسين من عمره يدعى أوسكار جاسز . والعلاقة بين الرجلين تتجاوز علاقة الأستاذ بتلميذه لأن وشائج الصداقة تربط بينهما . ويتأثر الراوي تأثرا بالغا بمحنة جاسز ويرسم صورة لحالة المهاجر المتدهورة المحروم - بسبب جهله باللغة الانجليزية - من القدرة على التعبير عن نفسه والتواصل مع الآخرين . ويختلف هذا المهاجر اليهودي الألماني عن معظم المهاجرين في أدب برنارد مالامود من حيث مستوى تعليمه الرفيع فقد كان يعمل صحفياً وناقداً متميزا في برلين فضلا عن ثقافته الأوربية الجيدة . ولهذا فهو يختلف تماما عن الشحاذ المفلس سسكند . ويصل جاسز إلى أمريكا دون أن يفقد مستوى الرفاهية التى كان يتمتع بها في بلاده ألمانيا . وفي أمريكا يكلف هذا المهاجر الألماني بالقاء سلسلة محاضرات في الأدب الألماني وهو نفس العمل الذى كان يضطلع به أثناء إقامته في ألمانيا . ولكن مشكلة كأداء تواجهه فهو يجهل اللغة الانجليزية التى سوف يلقى محاضراته بها مما يحزنه ويحز في نفسه ويكاد أن يصيبه بالشلل .

ورغم أن أحداث القصة تقع فى أمريكا الهادئة عام ١٩٣٩ وليس فى ألمانيا النازية أو بولندا تحت الاحتلال النازى فإنها تصور عذاب اليهودى المزروع فى تربة جديدة غير بلده والمحروم من مواطنة وثقافة بلد المهجر ، مما يذكرنا بمتاعب اليهود فى البلاد التى يعيشون فيها . وعندما يقترب موعد القاء المهاجر الألمانى لأولى محاضراته بالانجليزية ينتابه الهلع . وعبثا يحاول أستاذه الأمريكى أن يهدئ من روعه ناصحا إياه بالتعبير عن أفكاره بلغته الأصلية وهى الألمانية ثم يقوم بترجمتها إلى الانجليزية على مهل . ويبدأ فى الكتابة ولكنه يكتشف أنه حتى لغته الأصلية استعصت عليه . ويعتريه الاضطراب فتتحول كراهيته للنازية إلى كراهية للغة الألمانية ويصرخ قائلا إنه الآن أصبح عاجزا عن الكتابة بهذه اللغة القذرة ويتضح للمهاجر الألمانى أن حياته ومستقبله قد دمرا تماما كما دمر الهولوكست حياة ومستقبل اليهود . ورغم أن جاسز لا يدرك فداحة الأهوال والجرائم التى ارتكبها المجرمون النازيون ضد بنى جلدته ورغم أنه نجا بجلده منها فإنه يشعر بأن حياته تعرضت لنفس الدمار الذى تعرضوا له . ولهذا نراه يعتبر الأمة الألمانية «شعبا معدوم الإنسانية والضمير وبدون رحمة» . وقد دفعته كراهية الألمان لليهود إلى الهجرة إلى أمريكا قبل أن يجتاحه الطوفان النازى إذ نجح فى مغادرة ألمانيا قبل الهولوكست الذى حدث فى مدينة كريستلناخت الألمانية بشهر واحد . ومع ذلك فقد لحق به الهولوكست حتى وهو فى أمريكا . فمعاداة السامية الألمانية أفقدته الثقة بنفسه وقضت على نفسيته ومعنوياته . ويقول جاسز : «لقد فقدت الإيمان ولم أعد أقدر نفسى وأحترمها مثلما كنت أفعل فى الماضى . إن حياتى امتلأت بالأوهام أكثر مما ينبغى» .

ويرى بعض النقاد أن المؤلف برنارد مالامود يخلق جو الهولوكست فى قصة «المهاجر الألمانى» عن طريق استخدام الاشارات والاستعارات المتصلة بالطقس أو الأحوال الجوية مثل تشبيه شدة القمع النازى بقيظ الصيف الخانق . كما أنه يسير على نفس الدرب الذى سلكه كتاب الهولوكست الآخرون وهو استخدام الرموز والأحلام المزعجة للتعبير عن القلق الذى ينتاب ضحيته . والأحلام المزعجة التى تطوف بمنام

جاسز أكثر فظاعة وترويعا من التجارب التى مر بها فى الواقع ولكنها تنذر بما ينتظر اليهود فى أوربا من شر مستطير . ومع أن أحداث القصة تقع قبل بداية الهولوكست أثناء الحرب العالمية الثانية فإنها تتنبأ بغرف الغاز والمحارق .

وفى نهاية القصة يطرأ تغير هائل على جاسز نتيجة اختلافه مع أستاذه حول السبب الذى حدا بالألمان للاهتمام بشعر الشاعر الأمريكى الكبير والت ويتمان . وتتفجر طاقات جاسز الخلاقة فينجح فى القاء المحاضرة التى سبق أن استعصت عليه . ويشعر الأستاذ بالفخر للانجاز الذى حققه تلميذه ولكن فرحته لا تدوم لأن المهاجر الألمانى آثر الانتحار لأن هتلر لم يتركه فى حاله بل ظل يلاحقه حتى بعد أن هاجر إلى أمريكا . فقد تلقى جاسز من حماته الألمانية تخبره أن النازيين ضربوا زوجته بالرصاص عندما تحولت وفاء لزوجها إلى الدين اليهودى . حتى انتحار جاسز بالغاز يشير إلى غرف الغاز التى أعدها هتلر للتخلص من اليهود . ويرى بعض النقاد أن مالامود لا يرسم الهولوكست بطريقة واقعية بقدر ما رسمه بطريقة رمزية .

ولا يقتصر اهتمام برنارد مالامود بالهولوكست على قصصه فحسب بل يمتد إلى روايته «مساعد البائع» (١٩٥٧) التى سبق أن تحدثنا عنها و«لطف الله» والروايتان مليئتان بالإشارات إلى الهولوكست فى أوربا الواقعة تحت الاحتلال النازى . وهناك أيضا رواية «المثبت» التى ألفها مالامود عام ١٩٦٦ واستمد الكثير من أحداثها من واقعة تاريخية تتمثل فى محاكمة يهودى روسى يدعى مندل بيليس فى كييف عام ١٩١٣ بتهمة سفك دم طفل مسيحى من أجل القيام ببعض الطقوس الدينية اليهودية .

وتتميز رواية «المثبت» بأنها أكثر أعمال مالامود الروائية قربا من الهولوكست النازى رغم أن أحداثها تقع فى روسيا القيصرية . ففى هذه الرواية يشير المؤلف إلى التشابه بين كراهية أوربا المسيحية لليهود وكراهية ألمانيا النازية لهم . والرأى عنده أن أوربا المسيحية أذنبت عندما غضت الطرف عن الجرائم النازية ضد اليهود . وتقع أحداث رواية «المثبت» فى اطار اعتقاد النظام الروسى القيصرى بوجود مؤامرة

يهودية دولية للإطاحة به الأمر الشبيه باعتقاد النظام النازى بتورط اليهود فى مؤامرة دولية للنيل من الشعب الألمانى . وبهذا تكون رواية «المثبت» قد تنبأت بظهور المحارق ومعسكرات الاعتقال النازية . وقد ذكر المؤلف فى تعليق له على الرواية أنه لا يريد من قارىء رواية المثبت أن يطالعها فى إطار قضية بيليس فقط : يقول المؤلف فى هذا الصدد : «الذى حدث فى ألمانيا النازية مهم فى نظرى فى فهم الكتاب فهذا جزء من قصة ياكوف وهناك أيضا قضية دريفوس» . وقد ساعدت الوحشية النازية فى اضطهاد اليهود المؤلف مالامود فى تصوير اضطهاد الروس لهم فى عهد القيصرية . ومعنى هذا أن الهولوكست النازى مكن المؤلف من تصوير الابادة الروسية لليهود على نحو أفضل وأكثر احكاما . أى أن الحدث التاريخى اللاحق (وهو الهولوكست النازي) ساعد الكاتب فى ابراز الحدث التاريخى السابق عليه المتمثل فى اضطهاد الروس لليهود . وكذلك ساعدت قضية اليهودى بيليس على الاقتراب الوثيق من الهولوكست الأوربى الذى تدور حوله كل أحداث الرواية . وقضية بيليس تمثل بوضوح لب الداء الثقافى الذى تغذت اللوثة النازية عليه الأمر الذى يربط بين اضطهاد اليهود فى القرون الوسطى – بزعم أنهم أعداء المسيح – واضطهادهم فى ألمانيا النازية وروسيا القيصرية بزعم اشتراكهم فى مؤامرة دولية يحيكها حكماء صهيون الأشرارضدها وهم فى عالمهم السفلى عن طريق سيطرتهم على عالمى السياسة والاقتصاد .

وبطل رواية «المثبت» يهودي متسيب ومنحل يدعى ياكوف بوك يضيق ذرعا بالقيود التى يفرضها النظام القيصرى على اليهود . ومن ثم فإنه يتوق إلى الانطلاق فى عالم أوسع وأرحب من الجيتو الخانق . وهو يمثل شخصية بيليس التاريخية . ويسعى هذا اليهودى إلى قطع كل الوشائج التى تربطه بماضيه اليهودى . وسافر هذا اليهودى المارق على دينه وعشيرته سرا إلى مدينة كييف حيث يعمل فى مجال البناء وفى الطريق يستقل قاربا لتوصيله إلى كييف فيستمع إلى شتائم المراكبى القاذعة ضد اليهود . فيستجيب له بالقاء كل ما يذكره بماضيه فى النهر (مثل كتاب الصلاة ووشاح الصلاة) . ورغم ذلك فإن المسيحيين الروس فى كييف اتهموه (مثلما اتهموا

مندل بيليس التاريخي) بسفك دم طفل مسيحي بريء واخفاء جثته فى مغارة بالقرب من مخزن الطوب . ويأتي البوليس ليكتشف وجود عدة طعنات فى الجثة فيسوقون ذلك كدليل دامغ على أن ياكوف قام بالفعل بسفك دم الطفل المسيحي من اجل إقامة شعائر عيد الفصح . ويقدم ياكوف إلى المحاكمة فيحكم عليه بالسجن لمدة سنتين . وتشير هذه الواقعة إلى اعتقاد الروس باستشراء النفوذ اليهودى الشرير فى الحياة الاقتصادية والسياسية فى روسيا القيصرية . وهكذا يتخذ المؤلف من ياكوف رمزا لجميع ضحايا الهولوكست النازى حيث أن ياكوف يدرك أن اليهودى بحكم مولده لابد وأن يتعرض لأذى التاريخ وأخطائه . وفى سجنه يحاول بطل الرواية ياكوف الاجابة عن السؤال الذى حير الإنسان منذ وجد على الأرض : «من الذى خلقنى فى هذه الحياة» . ويطرح بطلنا هذا السؤال وهو يتعذب فى زنزانته الانفرادية وقد نزع الحراس عنه ثيابه وقاموا بتكبيله وتفتيش الأجزاء الحساسة من جسده . وهو لا يتنكر لتراثه اليهودى فحسب بل ينكر الله أيضا فهو يقول : «إن الله يلازمنا حتى يأتى القوزاق ممتطين صهوات جيادهم الراكضة . حينئذ يتركنا ويتخلى عنا» . والقوازق هم أشرس من الروس فى التنكيل باليهود كما نعرف .

قلنا إن ياكوف استجاب لهجوم المراكيبى القاذع على اليهود وهو هجوم يمهد الطريق لعداء زعماء النازية ضدهم ويتبع المؤلف من خلال هذا الهجوم التصعيد المتنامى فى التعبير عن العداء ضد اليهود من مجرد اعتداء الحثالة والغوغاء عليهم فى الشوارع إلى مرحلة إبادتهم . ويتحدث المراكيبى إلى ياكوف بلغة تذكرنا بطريقة النازيين فى الحديث عن اليهود :

«الله يحمينا جميعا من اليهود الملاعين – الطوال الأنوف الذين يغطي النمش وجوهم . هؤلاء المخادعون ومصاصو الدماء مثل الطفيليات . إنهم يلوثون الأرض والهواء بأجسادهم التى تفوح بالرائحة الكريهة وبأنفاسهم التى تفوح منها رائحة الثوم. وإذا لم يضع الروس حدا لهم فسوف تقضى الأمراض التى ينشرونها على حياة المواطنين الروس . إن اليهودى شيطان وهذه حقيقة معروفة . وإذا حدث يوما ما أن

راقبت يهوديا يخلع حذاءه العفن لسوف تجد فى قدمه حافرا مشقوقا .. وهم يزحمون البلاد يوما بعد يوم . والطريقة الوحيدة التى تخلصنا منهم هى إبادتهم عن بكرة أبيهم ولست أعنى بذلك قتل يهودي من وقت لآخر بلكمة من قبضة اليد أو ضربة في الرأس ولكن أعنى استئصالهم جميعا من الأرض . أقول ينبغى علينا أن ندعو رفاقنا المدججين بالبنادق والسكاكين ... وبأي شيء يمكنهم قتل اليهود به . وعندما تدق أجراس الكنائس نتحرك نحو أحياء اليهود التى يمكننا التعرف عليها برائحتها العفنة ونخرجهم من الجحور التى يختبأون فيها .. فى الغرف المبنية فوق السطوح وفى القياء وجحور الفئران ونحطم أدمغتهم ونطعن أحشاءهم ونطلق النار على أنوفهم البارزة لإزالتها من مكانها لا نفرق فى ذلك بين كبير السن وصغير السن منهم . ثم نفعل هذا مرارا وتكرار ».

ويستأنف المراكبى كلامه عن ضرورة اجتثاث اليهود من وجه الأرض: «وعندما ننتهى من قتل جميع أفراد عشيرتهم بعد اشعال النار فى جحورهم لاخراجهم منها نلقى بجثثهم فى كومات نسكب عليها كثيرا من البنزين ونضرم النيران فيها لإدخال السرور والسعادة على قلوب كل البشر . وعندما يتم لنا هذا نقوم بنثر رماد أجسادهم العفنة ثم نقسم أموالهم وجواهرهم وفضتهم وفراءهم وكل ما نهبوه منا » .

وهكذا يمهد المراكبى بهذا الكلام البشع الطريق لظهور الأحداث المرعبة التى حدثت فى معسكرات الاعتقال فى أوسشفتز وداكاو وبوخنوالد . والزنزانة التى سجن فيها ياكوف هى المقابل لسجن اليهود فى معسكرات الاعتقال . فهو يتعرض لأسوأ الظروف الجوية وينام على مرتبة مليئة بالقمل والحشرات ذلك لأن السلطات الروسية تبغى الامعان فى اذلاله واهانة كرامته وتحطيم معنوياته قبل الاجهاز عليه . ويشعر السجين ياكوف أنه يواجه قوى عاتية لا قبل له بها يعجز عن فهمها وفهم دواعيها : ورغم ذلك يرفض ياكوف الخضوع والاستسلام لها . تقول الرواية فى هذا الشأن إنه ليس هناك من سبب واضح لالحاق كل هذا العذاب والهوان به غير أنه ولد يهوديا . فهو ليس مقصودا بهذا الإذلال لذاته بل هو ضحية ظروف موضوعية فالتعذيب الذى

يكابده على المستوى الشخصي ليس له أى سبب يتعلق بشخصه . ويقبل ياكوف هذه المصادفة وقدره السيء من الناحية التاريخية ويرفض بكبرياء وعزة نفس إنقاذ نفسه على حساب بنى جلدته كما يرفض اغراء النازيين له بخيانة بنى جلدته والتبليغ عنهم .

إن شخصية ياكوف بوك وسائر شخصيات برنارد مالامود الروائية تشبه أيوب فى الكتاب المقدس فهى غالبا ما تصرخ من الوجيعة ولكن الأمر ينتهى بقبول الأمر الواقع . وبطبيعة الحال يذكرنا تمرد ياكوف على الله واحتجاجه على قسوته باحتجاج أيوب على ربه . وعلى أية حال فإن نبذه للإيمان والدين يذكرنا بنبذ اليهود الناجين من الهولوكست النازى له . فلا غرو إذا رأيناه ينبذ الدينين اليهودى والمسيحى معا . وعندما يعطيه حارس السجن الجيلا يقرأه يرفض الاقتناع بما جاء فيه فهو لا يفهم كيف يسمح الله بصلب المسيح رغم براءته وطهارته . ولكن عدم ايمانه بالدين اليهودى لا يمنعه من الايمان العميق بحق الشعب اليهودى فى أن يعيش وفقا لمبادئه الدينية وفى الإيمان بالعهد الذى قطعه هذا الشعب على نفسه حتى إذا كان الله قد غدر به . وهو يصر على الاستمرار فى مكابدة العذاب ليس من أجل الله ولكن من أجل بنى اسرائيل .

ويذهب النقاد إلى أن رواية «المثبت تدور حول نجاة اليهود من الهلاك والابادة وهو نفس الموضوع الذى تدور حوله روايات الهولوكست النازى . كما أنها تتناول ولادة اليهود من جديد عن طريق التمسك بدينهم والتضامن مع شعبهم . وفى الرواية تعرض السلطات القيصرية الروسية على ياكوف اطلاق سراحه مقابل تحوله إلى الدين المسيحى . ولكنه يأبى أن يشترى حريته الشخصية بخيانة أهله وعشيرته . وأثناء سجنه الذى دام سنتين ونصف لم يطمع ياكوف فى شيء غير البقاء على قيد الحياة . ويكتشف الرجل فى النهاية أن العذاب قد حوله إلى يهودى ملتزم ولكن التزامه يأتى فى اطار سياسى أكثر من كونه إطارا دينيا . ومن ثم فإن خلاصه ليس خلاصا دينيا كما هو الحال فى أدب ويزل وسنجر بقدر ما هو خلاص سياسى مستمد من إدراكه أن هويته الشخصية جزء لا يتجزأ من هوية بنى جلدته .

ويستخدم برنارد مالامود فى تصويره لشخصية ياكوف الأحلام المزعجة التى تقض مضجع جميع الشخصيات الناجية من الهولوكست النازى . لقد رأينا كيف أن مراكبى المعدية فى رواية «المثبت» عبر تعبيرا بشعا عن كراهيته لليهود . ونحن نرى أيضا قيصر روسيا نيقولا يأتى إلى ياكوف فى هلوساته ليفعل نفس الشيء ولكن بلغة ملطفة فهو يلوم ياكوف بوك على يهوديته ويقول : «هناك عدد من اليهود أكثر مما ينبغي . لعمرى كيف أنكم تتكاثرون ! ولماذا تتحمل روسيا عبء الملايين منكم ؟» ويدعو هذا القيصر فى الرواية إلى قتل ثلث الشعب اليهودى ونفي ثلثه وادماج الثلث الأخير فى الشعب الروسى .

ويعترف مالامود بأهمية التجربة التاريخية فى انتاجه الروائى . وهو يتعجب كيف أن هتلر المتعصب الذى تفوح روحه برائحة نتنة استطاع الاستيلاء على السلطة فى ألمانيا وكيف أن طابورا طويلا من اليهود يزيد طوله علي ألف ميل أبيد بالغاز وكيف أن جثثهم جردت من الأحذية وحشو الأسنان وكيف تم تحويل الدهون فى أجسامهم إلى صابون . والجدير بالذكر أنه رغم أن أدب مالامود الروائى لايعالج الهولوكست بطريقة مباشرة (كما شاهدنا فى رواية «المثبت») فإنه يظهر وعيا شديدا بمأساته الأمر الذى يدل على أن الهولوكست النازى لم يفارق خياله .

ونختتم الحديث عن مالامود بعرض ما جاء فى المقال الذى كتبه سيلدون نورمان جريبشتين بعنوان «برنارد مالامود والحركة اليهودية» يقول جريبشتين إن هناك دلائل قاطعة على ظهور حركة يهودية فى الآدب الأمريكى يتصدرها شاءول بيلو وبرنارد مالامود وفيليب روث وأن هذه الحركة لا تزال نشطة على أيدى رعيل الكتاب اليهود الأصغر سنا مثل ليسلى فيلدر وهربرت جولد وبروس جاى فريمان وهرمان ووك وليون يوريس وجيرومى ويدمان . ومعنى ذلك أن الحركة اليهودية فى الأدب الأمريكى لا تزال تحتفظ بقوة دفعها . صحيح إنه كان هناك قبل هؤلاء كتاب يهود أمريكان مرموقون أمثال ابراهام كاهان وهنرى روث ومايكل جولد . ولكن احتفاء الأدب الأمريكى بموهبتهم الأدبية كان على المستوى الفردى بمعنى أنهم لم يكونوا يمثلون حركة

أدبية ويضيف جريبشتين أن الذى ساعد على ظهور هذه الحركة الأدبية اليهودية فى أمريكا هو تغير نظرة الأمريكان إلى اليهود بعد أن سامهم النازيون مر العذاب فى معسكرات الاعتقال . فقد تحول اليهودى فى نظر الأمريكان بفضل هذا العذاب من إنسان مكروه يدعو إلى الزراية والاستهزاء إلى رمز يمثل قمة العذاب الإنسانى .

ويذهب كاتب المقال إلى أن تصوير العذاب هو السمة العامة التى تجمع بين أدباء هذه الحركة على اختلاف طرائقهم فى التعبير عن أنفسهم . ورغم أن كتاب الهولوكست فى أوربا أمثال أندريه شوارتز بارت وإيليا ويزل وبيوتر راويز الذين خاضوا تجربة الهولوكست بأنفسهم عبروا عن عذاب اليهود بقوة واقتدار ليس لهما نظير فإنهم لم يشكلوا حركة أدبية مثلما فعل أقرانهم الأمريكان الذين لم يجربوا الهولوكست بأنفسهم . وأدب الهولوكست الأوربى ينضح باليأس والعدمية فى حين أن الأدباء اليهود الأمريكان الذين عالجوا الهولوكست احتفظوا بشيء من الرجاء ومن ثم فإنهم أضفوا على عذاب اليهود معنى وجعلوا منه سبيلهم إلى الخلاص والتجدد وتؤمن هذه الكوكبة الجديدة من الروائيين اليهود الأمريكان بقيمة الإنسان والحياة الإنسانية ليس من منطلق الدين اليهودى الأصيل والراسخ بل من منطلق علمانى . والرأى عند جريبشتين إن برنارد مالامود يفوق فى أهميته كلا من بيلو وروث وأن أدبه يحمل السمات الأساسية التى تتصف بها الحركة اليهودية فى الأدب الأمريكى التى ظهرت مؤخرا وعلى قمة هذه السمات المميزة لأدب مالامود الروائى الإيمان بأن العذاب له مغزى وليس أمرا عبثيا . فضلا عن أن هذا الأدب يسعى إلى البحث عن الحلول الأخلاقية ويدعو إلى تحقيق الإنسان لذاته . وأيضا يتسم هذا الأدب بالثراء الكوميدى ومن المفارقة أن نرى أن عنصر الفكاهة الذى يستخدمه مالامود يهدف إلى التعبير عن شيئين متناقضين هما العذاب والتخفيف فى نفس الوقت من وطأته . ويقول جريبشتين أن هذه الحركة الأدبية استحدثت أسلوبا يهوديا فى الكتابة لا يقتصر على مجرد استخدام بعض ألفاظ وعبارات الييديش بل يشمل تطوير اللغة الأمريكية الدراجة بحيث تستطيع تصوير خصائص اليهود الإثنية دون أن تفقد شيئاً من

استساغة غير اليهود له وهو أسلوب قادر على التعبير عن الوقار المأساوى إلى جانب الدعابة والهزل . ويذهب جريبشتين إلى أن أدب مالامود يتميز بثلاث قسمات مميزة له ومميزة للحركة اليهودية فى الأدب الأمريكى عموما وهى العذاب والدعابة والأسلوب المميز .

ومفهوم مالامود عن العذاب يماثل مفهوم كثير من أنبياء اليهود عنه . فالعذاب لا يؤدى إلى الخلاص فحسب بل انه قدر مكتوب على بنى اسرائيل وهو دليل على حب الله لهم لأن الله يمتحن من يحبهم كما أنه سبيلهم إلى إدراك هويتهم . ورغم التشابه الكبير بين رواية «المثبت» وبعض آيات أنبياء اليهود فى العهد القديم فمن الخطأ أنه نعتقد أنه يسلك سبيل الدين فى مفهومه للعذاب . وقد عبر مالامود عن هذا بوضوح عندما قال : «هدف الكاتب أن يمنع الحضارة من تدمير نفسها ولكن دون تبشير . إن الفنانين لا يمكن أن يكونوا مبشرين وقساوسة . فهم يدمرون فنهم بمجرد محاولتهم أن يكونوا كذلك» . ومعنى هذا أن مفهوم مالامود للعذاب مفهوم علمانى يعنى باستجلاء جوانبه الاجتماعية والأخلاقية وتأثيره فى شخصية الإنسان . وإذا كانت شخصياته الروائية تتوقع جزاء أو مكافأة على ما تكابده من عذاب فهى تتوقعه فى الأرض وليس فى السماء .

ويصف جريبشتين أفكار مالامود بأنها تميل إلى الإيمان بالمذهب الإنسانى وتعبر عن اللاأدرية . يقول مالامود : «إنى افترض أننا لن نحطم بعضنا البعض . وافترض بأننا سوف نستمر فى الحياة ونسعى إلى حياة أفضل . قد لا نتحسن ولكننا على الأقل سوف نسعى إلى تحسين أنفسنا» . وهذا الكلام يدل على تفائله بالطبيعة البشرية . ولكن هذا التفاؤل لا يعميه عن شرور الإنسان وجشعه وطمعه وخيانته وشهوانيته . ومعنى ذلك أن شخصية مالامود تجمع بين المثالية والواقعية . ويرى جريبشتين أن كثيرا من شخصيات مالامود الروائية نهب مقسم بين الايثار والأثرة وبين الغيرية والمادية كما هو الحال مع شخصية صبى البقال فى الرواية المعروفة بهذا الاسم .

ويذكر هذا الكاتب أن شخصية مالامود «المثبت» من الناحية الاحصائية تحتوى على عدد من الشخصيات الشريرة أكثر من الشخصيات الخيرة : ولكن فيها بعض الشخصيات التى تتصرف بدافع من الاحساس بالواجب كما يأمر بذلك الدين اليهودى مثل القاضى الروسى بيبيكوف الذى أصدر حكما مخففا على ياكوف بوك بطل رواية «مساعد البائع» ليس إشفاقاً منه عليه ولكن بدافع إحساسه بالواجب والقانون . فلا غرو إذا اعتبره ياكوف يهوديا .

وهناك أيضا كوجين حارس ياكوف فى السجن الذى سعى إلى إنقاذ حياة سجينه مضحيا بحياته من أجل ذلك . غير أن برنارد مالامود كان مدركاً تماما لدوافع الإنسان الخسيسة ولدور العذاب فى تحويل البشر إلى وحوش ضارية .

٤ - ليسلى إبشتين (١٩٣٨ -)

Leslie Epstein

ولد ليسلى إبشتين يوم ٤ مايو ١٩٣٨ من والدين يهوديين هما فيليب وليليان تارجن إبشتين . ويذكر كاتبنا أن ولادته جاءت فى نفس الشهر الذى بدأ فيه الألمان يرسلون اليهود إلى معسكر داكاو للاعتقال . وينتمى مؤلفنا إلى الجيل الثالث من اليهود المهاجرين فهو ابن لأبوين استوعبا الحياة الأمريكية واندمجا فيها .. وتلقى ليسلى تعليمه فى المدارس الأمريكية وانخرط فى زمرة أقرانه المسيحيين يحتفل معهم بشجرة عيد الميلاد وعيد القيامة على نفس النحو الذى احتفل به الأطفال المسيحيون . وظل الطفل لا يدرك أنه يهودى حتى سن الرابعة أو الخامسة عندما سأله بعض أصدقائه عن ديانته . ولهذا نراه لا يمارس الطقوس الدينية اليهودية إلا فى فترة رجولته .

كان والده يكتب سيناريوهات الأفلام فى مدينة هوليود بالاشتراك مع أخيه التوأم جوليوس . ونظرا لأن الأبن كان يرى والده منشغلا بالكتابة فى منزله فقد كان من الطبيعى أن يتأثر به ويحذو حذوه . وظهرت موهبة مؤلفنا فى التأليف الكوميدى فى وقت باكر . ولأن والده أصاب نجاحا فى الكتابة لشركة إخوان وارنر السينمائية فقد عاش هو وأسرته فى بحبوحة من العيش : ويدل سجله الدراسى على تكرار مشاغباته فبعد وفاة أبيه بسنتين التحق بمدرسة وب التى طردته لمدة ثلاثة أيام لاعتراضه على الطعام الذى تقدمه المدرسة . ثم التحق بجامعة ييل التى طردته لمدة أسبوعين بسبب مشاغباته . ولكن هذه الجامعة منحته شهادة الليسانس فى الآداب عام ١٩٦٠ . وبعد ذلك سافر إلى جامعة أكسفورد بانجلترا لمواصلة دراسته ولكنه سرعان ما اختلف مع إدارة الجامعة فتركها ورحل إلى اسرائيل التى شكلت حياته وتركت بصمة واضحة على شخصيته . وفى عام ١٩٦٢ اضطر إلى العودة إلى انجلترا حيث

حصل على دبلوم فى الانثربولوجيا أو علم الانسان وفى فترة وجوده فى انجلترا قرأ باستفاضة عن الهولوكست . وبعد رجوعه من انجلترا إلى كاليفورنيا بأمريكا حصل على درجة الماجستير فى المسرح ثم التحق بمدرسة الفنون المسرحية بييل حيث حصل على شهادة الدكتوراة فى عام ١٩٦٧ .

واشتغل أبشتين بالتدريس والتأليف والنقد المسرحى والسينمائى وبالأدب بوجه عام . وفى الفترة بين عامى ١٩٦٥ و١٩٧٨ باشر التدريس بكلية الملكة فى جامعة مدينة نيويورك ثم التحق بالعمل فى جامعة بوسطن كأستاذ للغة والأدب الانجليزى ومديرا لبرنامج تدريس الكتابة الخلاقة للخريجين .

وقد عمل أيضا محاضرا زائرا فى عدد من الكليات منها جامعة جرونجن فى هولندا فى العام الدراسى ١٩٧٢ - ١٩٧٣ . وأمضى أبشتين ثلاثة أسابيع فى نيودلهى بالهند عام ١٩٩٢ . فضلا عن أنه حصل على عدة منح للتأليف وجوائز عديدة فى أعوام ١٩٧١ و١٩٧٢ و١٩٧٧ إلى جانب منحة جوجنهايم عام ١٩٧٧ -١٩٧٨ . وفى عام ١٩٧٩ حظيت روايته «ملك اليهود» بجائزة أحسن رواية فى ذلك العام . وفى عام ١٩٨٠ فاز بجائزة جمعية المكتبات الأمريكية للكتاب المميز . وهو الآن يعيش فى بروكلين بولاية ماساشوستس بعد زواجه من هينيه جرادمان عام ١٩٦٩.

أهم أعماله وموضوعاته :

لم يعترف إبشتين بأنه كاتب يهودى إلا مؤخرا إذ ظل يعتبر نفسه كاتبا أمريكيا حتى وقت حديث . ففى عام ١٩٩٢ عقدت جامعة هارفارد مناظرة بعنوان «ما هو الأدب اليهودي؟ » . وقد اشترك الكاتب اليهودى أهارون أبلفلد فى هذه المناظرة وقال إن المرء لا يستطيع أن يعتبر نفسه كاتبا يهوديا إلا إذا شعر بيهوديته فى نخاعه وجوهر حياته وأن يضرب بجذوره في التلمود والفلسفة اليهودية وحركات التاريخ اليهودى كلها وأن يشارك بنى جلدته ذاكرتهم المشتركة وأن يظهر اهتماماً دائماً بالشعب اليهودى . وأضاف أبشتين إلى قول أهارون أبلفلد رأيا مستمدا من عل

النفس الفرويدى مفاده أنه يتعين على اليهودى أن يشارك عشيرته حالتهم النفسية ويعتبر الأدب اليهودى مرضا عصابيا يتكون من «المخاوف والقلق والدعابة والاستبطان» ويرجع هذا المرض العصابى إلى تقطع الوشائج التى تربط اليهودى بهذه الذاكرة المشتركة .

وفى مقابلة أجريت مع إبشتين عام ١٩٩٤ نراه يقول إن الكاتب اليهودى لا يستطيع أن يتجنب الكتابة عن طفولته كما أنه لا يستطيع أن يتحاشى تصوير اغترابه عن جذوره وتقاليده وعن القضايا الثقافية العريضة التى يعانى منها اليهود فى بلاد الشتات ومعظم الشخصيات التى يصورها إبشتين فى رواياته يهودية وتكابد مر العذاب بسبب شعورها القاسى بالغربة ولكنه عذاب لا يخلو من الدعابة والهزل .

ويحتل الهولوكست مركز الصدارة فى كل إنتاج أبشتين الروائى . ويعنى هذا الانتاج باستقصاء العلاقة الضمنية بين الجانبين الفكاهى والمأساوى اللذين يرى المؤلف أنهما وجهان للحياة الإنسانية . وبطريقته الساخرة والفكاهية فى السرد الروائى يحاول ابشتين الغوص فى أعماق قطاعات الهولوكست ليكشف عن جوانبها المأساوية والفكاهية . ومنذ أن نشر مؤلفنا روايته الأولى «ب.د.كيمراكوف» عام ١٩٧٥ التى تجمع بين الكوميديا والعصابية وجميع رواياته اللاحقة تسير على نفس الدرب . وتدور الرواية حول أستاذ روسى للعلوم يتجسس بطريقة ساذجة على كل من روسيا وأمريكا . وتشتمل هذه الرواية على العناصر الأساسية التى يتميز بها أدب أبشتين الناضج اللاحق مثل الاغراق فى الخيال ومثل احتواء الرواية على راو يهودى على نياته ولكنه نبيل وانتقال الرواية من مغامرة غير محتملة الوقوع إلى مغامرة أخرى لا تقل عنها فى عدم احتمال وقوعها . بالإضافة إلى تصوير ما تنطوى عليه الحياة من قسوة وشر.

والجدير بالذكر أن رواية «ب.د. كيمراكوف» تصلح للسينما . علما بأن مؤلفها أظهر اهتماما ملحوظا بالمسرح والسينما . وفى عام ١٩٧٦ أصدر مؤلفنا مجموعة من القصص القصيرة بعنوان «خماسية ستيانوراى الموسيقية» حيث يقدم إلينا

إبشتين شخصيــة ليب جولدكورن التى سوف تلعب دور البطولة فى الثلاث روايات التالية . وجولدكورن موسيقار يهودى عجوز كان يعيش فى شبابه فى النمسا ولكنه هرب منها عندما قام النازيون باجتياحها ، ليحيا حياة الشظف والفاقة ويدمن معاقرة الخمر . وهو يتسم بطيبة القلب ونزعته إلى الفكاهة شأنه فى ذلك شأن العالم الروسى كيمراكوف . ويسعى هذا المؤلف إلى التوفيق بين حياته فى العالم القديم والثقافة النمساوية التى تربى فيها وبين حياة الحضر الجديدة التى عاشها فى بلاد المهجر فى مدينة نيويورك . وتضم مجموعته القصصية «خماسية ستيانواى الموسيقية» قصة بعنوان «تلميذ بيكون» التى تدور حول عالم مجرى أمضى حياته فى اثبات أن الموسيقار المعروف موزات ينحدر من أصل يهودى . وفى عام ١٩٧٢ أصدر مؤلفنا عملا أدبيا بعنوان «ريجينا» .

وفى عام ١٩٧٩ أصدر ابشتين أهم أعماله الروائية على الإطلاق بعنوان «ملك اليهود» . وتقع أحداث هذه الرواية فى حى اليهود فى احدى المدن البولندية ، وهى تتبع سطوع نجم يهودى عميل اسمه تشايم ترمبلمان وسيطرته على الجيتو بعد أن عينه الاحتلال النازى زعيما عليه . وأحداث الرواية مستمدة من واقع الجيتو اليهودى فى لودز ومن حياة زعيمه موردخاى تشايم رومكوفسكي الأمر الذى يدل على أن المؤلف أجرى أبحاثا كثيرة حول هذا الموضوع ولكنه استطاع أن يصهر هذا الجانب الواقعى والتسجيلى فى بوتقة فنية من نسج خياله . وتعتبر هذه الرواية أكثر أعماله مثارا للجدل وخاصة لأنه رفض أن يشير إلى النازيين بصراحة واكتفى بوصفهم بالآخرين ، وأصحاب الشعر الأشقر . وتصور الرواية ظروف الحياة تحت الاحتلال النازى مثل تكليف اليهود بجر عربات البراز ومثل الأتوبيس الأصفر اللون الذى كان النازيون يستخدمونه لنقل اليهود بغية قتلهم بالغاز السام . وتطرح الرواية سؤالا بالغ الخطورة مفاده : ما أهمية الدين اليهودى وما نفعه أمام الابادة النازية الجماعية لليهود ؟» .

وإذا كان إبشتين قد تجنب تصوير العنف بوضوح فى روايته «ملك اليهود» فإنه أغرق روايته التالية «بنتو وأولاده» التى أنتهى منها عام ١٩٩٠ فى حمام من

الدم . وهي تخبرنا عن يهودى ألمانى يدعى بنتو هاجر إلى الولايات المتحدة عام ١٨٤٥ لدراسة الطب حين طردته جامعة هارفارد عندما اكتشفت أنه يجرى تجاربه الطبية على خادمه . والراوى لأحداث الرواية إنسان يتسم بالبراءة ، كما عودنا المؤلف على ذلك . فضلا عن أن هذا الرواى يعجز عن التوفيق بين أفكار العالم القديم (أى أوربا) وبين الجشع والطمع والعنصرية والعنف الذى يشيع فى العالم الجديد . ويعتبر ابشتين نفسه كاتبا تقليديا يستمسك بالحبكة وبالسرد التقليدى. وفى أثناء انشغال ابشتين بتأليف «بنتو وأولاده» ألف «حكايات جولدكورن» التى سبق الاشارة إليها . ثم رواية «ريجينا » التى نشرها عام ١٩٨٢. وتدور هذه الرواية الأخيرة حول ممثلة وناقدة فنية يهودية فى منتصف العمر اسمها ريجينا جلاسمان . وهنا يعود المؤلف إلى موضوع الاغتراب الذي يكابده اليهودي وتنم هذه الرواية عن حب المؤلف للمسرح .وميله إلي التمثيل فالبطلة الممثلة ريجينا يسند إليها تمثيل احدى مسرحيات تشيكوف على خشبة المسرح . وبهذا تجمع الرواية بين السرد القصصى والتمثيل المسرحى .

الهولوكست فى أدب ليسلى ابشتين :

قبل أن نتناول الهولوكست فى أدب ابشتين يجدر بنا أن نشير إلى ما كتبه بعنوان «الكتابة عن الهولوكست» .. يقول ابشتين أنه سبق له أن قال ما يلي : «لقد خلصت أخيرا وعلى مضض إلى نتيجة مفادها أنه غالبا ما تكون الشهادة الأمينة التي تعتمد على رؤية العين للهولوكست أكثر إثارة للمشاعر وأشد نجاحا فى خلق الاحساس بظروف الحياة فى الجيتو ومعسكرات الاعتقال من السرد القصصى لنفس هذه الأحداث» . ويعترف ابشتين بأنه لم يكن موفقا فى تصريحه هذا حيث أنه كان بصدد تأليف رواية عن الهولوكست الأمر الذى أغرى النقاد بتقريعه وتوبيخه ،وفي عام ١٩٧٦ أى بعد مضى عقد كامل على تصريحه نراه يقول شيئا مختلفا ويؤكد أن تأليف القصص الخيالى عن الهولوكست أمر مرغوب فيه ونشاط ينبغى أن ينمو ويزدهر حتى لا يغيب الهولوكست عن أذهان العالم وحتى لا يظن الذين قاموا بتدمير

اليهود وإبادتهم فى أوروبا بأنهم قد انتصروا . ويتهم ابشتين النازيين بأنهم يفهمون الأخيلة والرموز والاستعارة فهما حرفيا الأمر الذى يفقدهم القدرة على التمييز بين الخيال والواقع ويدعوهم تحويل الخيال إلى واقع فقد حولوا فى معسكرات الاعتقال تعبيرات مثل «يتلظى بأتون العذاب» إلى واقع ملموس أى إلى أفران ومحارق لأحراق أجساد اليهود وعظامهم .

ذكرنا أن ابشتين اعتمد في روايته عن الهولوكست على الوقائع التسجيلية التى يسوقها المؤرخون أمثال جيرالد ريتلنجر وليورنارد توشنت واشعيا ترنك وهاناه أرندت . ومن الكتب الوثائقية التى استند إليها ابشتين كتاب رينجلبلوم «مذكرات من جيتو وارسو» . فضلا عن المعلومات الوثائقية التى استقاها عن جيتو لودز . ولكنه صهر هذه المعلومات الوثائقية فى بوتقة خياله على نحو ما فعل فى روايته «ملك اليهود» التى أثارت كما أسلفنا خلافا ولجاجا شديدا مثلما فعلت رواية «النائب» التى ألفها رولف هوتش هث .

ومن أهم المصادر الوثائقية التى اعتمد عليها أبشتين فى تأليف روايته كتاب جيرالد ريتلنجر المعروف« الحل الأخير» الذى يروى لنا قصة موردخاى تشايم رومكوفسكي الذى عينه النازيون زعيما لجيتو لودز فى بولندا يقول المؤرخ ريتلنجر عن هذا اليهودى العميل :

«فى لودز اختار الألمان فى أكتوبر ١٩٣٩ رئيسا يخدم أغراضهم لمدة خمسة أعوام تقريبا . كان موردخاى تشايم رومكوفسكى مدير دار الأيتام اليهود معروفا بقدرته الفائقة فى جميع الاشتراكات . وإلى جانب هذه الموهبة التى راقت كثيرا فى أعين الألمان كان رومكوفسكى يمتلك الصلابة والقدرة على الصمود . وأمره الألمان بتشكيل مجلس يهودى من الرهائن والأسرى (فى بولندا) . غير أن الألمان اعتدوا عليه بالضرب المبرح عندما حاول اطلاق سراح بعضهم الأمر الذى اضطر رمكوفسكى إلى تعيين مجلس آخر دون أن يتعرض بعد ذلك لأى اعتداء بدنى عليه . وكان يعامل معاملة الكلاب خارج الجيتو . ولكن الألمان سمحوا له أن يكون ملكا داخل الأسلاك

الشائكة حيث أصدر عملات ورقية تحمل اسمه وطوابع بريد تحمل صورته . وكان هذا العجوز المرح المتفائل خبيرا بالطبيعة البشرية يمشي وهو يتدثر بعباءة وله عرف كالديك من الشعر الأبيض يطير فوق رأسه وأيضا كان يتحرك في الجيتو في عربة قديمة تحتفظ باحترامها . واعتقد رومكوفسكي انه يمكنه استخدام الوظيفة التى أسندها إليه الألمان فى إنقاذ بنى جلدته اليهود من الموت أثناء اعادة توطينهم .وهكذا سار فى سبتمبر عام ١٩٤٢ إلى المحطة ومعه مجموعة من الأطفال طلب منه الألمان احضارهم . وشجعه على الثقة فى الألمان أنهم لم يدمروا دار اليتامى اليهود . وحتى فى أغسطس ١٩٤٤ عندما قام الألمان بإعادة توطين نحو مائة ألف من يهود لودز نراه يتبنى الدعوة الغادرة التى أصدرها هانز بيبو المدير الألمانى لإدارة الجيتو . وحين أدرك رومكوفسكى انه وقع مصيدة (الألمان لإبادة اليهود) ركب طواعية القطار المتجه إلى معسكر أوسشفتز حيث شوهد وهو يدخل غرف الغاز» .

وقد استقى ابشتين من هذه القصة الواقعية عددا من شخوصه الروائية إلى جانب بعض الأسماء والأحداث .

ورغم أن ابشتين استمد مادته الأساسية من رسم ريتلنجر لصورة «ملك اليهود» فإنه لم يغفل استخدام المزيد من التفاصيل الخاصة بزعماء جيتو آخرين فى كل من لودز وفيلنا كما وردت فى كتاب ليونارد تشنت وكتاب ايزايا ترنك «المجالس اليهودية فى شرق أوربا تحت الاحتلال النازي» . وقد برع ابشتين فى مزج الحقيقة بالخيال فى تصوير تجاربه عن الجيتو فى لودز ووارسو وفيلنا وكذلك فى مزج شخصية رومكوفسكى زعيم جيتو لودز بشخصية جاكوب جنز زعيم جيتو فيلنا فى إطار من الخيال الروائي .. ولا شك أن مزج المؤلف لهاتين الشخصيتين الواقعيتين فى شخصية واحدة (هى شخصية ترمبلمان) يضيف جوا من الواقعية على رواية «ملك اليهود» . وبالإضافة إلى تصوير الشر المستطير الناجم عن السيطرة النازية على مقدرات اليهود فى هذه الرواية نجد أن زعيمهم نهب مقسم بين ولائه لبنى جلدته وولائه للنازيين الذين نصبوه زعيما للجيتو . ويعطينا لوسيان دوبروسزيكى فى بحثه الوثائقى الذى ظهر

بعد نشر رواية «ملك اليهود» بخمسة أعوام تحت عنوان «السجل الخاص بجيتو لودز في الفترة من ١٩٤١ إلى ١٩٤٤» صورتين متناقضتين تماما لشخصية رومكوفسكي - الذي رسم ابشتين شخصية ترمبلمان على منواله - فهو أحيانا مرتب ومنظم ودمث الخلق وهادئ الطباع وطيب القلب ومتدين - أي صورة لليهودي التقليدي الجيد - في حين أننا نراه تارة أخرى سيء الخلق ومضحكا وساخرا وكسولا وشريرا وغادراً وميالا إلى سفك الدماء ولا يستطيع أحد أن يتكهن بأفعاله . والجدير بالذكر أن الروائي الايطالي الناجي من الهولوكست بريموليفي وصف رومكوفسكي بأنه كان أو بدا مغفلا يحيط بشخصيته نوع من الاحترام ودمية مثالية في يد من يحركها» . وأيضا وصف ليفي فترة سيطرته على الجيتو التي دامت نحو أربعة أعوام بأنها خليط مذهل من الشعور بالعظمة الذي يفيض بالحيوية البربرية وقدرة حقيقية لممارسة الدبلوماسية والتنظيم . ويقول الروائي شاءول بيلو عنه أنه ملك يهودي ملتاث يتزعم وفاة نصف مليون شخص وأن الألمان أرغموه على لعب دور الملك المزيف حتى يتسلوا عليه ويمعنوا في اذلال اليهود . وإذا كان الروائي الايطالي ليفي والروائي الأمريكي بيلو قد رسما صورة مقتضبة لهذا الرجل فقد استفاض ابشتين في استقصاء شخصيته ودوافعه .

وتجمع الصورة التي رسمها ابشتين لترمبلمان بين العطف عليه والادانة له . فالمؤلف يتفهم صعوبة موقفه ويقدر صدق رغبته في انقاذ حياة بني جلدته في حين أن النازيين يخططون لابادتهم . وهو يجسد الخطيئة والقداسة ويتمتع بالجاذبية الشخصية . فضلا عن أنه خطيب مفوه . ورغم أنه دكتاتور ونصاب (فقد بدأ حياته بالنصب على احدى شركات التأمين) فإنه يسهل خداعه . وترمبلمان يعيش في خداع النفس ويستمتع بالسلطان الغاشم الذي يمارسه على بني جلدته الذين يخونهم عندما يوافق على خطط النازيين باعادة توطينهم . يبدأ ابشتين رواية «ملك اليهود» باستجلاء شخصية ترمبلمان قبل الاحتلال النازي لبولندا بعقدين من الزمان مصورا إياه على أنه انسان يفكر في نفسه فقط ولا يحفل بأداء دوره الاجتماعي وخدمة بني جلدته . وهو يهودي طموح جاء من لتوانيا إلى مدينة لودز في بولندا وكله أمل في أن يصيب

الشراء . ولكن مشروعاته التجارية تبوء بالفشل . وهو يختلف عن شخصية رومكوفسكي الواقعية في الانصراف الكامل عن السياسة في بدء حياته في حين أن رومكوفسكي الحقيقي بذل نشاطا سياسيا كبيرا في مطلع حياته فلما خاب سعيه تحول إلى الصهيونية .

ويذهب بعض الكتاب إلى أن الأشكال الأدبية واللغوية التقليدية لا تصلح للتعبير عن الهولوكست . ومع ذلك فقد أصاب أبشتين نجاحا واضحا في التعبير عنه رغم استخدامه الأشكال الكلاسيكية القديمة وعدم استحداثه أية أشكال أدبية جديدة . ويربط المؤلف بين المسيحية ومعاداة النازية للسامية عن طريق ادخاله في السرد الروائي الدراما المعروفة في القرون الوسطى بدراما الأخلاق وهي دراما يتجسد فيها الشر والخير كأشخاص تتحرك على خشبة المسرح . وتصور المسرحية التي استقدمها المؤلف في روايته قيام الكنيسة بحض أتباعها على كراهية اليهود باعتبارهم قتلة السيد المسيح . ونحن نرى في رواية ابشتين النازيين وهم ينظمون مسرحية لتقديمها في الشوارع تتضمن هجوما قاذعا على اليهود على غرار مسرح الأخلاق الذي أشرنا إليه . وبعد أن يقول الرواي لأحداث هذه المسرحية أن الجمهور سوف يشاهد حدثا تاريخيا حقيقيا نرى المؤلف يصور جبانة في براغ يجتمع فيها حكماء صهيون للتآمر ضد أوربا المسيحية تمهيدا للسيطرة الكاملة عليها . ويتحدث أحد المتآمرين عن ضرورة سيطرة اليهود على قطاع المال والأعمال في حين يدعو آخرون إلى ضرورة نشر الأوبئة والمجاعات والاضطرابات الاقتصادية في ربوع المجتمع الأوربي . ثم يقوم بعض الممثلين في المسرحية بسفك دم طفل مسيحي لاستخدامه في إقامة الشعائر الدينية اليهودية . فتهتاج مشاعر الجمهور وتغلي مراجل الغضب في عروقه فيتحركون للثأر من اليهود المحليين . ثم تقدم المسرحية صورة لشهامة النازيين الذين يتدخلون لحماية أوربا المسيحية من الخطر اليهودي الذي يتهددها فيطلقون الرصاص على حكماء صهيون الذين يسقطون صرعى في الحفر . ويتهلل النظارة فيشاركونهم في الاعتداء على اليهود وسلب ممتلكاتهم فضلا عن أن المسرحية التي يقدمها النازيون

فى الشارع ترسم صورة لأتون النار وألسنة اللهب المندلعة منه مشيرة إلى المستقبل وإلى المحارق التى تنتظر اليهود ويقول المؤلف إن رواية «ملك اليهود» تذهب إلى نفس ما يذهب إليه رولف هوتشهوت فى كتابه «النائب» من أن النازى المعروف هنريش هملر ليس المسئول عن أنشاء معسكرات الاعتقال بل القديس ايجناتيوس لويولا والبابا بيوس الثانى عشر المعروفين بعدائهما الضارى ضد اليهود .

ويشير ابشتين فى روايته إلى المجالس اليهودية التى أنشأها النازيون لإدارة الجيتو حتى يتوهم اليهود أنهم يتمتعون بالحكم الذاتى فى حين أنهم فى الواقع يخضعون للسيطرة الكاملة للاحتلال النازى . ويبين لنا المؤلف كيف أن هذه المجالس اليهودية مهدت السبيل أمام النازيين لابادة اليهود عن طريق تعاون مجلسهم مع القوات النازية فى اعداد قوائم باسماء اليهود القادرين على العمل الذين اقترح النازيون اعادة توطينهم وإرسالهم إلى معسكرات العمل وهى التعبير المبطن لارسالهم إلى معسكرات الموت . ومعنى هذا أن النازيين يلجأون إلى الغش والخديعة لايقاع اليهود فى شراكهم وأن أعضاء المجالس اليهودية المعينين من قبل النازيين يتعاونون فى ذلك . وهو ما يتضح لنا من الاجتماع الذى عقده كبار يهود الجيتو فى مدينة لودز فى مقهى أستوريا حيث يقول جروندتريب النازى العدوانى المتعجرف مخاطبا مجلس اليهود :

«إن المجلس سوف يكون وسيلة اليهود للتعبير عن إرادتهم فهو سيقوم بجمع الضرائب ويدير جهاز الشرطة الخاص به . وسوف يتولى إدارة كافة التنظيمات الدينية والشئون الثقافية والمؤسسات الخيرية . وسوف يتولى تعيين القضاة والمعلمين ورؤساء المستشفيات . وسوف يكون واجبكم الأول (واجب مجلس اليهود) إعداد تعداد بأسماء اليهود الأقوياء والأشداء بين سن الخامسة عشرة والستين للعمل فى اقامة الجسور على النهر واستبعاد غير القادرين على العمل وبطبيعة الحال أعضاء المجلس البالغ عددهم ستة عشر عضوا» .

ويتظاهر أحد أعضاء المجلس ويدعى ف.إكس ولتهات بالحرص الشديد على

مصالح اليهود فيدعو المجتمعين إلى أختيار أكثر اليهود ذكاء وقدرة على المبادرة رغم علمه الكامل بنية النازيين فى قتلهم لإجبار بقية اليهود على الاستسلام والركوع . ورغم أن أغلبية اليهود أرادوا أن يفوتوا على النازيين غرضهم ونصحوا باختيار غير القادرين على العمل فإن ترمبلمان نجح فى اقناعهم بأن مصلحتهم تتلخص فى التعاون مع الألمان حتى لا يجردوهم مما تبقى لديهم من سلطة ومسئولية ودعا اليهود إلى الانهماك فى العمل المستمر لأنه السبيل الوحيد لإنقاذهم من الهلاك والابادة . ويرد ترمبلمان على اعتراضات بعض زملائه بقوله إن اعداد اليهود لهذه القوائم بأنفسهم أفضل من اعداد الألمان لأنه سيعطيهم فرصة استبعاد الأطفال والعواجيز والمرضي من العمل . وسوف تكون الطامة أكبر إذا تولى الألمان مهمة اعداد هذه القوائم على مزاجهم وبطريقة عشوائية تسيء إلى مصالح اليهود . وعلى أية حال لا يسلم أعضاء المجلس اليهودى من أذى النازيين الذين يأمرونهم بخلع ملابسهم للتسلية قبل اطلاق الرصاص عليهم . ويختلف وصف هذه الواقعة فى الرواية عما حدث بالفعل حيث أن النازيين زجوا بأعضاء المجلس اليهودى بالسجن قبل الاجهاز عليهم فى حين أن المؤلف ابشتين ركز عملية اعداد القوائم وقتل أعضاء المجلس فى يوم واحد . وبعد مجزرة الاجهاز على المجلس القديم قام بتنصيب ترمبلمان الذى نجا من المجزرة بالمصادفة زعيما للجيتو وكلفوه بإنشاء مجلس جديد .

وينحى بعض النقاد باللائمة على ابشتين بسبب تصويره لتعاون بعض اليهود مع قوات الاحتلال النازى مما يجعله لا يركز على تصوير شرور ألمانيا النازية ومما يجعل مشكلة الهولوكست تبدو وكأنها مشكلة داخلية بين اليهود أنفسهم . ولكن بعض النقاد الآخرين يرون أن المؤلف نجح فى رسم صورة لخداع النازيين وبربريتهم واستغلالهم وقساوة قلوبهم فى إبادة يهود أوربا رغم أنه لا يشير إلى النازيين بالاسم مكتفيا بالإشارة إليهم بالشجعان والمحاربين والآخرين مما أثار غضب عدد من النقاد على نحو ما ذكرنا . ولكن هناك من يبرر استخدام مثل هذه اللغة الملطفة بقوله إن هذا افساد متعمد للغة من جانب المؤلف هدفه إخفاء سلوك النازيين الاجرامى لحين التأكد من أن

الأمم الأخرى تدعم أو على أقل تقدير توافق على قيامهم بإبادة اليهود . ويشبه ابشتين كاتب هولوكست آخر هو جورج شتاينر فى الايمان بأن هناك علاقة وثيقة بين فساد اللغة وفساد السلطة وبين وصف البشر (اليهود) بالحشرات وعملية إبادتهم .

وكما استمد ابشتين شخصيته الروائية ترمبلمان من شخصية رومكوفسكى الحقيقية فإنه أيضا استمد شخصية رئيس إدارة الجيتو الألمانى من شخصية هانزتيبوف رئيس جهاز الشرطة فى لودز . وقد استعان المؤلف بكل من جيرالد راتيلنجر والباحثة الاجتماعية هاناه أرندت فى رسم صورة هذا الرجل . والجدير بالذكر أن هاناة أرندت ترى فيه صوره رجل بورجوازى نازى ورب أسرة عادى . فقرينه الروائى ف.إكس فولهتات الذى رسمه ابشتين على غراره يعتبر الجيتو مركزا من مراكز الانتاج وفرصة لكسب المال من ورائه . وهكذا يشير المؤلف فى تأثره بهاناه أرندت مشكلة عويصة تتلخص فى تصوير النازيين على أنهم بشر عاديون وليسوا وحوشا كاسرة كما تدل على ذلك أفعالهم . وحتى يقنع النازيون اليهود بأن انشاء الجيتو فى مصلحتهم ذهبوا إلي أنهم (أى اليهود) سوف يعيشون فيه فى مأمن من الألمان والبولنديين (والحقيقة أن الألمان أرادوا عزلهم حتى يسهل القضاء عليهم) فلا غرو إذا رأينا ترومبلمان واليهود فى رواية ابشتين يرحبون بإنشاء الجيتو ويعتبرونه ملاذهم الآمن من اضطهاد السوقة والغوغاء وهو اضطهاد يتم فى الواقع بتدبير وتشجيع من الحكومة . وتوهم ترميلمان مثل ما توهم ورمكوفسكى من قبل أن الجيتو اليهودى سوف يصبح دولة صغيرة تتمتع بالحكم الذاتى ولها جهاز شرطة خاص بها وكذلك فرقة مطافيء ومصلحة بريد ونظام صحى وتعليمى ومالى مستقل . وتطلع ترمبلمان مثل سلفه رومكوفسكى إلى أن يلعب دور الزعيم الحريص على المحافظة على حياة بنى جلدته حتى تتم هزيمة ألمانيا ويتحرر اليهود من العبودية النازية . وحتى يبقى ترمبلمان عشيرته على قيد الحياة رأى أن الطريقة الوحيدة لضمان ذلك هى أن يحول الجيتو إلى وحدة إنتاج لا يستطيع الألمان الاستغناء عنها . ورغم اعتراض عدد من اليهود على ديكتاتوريته وأسلوبه فقد اعتقد الكثيرون منهم وخاصة فى الفترات الأولى من حكمه للجيتو أنه يعمل بالفعل

لمصلحتهم . وقد استحدث ابشتين من خياله منظرين روائيين صور فيهما ترمبلمان على أنه المنقذ الذى جاء ليخلص شعبه . ويصور أحد هذين المنظرين اندلاع حريق فى أحد مبانى الجيتو . وعبثا حاول رجال المطافىء انقاذ طفل يهودى منه . ولكن ترمبلمان المغوار دخل المبنى الذى شب فيه الحريق ليخرج منه بعد نصف ساعة حاملا الطفل سليما معافى الأمر الذى جعل عشيرته تعتبره زعيما وبطلا لا يشق له غبار .

وحتى يرسخ ترميلمان فى أذهان أهل الجيتو أنه المخلص الذى جاء لإنقاذهم نراه يلجأ إلى الغش والخداع فهو يتواطأ مع المدير الألمانى كى يظهر بمظهر المنقذ لبعض الفتيات اليهوديات من ممارسة الدعارة فى بيت دعارة مع الألمان .

وكى يرتفع قدره فى نظر بنى جلدته يعلن ترمبلمان انه سوف يحول بيت الدعارة إلى مركز ثقافى تنتفع به الجالية اليهودية . ويقول ابشتين فى الرواية أن المدير الألمانى ولهلتات أوسعه ضربا مبرحا عندما نسى نفسه وتجاوز حدوده وأخذ يدمر بعض قطع الأثاث الغالية الثمن . ومن الثابت تاريخيا أن حادثة الضرب الموجع وقعت بالفعل لرومكوفسكي ولكن لسبب آخر غير تكسير عفش بيت الدعارة كما جاء فى الرواية بل كان السبب مطالبته بالافراج عن أعضاء المجلس اليهودى الأول من الحبس .

ويشبه التحالف القائم بين ترميلمان وولهلتات فى الرواية العلاقة التى جمعت رومكوفسكي وهانز بيبوف على أرض الواقع . فقد استطاع رومكوفسكي اقناع بيبوف أن مصلحة ألمانيا تقضى منها مساعدة يهود جيتو لودز على الإنتاج ولهذا أمدهم النازيون بالمواد الخام التى قام اليهود بتصنيعها وبيعها للألمان بأثمان أقل بكثير من ثمنها الحقيقى نظير تزويدهم بالطعام الذى كان لايكفى لسد حاجتهم . ومما زاد من حاجة اليهود إلى الطعام فى جيتو لودز أن الألمان أحكموا قبضهم على هذا الجيتو بحيث تمكنوا من احباط محاولات تهريب الطعام على عكس ما حدث فى جيتو فيلنا ووارسو حيث كان التهريب من خارج الجيتو إلى داخله يجرى على قدم وساق . ومع ذلك صور المؤلف المقاومة اليهودية فى لودز ضد الاحتلال النازى عن طريق تهريب الأطفال اليهود اليتامى للسكر والصوف إلى بنى جلدتهم الأسوأ حظا . ومن دلائل

مقاومة اليهود للاحتلال النازى عدم انصياعهم لأوامره بمنع الانجاب . فقد أقاموا سرا مستوصفا للولادة عمل فيه طبيب يهودى اسمه الدكتور زام الذى تعاون مع بعض الفدائيين الروس الساعين إلى زعزعة الاستقرار النازى . والجدير بالذكر أن دوافع ترومبلمان ملك اليهود تأرجحت بين اضطهاد بنى جلدته والعطف عليهم فقد أنزل العقاب بالأطفال اليهود الذين قاموا بتهريب بعض المواد التموينية إلى عشيرتهم المحرومة منها فى حين أنه أظهر تعاطفا مع مستوصف الولادة بالمخالفة لأوامر النازيين . ويعتبر ابشتين من الروائيين الأمريكان القلائل الذين عالجوا فى أدبهم مقاومة اليهود للاحتلال النازى مثل سعيهم إلى تعطيل وتخريب الإنتاج على نطاق واسع . وهو تخريب استمده المؤلف مما كان يجرى فى جيتو فيلنا ووارسو رغم نه لم يحدث فى جيتو لودز الذى تصوره الرواية .

ومن الأحداث الحقيقية التى استمدها إبشتين من الواقع اضراب عمال الجيتو فى لودز عن العمل لمدة خمسة أيام . فقد تصاعدت مقاومة اليهود ضد سلطات الجيتو النازية عندما ارتفعت نسبة الوفيات بينهم من الجوع والمرض وعندما طالبهم النازيون بالمزيد من الانتاج وفرضوا عليهم شتى أنواع الضرائب . وسار ترومبلمان على نفس الدرب الذى سار فيه رومكوفسكى من قبل وهو العمل على تهدئة الاضطرابات العمالية واتباع سياسة المهادنة مع الألمان لأنهم يمثلون الجانب الأقوى فى الصراع المحتوم . وحتى يهدىء من ثائرة عمال النسيج والأحذية المضربين تراه يوافق على التخفيف بعض الشيء من القيود الصارمة المفروضة عليهم . ولكنه لا يلبث أن يقلب لهم ظهر المجن ويعتبر اضرابهم تهديدا لأمن الجيتو ويعين عليهم رؤساء عمال لحثهم على المزيد من الإنتاج ويطرد العمال المشاغبين ويسجلهم فى قائمة الأسماء المزمع اعادة توطينها . وحين يضرب عمال النسيج فى الجيتو عن انتاج الزى العسكرى الذى يرتديه النازيون يتدخل زعيمهم لاقناعهم بالعدول عن هذا الاضراب . ويمعن ترومبلمان فى اذلال العمال الجائعين فيقلب وعاء الشربة على الأرض الأمر الذى يزيد حنقهم ويجعلهم ينخرطون فى اضراب عام . فيلجأ الألمان إلى تفتيت وحدتهم وبذر بذور

الشقاق بينهم عن طريق التنكيل بغير المضربين لإيغار صدورهم ضد المضربين من بنى جلدتهم . وفى سعيهم إلى قمع الاضراب يلجأ النازيون إلى تعذيب وقتل أحد العمال علنا وأمام الملأ كى يكون عبرة لمن يعتبر . يقول المدير الألمانى للجيتو مهددا العمال : «كل الذين ينتهكون القوانين التى تسنها قوات الاحتلال سوف يسحقون مثلما يسحق القمل . توقفوا عن أعمال الشغب وعودوا الآن إلى عملكم .. فإذا رفضتم فسوف ينتهى بكم الأمر إلى أن تصبحوا مثل هذه الزبالة» ويستبد القلق بالمدير الألمانى لأن اضراب اليهود عن العمل سوف يؤدى بالضرورة إلى انخفاض أرباحه ومكاسبه . وتنجح العناصر الشيوعية فى الجيتو نجاحا مؤقتا فى اطلاق سراح عدد من زملائهم المساجين . وعندما انخرط اليهود فى اليوم الخامس من الاضراب فى مسيرة احتجاج نظمها محاربوهم القدماء أمرت السلطات النازية باطلاق النار على ثمانين محتجا وبهذا تتمكن من فض الاضراب .

وتحتوى رواية «ملك اليهود» على فصل بعنوان «الزفاف» وفيه نرى مفارقة تدعو للعجب والاندهاش فحين يتوقع اليهود زيادة المواد التموينية المنصرفة لهم بمناسبة زواج بعض الكبار منهم ندرك أن مثل هذه المناسبة السعيدة لا تبشر بالخير ولكنها إيذان ببدء عمليات ترحيل اليهود إلى مصيرهم المحتوم . ويفزع اليهود عندما يعلمون أن الألمان بصدد اعادة توطينهم فى مدغشقر . غير أن بعض اليهود المخدوعين يحلمون بالخلاص من عذابهم واقامة دولة أبدية لهم هناك . ويتضح للقارىء أن النازيين يعنون بإعادة توطين اليهود إبادتهم . ويلعب الفأر فى عب المجلس اليهودى عندما يطلب منهم النازيون اختيار العناصر التى يرغبون فى اعادة توطينها . ويرجع شكهم فى النوايا النازية إلى أن النازيين لم يشترطوا اقتصار الانتقاء على اليهود الأصحاء والأشداء بل طالبوا بترحيل المرضى والعواجيز أيضا .

وعندما لاحظ النازيون ترددهم فى اعداد قوائم الترحيل تدخلوا وهددوهم باستخدام العنف والالتجاء إلى الاختيار العشوائى . ويتساءل أعضاء المجلس اليهودى فى ريبة وشك عن السر فى حرص النازيين على اشراكهم فى جريمة اختيار

اليهود المزمع اعادة توطينهم وتوصلوا إلى نتيجة مفادها أن النازيين يدبرون لهم فى الخفاء جريمة نكراء.

وتختلف رواية «ملك اليهود» عن الواقع فالمعروف تاريخيا أن الألمان طلبوا من زعيم اليهود رومكوفسكى اعداد قائمة تضم عشرين ألف يهودى وأنه استطاع مساومة الحاكم الألمانى بينوف على انقاذ عشرة آلاف منهم . أما الرواية فتحكى لنا أن الأمر الذى أصدره النازيون اقتصر على اختيار مائة يهودى فقط استطاع زعيم اليهود انقاذ نصفهم .

واحتدمت بين أعضاء المجلس اليهودى مناقشة حامية الوطيس حول موقف اليهود من تسليم الجالية اليهودية بعض أفرادها إلى جلاديهم تفاديا لوقوع كارثة أفدح وتفاديا لهلاك بقية اليهود . ورأى نفر من بنى اسرائيل أن حكيمهم ابن ميمون سبق له منذ سبعة قرون أن أكد أن الدين اليهودى يحظر التضحية بالفرد من أجل إنقاذ الجماعة . يقول ابن ميمون فى هذا الصدد : «إذا طلب منكم المدنيون أن تسلموا واحدا منكم لقتله حتى تستمر بقيتكم على قيد الحياة فيجب عليكم الامتناع عن تسليم أى واحد منكم» .

ويعيب بعض النقاد على ابشتين أنه يمزج الفكاهة بالجد فى تناوله لموضوع مأساوى هو اعادة توطين اليهود . ويتضح هذا الهزل من إقدام اعضاء المجلس اليهودى فى لودز على الانتحار الجماعى بابتلاع برشام مخدر أقنعهم ترومبلمان بأنه يحتوى على مادة السيانيد السامة . ويصحو أعضاء المجلس اليهودى بعد زوال مفعول المخدر ليكتشفوا أنهم لا يزالون على قيد الحياة مما جعلهم تحت رحمة زعيمهم ترومبلمان أكثر من ذى قبل . وقد كان لزعيمهم رأى آخر فهو يريد اتباع سياسة المهادنة مع السلطة النازية والاستجابة لرغبتها فى اعادة توطين بعض اليهود . وكان منطقه فى ذلك هو نفس المنطق الذى استخدمه جاكوب جنز زعيم اليهود فى مدينة فيلنا البولندية . ومفاده إنه إذا ركب اليهود رءوسهم وامتنعوا عن اختيار أسماء اليهود المزمع إعادة توطينهم فسوف يأتى النازيون ليقضوا قضاء مبرما على كل يهود الجيتو . وهكذا

يستجيب ترومبلمان إلى طلب النازيين باعادة توطين بنى جلدته من العاطلين وغير المنتجين معتقدا أنهم سوف يتولون الفلاحة وأعمال الزراعة ويسهمون فى زيادة الإنتاج فى موطنهم الجديد فى مدغشقر . ويحلم ترومبلمان بأن اليهود سوف يحولون هذه الجزيرة إلى فردوس وإلى دولة مستقلة عظيمة الشأن وأنه سيأتى يوم يقوم فيه أقطاب العالم أمثال ستالين وروزفلت وتشرشل وبابا الفاتيكان بالذهاب إليها فى زيارات رسمية .

ويحكى ابشتين فى «ملك اليهود» قصة أوتوبيس الموت أو الأوتوبيس الأصفر الذى يحمل اليهود المرحلين إلى مثواهم الأخير وكيف أن هذا الأوتوبيس يتوجه بهم إلى هاوية سحيقة ثم يجيء الونش ليرفع الأوتوبيس ويلقى بركابه من علٍ فى هذه الهاوية . وتخبرنا الرواية أن صبيا يهوديا شاهد من مخبئه هذه الابادة الجماعية المروعة : وعندما شاهد الصبى الملتاع المذبحة ذهب إلى ترومبلمان ليقص عليه بشاعة ما رأى . ولكن ترومبلمان قال إن مصلحة الجالية اليهودى تقتضى منها عدم تصديق ما فعله النازيون بها لأن تصديق ما حدث سوف يجر فى أذياله أوخم العواقب . ولهذا آثر ترومبلمان أن يصدق أن بنى جلدته ذهبوا ليفلحوا ويزرعوا فى مناطق بعيدة فضلا عن أن بعض اليهود الآخرين رأوا أن الصبى ربما أساء فهم حقيقة ما حدث وأنه اخترع المجزرة من خياله .

ورغم أن المؤلف يرى أن معاداة المسيحيين ضد السامية مهدت السبيل لظهور العداء النازى للسامية فإنه لم يغفل وجود فروق نفسية جوهرية بين كلا العدائين . فضلا عن أنه يذكر اليهود الذين اعتنقوا الديانة المسيحية من أجل الفرار بجلدهم من الموت . ورغم تحولهم إلى المسيحية فقد ظل النازيون يعتبرونهم يهودا .

ويستخدم المؤلف فى روايته فن المسرح والتصوير فى تقديم فظائع الهولوكست فى مقهى استوريا فى جيتو لودز حيث يقدم بعض الممثلين اليهود عرضا مسرحيا لمسرحية شكسبير المعروفة «ماكبث» بطريقة تعكس ما يتعرض له اليهود من تعذيب على أيدى النازيين . وأيضا يقوم مصورون يهود بالتقاط صور التعذيب رغم إدراكهم.

لما فى ذلك من خطر داهم على حياتهم . وبالفعل يتم القبض على كلابهولتز رسام الهولوكست وتعذيبه وتكسير عظامه ولا يكتفى النازيون بذلك بل يقوم بعضهم بتسنيده على الحائط حتى يتمكن النازيون من اطلاق النار عليه حتى يكون عبرة لمن يعتبر . ولكن هذا لا يفت فى عضد اليهود الذين يواصلون تصوير فظائع الهولوكست .. وعبثا ينصحهم ترومبلمان بعدم تعريض حياتهم للخطر . فهم لا يلقون إليه بالا ويؤكدون له ضرورة الادلاء بشادتهم قائلين : «يتعين علينا أن نتذكر .. حتى يعرف الناس حقيقة ما جري» .

واستمد المؤلف فكرة تسجيل بشاعات الهولوكست عن طريق الصور الفوتوغرافية من الواقع على غرار مصور فوتوغرافى اسمه مندل جروسمان عاش فى جيتو لودز . والجدير بالذكر أن جروسمان أصدر كتابا بعنوان «بصحبة الكاميرا فى الجيتو» قبل أن ينشر ابشتين روايته «ملك اليهود» بعامين وأن هذا المصور التقط آلاف الصور الفوتوغرافية التى تصور المهانة والإذلال والمرض والجوع الذى عانى منه اليهود فى جيتو لودز . كما أنه قام بتسجيل توزيع البطاقات التموينية عليهم وعملهم الشاق فى المصانع وتفاصيل حياتهم اليومية واستخدامهم بدلا من الدواب فى جر عربات البراز إلى جانب تصوير عمليات ترحيل اليهود وتنفيذ الاعدام العلنى فيهم كان جروسمان يخفى آلة التصوير داخل معطفه ويغافل الألمان ويفتح المعطف قليلا حتى يتمكن من التقاط الصور دون أن يراه أو يشك فيه أحد .

وتنتهى الرواية دون أن يعرف أحد على وجه اليقين ما انتهى إليه مصير ترومبلمان الغامض فمن قائل أن النازيين أردوه قتيلا ومن قائل إنه اختفى عن الأنظار واختفى عن حياة بنى جلدته . ويحذر المؤلف من مغبة اقتناع البعض بأن الابادة الجماعية لم تقتصر على اليهود وحدهم بل شملت غير اليهود أيضا . ولهذا نراه يدعو إلى ضرورة اقامة النصب التذكارى حتى لا يغيب للهولوكست عن الأذهان .

ويعترف ابشتين بأن الرواية هى التى حددت مساره فهو يقول فى هذا الشأن :

«لم تكن تلك المرة الأولى في حياتى التى أردت فيها أن أكتب شيئاً جادا فى جوهره .. وأن اتناول شيئاً من الناحية الفلسفية لأجد أن الكتاب الذى أسطره يراوغنى ويعبر عن نفسه بلغته ونبرته الخاصة . ورغم أننى حاولت بشتى الطرق أن أتحاشى استخدام هذه النغمة إلا أننى وجدت نفسى عاجزا عن ذلك .. وبعد أن كتبت نحو ثلاثين صفحة بدأت أدرك المتكلم الحقيقى فى هذا الكتاب .. وأصبح لزاما أن يكون هذا المتحدث واحدا من الناجين (من الهولكست) . وأيضا أصبح لزاما أن يكون شخصا شق طريقه إلى أمريكا . وكان لزاما أن تجمع الرواية فى نبرتها بين شقين : الشق الأوربى والشق الأمريكى ولهذا جاء الكتاب على نحو ما رأينا» .

وكذلك يذهب ابشتين إلى أنه لم يكن بوسعه إلا أن يعالج مادته الروائية بطريقة ساخرة بسبب شدة قتامة هذه المادة وقدرتها على الايلام . ويضيف أن هذه المادة الموجعة اقتضت منه السيطرة على عواطفه :

«أظن أننى لابد وأنى شعرت ... انه إذا كان من المقدر لى أن أفرغ من هذه المادة .. ناهيك عن التفكير فيها وتشكيلها فإنه يتعين على أن أسدل ستارا نفسيا سميكا كالحديد بين نفسى وبين هذه الروايات عن مصير اليهود . وهكذا أمضيت الشتاء وأنا أقرأ فى هدوء وعدم اكتراث بما تنطوى عليه المادة من ألم» .

(٥) ريتشارد إلمان (١٩٣٤ -   )

Richard Elman

ولد ريتشارد إلمان فى حى بروكلين بمدينة نيويورك يوم ٢٣ أبريل عام ١٩٣٤ وحصل على شهادة الليسانس فى الآداب من جامعة سيراكيوز عام ١٩٥٥ ودرجة الماجستير من جامعة ستانفورد عام ١٩٥٧ ثم التحق بخدمة الجيش فى أواخر عقد الخمسينات . وتزوج إلمان مرتين وانجب ابنته مارجريت من زوجته الأولى وليلا من زوجته الثانية .

جمع إلمان بين عالمين مختلفين هما الاعلام والحياة الأكاديمية . فبعد اشتغاله بالاعلام فى مدينة نيويورك فى الفترة من ١٩٦١ حتى ١٩٦٤ التحق بالعمل الأكاديمى فى كلية هنتر عام ١٩٦٦ ثم كلية بنتجون عام ١٩٦٦ - ١٩٦٧ . ثم جامعة لومومبا ككاتب زائر فى الفترة من ١٩٦٨ حتى ١٩٧٦ فضلا عن أنه كان أستاذا زائرا فى عدد من الجامعات هى جامعة بنسلفانيا وجامعة ولاية نيويورك وجامعتا أريزونا وميتشجان . وفى عام ١٩٩٠ عين أستاذا فى جامعة نوتردام . وقد حصل إلمان على بعض المنح الدراسية والجوائز .

أهم أعماله وموضوعاته :

ألف ريتشارد إلمان أكثر من اثنى عشر كتابا نشرها باسمه وستة أعمال أخرى بأسماء مستعارة إلى جانب ثلاثة دواوين شعر . وتعتبر ثلاثيته الروائية عن الهولوكست من أبرز أعماله . وتحتوى هذه الثلاثية على ثلاثة أجزاء هى «الثامن والعشرون من ايلول» (١٩٦٧) و«يوميات ليلو» (١٩٦٨) و «الحساب» (١٩٦٩) . وتدور هذه الثلاثية حول عائلة يهودية مجرية فى نهاية الحرب العالمية الثانية . ويروى المؤلف هذه الروايات الثلاث من وجهات نظر مختلفة . وتعالج رواية الثامن العشرون

من أيلول خطط العائلة الهادفة إلى خيانة قريبة لها مقابل السماح للعائلة بالهرب من المجر . وتعبر رواية «يوميات ليلو» عن وجهة نظر هذه القريبة الشابة التى تزمع عائلتها الغدر بها . أما رواية «الحساب» فتعبر عن وجهة نظر الأب لهذه العائلة الذى يسعى إلى معالجة الصراع المحتدم بين معتقداته الأخلاقية وبين موقفه الصعب .

وفى عام ١٩٩٢ أصدر ريتشارد إلمان رواية بعنوان «شاطيء القار» التى تعالج بعض الموضوعات اليهودية وبالإضافة إلى ذلك اقتبس هذا المؤلف نصها للعرض على الشاشة بعنوان «سائق التاكسي» (١٩٧٦) وكتابين يحتويان تقارير صحفية هما «بنت فقراء الولاية» (١٩٦٦) و «غير مرتاح فى كومبتون» (١٩٦٧) إلى جانب قصائد واشعار مستمدة من تجارب المؤلف فى ناكارجوا أثناء ثورة سانديستا فى السبعينات وكتاب بعنوان «كوكتيل فى سوموزا» (١٩٨١) . ومن أهم الكتب التى نشرها تحت اسم مستعار كتاب بعنوان «حيوات صغيرة» (١٩٧٨)

الهولوكست فى ثلاثية ريتشارد إلمان :

تتناول ثلاثية ريتشارد إلمان مأساة اليهود فى المجر عام ١٩٤٤ أى قبيل انتهاء الحرب العالمية الثانية فى ١٩٤٥ . وعلى عكس الحال فى بولندا كان يهود المجر على وعى كامل بعزم النازيين على إبادتهم عن بكرة أبيهم . وفى المجر لم يناور النازيون أو يخفوا نواياهم الشريرة إذ أنهم قاموا بترحيل اليهود المجريين صراحة والاجهاز عليهم علنا أمام مرأى ومسمع العالم كله . والجدير بالذكر أن أحداث الهولوكست النازى وقعت متأخرة بعد أن اكتسب النازيون وعلى رأسهم ايخمان خبرة فى إبادة اليهود فى أرجاء أخرى فى أوربا . وتتضمن ثلاثية إلمان إشارات إلى الدور السلبى الذى لعبته القيادات اليهودية فى المجر فقد أظهرت عدم اكتراث بمحنة بنى جلدتهم فى كل من ألمانيا وبولندا . ولهذا فهو ينحى بالملامة عليها رغم ادراكه لعجز يهود المجر عن الوقوف فى وجه البطش النازى . كما أنه ينحى باللائمة على سلبية أوربا وسكوتها على الجرائم النازية .

يسجل ريتشارد إلمان المحنة التى تعرضت لها عائلة يهودية مجرية اسمها عائلة ياجودا من جراء الهولوكست وتأرجح هذه العائلة بين القنوط والرجاء فقد عاشت هذه العائلة فترات من الهدوء تعقبها فترات من الخراب والدمار . ويتتبع المؤلف ردود فعل اليهود المختلفة إزاء الهولوكست باختلاف خلفياتهم الاجتماعية والنفسية . ويشمل الجزء الأول من الثلاثية وهو بعنوان «الثامن والعشرون من ايلول» (١٩٦٧) من وجهة نظر ابنهم الناجى من الهولوكست الكسندر ياجودا ويشتمل الجزء الثانى وهو بعنوان «يوميات ليلو» (١٩٦٨) على المذكرات التى سطرتها فتاة يهودية شابة تعيش فى رعاية وكنف هذه العائلة لتصبح ضحيتها . أما الجزء الثالث فهو بعنوان «الحساب» (١٩٦٩) فيتناول الحكاية من منظور أخلاقى وتاريخى وفى اطار خليط من التقييم الذاتى والتحليل الموضوعى للقوى الاقتصادية والسياسية التى ساهمت فى صنع الهولوكست من وجهة نظر أحد ضحاياه واسمه نيومان ياجودا . ولم يكن فى نية ريتشارد إلمان أن يكتب هذا الجزء الأخيرة لولا أن ايلى ويزيل كاتب الهولوكست المعروف أقنعه بطبع قصة ليلو الأمر الذى جعل إلمان يقرر اضافة رواية «الحساب» وهى الجزء الثالث من الثلاثية . وفكر إلمان فى أن يضيف إلى الثلاثية جزءاً رابعا غير أنه ما لبث أن نبذ الفكرة .

وتتضمن الثلاثية علاقة الإنسان بالله والمشاكل اللاهوتية الناجمة عن وقوع فظائع الهولوكست . فالمؤلف يتساءل عما إذا كان الإنسان بحاجة إلى اعادة النظر فى الأفكار الخاصة بالطبيعة البشرية فى ضوء بشاعات الهولوكست كما أنه يشك فى انهيار الميثاق الذى يربط بين الله والإنسان ويفحص الناجى من الهولوكست غياب الله عن العالم وسماحه بوقوع الهولوكست ويتعجب كيف تتفق رحمة الله وحبه مع سماحه بإبادة الأبرياء .

وقبل أن نتحدث عن ثلاثية ريتشارد إلمان نذكر أنه فى عام ١٩٥٩ أصدر إلمان أول رواية يهودية له بعنوان «معطف من أجل القيصر» تعالج المشاكل الأخلاقية التى تجابه أحد الناجين من الاضطهاد الروسى . وأيضا ضمن إلمان سيرة حياته فى كتاب

نشره عام ١٩٧٢ بعنوان «فريد وشيرل والأولاد» حيث يلقى المؤلف الضوء على طفولته وزواجه الباكر في مدينة نيويورك . ويبدو إن إلمان يجد نفسه عاجزا عن الكتابة إلا إذا تعرضت مشاعره إلى هزة عاطفية شديدة نتيجة «الغضب أو العطف أو ربما الدهشة والاحساس بالعجب» ويبدو ان اهتمامه بالهولوكست قد زايله مؤخرا فقد قال في مقابلة أجريت معه عام ١٩٨٠ ما يلى : «أننى لم أعد راغبا فى الكتابة عن اليهود أكثر مما فعلت . فقد أردت أن أكتب عن تجاربى والخيالات التى تداعبنى . وانى أحاول ألا أكرر نفسي» .

تصور ثلاثية إلمان التفكك الذى تعانى منه أسرة يهودية تعيش فى المجر اسمها أسرة ياجودا وهى أسرة تتسم بالشهوانية والأنانية والخيانة . الأمر الذى يجعلها سريعة الاندماج مع غير اليهود وتقبل الزيجات المختلطة بهم .

وإلى جانب تفككها الأسرى نرى أفرادها يكرهون حتى أنفسهم . وهكذا يخبرنا المؤلف أن المجتمع اليهودى لا يقل فى سوئه عن أى مجتمع آخر .

قلنا إن ثلاثية إلمان تتكون من ثلاثة أجزاء هى «الثامن والعشرون من ايلول» «ويوميات ليلو» و«الحساب» . والشخصية المحورية فى الرواية الأولى هو الكسى ياجودا الذى نجا من الهلاك فى الهولوكست فهاجر إلى اسرائيل وقد ورث ثروة عريضة من عمه الذى اشترط أن تؤول إليه فى حالة التزامه بالدين اليهودى واتباع تعاليمه وشعائره . أما الرواية الثانية فتدور حول ابنة عم الكسى ياجودا وخطيبته وهى فى نفس الوقت تحت وصاية عائلة ياجودا السيئة . وتصف الرواية الثالثة الحياة الفاسقة التى عاشها نيومان ياجودا والد ألكسى وكبير العائلة . وجميع شخصيات الثلاثية تجهل مبادىء الدين اليهودى .

وتشمل رواية «الثامن والعشرون من ايلول» رد الكسى ياجودا على محام أمريكى يستفسر عن قانونية الوصية التى تركها عمه والتى تشترط أيلولة ضيعته إلى ابن أخيه فى حالة استمساكه بالدين اليهودى . ويشير الرد الذى يقدمه الكسى

ياجودا مشكلة الايمان فى فترة ما بعد الهولوكست (ولعلنا قد لاحظنا أن فظائع الهولوكست النازى زلزلت ايمان كثير من اليهود بالدين وبوجود الله) . ويقدم الكسى ياجوداه إلى المحامى الأمريكى اجابة قانونية تقليدية مفادها أن القانون اليهودى يرى أن ابن الأم اليهودية يظل يهوديا إلى الأبد .

ويهاجم الكسى ياجودا عمه الأمريكى الثرى كما يشن هجوما ضمنيا على الغرب بوجه عام لسكوته على خطة ألمانيا النازية للقضاء على اليهود وأيضا يحتقر الكسى عمه لأنه ذاب ذوبانا كاملا فى الحياة الأمريكية وبهذا يكون قد خان الهوية اليهودية في سبيل الكسب المادى . ويسوق لنا الكسى الدليل على ضلوع البريطانيين والأمريكان فى إبادة النازيين لليهود فيقول إن اليهود طلبوا منهم الوقوف بجانبهم فى محنتهم ولكنهم رفضوا تقديم أية مساعدة لهم على الرغم من معرفتهم بما يحدث لهم فى معسكرات الاعتقال النازية . وكذلك أدان ريتشارد إلمان حكومات أوربا الشرقية لأنها ادعت شجبها للنازية فى حين أنها ساعدت النازيين على تنفيذ سياستهم الخاصة بإبادة اليهود .

ويضرب لنا الكسى أمثلة على ضلوع غير الألمان فى ارتكاب جرائم الهولوكست فيقول «إن حكومة سلوفاكيا دفعت لألمانيا بالفعل مبلغا محددا نظير كل يهودى يرحل عن سلوفاكيا بشرط عدم السماح له بالعودة .. وقد تأرجح ربع قادة المجر بين التحمس لقتل اليهود واتباع سياسة المراوغة الجبانة .. قد يكون بين الأمم من غير اليهود قلة من الناس المهذبين . ولكننا لم نعد نرى أيا منهم بعد عام ١٩٤٢.» وتقول الرواية أن حشودا من غير اليهود «ذرفوا علينا دموع التماسيح ».

« ولكننا عرفنا أن هؤلاء الباكين أول من يدركون الغنائم والأسلاب التى سوف تعود عليهم عندما يتم ترحلينا بالفعل» .

وبسبب الهولوكست النازى نرى الكسى ياجودا يضع كلا من الإنسان والله فى قفص الاتهام . فالحكومات قد فشلت فى تقديم العون إلى اليهود كما أن الله أخفق

فى إظهار رحمته . فضلا عن أنه أخل بالميثاق الذى أعطاه لشعبه المختار عندما سمح بضربه بالرصاص والقائه فى القبور الجماعية وفى المحارق والأفران حتى قبل أن يلفظ البعض منهم أنفاسه الأخيرة . والكسى يكره نفسه كي يكفر عن سلبيته وعجزه عن مقاومة النازية وأعداد السامية . ورغم تأرجحه بين الشك والإيمان فإن الأمر ينتهى به إلي الإيمان بالله شأنه فى ذلك شأن الكثيرين من ضحايا الهولوكست فى أدب كل من سنجر ويزل . ويكابد الكسى الادراك المروع بتعايش الخالق العادل الرحيم مع خليقة شريرة . يقول ريتشارد إلمان فى هذا الشأن : «ولكن ألا يقف الله العلى فى دينونة باعتباره أعظم قاتل فى النظام الكونى ؟»

«وربما يكون هذا السبب فى أن الناس هنا يصفونهم بأنهم يهود بلا إله . إن العلمانية إلى هذا الحد تحول دون المغفرة .. فى حين أن قبول الله الآن يقتضى مغفرة القتلة وخبراء الابادة الجماعية .»

ويركز المؤلف الجانب الأعظم من الرواية على ذكريات الناجين من الهولوكست التى تطوف كومضات البرق في مخيلاتهم فتعيدهم إلى مراحل شبابهم . ويوضح لنا إيلمان أن الهولوكست لا يجرد الضحية فقط من إنسانيتها بل يجرد الجانى منها أيضا. وهو يصور ألكسى جالسا تحت شجرة فى مستعمرة اسرائيلية يسترجع ذكريات الماضى عندما كان يعيش فى المجر . وتتركز ذكرياته حول عجزه عن مقاومة عداء المجريين ضد السامية وبالنظر إلى أن المجر فى عام ١٩٤١ تحالفت مع ألمانيا النازية فقد كان اليهود المجريون يتمتعون بالأمان النسبى . واستمرت تمتعهم بهذا الأمان حتى شهر مارس عام ١٩٤٤. ولهذا لم يقم النازيون بعزلهم فى معسكرات اعتقال كما كان الحال فى كل من بولندا وألمانيا . بل كانوا يسمحون لهم بحرية الحركة فى حياتهم اليومية داخل المجتمع المجرى . وينتج عن ذلك أن اليهود شعروا بطمأنينة كاذبة . فقد فكر النازيون فى ترحيلهم بعد مارس ١٩٤٤ حين وصل النازى المعروف أدولف ايخمان إلى بودابست حيث بدأ فى تنفيذ سياسة تهجير اليهود المجريين بهمة ونشاط .

ويسعى الكسى الشخصية المحورية فى رواية «الثامن والعشرون من ايلول»

إلى التخفيف من نقده للطبقة البورجوازية اليهودية بقوله انهم لم يكونوا على علم بكافة الفظائع المحيطة بترحيل بنى جلدتهم بسبب تمويه الألمان وخداعهم . ومع ذلك فهو يعيب عليهم أنهم رفضوا تصديق هذه الفظائع عندما أحيطوا علما بها . فضلا عن أنه لام بنى جلدته لقبولهم الاختلاط والزواج من غير اليهود إلى جانب سعيهم الحثيث إلى الاندماج فى المجتمع المجرى . والجدير بالذكر أن والد الكسى كان أحد المخدوعين فى الألمان فقد اتجه بوجهه إلى الناحية الأخرى حتى لا يرى قساوتهم ويعرفهم على حقيقتهم . ويضيف الكسى أن أفراد عائلته تعمدوا غض النظر عن البشاعات التى تعرض لها اليهود فى كل من بولندا وألمانيا ولا غرو فقد تشابكت مصالحهم مع مصالح المجريين المتحالفين مع هتلر . كان رب عائلة ياجودا يخدع نفسه عندما اعتقد أعتقادا جازما بأن السياسيين والمسئولين المجريين لن يسمحوا لهتلر بالتمادى فى أفعاله وبأن النازية لا تعدو أن تكون انحرافا مؤقتا للشخصية الألمانية عن أصالتها . يقول الكسى فى هذا الصدد :

«نحن معشر اليهود سلكنا فى دروب الحياة يخامرنا شعور بأن شيئاً ما فى مكان ما ينطوى على خطأ مروع . ولكنا لم نكن على قناعة تامة بأن مثل هذا الخطأ سوف يؤثر فينا . فقد ظلت السلطات المحلية التابعة لوزارة الداخلية تعاملنا بنفس المزيج التاريخى المعتاد من الحسد والاحتقار والسلوك المهذب» .

والرأى عند الكسى أن البورجوازية اليهودية فى المجر أظهرت عدم اكتراث بآلام اليهود عندما ظنوا أنهم فى مأمن وأن المجر تعتبرهم مواطنين لا رعايا وأن المجريين سوف يخفون لمساعدتهم عند اللزوم . ولم يتبين هؤلاء اليهود غفلتهم إلا عندما انقطعت وسائل اتصالهم بالعالم الخارجى وتوقفوا عن استلام أية خطابات عقب اعلان الولايات المتحدة الحرب على ألمانيا وتدل الملاحظة التى أدلى بها الكسى على خسة الطبيعة البشرية لأنها تشعر بالراحة والعزاء عندما تجد نفسها فى مأمن وغيرها فى مأزق . فعندما شاهد أبناء الطبقة العاملة والشباب اليهودى يرحلون شعر بالراحة والامتنان لأن والده كان من علية القوم الأمر الذى مكنه من عدم الانفصال عن أسرته

وقضاء وقته في رسم لوحات لعشيقته على الطريقة الفرنسية والعكوف على دراسة اللغتين الفرنسية والانجليزية ومن مظاهر خداع اليهود لأنفسهم أنهم ظنوا أن العمل في ألمانيا سوف يكفل لهم الحياة المطمئنة لأنهم هناك سوف يعملون من أجل دعم المجهود الحربي . لقد صدق يهود المجر هذه الأكذوبة مما سهل عليهم التعايش مع قوات الاحتلال النازي . ويخبرنا الكسي أن بعض القيادات اليهودية في المجر كانت تعلم بأمر غرف الغاز السام منذ وقت باكر يرجع إلى عام ١٩٤٢ ولكن معظم هذه القيادات كانت تجهل وجودها .

ويرسم المؤلف ريتشارد إلمان صورة لما آل إليه يهود المجر في الفترة الأخيرة من الحرب العالمية الثانية ، وهي صورة شبيهة بالصورة التي رسمها راءول هيلبرج في كتابه «تحطيم اليهود في أوربا» . هذه الصورة تعتمد على تضييق الخناق الاقتصادي والمدني على اليهود المجريين وعلى استبدال الموظفين المجريين المحليين الذين تربطهم باليهود علاقة طيبة بموظفين يتعاطفون مع النازيين حتى لا يجدون أية غضاضة في الانتقاص من حقوق اليهود المدنية . ومن ثم انتهج هؤلاء الموظفون الجدد سياسة عدوانية سافرة ضد اليهود وفرضوا عليهم حظر التجول ووضعوا الحراس أمام الحوانيت اليهودية وأرغموا اليهود على تسجيل أسمائهم كأجانب . وهكذا بدأ اضطهاد النازيين ليهود المجر يتضح للعيان . وفي ظل هذا الجو الخانق للحريات نصحت السلطات المجرية المحلية اليهود في مدينة كليج بعدم مغادرة منازلهم للحفاظ على أرواحهم . وأمام هذا التخويف انصاع اليهود وارتعدت فرائصهم مما ساعد على اتساع نطاق العداوة ضدهم . ثم أخذ البوليس النازي يصادر الممتلكات اليهودية ويرغم اليهود على دفع فدية نظير عدم الاعتداء على بيوتهم . وأيضا شجعت الحكومة المجرية غير اليهود بإسقاط ما عليهم من ديون لليهود . وصدرت الأوامر إلى غير اليهود بعدم الاشتغال بخدمة اليهود كي لا يتعرضون للانتقام النازي . وهكذا تكرر في المجر ما سبق أن حدث في ألمانيا النازية عندما تحولت المضايقات الاقتصادية لليهود إلى تحرش بدني بهم . وهكذا تحكي لنا رواية «الشامن والعشرون من أيلول» انتزاع السلطات المجرية الخاضعة للحكم النازي ملكية السيارة التي تملكها عائلة ياجودا وانسحاب

عامل من الخدمة لديها . وليس هذا نهاية المطاف بل مجرد تمهيد لترحيلهم إلي مراكز الموت .

ويحذو المؤلف ريتشارد إلمان - شأنه فى ذلك شأن مؤرخى الهولوكست أمثال سوزان شافر وهاناه دتميز وإيلونا كارمل - فيرسم صورة للخسائر المادية التى تكبدتها الطبقة المتوسطة اليهودية فى أوربا والثراء العريض الذى فقدوه والبيوت الكبيرة الفخمة التى تحيط بها الحدائق الغناء التى خسروها. ولا شك أن سقوط اليهود على هذا النحو أثار شماتة أعدائهم وشأنهم فى الرواية مثل تاجر الخمور المجرى سكيرزنى الذى بارت تجارته واضطره إفلاسه إلى بيع منزله حتى يتمكن من الوفاء بديونه . ويستغل هذا التاجر المجرى المفلس الظروف السيئة التى يمر بها يهود المجر للاحتيال على ياجودا واسترداد بيته منهم بالنصب والتدليس .

ولا يقتصر اضطهاد اليهود على الجانب المادى فحسب بل يمتد إلى الجوانب الجنسية والنفسية أيضا . فابن زوجة سكيرزنى التاجر المجرى النصاب ينتهز الفرصة ويغتصب ليلو اليهودية . وامعانا فى اذلالها تحداها وتحدى حبيبها اليهودى أن يبلغا الشرطة بأمر هذا الاغتصاب لأنه يعرف جيدا أن الشرطة لن تستمع إلى شكواهما بل سوف تنتصر للمغتصب المسيحى ضد ضحيته اليهودية . وهناك تشابه بين استيلاء البوليس المجرى والموظفين المجريين على ممتلكات اليهود قبل ترحليهم وبين سعى التاجر المحتال سكيرزنى المنظم للاستيلاء على ثروة عائلة ياجوداه اليهودية بزعم امداد هذه العائلة بالأوراق التى تساعدها على الهرب من المجر . ويقوم سكيرزنى بخداعهم على غرار ما فعل النازى ايخمان عندما وعد المجالس اليهودية بعدم ايذاء يهود المجر أو التعرض لهم بالضرر طالما أنهم يلبون مطالب الألمان بتوفير السلع والخدمات التى يحتاجون إليها. هذه المقايضة لها ما يماثلها فى تاريخ العلاقات بين الألمان ويهود المجر فقد جرت مفاوضات بين ألمانيا وبين اليهوديين رودلف كاستنر وجويل براند على مقايضة اليهود المجريين بأموال وامدادات تموينية هائلة لدعم المجهود الحربى النازى .

ويرمز الاغتصاب الذى تتعرض له اليهودية ليلو إلى الاضهاد الذى ينتظر اليهود المجريين على أيدى النازيين . ويسعى رب عائلة ياجوداه إلى استرضاء النازيين والتمسح فيهم بطريقة مضحكة فيلبس ثيابه القشيبة ورباط عنقه المصنوع من الحرير ويستعرض الأوسمة والنياشين الحربية التى حصل عليها . كما يستعرض اجادته للغة الألمانية وثقافتها دون جدوى . ويأمر النازيون العائلات اليهودية فى كليج بالتجمع فى ميدان المدينة فيتوجس اليهود خيفة ويتوقعون شرا . وتراءى لبعضهم أن الخطر قد بدأ يحدق بهم . ومع ذلك فقد راود بعضهم الأمل فى أن يقوم هتلر بترحيلهم إلى تركيا أو مدغشقر نظير فدية كبيرة يدفعونها . حدث ذلك فى شهر يونيه ١٩٤٤ عندما كانت أحوال النازيين العسكرية تسير من سيىء إلى أسوأ . ويعتبر هذا التجمع اليهودى فى الميدان نذيرا بمجيء معسكرات الاعتقال . وقد تعرض اليهود المجتمعون فى الميدان إلى نفس ما تعرض إليه النزلاء فى معسكرات الاعتقال من نهب وسلب واستيلاء من قبل النازيين على ساعاتهم وخواتمهم وممتلكاتهم بزعم دعم المجهود الحربى النازى .

ورغم أن الكسى يعتب على بنى جلدته اليهود أنهم وقعوا فى شراك النازيين واعتبروا زملائهم مسئولين عن القيام بأنشطة هدامة تستوجب من النازيين إنزال العقاب بهم ، فإننا نراه يحذر المحامى الأمريكى من ادانة الضحايا اليهود العزل والعاجزين عن مقاومة الظلم . وكيف يستطيع اليهود العزل أن يقاوموا الجيش النازى بعد أن خذلتهم الدول الأوربية وامتنعت عن تقديم العون لهم ؟! حتى فرنسا بجلالة قدرها استسلمت للغزو النازى وتعاونت معه . ولهذا يعتبر الكسى الحلفاء متضامنين مع النازيين بسكوتهم كالشيطان الأخرس على جرائمهم . ورغم سخط الكسى على والده لأنه لم يتخذ الترتيبات الكفيلة بهروب عائلته فى الوقت المناسب وعلى مجلس الحكماء اليهودى وساوى فى المسئولية عما جرى لليهود بين عمالة اليهود وبين السلطات النازية فإنه تراجع عن إدانته لبنى جلدته واعتبر أنه من غير العدل مساواة الظالم النازى بالمظلوم اليهودى متذكرا الدور الذى لعبه المجلس اليهودى فى التخفيف من ويلات اليهود .

ويبدو أن الكسى يتفق مع الباحثة الاجتماعية اليهودية هاناه أرندت فى القول بأن الضباط النازيين ينتمون إلى عائلات بورجوازية . تقول رواية «الثامن والعشرون من أيلول» : «إن مثل هؤلاء الرجال موجودون فى كل المجتمعات البورجوازية . فهم باردون ومنظمون وغلاظ القلوب...» وتروى الرواية وقائع شبيهة بما يحدث فى معسكرات الاعتقال مثل قيام النازيين بوشم أرقام على معاصم اليهود بهدف التمييز بينهم .

أشرنا إلى أن النازيين فى رواية «الثامن والعشرون من أيلول» استطاعوا أن يدخلوا فى روع اليهود أن ترحيلهم يرجع إلى عمليات التخريب التى يقوم بها بنو جلدتهم . وانطلت هذه الحيلة على بعض اليهود الذين ركزوا كراهيتهم على أقرانهم بدلا من توجيهها إلى عدوهم الحقيقى وهو العدو النازى . وادعى النازيون أن هدفهم هو حماية اليهود من أنفسهم ومما قد يرتكبه بعضهم من حماقات سوف تعود عليهم جميعا بالضرر . وعندما أصدر النازيون الأمر بترحيل اليهود فى غضون ثمان وأربعين ساعة قام رب عائلة ياجودا بالتفاوض مع سكيرزنى تاجر الخمور المجرى بأن يعطيه ضيعته فى سبيل تزويده بأوراق مزورة لمساعدته هو وعائلته على الهرب من مدينة كليج مفادها أن عائلة ياجودا قد نبذت الديانة اليهودية وتحولت إلى الدين المسيحى . وظن ياجودا المخدوع أن هذه الأوراق سوف تضمن له النجاة دون أن يعرف أن النازيين أصدروا الأوامر بترحيل أي يهودى تحول مؤخرا إلى الدين المسيحى إذا لم تمر أجيال عديدة على اعتناق عائلته للمسيحيَة . وعندما فشل ياجودا الأب فى تهريب أسرته أنحى الكسى باللوم على أبيه وعلى زعماء اليهود بدلا من أن يصب لومه على المجرمين الحقيقيين من النازيين والمجريين . فضلا عن أن سكيرزنى لجأ إلى خداع ياجودا بأن ادعى تمكنه من الحصول على أوراق تساعد ثمانية فقط من أفراد العائلة اليهودية على الهرب وأنه أخفق فى الحصول على أوراق تساعد ليلو على مغادرة كليج. وكان هدفه من هذا الكذب استبقاء ليلو فى المدينة حتى يستطيع ابن زوجته ميكلوس أن يتمتع بها فى أى وقت شاء . ولا يجد رب العائلة ياجوداه أية غضاضة

فى بقاء خطيبة ابنه الكسى فى كليج والحاقها بخدمة أسرة سكيرزنى . حتى خطيبها الكسى يخذلها ويتركها لمصيرها رغم ادراكه أن الهدف من استبقائها فى كليج هو أن تستمر فى أن تكون محظية مغتصبها ميكلوس . ويمضى سكيرزنى فى غش العائلة اليهودية فيدعى أنه قام بتهريب نسائها بمفردهن . ثم يبلغ النازيين عن مكان اختباء الأب ياجوداه المريض وابنه الكسي . ويجيء الجنود الألمان فى سيارة إلى مخبأ الرجل المريض حيث كان نائما ويلمح الكسي الجنود الألمان قادمين فيسرع بالهرب تاركا والده العليل لمصيره المحتوم . ويجوس الابن الهارب فى غابة قريبة يقتات على ورق الشجر ولحاه . وأخيرا يعثر عليه بعض الفلاحين المجريين فيوسعونه ضربا ويلحقونه بخدمتهم ثم يسلمونه فى نهاية المطاف إلى القوات السوفيتية التى استطاعت أن تدمر القوات النازية وتردها على أعقابها . ويسمح له السوفيت بالسفر إلى تركيا حيث تتولى منظمة للاغاثة نقله إلى فلسطين . وفى اسرائيل يعلم الكسي بوفاة والده فى معسكر أوسشفتز للاعتقال وبالزج بأمه أيضا فى معسكر اعتقال آخر كما يعلم أن خطيبته ليلو ماتت أثناء غارة بالقنابل.

ويميل نقاد الأدب إلى تبنى موقف الكسى المنتقد لأبيه نيومان ياجودا لأنه قبل أن يضحى بليلو من أجل أنقاذ بقية أفراد عائلته . ولكن بعض النقاد يرون فى هذا ظلما وتجنيا على الرجل لأن النازيين لم يتركوا له أى خيار حقيقى فقد أبلغه سكيرزنى فى آخر لحظة باستحالة تزويد ليلو بأوراق السفر اللازمة الأمر الذى وضع ياجودا أمام الأمر الواقع وجعله يستسلم له . ويختلف هذا الوضع مع ما نجده فى رواية صوفى التى ألفها الكاتب الأمريكى وليم ستيرون . وصوفى أم بولندية كاثوليكية تعرضت لاختيار بالغ الصعوبة فقد خيرها الألمان أن تختار من أولادها من يموت كى يبقى اخوته على قيد الحياة . فاضطرت إلى التضحية ببعضهم كى يبقي البعض الآخر على قيد الحياة . ومع هذا فإنها لم تفقد عطف القراء الشديد عليها كما أنهم عذروها فى تصرفها . على عكس ياجوداه الذى لم يجد عطفا من أحد على الاطلاق رغم أنه لم يكن أمامه أى اختيار حقيقى فقد أجمع النقاد على الهجوم عليه . ويرى بعض

النقاد المتعاطفين مع نيومان ياجودا أنه معذور فى التضحية بليلو خطيبة ابنه لسببين أولهما أنه لم يكن أمامه أي اختيار حقيقي وثانيا لأنه كان يجهل بأمر اغتصاب ابن زوجة سكيرزنى لخطيبة ابنه ليلو .

ويسعى المؤلف إلمان بهذا إلى اثارة قضية أخلاقية هامة مفادها أنه ليس من الأخلاق أو اللياقة فى شيء أن يلام المجنى عليه ويترك الجانى دون تقريع وأن هناك فرقا بين الاشتراك الفعلى فى ارتكاب الجريمة وبين اتخاذ موقف سلبى من ارتكابها . أي أن درجات الوزر تتفاوت من حالة إلى أخرى .

فالذنب الذى يرتكبه سكيرزنى أشد وطأة من الذنب الذى يرتكبه ياجودا كما أن الذنب الذى يرتكبه المجريون بتسليم اليهود إلى جلاديهم النازيين قد لا يصل إلى فداحة الذنب الذى يرتكبه النازيون بالابادة الجماعية لليهود . وذنب ياجودا يمكن تلخيصه فى نقطتين أولاهما انه لم يهاجر وعائلته من المجر عندما كانت الظروف تسمح بذلك وثانيتهما أنه وضع ثقته فى الله الذى انتهك ميثاقه ولم يحافظ عليه .

وعلى الرغم من أن الكسى فى الأربعينات أنحى باللوم على والده لأنه لم يهاجر من المجر فى الوقت المناسب وأنه ترك ليلو تحت رحمة سكيرزنى فإن حكمه على والده تغير فيما بعد فى عام ١٩٦١ عندما أدرك أن والده تصرف على النحو الذى تصرف به لأنه كان عاجزا وليس له حول ولا قوة وبسبب ادراك الأب لعجزه نراه يدافع عن تعاون حكماء اليهود المجريين مع الألمان وامدادهم بقوائم لتهجير بنى جلدتهم بسبب اقتناعه بأن اليهودى سوف يكون أكثر رفقا باليهود من النازى .

ويذهب إلمان إلى أن الشفاء من الهولوكست أمر أشد ما يكون عسرا ويعيب على العالم أنه نسى فظائع الهولوكست . والرأى عند هذا المؤلف أن سكوت الدول الغربية على جرائم النازيين ضد اليهود يجعل الغربيين غير مؤهلين أساسا لإصدار أية أحكام بصدد الهولوكست وضحاياه . ويختلف ريتشارد إلمان عن معظم روائيى الهولوكست فى أنه من الكتاب الأمريكان القلائل الذين يربطون بين أحداث

الهولوكست والسياسة التى تنتهجها اسرائيل . والغريب أنه يتأرجح بين الهجوم العنيف على الصهيونية وبين الاستمساك الشديد بها فهو أحيانا يتحدث كما لو كان كارها لليهود ومناهضا لاسرائيل والصهيونية .

والجدير بالذكر أن الكسى فى أعماقه غير مقتنع بيهوديته حيث يرى أنه «ببساطة لم يعد هناك يهود فى أى مكان» . حتى المؤلف نفسه يعتقد أن اليهودي الحق لم يعد له وجود الآن حيث أن وجوده اقتصر على الماضى فى زمان الكتاب المقدس والكسى الذى يكره نفسه يقول : «انها فرية قانونية إذا كنا لا نزال على استعداد للادعاء بأن كلمة يهودى تعنى ما كانت تعنيه على الدوام» . ويشعر الكسى من الناحية الروحية بالضيق وعدم الارتياح بسبب حاجة اسرائيل إلى أن تتصرف كدولة حديثة حتى يمكنها البقاء على قيد الحياة » .

ويقارن الكسى بين اسرائيل وحكومة ألمانيا النازية وبين الاسرائيليين والنازيين فيقول فى إشارة إلى حرب ١٩٥٦ :

«إننى مضطر إلى الإيمان أن أمثال تلك الأحداث (وليس الهولوكست) هى التى اقتضت من اسرائيل أن تقتل الفلاحين الأبرياء وتذبح العائلات المصرية فى بورسعيد وتمارس نشاط القناصة المستمر على الحدود ... نعم إلى جانب العسكرية والعنصرية والشوفينية التى تنمو وتترعرع فى هذا المكان . أحداث هنا وأحداث فى آسيا وحوادث قتل فى كل مكان . ولكن بما أن أول دولة عصرية عظيمة يتكون أفرادها من الضحايا فهل هناك غرابة فى أن نكون قد أنشأنا دولة عصرية خاصة بنا يصبح فيها الحاق الظلم والاضطهاد بالآخرين أسلوبا فى الحياة» .

ويثير الكسى قضية العلاقة بين اسرائيل والعرب عندما يعبر عن سخطه من أن يتحول اليهودى المظلوم إلى ظالم والمقتول اليهودى إلى قاتل :

« أوليست الدهشة تعترى الستة ملايين شهيد يهودي لو أنهم قاموا من قبورهم المكدسة ليشاهدوا الجرائم التى ترتكبها كل يوم؟»

والرأى عند المؤلف ريتشارد إلمان أن استعباد الزنوج الأفارقة لا يقل فى بشاعته عن المصير الذى لقيه اليهود فى الهولوكست . وهو لا يجد أى فرق بين قصف الحلفاء مدينة درزدن بالقنابل والقصف النازى لمدن الحلفاء بها . ويضيف أن القتلة الاسرائيليين يشبهون القتلة النازيين فى أنهم جميعا يضعون عصابات على عيونهم حتى لا يروا الحقيقة .

ورغم هجوم المؤلف ريتشارد إلمان على دولة اسرائيل وسياستها البربرية الظالمة تجاه العرب فإنه يدافع بحرارة عن انشاء وطن قومى لليهود . ولهذا تراه يستهجن الحرب التى تشنها الدول العربية ضد الدولة العصرية الوحيدة فى المنطقة كما يرى أن حق اسرائيل يخول لها أن تدافع عن نفسها فى ضوء ما حدث لابنائها فى الهولوكست والجهود المشتركة التى يبذلها العرب لتدميرها . ومع ذلك فإن المؤلف يقول عن الكسى ياجودا الذى ذهب ليعيش فى اسرائيل بعد نجاته من الهولوكست : «ياجودا ليس اسرائيلياً تماما . فهو لا يزال يعيش هناك على نحو مؤقت . إنه يقبل الأمان والحماية فيها بمرارة لأنه ليس لديه مكان آخر يمكنه أن يلوذ به .. ليس هناك مكان آخر يمكنه أن يعود إليه» .

والكسى يعتبر نفسه ضحية على الدوام فهو لم ينس نار الهولوكست التى اكتوى بها ويصف نفسه بأنه «نجا من الهولوكست ليستمر فى الحياة راغبا فى وعيه بذاته فى التأكيد على وشائج القربى التى تربطه بروث الاكوام ورماد الأجساد المحترقة» . وبذلك يكون الكسى قد نبذ تماما الأوهام التى داعبت خياله قبل اندلاع الحرب بالاندماج الكامل فى المجتمع المجرى . وتنتهى رواية «الثامن والعشرون من أيلول » كما بدأت بموضوع سعى اليهود فى فترة ما بعد الهولوكست إلى تأكيد هويتهم. يقول الكسى فى هذا الشأن أنه إذا كان لليهود وجود جماعى فإنه يعتبر نفسه جزءاً منه : «بكل تأكيد أنا واحد منهم . فأى معنى آخر تحمله حياتى . أنا يهودى فأى شيء آخر اسمى نفسى به غير كونى ضحية ؟»

ولكن يهودية الكسى ليست لها أدنى علاقة بالدين . وعندما يجابه المؤلف إيلمان مشكلة الايمان بالدين فى فترة ما بعد الهولوكست نراه يتقصى ردود فعل الأدباء اليهود له ومن بينها تفسير التاريخ على أساس وجود إله رحيم ولطيف بعباده. والاقتناع بوجود إله صامت يختبيء نفسه ويقف بمنأى عن الشر الإنسانى من أجل التأكيد على مبدأ الاختيار وحرية الإنسان . إن العذاب الذى تلظى اليهود بناره لا يمكن تفسيره إلا على أساس الإيمان بأن الله أخفى وجهه عن شعبه بنى اسرائيل مما يذكرنا بالمزمور رقم ٤٤ الوارد ذكره فى الكتاب المقدس بعنوان «صرخة شعب الله فى الضيق» . يقول المزمور مخاطبا الله :

افق . لماذا تنام يارب ؟
انهض . لا تخذلنا إلى الأبد
لماذا تحجب وجهك عنا
وتنسى ما نعانى من الضيق
نفوسنا تمرغت فى التراب
وبطوننا لصقت بالأرض
نقم لنصرتنا يارب
وأفدنا من أجل رحمتك .

وفكرة اخفاء الله وجهه عن بنى اسرائيل تتكرر كثيرا فى أدب الهولوكست لتوضح سلبية الله فى وقت الشدة أو كمؤشر على أن الله ينأي بنفسه من ممارسة الإنسان للشر . وفي فترة ما بعد الهولوكست يهاجم الكسى الله متهما إياه بانتهاك الميثاق الذى منحه لشعبه المختار ، الأمر الذى يذكرنا بصوت المزمور المبتهل فى حزن وانكسار : «هو وحده الذى خاننا والذى دنسنا ولم يصغ إلى صلواتنا وسخر منا وكافأنا بالقسوة . وسمعنا دون أن يصغى إلينا . وكان موجودا وغير موجود عندما احتجنا إليه وقادنا إلى الظلمة» .

ومخاطبة الله على هذا النحو المجدف ليست غريبة عن التقاليد الأدبية اليهودية ورغم أنها تستخدم لغة فيها تطاول على الله فإنها لا تعنى نبذ الله أو عدم الايمان به . ويخلص الكسى ياجودا إلى أن اختيار الله لشعب اسرائيل تعنى قدرة هذا الشعب على تحمل صمت الله الطويل وعدم الاكتراث بآلامه .. يقول ألكسى ياجودا في هذا الشأن :

«مهما ظن أى إنسان أنه مسئول ومهما كانت طريقة التنفيذ لما يفعل فإن الله في نهاية المطاف هو الذى يتحمل المسئولية . لقد وضعنا أنفسنا بين يديه وهو لم يخيب أملنا فيه . أقول لكم إن هناك طريقا مستقيما يصل بين انتهاك الميثاق والأفران في رافنزبروك وتريبلنيكا وأوسشفتز وستانلو والأماكن الأخرى وهو طريق تحفه على الجانبين عظام رفاقى اليهود البيضاء . وإنى أؤمن بأن هؤلاء اليهود هم أبناء إله اسرائيل . وهم فقط الذين لن يخذلوننى وإيمانى بهم يفوق ايمانى بدولتهم . هذه القلة العظيمة حيث كانت عيونهم تحملق مرورا بنا جميعا دون أن ترى الكارثة التى تشهد بأنهم شعب الله المختار . ونحن الأحياء الملعونين لأننا لا نزال على قيد الحياة نشهد المرة تلو الأخرى بحقيقة موتهم . ولهذا فنحن موجودون هنا» .

إن اليهود شعب الله المختار لا لأنهم سينالون الخلاص بل لأن الدمار والخراب سيصيبهم . ويرفض المؤلف ريتشارد إلمان تفسير الهولوكست من منطلق دينى أو لاهوتى . والرأى عنده أنه مادام الله قد أعطى الحرية للإنسان فإن من حقه أن يتسامح مع الجانى ويتخلى عن المجنى عليه . وطالما أن الإنسان يتحمل المسئولية وحده فلا غرو إذا رأينا الله يغيب عن التاريخ ولا يظهر نفسه للعالم حتى إذا كان موجودا . ولعل الكسى يؤكد وجود الله عندما يشهد على غيابه . وعلاقة الإنسان بالله وفقا للميثاق الذى أعطاه له الله علاقة تبدو غريبة فهي تحتم على الإنسان أن ينفذ أوامر الله ونواهيه حتى إذا نقض الله ميثاقه معه . وإيلول الوارد فى عنوان الرواية هو الشهر السادس من العام فى التقويم العبرى . وهو شهر التوبة والابتهالات من أجل الغفران أى أنه شهر اليمن والبركات والقرب من الله . حتى ألكسى ياجودا رغم

تجديفه وأفعاله السيئة يمكن إذا كان صادقا فى رغبته أن يقترب من الله ورواية «الثامن والعشرون من أيلول» مليئة بالاشارات إلى سفر أرميا فى الكتاب المقدس الذى ينذر بنى اسرائيل بخراب أورشليم ولكنه يعدهم فى الوقت نفسه بإعادة بنائها . وإذا كان شهر ايلول يرمز إلى توبة الخطاة فإنه يبشر أيضا بمجيء الخلاص من الشتات الجماعى بالعودة إلى أرض الميعاد فى اسرائيل .

ويدور الجزء الثانى من ثلاثية إلمان وهو بعنوان «يوميات ليلو» حول العاهة النفسية التي أصابت ليلو من جراء تعرضها للاستغلال العائلى والاستغلال الجنسى الذى يمثله اغتصاب ابن زوجة سكيرزنى لها . وإذا كان الجزء الأول والثالث من الثلاثية يصوران الهولوكست من واقع التجربة اليهودية الجماعية بكل أبعادها اللاهوتية والسياسية والاجتماعية فإن الجزء الثانى يركز على تشوه ليلو النفسى للأسباب التى أوردناها . وليلو رغم أنها ضحية ليست خالية من العيوب والمثالب فهى أنانية ونرجسية معقدة للغاية وتجمع بين المتناقضات والمفارقات فهى ملتهبة العواطف أحيانا وباردة أحيانا أخرى وعدوانية ووديعة فى آن واحد وتشك فى الآخرين وتثق بهم فى نفس الوقت . وهى تحتقر عمها نيومان ياجودا وتعرف أنه استولى على ثروتها . ولكنها طلبا للأمان تحتفظ برأيها فيه لنفسها . وهى تصيب نجاحا ملحوظا فى ادراكها لاندماجه الكامل فى الحياة المجرية ولكن تدرك أن هذا الاندماج لم يقيه من سوء معاملة النازيين له . وقد ظن فى سذاجته أن بلاءه الحسن فى الحرب العالمية الأولى وحصوله على النياشين والأوسمه سوف يشفع له لدى النازيين . ولكنه كان مخطئاً . وكما أسلفنا أخطأ نيومان ياجودا فى ظنه فى أوائل عام ١٩٤٤ أن يهود المجر لن يلقوا المصير البائس الذى لقيه يهود بولندا . وأيضا أخطأ هذا الرجل عندما اعتقد أن الفاتيكان سوف يوفر الحماية لليهود فى حين أنه ركز اهتمامه على أنقاذ المسيحيين واليهود الذين تحولوا إلى الدين المسيحى . كانت ليلو رغم تشويهها النفسى لماحة فقد أدركت أن جميع أفراد عائلتها مساجين فى ذواتهم وضحايا لشهواتهم وخيالاتهم . وحتى لا تغضب عمها وتحظى بحمايته لم تمانع فى قبول تحرش

ابن عمها الكسى الجنسى بها . وتتناول ليلو فى يومياتها سعى أحد أقربائها إلى الانضمام إلى مقاومة النازيين فى كرواتيا . والجدير بالذكر أن رواية الهولوكست الأمريكية نادرا ما تعنى باستجلاء انخراط بعض اليهود فى صفوف المقاومة ضد النازية . وبطبيعة الحال هناك فى بعض أجزاء الثلاثية استفاضة فى رواية بعض الأحداث فى حين نجد فى بعضها الآخر أختزالاًلها . وهذا واضح من معالجة موضوع ترحيل اليهود عن بكرة أبيهم فى مدينة كريج فرواية «الثامن والعشرون من ايلول» تستفيض فى وصف جو القلق والتوتر والاشاعات التى لا تنتهى الذى عاش فيه يهود كليج . فى حين أن رواية «يوميات ليلو» تحدثنا عن هذا الموضوع بايجاز فتخبرنا أن الأوامر النازية صدرت بتهجير اليهود فى غضون ثمانية وأربعين ساعة . وأمام عملية الترحيل الجماعى لليهود وقعت ليلو مشدوهة ولا تصدق ما يحدث أمام عيينها لأنه بات من الواضح أن الحرب الثانية كانت تقترب من نهايتها وأن ساعة مجيء الحلفاء المنتصرين قد دنت . ولكنها سرعان ما استعادت هدوءها وفهمت الموقف على حقيقته وهى أن الحكومة المجرية ضالعة مع النازيين لأنها وافقت على الخطة التى رسموها لتهجير اليهود الأمر الذى سيعرض هؤلاء اليهود لعمليات السلب والنهب . وتدل الفقرة التى صدرت بها ليلو يومياتها والتى استقتها من الاصحاح الخامس من سفر أرميا على أنها تفهم الخداع النازى على حقيقته وأوهام اليهود على حقيقتها. تقول الفقرة : «فى أرضنا عجب عجاب . الأنبياء يتنبأون زورا . الكهنة يجمعون ما تصل إليه أيديهم . وشعبى راض بهذه الأمور فماذا تفعلون لتضعوا حدا لها ؟»

واللافت للنظر أن الاشارات إلى النازيين فى الثلاثية ليست كثيرة بسبب تحالف المجر مع هتلر ومن ثم كانت على أتم استعداد لتنفيذ المخططات النازية عن طيب خاطر .

ورغم نفاذ بصيرة ليلو فإنها ترتكب نفس الخطأ الذى ارتكبه الكسى عندما أنحت باللائمة على بنى جلدتها الضحايا وبرأت ساحة النازيين الجناة . فقد ظلت لفترة تحمل عائلتها مسئولية المحنة التى تكابدها .

وتتدهور صحة ليلو ويزول عنها جمالها فيفقد ميكلوس مغتصبها الاهتمام بها . ويرى سكيرزنى تاجر الخمور المجرى المحتال أن من مصلحته أن يحتفظ بليلو ويحافظ عليها لأنها سوف تشهد لصالحه إذا ما دخلت قوات الحلفاء المجر وسوف تشرح لجيوش التحرير انه كان كريما مع اليهود ورفيقا بهم . وتنتهى «يوميات ليلو» بأبتهال وصلاة مجدفة ومارقة فهى تخاطب الله قائلة :

« يا إلهى العزيز ويا قاتلى العزيز . لتكن مشيئتك»

وليأت ملكوتك

يا أبانا وسيدنا

أعطنا اليوم الجوع الذى نعانى منه كل يوم

يا أبانا الذى فى السموات

صب لعنتك علينا واحتقارك لنا ولتقبلنا وتخوننا » .

مثل هذه الصلاة المجدفة كثيرا ما نجدها فى أدب الهولوكست . هذه الصلاة المنحرفة والمقلوبة من جانب ليلو تذكرنا بصلاة مماثلة تدين الله على موقفه السلبى من فظائع الهولوكست التى نجدها فى رواية أندريه شوارتز بارت «آخر العادلين». وتقع أحداث الجزء الثالث من الثلاثية وهو بعنوان «الحساب دفتر اليومية الخاص بنيومان ياجودا» فى مدينة كليج بالمجر عام ١٩٤٤ غير أن رواية هذه الأحداث تأتى بعد وقوع الهولوكست وليس قبله أو أثناءه كما هو الحال في الجزءين الآخرين من الثلاثية . فضلا عن أن وقائع هذه الرواية تتضمن تحليلا اقتصاديا واجتماعيا لمؤرخ خاص تجربتى الحربين العالميتين الأولى والثانية . ويتضح من الرواية مقدار ما يمارسه نيومان رب عائلة ياجوداه من غش وتدليس فهو يخدع زوجته ويقيم علاقة غير مشروعة مع عشيقة بحرية . وهو يخدع ليلو والمتعاملين معه فى مجال العمل . كما أنه يخدع نفسه بأنه واحد من المستنيرين وثمرة من ثمرات الحضارة الأوربية التى سوف تقضى

استنارتها على معاداة السامية . ولا شك أن أحد أبرز عيوبه هو تجاهله لنوايا النازيين الشريرة تجاه يهود المجر . ومن المفارقة أنه ينجح رغم هذا فى تشخيص طبيعة العلل الاقتصادية التى عانت منها أوربا فى الثلاثينات وأثر هذه العلل فى ظهور النازية والفاشية ، أى فى ظهور الهولوكست . والرأى عنده أن أوربا فى عقد الثلاثينات كان لديها من الطعام والمال والملابس ما لم يتوفر لها من قبل أى أن هذه الوفرة جاءت فى وقت سادت فيه البطالة والجوع والحرمان . ورغم حصافة نيومان فى فهم آثار الكساد العظيم فى ظهور النازية فإنه عجز أن يفهم الخطر الداهم الذى يتهدده وعائلته مما جعله عاجزا عن اتخاذ قرار الهجرة من المجر فى الوقت المناسب . ومما يزيد من تزقه أنه لم يكن غافلا عما أصاب يهود بولندا من دمار ويتوهم أن خلاص اليهود من عذابهم سوف يأتى على يد قوات الحلفاء الظافرة ورغم أن نيومان تلقى تعليمه العالى فى جامعة فيينا بالنمسا فإن الطبقات المتعلمة فى المجر لم تقبل اندماجه فيها الأمر الذى أقنعه أخيرا وبعد فوات الأوان أن متعلمى المجر – مثل جهلائهم – يتسمون بالعداوة ضد السامية . يقول نيومان فى هذا الصدد :

«رفض الآخرون قبولى كواحد منهم . لقد أحببت نفس الأشياء التى أحبوها . ومع ذلك فقد كنت موضع شكهم . شخص غريب عنهم يثير الاحتقار . كم كنت مخطئا عندما ظننت أن الوضع سيكون مختلفا واعتقدت أننى قد أهرب من حكم السفهاء والأوغاد الأشرار بسبب مواهبى وذكائى . وفى قاعة المحاضرات التى كنت أحضرها باهتمام وانتظام يكاد يصل إلى حد العقيدة الدينية سمعت أساتذتى يتفوهون بعبارات معادية للسامية على نحو دينى كما لو كانت الكراهية جزء لا يتجزأ من مناهج القانون والتاريخ والفلسفة والفيزياء : أما الأساتذة الذين لم يعرفوا الكراهية وكانوا مهذبين ويعارضون مثل هذه التصرفات فقد كان الطلبة والمسئولون يعتبرونهم بوهيميين أو أوغادا أو راديكاليين خطرين ...»

وعبر نيومان ياجوداعن سعادته بالقبول المحدود الذى سمح له به المجتمع النمسوى . ومن أجل اندماجه المحدود فيه كان نيومان على أتم استعداد لأن ينسى

هويته اليهودية ويتغافل عنها . ويرى المؤلف ريتشارد إلمان أن العداء للسامية التى سادت المجتمع النمساوى فى الفترة من ١٩١٠ حتى ١٩١٤ كان تقليدا راسخا يضرب بجذوره فى تربة الفكر الأوربى كما يرى أن هذه العداوة للسامية هى التى مهدت الطريق لظهور الهولوكست والابادة الجماعية لليهود . وأيضا يشير المؤلف فى موضع آخر إلى مجهودات الفاتيكان لإنقاذ اليهود الذين اعتنقوا النصرانية دون أن يأبهوا باليهود الذين ظلوا على دينهم .

ويتسم الجزء الثالث من الثلاثية «الحساب» بأنه أكثر ايغالا فى التوثيق والتسجيل المفصل من الجزءين الأول والثانى . ويتناول الجزء الثالث التجارب الشخصية التى خاضها نيومان فى عقد الثلاثينات وأوائل الأربعينات . وجماع هذه التجارب يلخص تاريخ المجر فى أوائل القرن العشرين . فنحن نعرف من رواية «الحساب» أن السبب الحقيقى فى تحالف المجر مع ألمانيا هو رغبتها فى ضم المزيد من الأراضى إليها . ولكن هذا الغزل السياسى توقف عندما أدركت المجر طموحات ألمانيا التوسعية وسعيها إلى السيطرة على مقدراتها وعجزها عن الافلات من قبضة النازيين عليها . ولضمان خضوع المجر لها عمدت ألمانيا إلى تعيين مواطنيها فى جميع المراكز الحساسة بهدف إبادة اليهود المجريين فى نهاية المطاف . غير أن السياسة النازية الرامية إلى إبادة اليهود عرفت فترات من الأمان النسبى لليهود قبل أن يصل البطش إلى ذروته .

ويعرض نيومان باجودا لمدى استشراء الرشوة والفساد بين المجريين فى فترة الحرب العالمية الثانية . وعندما اتضح للحكومة المجرية فى عهد هورثى أن ألمانيا تشك فى أن المجر سوف تنشق عليها وتعقد اتفاقا منفصلا مع الحلفاء خشيت هذه الحكومة من اجتياح القوات النازية لها . ومن ثم آثرت أن تضع نفسها طوع يد الألمان ورهن اشارتهم وتنفيذ سياستهم فى التنكيل باليهود وتسخيرهم فى مجالات العمل ومطالبتهم بتسليم كل ثرواتهم وانتاجهم من السلع واستبعادهم من الوظائف والأنشطة الاقتصادية . وبعد ١٩ مارس ١٩٤٤ زادت القيود التى فرضها النازيون على اليهود

فحظروا اشتغال غير اليهود فى بيوت اليهود وحدوا من حرية حركة اليهود وفرضوا عليهم منع التجول ثم صدر الأمر بتجميعهم فى الجيتو تمهيدا لترحيلهم ثم إبادتهم وبسبب الاستغلال النازى تسوء ظروف يهود المجر الاقتصادية ويتمثل هذا فى تدهور ظروف نيومان المعيشية . ومنظر اليهود الذين أمرت السلطات بتجمعهم عن بكرة أبيهم فى ميدان عام يمزق نياط القلب . وتجميعهم على هذا النحو كالسوائم وقطعان الماشية يجعل نيومان باجودا يفكر كيف أن مصيره كان سيختلف لو أنه اعتنق الصهيونية أو الاشتراكية أو قرر الهجرة إلى الولايات المتحدة بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى بدلا من استمراره فى البقاء فى المجر ومساندته للبورجوازية المجرية ومحاولته الاندساس فى صفوفها .

ويعتبر ويتشارد إلمان من الكتاب الأمريكان الذين ربطوا معالجتهم لموضوع الهولوكست بالدعوة إلى الصهيونية واقامة دولة اسرائيل المستقلة. ويحذو إلمان حذو الشخصيات اليهودية العلمانية التى رسمها آي.ب. سنجر فى مؤلفاته والتى تؤمن بأن خلاص اليهود لن يتحقق إلا عن طريق انشاء دولة مستقلة لهم . فلا غرابة أن نرى نيومان باجودا يعتنق الصهيونية ويكتب عن الحاجة إلى انشاء وطن قومى لليهود بعد أن كان يناصر القومية المجرية ولكن نيومان لم يقدم على الهجرة إليه لعدة أسباب منها كبر سنه واعتياده على الحياة الأوربية . ولهذا يكتفى نيومان بالإيمان بالصهيونية على المستوى الفلسفى ويحاول إقناع ابنائه بالهجرة من أوربا ولكنه يشترط عليهم فى وصيته عدم وراثة أى شيء من ثروته إلا إذا هاجروا إلى فلسطين حيث يعيشون كيهود فى دولة يهودية . وأخيرا ينبذ نيومان تفاؤله وأحلام يقظته التى جعلته فى يوم من الأيام يعتقد أن التنوير الأوربى لن يسمح باضطهاد اليهود وأدرك نيومان متأخرا أن الهولوكست ليس ظاهرة نازية فحسب بل وليد قرون متعاقبة من عداوة المسيحية للسامية .

٦ - ايزاك باشفيز سنجر (١٩٠٤ - ١٩٩١)

Singer, Isaac Bashevis

ولد ايزاك باشفيز سنجر (وهو ابن حبر يهودي) في بولندا يوم ١٤ يوليه ١٩٠٤ . وتلقى تعليمه الأولى في معهد الدراسات اللاهوتية في الفترة من ١٩٢٠ حتى ١٩٢٢ . ثم هاجر إلي الولايات المتحدة عام ١٩٣٥ وتجنس بالجنسية الأمريكية عام ١٩٤٣ وفي الفترة من ١٩٢٣ حتى ١٩٣٣ اشتغل كمصحح ومترجم في وارسو . وفي عام ١٩٣٥ أصبح محررا لجريدة يهودية تصدر في نيويورك بعنوان «جيويش دايلى فوروارد » اعتاد سنجر التأليف بلغة البيديش ونشر العديد من الروايات والقصص والمسرحيات . وتقع أحداث رواياته وقصصه بين يهود بولندا وألمانيا والولايات المتحدة . فضلا عن أنه ألف كتبا للأطفال نال عليها بعض الجوائز . وحصل سنجر على جائزة نوبل للآداب في عام ١٩٧٨ . وفي عام ١٩٦٦ نشر سيرة حياته بعنوان «في بلاط والدي» . وفيما يلي قائمة بأعماله.

رواياتــه :

- «عائلة موسكات» (مترجمة إلى الانجليزية) عام ١٩٥٠ .
- الشيطان في جوراى . (مترجمة إلى الانجليزية) عام ١٩٥٥ .
- «ساحر لوبلين» (مترجمة إلى الانجليزية) عام ١٩٦٠ .
- «العبد» (مترجمة إلى الانجليزية) عام ١٩٦٢ .
- «الضيعة» (مترجمة إلى الانجليزية) عام ١٩٦٧ .
- «الممتلكات» (مترجمة إلى الانجليزية) عام ١٩٧٠
- «الأعداء : قصة حب» (مترجمة إلى الانجليزية) عام ١٩٧٢ .

قصصه القصيرة :

- «جميل المغفل وحكايات أخري» (ترجمة) ١٩٥٧
- «سبينوزا فى شارع السوق وقصص أخري» (ترجمة) ١٩٦١
- «الجمعة القصيرة وحكايات أخري» (ترجمة) ١٩٦٤
- «قصص قصيرة مختارة» (ترجمة) ١٩٦٦
- «الاجتماع وحكايات أخري» (ترجمة) ١٩٦٨
- «صديق كافكا وحكايات أخرى» (١٩٧٠)
- «تاج من الريش وحكايات أخري» (١٩٧٣)

مسرحياته :

- «شلميميل الأول» (١٩٧٤)
- «ينتل : ولد يشيفا» (١٩٧٤)

إلى جانب العديد من الأعمال الأدبية الأخرى .

الهولوكست فى أدب سنجر :

لم يمر كاتب اليديش البولندي المعروف أيزاك باشيفيز سنجر بتجربة الهولوكست على نحو مباشر ولكن عائلته التى تركها فى بولندا اكتوت بناره . وأحداث أدب سنجر الروائى لا تقع فى معسكرات الاعتقال ولكنها تعيد إلى أذهان العالم ما كابده اليهود من عذاب وتحتفظ بتقاليدهم وعاداتهم وبلغة اليديش نابضة بالحياة . عالج سنجر فى أدبه مجزرة تشيلينكى التى حدثت فى بولندا فى القرن السابع عشر والتى لا تختلف من حيث الجوهر عن الهولوكست النازى . يقول سنجر أن الناجين من الهولوكست على وجه الخصوص يعتبرونه تجسيدا للتاريخ ورمزا له . فالمرء

فى فترة ما بعد الهولوكست يعيش فى عصر جديد تتجدد معالمه بأحداث الهولوكست . ويخلو أدب سنجر من التسجيل والتوثيق ومن ذكريات الماضى التى ترد على هيئة ومضات على أذهان شخصياته الروائية . ورغم ذلك فإن أدبه يضيف بعدا تاريخيا ولاهوتيا هاما إلى رواية الهولوكست الأمريكية عن طريق ابراز العلاقة بين ظهور النازية وعداوة الغرب المسيحى التقليدية لليهود . كما أن أدبه يصور أفدح الكوارث التى لحقت باليهود فى الشتات ويتقصى المغزى اللاهوتى الذى يتضمنه أدب الهولوكست .

وتربط روايته الباكرة التى ألفها عام ١٩٥٠ بعنوان «عائلة موسكات» بين الأحداث العائلية والتاريخ اليهودى بوجه عام . كما أنها تتبع التفكك الداخلى الذى أصاب يهود بولندا نتيجة ظهور حركة التنوير اليهودى والمراحل الأولى من دمار اليهود على أيدى النازيين . ويختم الراوى لأحداث «عائلة موسكات» بتصوير القصف الألمانى لمدينة وارسو بطريقة تغور فى الذاكرة ولا تمحى منها فبطل الرواية واسمه أسا هيشيل يستقيظ على أزيز الطائرات وقرقعة البنادق الآلية وصوت ارتطام القنابل وضجيج المدافع المضادة للطائرات وتعكس الرواية بقوة مزيجا من صور الحرب المرئية وأصواتها المسموعة ويشاهد القارئ البيوت والمحلات والمصانع وقد اشتعلت فيها النيران وتناثرت محتوياتها وتبعثرت فى الشوارع . ويصور سنجر فظاعة الهولوكست فى اطار كونى مضيفا إليه دلائل تاريخية . ويقارن سنجر بين أفكار أسا حول الدمار الشامل وبين خسوف الشمس وتوقع مجيء المسيح المخلص . حتى السماء التى يصفها تمتلئ بأعمدة ودخان الكبريت الأصفر .

ونحن نرى في أصل الرواية المكتوب بلغة الييديش قبل ترجمته إلى الانجليزية تصويرا مطبوعا ومحفورا مثل الجرافيك لعائلة هلكت أثناء القصف تضم طفلا تدلت أحشاؤه من جسده كما لو كانت تتدلى من وعاء . وينتقل المؤلف انتقالا سريعا من الحياة الأسرية العادية إلى فظاعات الحرب واصفا تراكم جثث الموتى لدرجة تحول دون نقلها .

ومن الموضوعات التي يعالجها سنجر في رواياته اللاحقة عن الهولوكست المقارنات بين هتلر وأعداء اليهود عبر التاريخ وتأملات المؤلف الفلسفية حول طبيعة هتلر الشريرة وطبيعة الشر الموجود في الكون وطبيعة الله في كون مليء بالشر . وينسب أسا الشر إلى الذات الألهية . تقول الرواية : «كان هتلر في نظر سبينوزا جزءاً من الربوبية وحالة من حالات المادة الخالدة . وكل فعل من أفعاله تحكمه سلفا قوانين إلهية .. وكل فعل قاتل من أفعال هتلر هو جزء وظيفي في هذا الكون . ولو أن المرء أراد أن يكون منسجما مع نفسه فعليه أن يوافق أن الله شرير أو أن العذاب والشر هما الخير بعينه والجدير بالذكر أن الترجمة الانجليزية للرواية تنتهي بعبارة عدمية تقول : «الموت هو المسيح . هذه الحقيقة التي لا يماري فيها» .وهي نهاية واضحة اليأس والتشاؤم بعكس نهاية أصل الرواية المكتوب بلغة اليديش .

وتشتمل النسخة الأصلية من رواية «عائلة موسكات» المكتوبة باليديش علي احتجاج على فشل الله في الالتزام بميثاقه مع بني اسرائيل وعلى صلواتهم من أجل الخلاص على يد المسيح المخلص . وعندما قام النازيون بمحاصرة وارسو اجتمع المصلون اليهود كي يرددوا ابتهالاتهم التقليدية ويشكروا الله وينوحوا على موتاهم . وأدرك واحد من هؤلاء المصلين ممن وضعوا كل ثقتهم في انتشار حركة التنوير أن هذا التنوير لن يجدي نفعاً وأن «داروين» وسبنسر لن يستطيعا تقديم العون له . «ويصلي آخر بمرارة قائلا : «كل شيء كان خادعا : الدين والتطور والتقدم بل الانسانية نفسها» . وفي اليوم التالي من تلك الأيام اليهودية المباركة استمرت الطائرات النازية في قصف المناطق التي يسكنها اليهود وامتلأ المعبد بالمصلين وعلق الحبر اليهودي على الأحداث الجارية وعلى طبيعة الخير والشر بقوله إن الله انسحب من شئون البشر . وشرح الحبر اليهودي هذه الفكرة قائلا : «من أجل أن يمنحنا حرية الاختيار جعل اللامحدود نفسه محدودا ومن أجل حرية الاختيار خلقت قوى الشر» . ويبتهل المصلون اليهود إلى الله أن يضع حدا لعذابهم . ويتطلع اليهود في أدب سنجر إلى تدخل الله لانقاذ شعبه من الهلاك . ورغم أن الرواية تنذر بقرب حلول الكارثة فإنها تبشر بالأمل والرجاء

فاليهودى الحق لا يعرف اليأس : «إن الأمور بطبيعة الحال تقطر بالمرارة كما أن اليهود فى خطر ... والسماء تمنع اليهود من الاستسلام قبل الحصول على الخلاص» . وإذا كان الشيطان يريد لنا الحزن فلينفجر من الاحباط لأننا سنحتفظ بالأمل» ولكن هذا الأمل يعبر عن موقف الحبر اليهودى الذى يؤم بنى اسرائيل فى الصلاة على عكس شخصية أسا الروائية التى تدرك أننا نعيش فى عالم تحكمه القوة . وينتقد أسا الكتاب المقدس ويحاول الزراية بالأنبياء . وكان رد فعله المبدئى أن يقذف بالكتاب المقدس على الأرض . ولكنه ما يلبث أن يغير فكره ويطبع قبلة عليه تقديرا من جانبه لجلال الأخلاق اليهودية وعظمتها . ومع استمرار القصف لا يجد اليهودى ملاذا غير العودة إلى الكتاب المقدس وأفكار الآباء والأجداد ثم يرسم لنا سنجر صورة لغابة يجتمع فيها الصهاينة استعدادا للهرب إلى اسرائيل طلبا للنجاة الأمر الذى يدل على أن النسخة الأصلية من الرواية المكتوبة بلغة اليديش تعبر عن الرجاء فى امكانية الخلاص فى حين أن الترجمة الانجليزية لهذه الرواية تنتهى نهاية عدمية ومتشائمة . ويرتفع صوت موسى مدويا يبشر بالرجاء قائلا : «انهضوا ولا تخافوا إن نصركم سوف يكون نصرا نهائيا وسوف يأتى المسيح إليكم» .

وفى عام ١٩٧٢ أصدر سنجر أول رواية له تقع أحداثها فى أمريكا وليس فى بولندا كما جرت عادته وهى بعنوان «الأعداء : قصة حب» . والرواية تعالج موقف أحد الناجين من الهولوكست البولندى وهو يعيش فى مأمن فى أمريكا . ولهذا نرى سنجر يتناول الهولوكست بطريقة غير مباشرة . وسنجر هنا يختلف عن الروائى ادوار والانت والروائية سوزان فرومبرج شايفر اللذين يتحدثان عن الهولوكست من واقع التجربة الشخصية كما أن شخصياته الروائية تختلف عن شخصيات ليسلى ابشتين الروائية التى عانت من قسوة الحياة فى الجيتو قبل ترحيلها إلى معسكر أوسشفتز للاعتقال . ونقطة الخلاف بين هرمان برودر بطل رواية «الاعداء : قصة حب» التى ألفها سنجر وروايات كتاب الهولوكست الأمريكان الآخرين أن برودر يقاسى من الحرمان والقلق ولكنه يعيش فى مأمن دون أن يكتوى بنار الجيتو ومعسكرات الاعتقال

ودون أن يكتوب بنار المحارق النازية كما حدث مع يهود بولندا ويرودر يستمد معرفته بالهولوكست من المعلومات العامة المتاحة للجميع ومن تقارير بعض المعارف الذين جربوا بأنفسهم وحشية المعاملة النازية .

وهناك سمة مشتركة تجمع بين جميع روايات الهولوكست الأمريكية حيث أنه من البديهى أن يؤثر الهولوكست فى الحياة العامة والخاصة للناجين منه فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية . ومن الطبيعى أن نجد أن اليهودى الناجى من الهولوكست بحكم معرفته الشخصية بفظائعه يختلف عن أقرانه اليهود الذين يعيشون فى أمريكا دون أن تكون لهم أية دراية أو تجربة بالهولوكست . ويعتقد برودر أن النازيين قتلوا زوجته وأطفاله . ورغم أن هذا الرجل يعيش فى أمان فى نيويورك فإنه من الناحية النفسية لا يزال يجتر ذكرياته عن العذاب الذى قاسى منه فى بولندا . فهو لايعدو أن يكون شيئاً يكتب ورغم موقفه المتأرجح من الدين فإنه يكسب قوته عن طريق اعداد المقالات والوعظات التى يلقيها حبر يهودى أمريكى . ويتعرض ذهن برودر للاضطراب والتشويش فيستيقظ ذات يوم وقد اختلطت عليه الأمور فلم يعد يعرف على وجه اليقين أين هو . هل لا يزال يختبىء فى حجرة القش أعلى السطح أم أنه يعيش مع اليهود فى معسكر المرحلين أم أنه لا يزال يعيش فى أمان فى أمريكا . وتنتاب برودر نوبات رعب مروع وهو يتذكرالثلاثة أعوام التى قضاها فى غرفة القش فوق السطوح والفزع الهائل الذى أصابه حين جاء الجنود النازيون للبحث عنه تحت أكوام القش مستخدمين سناكى البنادق للتفتيش عنه . وأيضا تذكر الجوع والعطش والخدر الذى أصاب يديه وقدميه والحمى التى اعترته نتيجة تعرضه للحشرات وعضات القوارض والظلام الدامس الذى كان يعيش فيه طوال فترة اختبائه . ويشعر هذا الرجل بالذنب لنجاته من الهولوكست ولأنه لم يقاسي ما قاس منه بنو جلدته فى الجيتو ومعسكرات الاعتقال . ولهذا نراه فى قلب الأمان الأمريكى يتعمد أن يعذب نفسه ويضعها فى مواقف أليمة ومثيرة للقلق حتى يكابد وهو فى نيويورك العذاب الذى كان من المفترض أن يكابده فى فترة وجوده فى بولندا .

وبالنظر إلى هروب برودر من قبضة النازيين واختبائه فقد كان يعيش باستمرار فى خوف وقلق من القاء القبض عليه والتفتيش الدائم عنه . وهو يتصور فى قلقه أن أمريكا قد تتعرض للغزو والدمار النازى مثلما حدث لبولندا . ورغم أن أمريكا بلاد آمنة يعيش فيها اليهود أحرارا فإنه بعد انتهاء الحرب يعد نفسه لليوم الذى يقوم فيه النازيون بغزو أمريكا ويبحث عن أفضل مخبأ يمكنه أن يلوذ به ويحتمى فيه .

ويتميز أبطال روايات سنجر الذين تعرضوا للهولوكست عن كثير من أبطال روايات الهولوكست الأخرى باستغراقهم فى خيالات الانتقام . ويشطح الخيال ببرودر فيتصورأنه سوف يقاوم النازيين بشدة ويجهز نفسه فى حالة غزوهم لأمريكا لحمل مسدس أو مدفع رشاش يقتلهم به من مخبئه بحيث يبقى رصاصة واحدة فى السلاح كى يقتل بها نفسه . وصور له خياله الجامح أنه قادر على تدمير جيش العدو بأكمله . وقبل خلوده للنوم تترى الخيالات على ذهنه فيتصور نفسه وهو يلقى القنابل الذرية على أعدائه ويدمرهم بصواريخ غامضة كما يصور خياله ان بإمكانه أن يرفع بمفرده اسطولهم من المحيط ويضعه بالقرب من الفيللا التى يسكنها هتلر. كما أن خياله الشاطح يصور نفسه وهو يقدم إلى المحاكمة جميع النازيين الذين أبادوا اليهود . ويزيد من هياج ذكرياته وخواطره الأنباء والتقارير المتواترة عن بعض اليهود الناجين من الابادة فى معسكرات الاعتقال والعمل النازية والروسية . والرأى عند برودر أن الهولوكست ليس سوى استمرار وتصعيد لعمليات قمع اليهود واضطهادهم عبر التاريخ . والهولوكست فى نظره لا يقتصر على الفترة النازية بدليل أن أعمال العنف المناهضة للسامية اندلعت فى بولندا عقب انهزام ألمانيا النازية ومحاولة بقية اليهود الناجين من الابادة العودة إلى بيوتهم فى الأراضى البولندية . ومن دلائل استمرار المشاعر المعادية لليهود فى أوربا وقبرص بعد الحرب العالمية الثانية منع هؤلاء اليهود الناجين من الهجرة إلى فلسطين . والذى أعاق رجوع برودر إلى موطنه الأصلى فى أوربا بعد الحرب العالمية الثانية هو عودة النازية الجديدة إلى الظهور ومحاولة التغطية على الجرائم النازية . ويشتد سخط برودر على العالم لفشله فى تقديم كثيرين من

مجرمى الحرب النازيين إلى المحاكمة وعفوه عن ثلاثة أرباع مليون ألمانى باعتبارهم من صغار النازيين . وهو يأسى لأن ذكرى الهولوكست أخذت فى الأفول من العالم . وهو يرفض التصالح مع ألمانيا ويعتبر أن التعويضات الألمانية لا يمكنها تعويض الجرائم النازية . ومن الواضح أن المؤلف سنجر يستخدم شخصية برودر للتعبير عن نواحه لأن ضحايا الهولوكست لا يزالون يتعذبون فى حين يقف العالم متجاهلا عذابهم . ويعتبر سنجر ألمانيا النازية رائدة فى تعليم العالم كله ضرورة اللجوء إلى الابادة الجماعية لدوافع سياسية مثلما نجد فى يوغندا وبيافرا وفيتنام وكمبوديا كما أن ألمانيا النازية علمت حكومات العالم استخدام العنف كأسلوب للحكم .

ويذهب سنجر إلى أن الهولوكست سوف يترك بمرور الوقت أثرا مدمرا فى نفوس اليهود أكثر من أى وقت مضى . ومن الشخصيات الروائية التى عانت معاناة شديدة من الهولوكست شخصية ماشا عشيقة برودر التى اكتوت بنار الجيتو ومعسكرات الاعتقال . والجدير بالذكر أن الهولوكست نجح فى اصابتها بالشلل النفسى إلى جانب اصابة وجهها ببعض الندوب والجروح . حتى معاشرته الجنسية لها من نوع غريب فهى تذكره دائما بمآسي الجيتو ومعسكرات الاعتقال الأمر الذى يجعله يجتر على نحو غير مباشر فاجعة الهولوكست ويتجرع مرارته بالنيابة عما قاسى بنو جلدته منه بالفعل .

ويقدم إلينا سنجر فى روايته «الأعداء : قصة حب » شخصية تامارا زوجة برودر الأولى التى تمزقت نياط قلبها لأنها رأت ابناءها يموتون تحت نظرها دون أن تستطيع أن تفعل من أجلهم شيئاً . وفى أعقاب الحرب العالمية الثانية انتابتها الهلوسات حيث لم تفارقها صور والديها الميتين وأبنائها الأموات . وتامارا لا تقل فى تشوهاتها النفسية الناجمة عن الهولوكست عن برودر زوجها . لقد رأينا برودر يعبر عن قلقه بسبب عدم اكتراث العالم بما كابده اليهود من عذاب وفشل قوات الحلفاء فى معاقبة مجرمي الحرب الألمان . أما تامارا فقد ركزت اهتمامها على استجلاء تأرجح اليهود بين الايثار والأثرة فى ظل الاحتلال النازى فقد جند النازيون البعض منهم فى

جهاز الشرطة كى يطاردوا بنى جلدتهم ويتعقبوهم فى مخابئهم ويقتادوهم إلى معسكرات الموت . غير أن تامارا تذكر فى المقابل بعض صور التضحية والفداء التى قدمها بعض اليهود الذين اقتطعوا جزءا من نصيبهم الهزيل من الطعام كى يعطوه إلى من هم أكثر حاجة إليه من بنى جلدتهم . وفوق كل هذا وذاك أن تامارا تؤمن بأن التاريخ والمذكرات والوثائق التى تتناول الهولوكست لا تكفى لإعطاء صورة لمدى بشاعته لأن ضحايا الهولوكست ينسون بمرور الوقت جانبا من عذابهم .

قلنا إن برودر كانت له عشيقة زميلة له فى الاضطهاد اسمها ماشا نجح الهولوكست فى تشويهها نفسيا وتخريبها من الداخل . وكانت لهذه المرأة أم تدعى شفراه بواه زاد الهولوكست من ورعها وتقواها واستمساكها بالدين واحترامها للحياة . وأصرت هذه الأم على أن ترتدى على الدوام ملابس الحداد احياء لذكرى أقاربها الذين ماتوا فى الجيتو ومعسكرات الاعتقال . وفى حين كان برودر يحفل بالطعام الوفير أمسكت شفراه نواه عن الطعام تكريما لبنى جلدتها الذين تضوروا جوعا فى معسكرات الاعتقال وعرضوا حياتهم للخطر من أجل قطعة خبز أو حبة بطاطس . كما أنها كانت تحرص على قراءة صحافة اليديش لمتابعة أسماء الناجين من الموت وتستبدل جرايتها من الطعام مقابل الحصول على كتب عن معسكرات الاعتقال في ما يداتيك وتريبلينكا وأوسشفتز .

ولا يكتفى سنجر بتصوير التشوهات البدنية والنفسية التى أصابت اليهود الضحايا من جراء الهولوكست بل نراه يتتبع ردود الفعل الدينية الناجمة عنه من جانب الناجين من الموت . وهى نفس ردود الفعل اللاهوتية التى نجدها عند ثلاثة من كتاب الهولوكست هم ريتشارد روبشتين وأميل فاكهايم وإليزار بروكوفيش . وشخصيات سنجر الناجية من الهولوكست ترفض تفسيره على أنه عقاب ربانى عن الخطايا . وتتأرجح هذه الشخصيات بين اليأس والرجاء فنجد فى أدب سنجر الروائى ترديدا للرأى الذى يذهب إليه روبشتين ومفاده ان رد الفعل الوحيد لمعسكرات الموت هو نبذ الايمان بوجود الله أو الاصرار على اعادة تأكيد وجود الله والدين اليهودى مثلما نجد

عند إميل فاكنهايم أو قبول فكرة إليزار بركوفتش بأن الهولوكست يدل على أن الله أخفى وجهه عن اليهود وأن الهولوكست فريد من نوعه من حيث حجم الدمار الهائل ولكنه ليس فريدا من نوعه من حيث تصوير الحيرة اللاهوتية التى تكتنف الايمان بالدين .

وفى كثير من الأحيان تعكس شخصيتا برودر وعشيقته ماشا فى رواية «الأعداء : قصة حب» إيمان روبشتين بخلو الكون من أى معنى وخلوه أيضا من أى تدبير إلهى أو حكمة إلهية كما تعكس هاتان الشخصيتان ايمانه بأن الحياة الانسانية تخلو من الغاية أو الهدف . ونحن نرى أن ماشا التى لا تنتهج نهج المؤمنين التقليديين الذين تتهم الله دون مواربة بأنه يتعاون مع النازيين وبأنه إله جزار . وهى ترفض أية أفكار تفيد بأن العذاب يعود على الانسان بالتجدد أو الولادة من جديد . والرأى عندها أنه حتى لو كان هدف الله من عذاب اليهود هو تثبيت ايمانهم به وتعميق تفانيهم فيه فإن هذه الغاية لم تتحقق لأن النازيين كادوا أن يبيدوا شعب اسرائيل حتى اليهود الذين شاءت ظروفهم النجاة من عذاب الهولوكست لم يستفيدوا مطلقا من هذا العذاب باستثناء فئة قليلة للغاية . وتتشابه ماشا مع برودر فى ايمانه بأن التاريخ عبارة عن دورة متصلة الحلقات من الاضطهاد ولكنها تختلف عن برودر فى أنها استنكرت أن يجعل الله من هذه الدورة التاريخية شيئا معتادا وروتينيا . فلا غرو إذا رأيناها تدنس بعض الصلوات اليهودية المنادية بوحدانية الله .

ولكننا نخطيء إذا ظننا أن برودر وماشا يمثلان كافة ردود الفعل اليهودية فى الرواية لمشكلة وجود الله . فهناك ردود فعل أخرى . وإذا كانت ماشا تلوم الله وتحتقره وكان برووردر يحتج عليه فإن كثيرا من الشخصيات الأخرى فى رواية «الأعداء : قصة حب» تستمسك بدينها وتحافظ عليه أكثر مما كانت تفعل فى الماضى قبل وقوع الهولوكست . وبين شخصيات الرواية المتدينة شفرا بواه والدة ماشا عشيقة برودر وكذلك يتسين الذى استطاع الهرب إلى أمريكا قبل قيام القوات النازية بغزو بولندا والذى داوم مرة كل أسبوع على حضور طقوس الصلاة على عائلته وعلى الشهداء

اليهود الذين خلفهم وراءه . ويسعى رب يتسين إلى أن يجد فى الهولوكست وفظائعه أى معنى دون طائل . ومع ذلك فهو يؤمن بأن الفوضى سوف تدب فى العالم بل تسوده لو توقف الانسان عن الايمان بوجود خالق . وهو يفضل الايمان بوجود إله رحيم وعادل لأن عدم الايمان به شيء مروع . ولا يطاق . وتمثل شخصية شفرا بواه (والدة ماشا) فكرة الاستسلام لإله يتعمد الغياب عن التاريخ وتجد عزاء فى الايمان بأن الخلاص سوف ينتظرها . ولهذا نراها تصلى من أجل الشهداء وتتبع وصية كل من فاكتهايم ويركوفتش بتقوية ايمانها عن طريق اتباع أوامر الله وتجنب نواهيه . وهى تنفذ الشريعة والطقوس اليهودية من أجل تكريم شهداء الهولوكست واحياء ذكراهم وبذلك تكون الأم على طرف نقيض من ابنتها ماشا التى لا تخفى زرايتها بالله وبالدين اليهودى . ومن أجل تكريم أرواح الشهداء توقد الأم الشموع احياء لذكرى الموتى وتصلى من أجلهم ثلاث مرات فى اليوم وتلتزم بإطاعة أوامر الدين اليهودى ونواهيه أكثر مما كانت تفعل قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية . وتعتقد شيفرا أن الله قد أخذ إلى جواره اليهود الانقياء والصالحين وأنه سمح للآخرين بالبقاء على قيد الحياة . وتعتبر شيفرا بواه أن الله تركها تعيش حتى يمنحها فرصة للتوبة كنوع من الاعتذار عن استمرارها فى الحياة فى حين استشهد الكثيرون من بنى جلدتها . والجدير بالذكر أن المؤلف سنجر استقى اسم هذه الأم من اسمى ولادتين فى خدمة فرعون مصر رفضتا تنفيذ أمره بقتل كل الذكور الذين تلدهم نساء اسرائيل وقامتا بتزويد هؤلاء الأطفال بما يلزمهم من طعام وشراب ومثل هذه المرأة هى نموذج المرأة الفاضلة فى نظر سنجر .

وإذا كانت شخصيتا شيفرا بواه ورب يتسين تعبران عن استمساك الأجيال القديمة من اليهود بدينهم فإن شخصية تامارا تجسد بزوغ حركة المقاومة اليهودية ضد البطش النازى عن طريق الاستمساك بالدين باعتباره وسيلة ناجحة لشد ازرهم فى أوقات المحن والشدائد وتامارا قبل الهولوكست تختلف عن تمارا بعده . فقبل الهولوكست سعت هذه المرأة فى شبابها إلى الاندماج فى المجتمع البولندى وارتدت عن دينها اليهودى واعتنقت الأسلوب العلمانى فى التفكير . وتمثل أملها فى نبذ فكرة

الخلاص الديني واستبداله بخلاص علماني وماركسي . ولكن ما شاهدته تامارا من معاداة الروس لليهود جعلها تعود إلى حظيرة الدين اليهودي وتؤمن بالمذهب الصيهوني . ولكن عندما اشتدت وطأة الاضطهاد النازي كفرت بالله وأنكرت وجوده فقد رأت ، أنه إذا كان الله قد استطاع أن يراقب كل هذه الفظائع وهو ساكت فهذا يعني إنه ليس إلها . وأيضا قالت : «إن الأرواح موجودة ولكن الله غير موجود» . والذى لا شك فيه أن عودة تامارا إلى الدين اليهودى يرجع إلى فشل النظامين الشيوعى والاشتراكى فى توفير الحماية والأمان لليهود المؤمنين بهما . فلا غرو إذا رأيناها مقتنعة اقتناعا راسخا أن سبيل اليهود إلى الانتصار على هتلر بعد موته هو العودة إلى الدين اليهودى فهو الكفيل بتحقيق الخلاص والولادة الجديدة . وهو نفس السبيل الذى سلكه بطل الرواية التى ألفها سنجر عام ١٨٨٣ بعنوان «التائب» فقد نبذ هذا البطل العلمانية الغربية من أجل الرجوع إلى الدين اليهودى .

ورغم عودة بطل رواية « التائب» إلى الدين اليهودى فإن سنجر يعرب عن احتجاجه على وقوف الله مكتوف اليدين أمام مجزرة الهولوكست . يقول سنجر فى هذا الصدد فى كتاب ألفه بعنوان «الهدوء والصلاة : أو المجتمع الحقيقي» : «أشعر بالاستياء العميق من الله ... والدين الذى أؤمن به يرتبط ارتباطا وثيقا بشعورى العميق بالاحتجاج . وأحيانا يستيقظ فى الأمل اليهودى القديم فى مجيء المسيح ... ان احساسى بالدين هو احساس بالتمرد ... وغالبا ما أقول لنفسى أن الله يريد لنا أن نحتج فقد استكفى من هؤلاء الذين يمدحونه طيلة الوقت ويباركونه على قسوته على كل من الانسان والحيوان» .

والجدير بالذكر أن الكتاب المشار إليه لم ير طريقه إلى النشر حتى يومنا الراهن ، وتمرد سنجر على الله ليس بالأمر الغريب أو الجديد فقد عرفه أنبياء العهد القديم أمثال ابراهيم وأيوب وموسى وأرميا الذين يحتجون على سلبية الله فى مواجهة الشر . ويردد سنجر فى احتجاجه نفس الشكوى التى حار بها النبى ارميا فى الاصحاح الثانى عشر من سفر أرميا . فيقول أرميا مخاطبا الرب :

«لماذا ينجح طريق الأشرار ويسعد الغادرون جميعا ؟ ... إلى متى تنوح الأرض وييبس العشب فى كل حقل وتهلك البهائم والطيور من شر الساكنين فيها ، القائلين : الله لا يرى ما نفعل »

والجدير بالذكر أن الأدب اليهودى الهاسيدى (الدينى المتصوف) يعتبر حجر الزاوية في موروثات سنجر الفكرية. وهذا الأدب مليء بالحكايات التى تتهم الله بالحنث بميثاقه الذى أعطاه لشعب اسرائيل . إن سنجر يشبه ايلى ويزل فى أنه لا يعلن موت الله كما فعل الثائر الراديكالي الأمريكي ريتشارد روبشتين بل إن ويزل وسنجر يعترفان بأنه الله سيد هذا الكون . ولكنهما في نفس الوقت ينحيان عليه باللائمة لأنه لم يبادر بإنقاذ شعبه من المجازر . ومن ثم فإن الله والانسانية يحملان وزر الهولوكست . وسنجر يشبه إيلى ويزل الذى يصرخ فى رواية «الليل» على لسان شخصية بطلها : «لكم تعاطفت مع أيوب . وأنا لم أنكر وجود الله ولكننى شككت فى عدالته المطلقة» . وهكذا نجد أن الناجين من الهولوكست فى أدب سنجر لا يستطيعون التوفيق بين فظائع الهولوكست والايمان بوجود إله عادل ورحيم . ويحل ويزل هذه المشكلة اللاهوتية الكأداء بالقول بأن الشر موجود فى الذات الالهية . ورغم أن سنجر يستجلى من خلال أقوال برودر الفكرة المنادية بوجود تحالف بين هتلر والشيطان فإنه يرفض الايمان بهذه الفكرة قائلا إن الانسان لا يعبر عن مثل هذه الأفكار إلا تحت وطأة التلظى بالعذاب . والرأى عنده أن الله ظالم وانه يتعين على الانسان الالتزام الأخلاقى بالاحتجاج على ظلم الله . وبالنظر إلى أن سنجر يوافق على ايمان إليزر بركوفتش بأن الله يسمح بوجود الشر الانسانى من أجل تأكيد مبدأ حرية الاختيار فإنه يرى أن واجب الانسان يحتم عليه الاحتجاج على الظلم الالهى والانسانى على حد سواء . ونخلص من هذا إلى أن الاحتجاج الذى يتميز به أدب سنجر يعكس التفكير اليهودى التقليدي . وكلا الكاتبين ويزل وسنجر يمتنعان عن نبذ الله ولكنهما يؤكدان أن الله أخطأ فى حق الانسان . ورغم فشل الله فى حماية اليهود من الهولوكست فإنهما يريان أنه يجب على اليهود الاستمرار فى احترام ميثاق الله مع

شعب اسرائيل . إن الله فشل في الالتزام بميثاقه ولكن يجب علي اليهودي المتدين احترام الناموس الذي جاءت به التوراة .

وتميل شخصية برودر الروائية إلى الاحتجاج على ظلم الله. لقد فقد برودر بسبب فظائع الهولوكست ايمانه بالجنس البشري وبأنظمته الدينية والسياسية وآمن «بأكذوبة الأديان وافلاس الفلسفة منذ البداية وأن الوعود الكاذبة التي يبشر بها التقدم ليست سوي بصقة في وجه الشهداء وجميع الأجيال . » ويربط برودر بين عجز الله وعجز الانسان فهو يقول : «إذا كان الإله الرحيم ليس له وجود في السماء فإنه مجرد إله صغير لا حول له ولا قوة .. ويشبه يهوديا يعيش في السماء يحيط به النازيون الساكنون معه في هذه السماء» . ويقول لنا سنجر إن شخصياته المتمردة تؤمن بالله رغم أنها تحتج على ظلمه عندما ترى الأبرياء والصالحين يتعذبون ويشقون. وبما أن سنجر يؤمن بأن الاحتجاج جزء لا يتجزأ من الدين فإن شكوى هذه الشخصيات ليست دليلا علي وجود صدع أو شقاق مع الله لا يمكن رأبه . بل هو فقط دليل على استمرار الشكوى ولهذا فإن برودر لا يخرج عن طقوس وإطار الدين اليهودي تماما بل يعدل منها بما يتفق مع احتجاجه . فهو يصوم في يوم الغفران ولكنه يمتنع عن الصلاة الجماعية في المعبد كما يمتنع أحيانا عن شكر الله .

ورغم أن برودر ينتقد الله ويعيب عليه سكوته على جرائم الهولوكست فإنه يستمسك بقوة بقواعد الدين اليهودي الأخلاقية وتوصل إلى نتيجة مفادها أن الردة عن الدين اليهودي تنطوي على خطأ فادح فهو يعتقد أن اليهودي إذا ابتعد خطوة واحدة عن دينه فسوف يجد نفسه من الناحية الروحية غارقا في كل ما هو وضيع كالفاشية والبلشفية والقتل والزنا والسكر. ويرفض برودر البدائل الحديثة للدين اليهودي كما يرفض الفلسفات العلمانية على أساس أن المرء يستطيع الايمان بهذه الفلسفات وبالنازية في آن واحد . ويهاجم برودر الدين المسيحي لأنه دين دعا باسم الله إلى عقد محاكم التفتيش وشن الحملات الصليبية والحروب الدموية .

وينسب برودر سقوطه الأخلاقى إلى انحرافه عن الناموس اليهودى ولهذا نراه يعمل على انتشال نفسه الغارقة فى الشهوانية والتى ابتعدت عن الله والتوراه والدين اليهودى . وهو ما سوف نجده فى رواية «التائب» فيما بعد . وبالنظر إلى أن الغرب قد سمح للنازية بالانتشار فإن سنجر وشخصياته الناجية من الهولوكست يهاجمون فشل الغرب الأخلاقى سواء كان هذا الغرب متدينا أم علمانيا . ويقرر سنجر أن الطريق الوحيد لتجنب التشبه بالنازيين هو العودة إلى التوراه وكتب بنى اسرائيل : فاليهودى بدون الله والتوراه يختنق . ويعكس سنجر الآية حيث أن الصورة التقليدية للأغتراب اليهودى تتمثل فى الجيتو والشتات فى حين أن سنجر يمثل الاغتراب الحقيقى فى إنكار اليهودى لدينه والتحرر منه تحت دعوى الاستنارة . وفى حين أن السبيل اليهودى التقليدى إلى الخلاص لا يتمثل فى الانسحاب من المجتمع اليهودى فإن الشخصيات اليهودية فى أدب سنجر تبتعد عن الوسائل والقيم اليهودية التقليدية كى تجد طريقها إلى الخلاص . فبرودر ينسلخ من المجتمع كى يعد نفسه للعودة إلى الله والقانون اليهودى . ويذهب سنجر إلى أن شفاء اليهود من الهولوكست لن يتم إلا عن طريق العودة إلى الدين اليهودى والأخلاق اليهودية والأدب والمجتمع اليهودى . وهذا الشفاء لن يتم إلا على أيدى نساء فاضلات مثل تامارا الأم اليهودية التى فقدت أولادها فى الهولوكست أو يادوميجا المسيحية التقية الورعة التى تحولت إلى الدين اليهودى بعد أن خاطرت بحياتها لإنقاذ بعض اليهود من الهولوكست . وهكذا يجد القارىء فى رواية « الأعداء : قصة حب» ثلاثة موضوعات متشابكة هى سكوت الله على جرائم الهولوكست والتزام الانسان بالميثاق المعقود بينه وبين الله والتزامه أيضا فى فترة ما بعد الهولوكست بالاستمساك بأهداب وتعاليم الدين اليهودى . وهى عناصر ليست موجودة فى رواية «الاعداء : قصة حب» فحسب بل موجودة أيضا فى روايتى سنجر «شوشا» و «التائب» . وإذا كان هناك احتجاج فى أدب سنجر على الله فإنه احتجاج يضرب بجذوره فى أعماق التوراه والتقاليد الدينية اليهودية . وهو احتجاج يتمثل فى مواقف عدد من الأنبياء اليهود مثل ابراهيم وأيوب وموسى وأرميا . وهو احتجاج ينم عن الأعتراف بالله الذى لا يظهر

نفسه على الدوام فهو يخفى نفسه أحيانا ويكشف عنها أحيانا أخرى .

كتب سنجر رواية «سوشا» عام ١٩٧٨ . وهى رواية إنتقالية فى أدب سنجر الخاص بالهولوكست . فهى تردد بعض الموضوعات التى تعالجها المشاكل اللاهوتية والفلسفية التى تتضمنها رواية «الأعداء» . ورواية «سوشا» تتضمن جانبا من سيرة حياة مؤلفها كأحد الناجين من الهولوكست فى بولندا وتعتبر الرواية نصبا تذكاريا أقامة المؤلف لتكريم ذكرى ملايين اليهود الذين بادوا فى الهولوكست . وهى تدور حول مذكرات غير مترابطة تسجل فيها بطلة الرواية سوشا ردود الفعل اليهودية المتباينة ازاء الهولوكست كما تحدثنا عن عودة أرون جرايدنجر وهو مدرس يحلم ويجاهد كى يصبح كاتبا إلى وارسو للوقوف بجانب حبيبته سوشا لمجابهة الحياة فى ظل النازية القادمة . وتوجد بعض أوجه الشبه بين شخصية البطل الروائى أرون وبين مؤلفه فى فترة حياته الباكرة فى وارسو . فسنجر يشبه أرون فى أنه كان يكسب رزقه بشق الأنفس من عمله كصحفى ومترجم بيديش . وآرون مشغول بتأليف رواية عن المسيح الكذاب لانتزاع اعتراف النقاد به تماما كما سعى سنجر إلى انتزاع اعتراف النقاد بموهبته الأدبية بشأن أولى رواياته «الشيطان بجوارى» . ويتكون المجتمع الذى يعيش فيه آرون من شخصيات يهودية متنوعة تضم يهودا أنقياء تقليديين ومثقفين علمانيين وأدباء من بنى اسرائيل يحيون جميعا فى نوع من الهدوء اليائس ويسعون إلى نسيان مصائرهم المحتومة والمحارق وحفرات الجير الكاوى التى تنتظرهم عن طريق الاستغراق فى القراءة وممارسة الجنس لعلهم ينسون هذا المصير التعس .

تقع أحداث رواية «سوشا» فى بولندا فى أواخر عقد الثلاثينات وأوائل عقد الأربعينات . وهى تدور حول شعب اسرائيل الذى يعانى فى بولندا من وطأة الحصار وتضييق الحصار المفروض عليه . وهو حصار ناجم عن معادة السامية التى اشتركت فى فرضه على يهود بولندا ثلاثة شعوب مناوئه للسامية هى الشعب الروسى والشعب البولندى والشعب الألمانى . ويرفض سنجر تفسير مجازر اليهود بأنها ترجع إلى جنون أفراد مثل هتلر أو ستالين والرأى عنده أن الأمر أشد عمقاً من هذا وأن جانبا كبيرا

من الجماهير تتلذذ مثل قادتها بالقتل والنهب والسلب والاغتصاب . ويرى سنجر عن طريق راوى قصة «سوشا» أن هدف الشيوعيين يتطابق مع هدف النازيين من حيث أن جميعهم يسعون إلى ابادة اليهود فى أوربا . ويلاحظ أن الكتاب اليهود الأمريكان الذين يتناولون الهولوكست فى أعمالهم يميلون فى العادة إلى التخفيف من مسئولية المسيحيين الغربيين عن وقوعه فى حين نرى سنجر المهاجر البولندى من بولندا إلى أمريكا يحرص على تأكيد سعى كل من الغرب المسيحى والنازية إلى إبادة اليهود فى أوربا والتخلص منهم . حتى الروائى اليهودى الأمريكى ادوارد لويس والانت الذى يشارك سنجر هذا الرأى يلجأ إلى الرمز للتعبير عن اتفاق المسيحيين الغربيين والنازيين ضد اليهود بخلاف سنجر الذى يؤكد هذا الرأى بقوة ودون أية مواربة فهو يقول فى رواية «سوشا» :

«كان البولنديون يهدفون إلى التخلص منا . وهم يعتبروننا أمة داخل أمة وجسما غريبا وشريرا يعيش بينهم . وهم يفتقرون إلى الشجاعة الكفيلة بالتخلص منا بأنفسهم . ولكنهم لن يذرفوا الدمع إذا فعل هتلر هذا بالنيابة عنهم» . وتحكى لنا الرواية أن اليهودى البولندى آرون ذهب إلى الحلاق فى يوم كيبور فاعتقد الحلاق أنه كاثوليكى وأخذ يتحدث إليه على هذا الأساس ويشتم اليهود أمامه بأقذع الشتائم وقد اقترب بموسى الحلاقة من رقبته . الأمر الذى اضطر آرون صاغرا إلى الاستماع إلى شتميته بأذنه دون أن ينبس ببنت شفة . قال الحلاق فى هجومه الضارى على اليهود : «لقد استولوا على كل بولندا وانتشروا كالقمل فى المدن ... وتكاثروا كالحشرات فى كل مكان . ولكن هناك عزاء واحد وهو أن هتلر سوف يضرم النيران فى جحورهم حتى يرغمهم على الخروج كالبق منها . سوف أخبرك شيئاً يا سيدى العزيز . إن اليهود العصريين الذين يحلقون لحاهم ويتحدثون بلغة بولندية سليمة ويحاولون تقليد البولنديين الأصليين كالقردة أكثر سوءا من بنى جلدتهم التقليديين الذين يرتدون الثياب الطويلة المصنوعة من القماش الجبردين ويطلقون لحاهم الكثة ويربون خصلات شعرهم القريب من آذانهم . فهؤلاء على أقل تقدير كانوا لا يذهبون

إلى الأماكن التى يعرفون ان وجودهم فيها غير مرغوب . هؤلاء كانوا يجلسون فى مقابرهم ... ويهزون رءوسهم وهم يتلون التلمود وكأنهم جماعة من البدو . وكانوا يتحدثون بلغتهم غير المفهومة . فإذا وقع مسيحى فى براثنهم ينصبون عليه ويسرقون منه بضعة دراهم . بل كانوا على أقل تقدير لا يرتادون المسارح والمقاهى والأوبرا . اما الخطر الحقيقى فيكمن فى اليهود الحلفاء الذين يرتدون الملابس العصرية . فهم يجلسون فى المجالس ويبرمون المعاهدات مع أشد اعدائنا سوءا ، مع سكان رويثنيا وليتوانيا ومع الروس البيض . وكل واحد منهم عبارة عن شيوعى سرى أو جاسوس سوفيتى . وكلهم يجتمع على هدف واحد هو استئصالنا نحن المسيحيين وتسليم السلطة إلى البلاشفة والماسونيين والثوار الراديكاليين . ولعل من الصعب عليك أن تصدق يا سيدى العزيز أن اليهود من أصحاب الملايين عقدوا معاهدة سرية مع هتلر فعائلة روتتشليد اليهودية زودته بالمال وروزفلت هو الوسيط بينه وبين هذه العائلة . ان اسمه الحقيقى ليس روزفلت ولكن روزنفلد وهو مسيحى اعتنق الدين اليهودي» .

ثم يواصل الحلاق حديثه قائلا : «ولكن هتلر سوف يطهر البلد منهم . لقد وعدهم بحماية هؤلاء المليونيرات ولكن عندما يتسلح النازيون فسوف يقضى هتلر عليهم جميعا . هاهاها . انه لأمر سيىء للغاية أن يهاجم بلادنا ولكن طالما أنه ليست لدينا الشجاعة الكافية لكنس أوساخهم بأنفسنا فيتعين علينا أن نترك أعداءنا يفعلون هذا . إن احدا لا يمكنه أن يعرف ماذا سيحدث فى المستقبل . والمسئولون عن كل هذا هم الخونة البروتستانت الذين باعوا أرواحهم للشيطان فهم ألد أعداء البابا . هل تعرف يا سيدى العزيز أن مارتن لوثر كان فى حقيقة الأمر يهوديا متخفيا» .

ويذهب سنجر إلى أن هذا العداء الكاثوليكى لليهود هو الذى مهد السبيل إلى ظهور العداء النازى للسامية . وكذلك يذهب المؤلف إلى أن الحلاق لا يعبر عن أفكاره فقط بل عن موقف الرأى العام البولندى من اليهود .

وأيضا تتناول رواية «سوشا» معضلة الايمان بوجود إله رحيم فى زمن يتسم بالوحشية والقسوة . وترسم لنا هذه الرواية شخصية شبيهة بالفيلسوف سبينوزا الملحدة

هي شخصية موريس فرتيلزون الذى يعتقد أن اليهود خدعوا أنفسهم وخدعوا الآخرين عندما توهموا وجود إله عادل ورحيم يستجيب لدعوات البشر . ولكن هذه الشخصية تتراجع عن كفرها فى أحلك فترات الهولوكست . ولكن وفى فترة اختبائه نرى موريس يعيد النظر فى تراث الأجيال ويستبدل زرايته بالمتدينين بالتطاول على الذات الإلهية . تقول الرواية :

«بالرغم من كل خطاياه منذ بدء الخليقة استمر الله فى القول إن الكون بإسره عبارة عن لعبة . ولكنه رفع من شأن هذه اللعبة حتى صارت شيئاً مقدسا ... ويتلخص جوهر كلماته فى أنه مادام الله يلتزم الصمت إلى الأبد فليس له أى فضل علينا ..» وأيضا ذهب موريس إلى أن الدين الحق لا يكمن في خدمة الله بل فى ازدرائه . وإذا كان الله يرغب فى الشر فعلينا أن نتطلع إلى الخير . وإذا كان الله يريد الحروب ومحاكم التفتيش والصلب وهتلر ومن كان على شاكلته فعلينا أن ننشد الفضيلة والتصوف والتجلى الهاسيدي» .

وعلى النقيض من هذه الشخصية الملحدة هناك شخصية مغايرة تماما هى شخصية الحبر موشيه الملتزم كل الالتزام بالناموس وطقوس الديانة اليهودية التقليدية والموقن من أن الله سوف يتدخل لخلاص بنى اسرائيل من براثن أعدائهم . ولأن هذا الحبر موقن أن الله سوف يتدخل لأنقادهم فى نهاية المطاف فإننا نراه يقبل شر الهولوكست النازى على أنه علامة على مجيء المسيح المخلص . واعتبر هؤلاء المتدينون اليهود هتلر مجرد حلقة فى سلسلة طويلة من الظالمين عرفها التاريخ اليهودى. وإذا كان موريس فيتنرلزون فى الرواية يمثل الاحتجاج على الله فإن الحبر موشيه يمثل الاستسلام لإرادته .

وتشير رواية «سوشا» إلى فشل التنوير الأوربى على الصعيدين الاجتماعى والسياسى على نحو هامشى وعابر فى حين تبرز رواية «التائب» هذا الفشل وتركز عليه . فرواية «التائب» تصور الفشل الذى يرتكبه التنوير الأوربى عندما يقدم حلا لكل مشكلة سياسية على وجه الأرض فضلا عن أن أتباع هذا التنوير يكرهون اليهود

ولا يرغبون فى انقاذهم من الابادة الجماعية . وفى عالم سنجر الروائى نجد أنه من دواعى السخرية أن يكتشف اليهودى متأخرا ان الدين اليهودي اسمى من الناحية الأخلاقية من الفلسفات التى أنكر دينه من أجلها . وهكذا نجد أن آرون يعاقب نفسه لأنه أشاح بوجهه عن أربعة آلاف عام من تاريخ الدين اليهودى ليستبدله بأفكار وفلسفات تنويرية لامعنى لها . وفى ظلام الهولوكست الدامس اكتشف الملحد فيتنرلزون أن تراث الأجيال اليهودية استيقظ بداخله .

ولا يزعم سنجر انه وجد اجابة شافية لمعضلة الهولوكست . وفى الجزء الأخير من رواية شوشا يلتقى الراوى لأحداثها بأحد الناجين من الهولوكست فى اسرائيل فيعبران عن حيرتهما أمام الشر المستطير الذى مارسته النازية . ويتناول الاثنان أطراف الحديث فيشبه الناجي من الهولوكست (واسمه هايمل) نفسه بأنه يشبه ذبابة مفعوصة . والرواية لا تقدم أى تفسير مقبول لمشكلة العذاب الانسانى ولكنها تشير إلى أنه يتعين على اليهود الانتظار لعلهم يجدون الاجابة التى تشفى غليلهم فى يوم من الأيام . ورغم ذلك فإنه ينبغى عليهم طوال فترة انتظارهم أن يحافظوا على ميثاق الله معهم . ويتضح لنا تأكيد المؤلف سنجر على مدى احساس اليهود بالمسئولية الأخلاقية من قول موريس الذى سبق أن أشرنا إليه : «إذا كان الله يريد الحرب ومحاكم التفتيش والصلب وهتلر وأمثاله فينبغى علينا أن ننشد الأمانة والتصوف الهاسيدي ومفهومنا الخاص عن النعمة» .

والجديد الذى استحدثه سنجر فى أدب الهولوكست يتمثل فى تناوله لموضوع اسرائيل . صحيح ان سنجر لا يتحدث عن وجود أية علاقة مباشرة بين الهولوكست وانشاء دولة اسرائيل إلا أن المؤلف يصور أحداث الجزء الأخير من الرواية فى اسرائيل كى يظهر الخلاف بين موقف يهود الشتات من الدفاع عن أنفسهم ضد أعدائهم المتربصين بهم وموقف اليهود فى اسرائيل من نفس هذا الشيء . ففى بلاد الشتات كان اليهود لا يحملون السلاح ضد أعدائهم ولكن الهولوكست بدد سلبيتهم وعلمهم استخدام العنف فى مقاومة العدوان عليهم ويرجع الفضل فى ذلك إلى الدعوة

الصهيونية التى طالبت اليهود بالتخلى عن سلبيتهم العسكرية عبر التاريخ من أجل مقاومة العنف بالعنف . ولهذا نجد هايمل يتحدث بفخر عن بأس دولة اسرائيل التى تحيط بها خمس دولة عربية معادية ويقارن بين هذا البأس وبين عجز اليهود عبر شتاتهم في التاريخ فيقول : هنا (أي في اسرائيل) لا يذهب أحد كالماشية إلى المجزر. إن أولادنا القادمين من وارسو ولودز ورادوا ورروسكو ومينسك تحولوا فجأة إلى أبطال صناديد» . ولكن فرحة هايمل بانشاء الدولة العبرية تقل بسبب ادراكه أن استمرار هذه الدولة فى البقاء يعتمد اعتمادا كبيرا على وجود عالم معاد إلى حد كبير لوجودها أو غير مكترث به» . وهكذا نجد أن سنجر يلفت الأنظار إلى أهمية الدور الذى تلعبه اسرائيل فى احياء وتجدد الروح اليهودى فى فترة ما بعد الهولوكست وكدافع لليهود فى كل العالم إلى الثقة بأنفسهم وكمؤشر إلى أن زمن المقاومة السلبية ضد معاداة السامية قد ولى وانقضى واعلان عن بدء حقبة جديدة من تاريخ اليهود .

ويصور سنجر اسرائيل على أنها بلد الناجين من الهولوكست ممن يعانون من التشوهات البدنية والنفسية كما هو الحال فى رواية «الأعداء» . وهايمل على يقين كامل بأن أرواح اليهود الهالكين فى الهولوكست حضرت إلى اسرائيل واستقرت فيها . والمؤلف سنجر يشبه بقية الناجين من الهولوكست فى أنه يعيش على تذكر الهالكين فيه . ويشك هايمل فى أن الجيل الأول من الضحايا وأبناءهم سوف يستردون عافيتهم النفسية . ولكنه يضع أمله فى أجيال المستقبل وهو يقول فى هذا الشأن : «ربما سيصبح أحفادهم طبيعيين إذا لم ينزل الله القدير علينا كارثة جديدة» . ويخلص هايمل إلى نفس ما خلص إليه المؤلف من أن الحلم بمجيء المسيح المخلص قد يكون ممكنا إذا كانت أعنف الكوارث الجماعية التى تحل باليهود يعقبها أحياء للدولة اليهودية . ويؤمن هايمل شأنه فى ذلك شأن كل من اليزار بروكوفتس وإميل فاكنهايم بأنه إذا كان الهولوكست دليل على أن الله أخفى وجهه عن اليهود فإن انشاء دولة اسرائيل دليل ساطع على وجود الله فى التاريخ وتأكيد لوعد الله بأنه سوف يخلص شعبه .

وفى القصتين القصيرتين التى ألفهما سنجر بعنوانى «المعلم» و «هانكا» نرى المؤلف يواصل متابعته التشوهات النفسية التى تلحق بالناجين من الهولوكست . وتقع أحداث قصة « المعلم» فى اسرائيل عام ١٩٥٥ وكلتا القصتين تدوران حول جمع شمل بعض الناجين البولنديين من الهولوكست . والراوى لأحداثهما مؤلف عالمى يشار إليه بالبنان أثناء زيارته لاسرائيل والأرجنتين . وينتهز الناجون فرصة جمع شملهم والتقائهم بالراوى كى يتذكروا تجاربهم أثناء الهولوكست . وينصرف الراوى إلى تسجيل التجارب التى يرويها له الناجون من الهولوكست أو التى يسمع عنها عن طريق طرف ثالث موثوق به . وتبادل المؤلف مع مواطنيه القدامى - بنى جلدته الذين لم يرهم منذ هجرته من بولندا إلى أمريكا عام ١٩٣٥ - المعلومات الخاصة بالهولوكست فنجدهم ينتحبون على جيرانهم وعائلتهم الذين هلكوا فى الجيتو ومعسكرات الاعتقال النازية أو ماتوا فى روسيا من الجوع وحمى التيفود . وفى قصة «المعلم» يتناول سنجر على نحو درامى موضوع نبذ بعض اليهود الايمان بالدين نتيجة فظائع الهولوكست . والمعلم فى هذه القصة هو الراوى لأحداثها . وهو يروى لنا فيما يروى قصة احدى تلميذاته واسمها فريدل أصبحت عالمة فيزياء متميزة وكاتبة تدين بالمذهب الصهيونى . وقد أفقدتها بشائع الهولوكست الايمان بالدين وحولتها إلى امرأة يملأها المرارة واليأس والشك فى وجود الله . وهى تعترف بأن الهولوكست هو السبب الذى دعاها إلى نبذ ايمان والدها بأن الله صنع المعجزات من أجل اليهود . واحتجاجها على الله وأفعاله يذكرنا باحتجاج كل من برودر وماشا عليه كما سبق أن رأينا كما أنه يذكرنا باقتناع ريتشارد روبشتين بموت الله . تقول فريدل فى هذا الشأن : «بعد الذى حدث يجب أن يكون الانسان فى منتهى الغفلة والتبلد كى يؤمن بوجود الله وكل هذه الترهات . والأكثر سوءا من هذا الايمان بوجود إله شفوق رحيم لأنه أسوأ خيانة لضحايا الهولوكست» وحتى يستجلى المؤلف مرارتها فإن يجعلها تتحدث عن النازيين بنفس اللغة البشعة التى يستخدمها النازيون عن اليهود . فهى تقول مثلا : «النازيون أعداء الجنس البشرى ويجب أن يسمح لشعبنا بابادتهم مثل بق الفراش» . وتنسى هذه العالمة فى غمرة مرارتها أن واجبها يحتم عليها احترام الحياة .

وتشبه قصة «هانكا» في موضوعها وأسلوبها قصة «المعلم» السابقة الذكر . وتلعب شخصية هانكا دور المعلمة التى تعلم قريبتها المهاجرة فظائع الهولوكست وتحكي لها قصة والديها المخدوعين اللذين آمنا بأهمية الاندماج فى المجتمع البولندي كوسيلة ناجحة لتجنب معاداة هذا المجتمع للسامية : فقاما بتربية أبنائهما على هذا الأساس . وتشبه هانكا شخصية فريدل فى أن الزمن لم ينجح فى شفائها من العلل الجسدية والنفسية التى أصابتها من جراء الهولوكست . فلا غرو إذا رأينا هانكا تستبعد امكانية شفاء اليهود من عللهم حتى بعد إعادة توطينهم فى أعقاب الحرب العالمية الثانية . وتدرك هانكا بوضوح أن كل يهودى يحتوى على سجل للعذاب الذى قاسى منه بنو اسرائيل . وقد ذكرتها إقامتها فى الأرجنتين بالجرائم التى ارتكبها الأسبان ضد اليهود في القرن الخامس عشر أيام محاكم التفتيش .

وفى قصة هانكا يعود سنجر إلى الموضوع الذى سبق أن عالجه فى قصة «ساشا» . وهو القلق الذى تشعر به دولة اسرائيل من جراء تهديد جيرانها العرب لها بالابادة والتدمير . ولكن هانكا تختلف عن هايل في أنها تشك فى امكانية اسرائيل أن تشفى من تجربة الهولوكست . تقول هانكا فى هذا الشأن : «إن جحافل الأعداء التى تحاصرنا من كل جانب تهدف إلى تحقيق نفس الهدف الذى سعى إليه هتلر وهو إبادتنا» . ولعل هذا هو السبب الذى جعلها تفضل الهجرة إلى الأرجنتين دون اسرائيل على عكس ما فعل هايل الواثق من قدرة اسرائيل على التصدى لسعى جيرانها العرب إلى إبادتها . والجدير بالذكر أن الأرجنتين أصبحت مآلا ووطنا يلوذ به المجرمون النازيون وضحاياهم على حد سواء . وفى كلتا القصتين «هانكا» و «المعلم» نرى أن سنجر يعلن بقوة عجز الذين لم يجربوا الهولوكست بأنفسهم أو يشاهدوه مهما حسنت نواياهم من استيعابه وفهمه على نحو كامل. والملاحظ أن سنجر فى أنتاجه الروائى والقصصي الآنف الذكر يتحرى وجه الواقعية . ولكنه فى قصته «زفاف فى براونزفيل» و «الكافيتريا» يتخلى عن التزامه بالواقعية فيمزج فيها عنصرا جديدا لتصوير بشاعة الهولوكست ويتمثل هذا العنصر الجديد فى استخدام الأشباح وخوارق

الطبيعة التى نجدها بكثرة فى قصص وروايات الكاتب الأمريكى المعروف ادجار الآن بو ففى قصة «الكافيتريا» على سبيل المثال نرى روح هتلر تعود بعد موته فى شكل عفريت لترأس اجتماعا يحضره زبانيته وأعوانه المطيعون .

وتعتبر قصة «زفاف فى براونزفيل» من أولى قصص سنجر التى تقع أحداثها فى أمريكا . والقصة تجمع بين الذكريات والأسى على الوهن والضعف الذى أصاب الدين اليهود الأصيل عند انتقاله إلى العالم الجديد . وبطل هذه القصة رجل يدعى الدكتور مارجولين هاجر إلى الولايات المتحدة قبل حدوث الهولوكست . ورغم انصهاره فى المجتمع الأمريكى فإنه يوفر الرعاية الصحية لفقراء اليهود كما أنه ينشر كتاباته فى مطبوعات يهودية . فضلا عن شدة تعمقه فى الكتاب المقدس والتلمود وعلوم التفسير . وهو يحتقر اليهود الذين يشعرون بأنه ليس لهم جذور فى المجتمع الأمريكى . ورغم أنه ينأى بنفسه عن العقيدة اليهودية كما هى سائدة فى أمريكا فإنه يشعر بأن الوشائج العاطفية الوثيقة تربطه بشعب بنى اسرائيل. ويشبه الدكتور مارجولين مؤلفه سنجر فى أنه رغم هجرته من أوربا إلى أمريكا قبل حدوث الهولوكست فقد ترك الهولوكست فيه أعمق الأثر . يقول بطل «زفاف فى برونزفيل» إن عائلته تعرضت للتعذيب والابادة بالغازات السامة كما أن حبيبته قتلت «وهو شيء قريب لما حدث للمؤلف نفسه ». حتى زوجة مارجولين الألمانية عانت من الهولوكست فقد أطلق النازيون الرصاص على أخيها بسبب اعتناقه للشيوعية . ولهذا نراها تصادق اليهوديات فى نيويورك وتنضم إلى بعض المنظمات الخيرية اليهودية فى أمريكا .

ويتحسر الدكتور مارجولين على بنى جلدته الذين هلكوا فى الهولوكست . وفى غمرة حزنه عليهم يقرر حضور حفل زفاف بعض الأصدقاء . ويستأجر تاكسى لتوصيله إلى مكان حفل الزفاف فى طقس أشد ما يكون سوءا . وتحدث حادثة للتاكسى فيصاب مارجولين اصابات خطيرة ويصبح قاب قوسين أو أدنى من الموت . ويجنح به الخيال فيذكر أقاربه وأصدقاءه الذين ماتوا فى الهولوكست وهم يتساءلون عن الحكمة فى موقف الله السلبى من الهولوكست . وخطرت على باله الاسئلة التالية

: «لماذا خلق الله هتلر ؟ ولماذا يحتاج الله إلى نشوب الحروب العالمية ؟ ثم ماذا كان أعمامه الانقياء الصالحون يفكرون وهم يحفرون قبورهم بأنفسهم» . ويختزل المؤلف هذه التساؤلات اللاهوتية بأن ينسب الجرائم والآثام إلي الله وينسب الفضيلة إلى الانسان متهما الله بالحنث بالوعد وانتهاك ميثاقه مع شعب اسرائيل الذى أخلص لخالقه واطاع ميثاقه وقام بتنفيذ جميع وصاياه .

وتعد هذه الأفكار تمهيدا لدراما الزفاف الذى كان من المفروض أن يحضره مارجولين حيث جرت عادة اليهود على كسر قطعة من الزجاج تخليدا لذكرى تدمير هيكل سليمان . وهى عادة يهودية تقليدية تدل على أنهم يذكرون أتراحهم فى ذروة أفراحهم . وينجح المؤلف سنجر عن طريق وصف خواطر مارجولين أثناء احتضاره فى المزج بمهارة بين وصف جو الاحتفال بالزواج (وهو مناسبة بهيجة) بذكرى تكريم الموتى والخلط بين بهجة الزفاف وأحزان الهولوكست . ولأن معظم المدعوين إلى حفل الزفاف كانوا سجناء في معسكرات هتلر للاعتقال فإنهم لا ينسون عند التلاقى وتحية بعضهم البعض أن ينوحوا على الستة ملايين ضحية الذين بادوا فى الهولوكست . كما يتذكرون أحباءهم الذين ماتوا .واللافت للنظر أن الحديث عن الهولوكست فى حفل الزفاف يبدو أمرا عاديا ومألوفا . ويجرى الحديث على النحو التالى : «أبى ؟ لقد قتل . أنا الوحيد من عائلتى الذى نجوت . وماذا عن سوريل ؟ انها ضربت بالرصاص هى وأطفالها . وماذا عن زيلبر شتين ؟ لقد قاموا باحراقه مع عشرين آخرين . ولم يتبق منهم غير كومة متفحمة من الفحم والرماد . انهم قتلوا كل فرد ... كل فرد . لقد أخذوا شعبا بأكمله وأبادوه بكل ما عرف عن الألمان من كفاءة ودقة» .

وهذه عينة أخرى من الأحاديث المتبادلة فى حفل الزفاف : «نحن كدنا أن نفقد حياتنا . إننا جميعا فى الحقيقة أموات لقد أجهزوا علينا وأبادونا حتى الناجين منا يحملون الموت فى قلوبهم» . وأنها لمفارقة ما بعدها مفارقة أن ينتهى مثل هذا الحديث عن الموت بشرب الأنخاب من أجل الحياة . وبالنظر إلى أن سنجر فى قصة «زفاف فى براونزفيل» يمزج الحقيقة بالخيال ويجعلنا نعيش فى جو تشيع فيه الأشباح والظواهر

الخارقة للطبيعة فإن القصة تحكى لنا أن الدكتور مارجولين الذى فقد حياته فى الحادثة لا يموت كما أن حبيبته (قبل زواجه من المرأة الألمانية) واسمها رايزل التى هلكت فى الهولوكست لا تموت . حتى الستة ملايين يهودى الذين راحوا ضحية الهولوكست لم يموتوا .

ويستقدم المؤلف العفاريت والأشباح مرة أخرى فى قصة «الكافيتريا» . وراوى هذه القصة الذى يشبه المؤلف يتحول من مراقب ومسجل للأحداث إلى مشارك فيها . وهو يتردد على كافيتريا فى مدينة نيويورك يرتادها بنو جلدته من اليهود البولنديين ممن يتحدثون عن أدب اليديش والهولوكست ودولة اسرائيل وأيضا يلتقى فى المقهى المدرسون المتقاعدون والأحبار والمترجمون والكتاب والناجون من الهولوكست . ومن بين المترددين بانتظام على هذا المقهى سيدة اسمها استر تصغر بكثير المترددات الأخريات . وتقول استر إنها كانت تطالع أعمال الراوى الكاتب فى فترة إقامتها فى بولندا قبل الحرب العالمية الثانية وهى تتنبأ بأن هذا الراوى سوف يكون الكاتب لقصتها . وبالفعل يصبح هذا الكاتب فيما بعد الناقل لتجربتها عن الهولوكست .

واستر مثل الكثير من شخصيات سنجر امرأة تعانى من التمزق الروحى والعاطفى . وهى ترعى والدها ميركين المريض الذى هرب معها إلى روسيا عام ١٩٣٩ فى حين شاء حظ زوجته وأولاده العاثر أن يسقطوا فى أيدى القوات النازية التى احتلت وارسو . وفى روسيا ألقت السلطات السوفيتية القبض على الأب الشيوعى بتهمة التروتسكية وقامت بنفيه فى سيبريا حيث لحقت به العلل والتشوهات الجسدية والنفسية . وفى سيبريا عرف ميركين قسوة الصراع بين السجناء والمنفيين من أجل الحياة والحصول على قطعة خبز أو صابون أكبر من التى يحصل عليه زملاؤهم . وهكذا تصبح معسكرات العمل السوفيتية المقابل للهولوكست النازى . وهكذا صار الأب عليلا يتمنى الموت كما صار حطام انسان وجثة متحركة على الأرض . ويستخدم المؤلف فى قصة – الكافيتريا – الأشباح والعفاريت على نحو ما نجد فى أدب ادجار

ألان بو الروائى .فاستر تخبر الراوى أنها شاهدت عفريتا يمثل الشواذ والمنحرفين يدير اجتماعا يحضره رجال يلبسون أردية بيضاء نقش الصليب المعقوف على أكمامها . وعندما تندلع النيران فى الكافتيريا يتأكد لها أن الرؤية التى شاهدتها صحيحة . وبعد أن يقوم النازيون بقتل استر بالغاز السام يراها الراوى تسير فى شوارع برودواى برفقة رجل من المعروف أنه توفى منذ زمن طويل . وكما أن شبح هتلر لم يفارق مخيلة استر نجد أن شبح استر لا يبرح ذهن الراوى الذى يقول : «إذا كان الزمان والمكان مجرد أشكال للإدراك كما يذهب إلى ذلك كانط . وإذا كان الكيف والكم والسببية مجرد تصنيفات فكرية فلماذا لا يجتمع هتلر مع أعوانه من النازيين فى الكافتيريا فى برودواى ؟ » وينتهى الأمر بالراوى بتصديق رؤية استر بعد اقتناعه بأن اللاعقل يسير شئون الكون وأنه احد مكونات هذا الكون .

ويبرز سنجر فى رواية «التائب» (١٩٨٣) أحداث الهولوكست أكثر مما فعل فى أعماله السابقة التى اكتفى فيها بالايحاء والتضمين . وفى «التائب» يلقى المؤلف الضوء على الشخصيات الفرعية التى تتمسك بقوة باليهودية التقليدية . وبطل هذه الرواية يهودى منحل اسمه جوزيف شابيرو استطاع أن يشفى من علل الهولوكست عن طريق تأكيد هويته اليهودية والعودة إلى التوراه . ولا تدعو رواية «التائب» إلى الاستمساك بالعقيدة اليهودية فحسب بل إلى الاستمساك بدولة اسرائيل . فعودة الروح إلى التائب لا تتحقق إلا عن طريق هجرته إلى اسرائيل . صحيح أن سنجر فى بعض أعماله الأخرى يلمح إلى العلاقة بين الهولوكست ونشأة دولة اسرائيل . ولكنه فى رواية التائب يؤكد بجلاء ووضوح لا لبس فيه أن الولاء للدولة العبرية شرط أساسى فى اصلاح اضرار الهولوكست وفى العودة إلى صحيح الدين اليهودى . ويقص التائب في هذه الرواية قصة خلاصه الروحى للراوى لأحداثها عند تقابلهما بالقرب من حائط المبكى فى أورشليم ومفادها أن شابيرو استطاع أن يهرب بجلده عندما قام النازيون باحتلال بولندا وبذلك أصبح أكثر حظا من الثلاثة ملايين يهودى بولندى الذين أبادهم هتلر . وفى نهاية الحرب تمكن شابيرو من الهرب

من جحيم ستالين وأن يهاجر عام ١٩٤٧ من أوربا الشرقية إلى أمريكا حيث عاش عيشة انطلاق واستمتاع ولم ينغلق على نفسه مثلما فعل زملاؤه الناجون من الهولوكست الذين اجتروا فى عزلتهم همومهم وعذابهم . وأيضا أصاب شابيرو ثراء عريضا . ولكن النجاح المادى الذى حققه أدى إلى تدهوره الروحى . وسرعان ما ندم الرجل على حياته الفاسدة وقرر الرجوع إلى يهوديته كما درج الآباء والأجداد على اتباعها وفى سعيه إلى السمو والارتقاء الروحى نراه يخطو خطوات متدرجة نحو الخلاص إذا يبدأ بمعرفة ذاته ثم وضع نفسه موضع الاختبار الأليم ثم الرجوع إلى الله والانضمام إلي عضوية المجتمع الممارس للدين والمستمسك به فى الدولة العبرية .

ويحكم شابيرو على القيم الأخلاقية والانحلال بمعايير الهولوكست . فهو يعتبر فشله الأخلاقي وانحلاله بمثابة خيانة لليهود الذين يتمسكون بدينهم ويمارسون كل شعائره وطقوسه . وهو أيضا يعتبر مسايرته للحياة الأمريكية وانغماسه فيها خيانة لكل تاريخ اليهود . ولهذا فهو شديد الاحساس بالذنب الأمر الذى يجعله يعانى فى منامه من الكوابيس المزعجة فهو دائما يحلم بأنه يختبيء من النازيين فى قبو مع والديه وبعض اليهود الآخرين ليكتشف أنه هو نفسه نازى يندس بين اليهود فى زيه الرسمى البنى اللون وعليه شارة الصليب المعقوف.

ورغم أن روايات سنجر تزخر بالشخصيات اليهودية التى تنبذ المباديء الدينية الأرثوذكسية الراسخة من أجل الأفكار العلمانية فإن هذه الشخصيات سرعان ما تكتشف خطأها وتشعر بالاحباط وخيبة الأمل وعبث الفكر العلمانى ومن ثم فهى تقرر العودة إلى الحياة الدينية والروحية . وفى حين نلاحظ أن أعمال سنجر الباكرة تنتهى على نحو مقتضب بالعودة إلى الحياة الروحية نجد أن العودة إلى الدين اليهودى يصبح محور رواية «التائب» . وهذه الرواية تكرار لما سبق أن ذهب إليه المؤلف فى أعماله الباكرة فهى تعبر كما أسلفنا عن خيبة أمل اليهودى الذى ينبذ دينه التقليدى من أجل التنوير لأن هذا التنوير لا يخرج عن كونه وهما كاذبا . ويشبه شابيرو كثيرا من شخصيات سنجر الروائية الأخرى مثل أسا وياشا وبرودر التى تنبذ الاندماج فى

المجتمع الأمريكي وتفضل العودة إلى الله وحظيرة الدين اليهودي وهذا ما فعله بطلا روايتي «ساحر لوبلين» و «عائلة موسكات» في نهاية المطاف على عكس شابيرو الذي أولى ظهره للعلمانية في بداية المطاف، ولأن شابيرو يرى الفوضى ضاربة أطنابها في الحياة العلمانية الحديثة فهو يقبل طواعية وعن طيب خاطر أن يرزح تحت نير الناموس والتوارة . ويرفض دعاوى حركات التنوير الداعية إلى الثقافة العالمية لأن الأيام أثبتت أن مثل هذه الثقافة لم تمنع أصحابها من الانخراط في زمرة النازيين .

ويوضح شابيرو الفرق بين اليهودي والمسيحي الذي يصلي ويصوم والذي لا تمنعه صلاته وصومه من الانخراط في زمرة النازيين . يقول شابيرو :

« إن اليهودي المؤمن بالتلمود لا يقبل وهو لا يشترك في حلقات المجون المحمومة وهو ليس مدعاة للخوف أثناء التجوال في الغابات أو الطرق الموحشة . وهو لا يحمل سلاحا ولا يخطط للإتيان إلي منزلك وأنت غائب ليضاجع زوجتك . وليست لديه رغبة في تدنيس ابنتك . ورغم أنه لم يعتنق الدين المسيحي فإنه ينفذ تعاليم المسيح بإدارة خده الأيسر لمدة ألفي عام . في حين أن الذين يتظاهرون بالدين المسيحي نتفوا شعر لحيته كما أنتزعوا قطعة من خده . واليهودي المؤمن بالتلمود لا يستخدم العنف مع أي جنس أو طبقة أو جماعة ... حتى أسوأ اليهود طرا لا يقدم على القتل ولا يغتصب ولا يبرر القتل ولا يخطط لتصفية طبقات وأجناس بأكلمها .

وتتطابق أفكار شابيرو مع أفكار شخصيتين روائيتين أخريين هما أرون وهايمل. فهو يحكم على الأفكار الأوربية العلمانية التي تزعم القدرة على حل جميع المشاكل السياسية والاجتماعية بأنها غير كافية للحياة الأخلاقية . ويرفض شابيرو أفكار اليهود الثوريين في القرن التاسع عشر الذين برروا مجازر اليهود في روسيا القيصرية بأنها تعبير عن التمرد الشعبي ضد القيصر كما يرفض نظائرهم الشيوعيين في القرن العشرين الذين انخدعوا بأوهام الحداثة والثورة الاجتماعية والالحاد .

ومن الموضوعات المتكررة في أدب سنجر الروائي تصوير الفشل الذي يصيب كل يهودي ينبذ الدين اليهودي وناموس موسى من أجل اعتناق العلمانية الأوربية أو

الأمريكية . والرأى عنده أن وحشية الهولوكست لم تثبت فشل أو إفلاس النازية فحسب بل افلاس جميع الفلسفات الغربية المعاصرة لها . وهو لم يتمتع بنعمة الخلاص إلا عن طريق تلاوته للتوراة وانصهاره في المجتمع الاسرائيلي .

والجدير بالذكر أن كثيرا من النقاد لا يرتاحون للهجوم الضارى الذى تتضمنه رواية «التائب» على حركة التنوير والعلمانية اليهودية . وإذا كان الهجوم قد بلغ ذروته فى هذه الرواية فمن الواضح أن باكورة أعمال سنجر الروائية تحتوى منذ البداية على قدر من النقد لهذه الحركة وهى الحركة المعروفة باسم الهاسكالاه والتى مجدها أدب البيديش والتى بلغت ذروتها فى شرق أوربا فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . وهى حركة علمانية تهدف إلى فصل الدين عن الثقافة . ومنذ البداية شعر سنجر بالخطر الذى يتهدد اليهود بسبب توجهاتهم العلمانية والعقلانية والتحررية وايمانهم مؤخرا بالتقدمية وبالمذهب الانساني ومع ذلك فإن الموضوع الرئيسى الذى شغل بال سنجر هو الصراع بين الله والإنسان . وإذا كان سنجر قد أعاد شابيرو بطل رواية «التائب» إلى حظيرة الأتقياء والصالحين فإن ذلك يرجع إلى ايمان المؤلف بأن الحقيقة تكمن فى اتباع مبادىء الدين اليهودى العظيم كما تكمن فى الطقوس والشعائر الدينية التى يمارسها سكان الجيتو ليل نهار . ويؤكد سنجر أهمية الحياة الأخلاقية باعتبارها الرد على المجازر التى تعرض لها اليهود عبر التاريخ .

وعلى أية حال لم تكن عودة التائب إلى الدين اليهودى الأصيل أمرا سهلا أو ميسورا . فقد ظلت التساؤلات المؤرقة تلح عليه وتتحدى ايمانه بالحلول الدينية كما ظل صوت منبعث من داخله يسخر من عبادته لاله قاس لا يعرف الرحمة . ورواية «التائب» تطرح التساؤلات اللاهوتية التى سبق الاشارة إليها حول الذات الالهية . يقول شابيرو محتجا : «أين كان الله عندما قام يهود بولندا بحفر قبورهم بأيديهم ؟ وأين كان عندما كان النازيون يلعبون بجماجم الأطفال اليهود . وإذا كان الله الموجود قد التزم الصمت فهو قاتل مثل هتلر» . هذه التساؤلات عن سكوت الله على فظائع الهولوكست أرقت شابيرو ومؤلفه بدليل كثرة ترددها فى أدب سنجر . ورغم أن سلبية

الله الغامضة وسماحه بحدوث الهولوكست تعذب سنجر وتؤرقه فإنه استطاع أن يقدم صورة يهود ورعين ظلوا على وفائهم لله الصامت والمختبيء رغم كل ما عانوه من الهولوكست . وترسم رواية «التائب» صورة لحبر يهودى من هذا النوع أخذ بيد شابيرو وأرشده وساعده على العودة إلى حظيرة الدين اليهودى كما اتبعه السلف الصالح . وأيضا ساعده على التجدد الروحى . وهكذا عرف شابيرو الخلاص وآمن بالصلاة و«الكلمات التى تدور حول العدالة والقداسة وبإله منح الإنسان الفهم ويقيم الأموات ويثيب العادلين» . وعندما تطهرت روح شابيرو عرف نعمة الاحسان وعمل الخير واعطاء المال للمعوزين والمحتاجين كما عرف الحكمة من الورع وتقوى الله كما تتمثل فى مبادىء الدين اليهودى التقليدى والحياة الفاضلة التى تبجل الله وخليقته .

وخلاص شابيرو لا يتم مرة واحدة بل على مراحل تبدأ بنبذه أعماله ومصالحه فى أمريكا من أجل الصلاة فى المعبد والتوفر على دراسة الدين اليهودى وتتمثل المرحلة الثانية فى سفره من نيويورك إلى أورشليم هربا من دنس أمريكا الأخلاقى ومن حضارة بيوت الدعارة ليصل إلى اسرائيل التى أصبحت فى نظره المركز الروحى للديانة العبرية ويشاء القدر وهو فى طريقه بالطائرة إلى اسرائيل أن تجلس بجواره فتاة يهودية تدعى برسيليا ابنة عائلة أمريكية انصهرت فى بوتقة الحياة الأمريكية أولت ظهرها لجذورها وتنكرت لهويتها اليهودية . وأيضا يكاد شابيرو أن يقع فى حبائل فتنتها الجنسية . ولكنه لا يلبث أن يتغلب على اغرائها الشرير .

يرى مؤلف رواية «التائب» أن العودة إلى حظيرة الدين اليهودى الأصيل هو خير سبيل لمحاربة الفساد والمجون والكفر . وينتهى الجزء الأول من الرواية بوصول التائب شابيرو إلى اسرائيل وايمانه بأن اليهود المتدينين التقليديين يمثلون أفضل ما فى عالم اليهود من خير وخصال حميدة . تقول الرواية عنهم : «لقد عزلوا أنفسهم عن الدنيا أكثر مما فعل اليهود الآخرون فى تاريخنا . ومثلوا بالضبط ما كان موسى يطالب به من تكوين شعب مقدس يتسلح بضبط النفس الشديد ... شعب يعيش بمفرده ولا يحسب من الأمم» . صحيح أنهم مجرد أقلية ضئيلة ولكن المثل العليا العظيمة لم

تكن فى أى يوم من الأيام حركات جماهيرية .

ويتناول الجزء الثانى من رواية «التائب» اصرار إميل فاكنهايم على مقولته التى تذهب إلى أنه يتعين على اليهود فى فترة ما بعد الهولوكست أن يستمسكوا بأهداب دينهم وحياتهم حتى لا يشعر هتلر بعد وفاته أنه نجح فى الانتصار عليهم . والكابوس الذى يؤرق مضجع شابيرو أن يرى بنى جلدته ينصهرون فى بوتقة المجتمعات الأجنبية التى يعيشون فى أراضيها لأن مثل هذا الانصهار لا يقل فى سوئه عن تدميرهم فى الهولوكست . وينحي شابيرو باللائمة على الاسرائيليين الذين هجروا التوراه والتلمود والذين يسعون إلى نقل الثقافات غير اليهودية إلى اسرائيل لأن نقل العلمانية من العواصم الأوربية والأمريكية إلى تل أبيب معناه أن التنويريين نجحوا فى تحقيق أهدافهم .

وهكذا يهاجم شابيرو اليهود غير المتمسكين بدينهم تماما مثلما هاجم الحياة الفاسقة التى يحياها يهود الشتات . وشابيرو يعتبر اليهود اليساريين والمؤمنين بأفكار فرويد عقبة تحول دون رقى بنى اسرائيل الروحى .

ورغم انحياز شابيرو إلى الدين اليهودى وشعائره فإن عقله لا يخلو من الشك فى قيمة هذا الدين . وهو شك مرجعه إلى الهولوكست . فهو يحلم فى نومه بكابوس مزعج يرى فيه اليهود وهم يحفرون قبورهم بأنفسهم تحت لهيب السياط كما يرى النازيين وهم يقتادونهم إلى الأفران والمحارق . وبسبب هذه الذكريات المؤلمة عن الهولوكست أصبحت صلواته فاترة وخالية من الحرارة على عكس ما كانت عليه قبل هجرته من أمريكا إلى اسرائيل لأن الله سكت على فظائع الهولوكست ولم يتدخل لمنع العرب من تهديدهم بالافناء فى هولوكست آخر . وفى يأسه من رحمة الله نراه يفكر هكذا : «بدت كل نعمة من نعم الله أكذوبة . ولم يكن هناك أدنى دليل على أن الله سوف يحيى الموتى ويشفى المرضى ويعاقب الأشرار ويكافيء العادلين . لقد احترق ستة ملايين يهودي وعذبوا وأبيدوا من على وجه الأرض . ولا يزال هناك عشرات الملايين من الأعداء الذين يتربصون بدولة اسرائيل وعلى استعداد لإكمال المهمة التى

بدأها هتلر . والنازيون السابقون فى ألمانيا يشربون الجعة ويتحدثون دون مواربة عن مجازر جديدة . »

وفى مشهد آخر ترى الشيطان يحاول تحريض شاپيرو أثناء الصلاة ضد الله باعتبار الله متواطئا مع النازيين فى اقتراف جريمة الهولوكست . وتحت تأثير الأرواح الشريرة عليه ترى شاپيرو يتساءل : «ماذا فعل الله من أجلنا حتى نحبه إلى هذا الحد ؟ أين حبه لنا ؟ وأين كان حبه عندما قام النازيون بتعذيب الأطفال اليهود ؟» ويضيف الشيطان قوله إن الله تخلى عن اليهود الأتقياء فى محنتهم . ولكن شاپيرو يستطيع أن يتغلب على مثل هذا التحريض الشرير فيلجأ الشيطان إلى اتباع حيلة أخرى فيتنكر هذه المرة فى شكل الدعوة الصهيونية محرضا شاپيرو على نبذ أفكاره اللاهوتية والأنطولوجية الخاصة بخدمة الله من أجل استبدالها بخدمة الأغراض القومية المتمثلة فى الحفاظ على مصالح اسرائيل القومية باعتبار أن هذه المصالح أهم من أية اعتبارات دينية أو لاهوتية . فاسرائيل كما يقول له الوسواس الخناس تحتاج إلى الجنود والمهندسين والفنيين حتى تبقى على قيد الحياة وهى تحتاج إلى من يذود عن حمى الوطن أكثر من احتياجها إلى الأتقياء المتدينين ويدافع عنها ضد العرب الذين ينوون ذبحها. ولكن شاپيرو يرفض الخضوع لهذا المنطق ويستمسك أكثر وأكثر بالحياة الدينية اليهودية التى أرساها الآباء والأجداد . وإذا كان المؤلف سنجر فى رواية «سوشا» قد أبرز العلاقة بين معاداة المسيحية للسامية وبين كراهية النازية لليهود فإنه فى رواية «التائب» يعتبر الهولوكست النازى بمثابة تمهيد للهولوكست العربى الذى يهدف إلى إبادة اسرائيل . وكما أن شخصية هايمل تظهر الانزعاج الشديد لعزم العرب على إبادة اسرائيل نجد أن شاپيرو يبدى قلقا شديدا على وجود الكيان الاسرائيلى وعلى الخطر الذى يتهدده من جانب الدول العربية المتربصة به والعازمة على إبادته .

لقد دفع الهولوكست شاپيرو إلى العودة إلى حظيرة الدين اليهودى والعودة إلى اسرائيل فلا غرو إذا رأيناه يرفض فكرة بريسيلا القائلة بأن إدانة اليهود لألمانيا

يرجع إلى تعصبهم . فشابيرو يرى أن الحضارة الغربية بكل فلسفاتها ونظمها قد أفلست بدليل أنها أفرزت البربرية النازية . ومن ثم فهو يعتقد أن الملاذ الحقيقى يكمن فى الرجوع إلى الدين اليهودى الراسخ والأصيل كما عرفه الأجداد . وهو يرى أن خلاصه يكمن فى الاستمساك بالناموس . وبعد أن تبددت جميع الشكوك التى راودته نتيجة اغراء بريسيلا له رأى أن واجب اليهود يقتضى منهم الالتزام بميثاق الله رغم أن الله أشاح بوجهه عن بنى اسرائيل فى معسكر أوسشفتز للاعتقال . فضلا عن الاستمساك بالتوراه والتلمود كمصدر للقيم الأخلاقية والسلوك الإنسانى المهذب .

ويجادل شابيرو بريسيلا المتسامحة مع بربرية الألمان فيبرر الهولوكست بأنه نوع من العقاب الذى أنزله الله باليهود لأنهم تغافلوا عن هويتهم اليهودية وحاولوا الامتزاج بالأمم التى يعيشون بين ظهرانيها . ولكن شابيروا بينه وبين نفسه لا يقتنع بمثل هذه المحاجة ومن ثم يتوقف عن أى محاولة لتفسير الهولوكست أو البحث عن أسبابه ويقترح الاستمساك بمحاجة فاكنهايم الداعية إلى الرجوع إلى الدين كاستجابة يهودية سليمة له . وهكذا يصبح الهولوكست فى نظر شابيرو شرا مطلقا لا سبيل إلى تفسيره واستجلاء أسبابه ودوافعه . وعن طريق عودته إلى الدين وانخراطه فى زمرة الهاسيديين المتصوفة يتم شفاء شابيرو من علل الهولوكست ويتعلم حب اليهودية واليهود ويحب صحبة أهل التقوى والورع من بنى اسرائيل . وأيضا تعلم من التصوف الهاسيدى أن هناك ثمة صلة لا تنفصم عراها تربط الانسان بالله . وإذا كان المتصوف الهاسيدى يأسف لشعوره بغياب الله عن التاريخ فإن مثل هذا الشعور يدفعه إلى المزيد من الصلاة والصوم والتطهر والتطلع إلى مجيء المسيح . والتصوف اليهودى يؤمن بأن لله وجهين وجه ظاهر ووجه خفي . ولكن اخفاء الله لوجهه عن بنى اسرائيل لا ينبغى أن يمنعهم من التمسك بالميثاق الذى أعطاه الله لموسى على جبل سيناء . واخفاء الله وجهه عن الانسان يجب أن يدفعه إلى المزيد من التطهر وبذل الجهد فى انتظار عودة المسيح إلى الأرض . ويعتقد شابيرو كما تعتقد الطائفة الكابالية

اليهودية ان اسرائيل يمكنها أن تسهم فى تحقيق غاية الله من الكون إذا توفر أبناؤها على اتباع تعاليم الدين اليهودى وعلى دراسة التوراة . وهذا هو السبيل ليس إلى الشفاء من الهولوكست فحسب بل إلي تجديد الدين اليهودى نفسه . ويدرك شايبرو أنه لو استمر يعيش بعيدا عن إسرائيل فإن أقصى ما كان يطمح فى تحقيقه هو حياة التقوى والورع . ولكنه بفضل وجوده فى إسرائيل والعيش بين بنى جلدته أصبح جزءاً من حركة أعم وأشمل تهدف إلى التجديد والاحياء ... حركة تشهد بأن هتلر فشل فى الوصول إلى غايته وهى التدمير الكامل والشامل لكل اليهود .

ومع ذلك فإنه من الخطأ أن نظن أن سنجر تخلص تماما من احتجاجه على موقف الله السلبى من العذاب الانسانى فهو يقول فى رواية «التائب» أنه لايوجد فرق جوهرى بين التمرد والصلاة. ويعتقد سنجر أن هناك جانبا أخلاقيا فى الاحتجاج على ظلم الله للإنسان وظلم الانسان للإنسان . ويشرح سنجر فكرته قائلا : «لقد وصل بى الأمر اننى ربطت بين فلسفتى فى الاحتجاج وبين اليهودية.. إن اليهودى يمثل الاحتجاج ضد مظالم الطبيعة بل ضد مظالم الله . إن الله يريد الموت ولكن اليهود يختارون الحياة . إن الطبيعة تريد الفسق والانحلال ولكن اليهود يختارون ضبط النفس .. إن الطبيعة تريد الحرب أما اليهودى فيبحث عن السلام» . إن الهولوكست يخيم على أدب آى . ب .سنجر الروائى سواء كان ذلك فى أدبه الباكر أو اللاحق وسواء كانت الأحداث القصصية تقع فى أمريكا أو إسرائيل . وهو يتجنب وصف حياة اليهود فى الجيتو ومعسكرات الموت وصفا واقعيا ويضيف بعدا خارقا للطبيعة فى أدبه . كما أنه يركز على ما يتم فى معسكرات الموت من تدمير للحياة وتشويه للأحياء. وسنجر يشبه إيليا ويزل فى أنه عالج العناصر اللاهوتية والمضامين الفلسفية التى تنطوى عليها كارثة الهولوكست . وفى قصصه القصيرة «الأعداء» و «سوشا» و «التائب» نرى أن المؤمنين بالله والمتشككين فى وجوده على حد سواء يستنكرون موقف الله السلبى من الشر . وكما أسلفنا فإن شخصيات سنجر الروائية والقصصية مثل تامارا وهايمل وشايبرو لا تشفى من عللها الناجمة عن الهولوكست إلا عن طريق

رفض المذهب العلماني والتأكيد على أهمية الاستمساك بالدين اليهودي والانخراط في النشاط السياسي المتمثل في اسهامهم في بناء دولة اسرائيل . ويتمثل الشفاء من الهولوكست عند كل من ويزل وسنجر في الرجوع إلى الله واحياء العقيدة الدينية والعودة إلى أورشليم أرض الميعاد .

٧ - سنثيا أوزيك (١٩٢٨ -)

Cynthia Ozick

ولدت سنثيا أوزيك فى مدينة نيويورك يوم ١٧ ابريل ١٩٢٨ . وهاجر والدها من منيسك فى روسيا القيصرية إلى أمريكا وهو فى الحادية والعشرين من عمره . أما والدتها واسمها سيليا ريجلسون فقد قام أهلها وهى فى العاشرة بتهريبها إلى نيويورك عام ١٩٠٦ . ورغم أن والدها تخرج من أحد معاهد روسيا العالية ودرس اللغتين اللاتينية والألمانية وأن أمها تلقت العلم في مدارس أمريكية فقد آثرت العائلة استخدام لغة اليديش حتى عام ١٩٣٩ لتحل محلها اللغة الانجليزية . ومر والدا أديبتنا بأوقات صعبة نتيجة الكساد الذى لحق بالعالم فى عقدى الثلاثينات والأربعينات . ولكن ابنتهما سنثيا لم تشعر بالضائقة المالية التى مر بها والدها بسبب انصرافها الكامل وتعلقها الشديد بالأدب . ولا غرو فقد كانت الفتاة منذ نعومة أظفارها وهى فى العاشرة من عمرها تعلم أن مستقبل التأليف والكتابة ينتظرها . وقد ضبطت ذات مرة فى أحد الاجتماعات لا تشارك زميلاتها انشاد ترانيم أعياد الميلاد وكثيرا ما كان أقرانها يتهمونها كيهودية بسفك دم المسيح . وقد أصرت جدتها من ناحية الأم على أن يكون تعليمها الابتدائى يهوديا تقليديا . وكان هناك حبر يهودى يعارض التعليم المختلط للبنين والبنات فهو لا يرغب فى انضمام البنات إلى مدرسته . ثم التحقت سنثيا أوزيك بمدرسة مانهاتن العليا فى الفترة من عام ١٩٤١ حتى عام ١٩٤٦ . وساعد على تذوقها للأدب معرفتها بالأعمال اللاتينية والكلاسيكية . وفى عام ١٩٤٦ التحقت بجامعة نيويورك حيث اكتشفت عالم الفكر والثقافة الساحر . وفى عام ١٩٥١ حصلت على درجة الماجستير عن رسالتها «الأمثال فى رواية هنرى جيمس اللاحقة» .

وراودت أوزيك فكرة التحضير لرسالة الدكتوراة فى الأدب فى جامعة

كولومبيا تحت اشراف الناقد الأكاديمي اليهودي البارز ليونيل تريلنج مؤلف كتاب «الخيال الليبرالي» . غير أن هذا لم يتحقق بسبب رغبتها المتأججة في الكتابة الخلاقة. وفي عام ١٩٥١ بدأت كاتبتنا في تأليف رواية فلسفية بعنوان «الرحمة والشفقة والسلام والحب» . وفي العالم التالي (١٩٥٢) تزوجت من رجل قانون يدعى برنارد هالوت وأنجبت منه ابنتها راشيل عام ١٩٦٥ .

وقد اشتهرت أوزيك بأسلوبها النثري المتميز وحصلت على كثير من الجوائز والزمالات والمنح . ففي عام ١٩٦٨ حصلت على منحة المواهب القومية للفنون ثم جائزة والنت عام ١٩٧٢ وجائزة بناى بريث عام ١٩٧٢ وجائزة مجلس الكتاب اليهودي في عامي ١٩٧٢ و١٩٧٧ وجائزة الأكاديمية الأمريكية (١٩٧٣) و«أكليل الهاداسا» (١٩٧٤) وجائزة لامبارت (١٩٨٠) وزمالة جوجنهايم (١٩٨٢) وجائزة شتراوس (١٩٨٣) وجائزة رى للقصة القصيرة (١٩٨٦) . وأيضا حصلت على درجة الدكتوراة من جامعة يشيفا (١٩٨٤) وكلية الاتحاد العبرى (١٩٨٤) وكلية وليامز (١٩٨٦) وكلية هنتر التابعة لجامعة مدينة نيويورك (١٩٨٧) و «الاكليريكية اللاهوتية اليهودية» (١٩٨٨) وكلية بوسطن العبرية (١٩٨٨) وجامعة أدلفى (١٩٨٨) وجامعة ولاية نيويورك (١٩٨٩) وجامعة براندس (١٩٩٠) وكلية بارد (١٩٩١) وكلية سيرتوس (١٩٩١) وكلية سكيدمور (١٩٩٢) وإلى جانب ذلك قامت أوزيك بتدريس اللغة الانجليزية في جامعة نيويورك في عام ١٩٦٤ - ١٩٦٥ . وكذلك حاضرت في جامعة انديانا عام ١٩٧٢ وفي جامعة هارفارد في عامى ١٩٨٥ و ١٩٨٨ ثم تم انتخابها عضوا في الأكاديمية الأمريكية للفنون والآداب .

وقد أصدرت هذه الكاتبة الأعمال التالية :

- «الثقة» (١٩٦٦) .
- «الحبر الوثنى وقصص أخري» (١٩٧١) .
- «سفك الدماء وثلاث روايات قصيرة» (١٩٧٦) .

- «السباحة فى الهواء» (١٩٨٢) .

- «الفن والحماس» (١٩٨٣) .

- «المجرة أكلة لحوم البشر» (١٩٨٣)

- «مسيح ستوكهولم» (١٩٨٧) .

- «الاستعارة والذكري» (١٩٨٩) .

- «الشال» (١٩٨٩) .

- «النور الأزرق» (مسرحية ١٩٩٤) .

- الشهرة والغفلة» (١٩٩٦) .

الهولوكست فى أدب سنثيا أوزيك :

قبل أن نتناول الهولوكست فى أدب سنثيا أوزيك يجدر بنا أن نذكر القاريء أن جامعة نيويورك فى أولبانى بالولايات المتحدة نظمت مؤتمرا بعنوان «الكتابة والهولوكست» فى الفترة من ٥ إلى ٧ أبريل عام ١٩٨٧ . وقد تم جميع كلمات المشتركين فى هذا المؤتمر بين دفتى كتاب نشر عام ١٩٨٦ . وينتهى هذا الكتاب بمائدة مستديرة أو حلقة نقاش شارك فيها بول جيلبرج وسنثيا أوزيك وشارون أبلفيد وشاؤول فريد لاندر . وسوف أبدأ بتقديم وجهة نظر كاتبتنا فى هذا الموضوع قبل أن أتطرق إلى استجلاء معالجة الهولوكست فى أدبها .

تعلق سنثيا أوزيك على كلمات المشاركين فى المؤتمر بقولها إنها لاحظت فيها اتجاها عاما إلى استشفاف معنى للهولوكست وانه قمين بأن يضع اليهود على طريق الخلاص . وتتساءل مؤلفتنا بشأن الهولوكست : «هل يوجد معنى للخلاص فى قتل ستة ملايين يهودى ؟ الرأى عندى أن الهولوكست يعنى شيئاً واحدا وشيئاً واحدا فقط مفاده القضاء على ثلث سكان العالم من اليهود ... ولست أرى أى معنى للخلاص

من كارثة بمثل هذه الضخامة الدنسة» . وتضيف أوزيك انه من العسير للغاية على المشاركين فى هذا المؤتمر أن يتحملوا فكرة انتفاء الهولوكست من المعنى حيث أنها تتعارض مع الاحساس الأخلاقى عند البشر وتشوقهم إلى الشفاء وبحثهم عن مغزى يقبع وراء الأحداث . فالإنسان لا يطيق أن يتصور الموت على نحو مطلق يخلو تماما من الخير أو المعنى وتعبر أوزيك عن أسفها لأنها ترفض الايمان بوجود أى معنى أخلاقى فى الهولوكست وتعزو الايمان بوجود مثل هذا المعنى إلى العيش فى أمان فى مجتمعات غربية متحضرة . وهى تؤكد أن مثل هذا الايمان بوجود معنى لا يتناسب مع أحداث الهولوكست المروعة كما تعيب على المتحدثين فى المؤتمر أنهم ينظرون إلى هذه الأحداث باعتبارها ماضيا منصرما وليس حاضرا معاشا كما ينبغى له أن يكون .

وتعزو أوزيك رغبة المشاركين فى المؤتمر فى الايمان بأن هناك نوعا من الخلاص ناتجا عن عملية الابادة الجماعية لليهود إلى سببين أولهما أن هؤلاء المشاركين أناس متحضرون ومواطنون صالحون ومن ثم فإنهم يميلون إلى الاعتقاد بوجود الخير فى الحياة الإنسانية مهما بلغت قسوتها وبشاعتها . والسبب الثانى أن هناك تقليدا مؤمنا بالخلاص راسخا فى الديانتين اليهودية والمسيحية على حد سواء وتشرح الكاتبة فكرتها عن الهولوكست بقولها إننا نعرف ما جرى وأين ومن الجانى ومن الضحية ولكننا لا نعرف الدافع إليه على حد قول بول هيلبرج وهى تؤكد أن عدمية الهولوكست لا يمكن أن تفرز شيئاً ايجابيا أو بناء بل كل ما يمكن أن تفرزه هو العدم . ومن الخطأ أن نعتقد أن الهولوكست لن يتكرر أو أنه سوف يكون المرة الأخيرة . بالعكس فالهولوكست النازى أصبح نموذجا يسهل على البشرية تكراره . وتعرض مؤلفتنا لمنكرى الهولوكست فتعجب كل العجب من أن الذين أنشرحت صدورهم بالأمس من حدوثه هم الذين ينكرون وقوعه اليوم .

وتتحدث سنثيا أوزيك عن ظروف والديها الاقتصادية السيئة فى فترة الكساد العظيم فى عقد الثلاثينات قبل اشتداد عنفوان الحركة النازية فتقول أن والديها اللذين كانا يحتفظان باجزخانة كانا يرفضان بيع أقراص الأسبرين للزبائن باعتبارها رمزا

للمنتجات الألمانية . وأضافت سنثيا أنها قاطعت شراء البضائع الألمانية التى ذكرتها بالهولوكست الأليم على نفسها . وهى تعجب لصفاقة شركة تومف الألمانية لأنها لم تعن حتى بتغيير اسمها . فقد كانت تزود النازيين بالأفران والمحارق حسب المواصفات والطلب . وتعرف كاتبتنا مقدما أن امتناعها عن التعامل مع شركة المنتجات الألمانية لن يؤثر بالسلب على اقتصاد ألمانيا وأن الصناعة الألمانية على درجة عالية من الجودة ولكنها تفعل ذلك كنوع من الاحتفال الشخصى بذكرى الهولوكست فضلا عن أنها قررت فيما بينها وبين نفسها ألا تزورألمانيا والنمسا لذات السبب . وهى تذكر أن أول شيء يشاهده الزائر لإسرائيل هو صف طويل من الأشجار زرعتها من أجل تكريم غير اليهود الأخيار الذين سعوا إلى حماية اليهود من أذى النازية . والشيء الثانى الذى يراه الزائر لاسرائيل هو علامة النصب للتذكير بشهادة ضحايا النازية من اليهود حتى لا ينسوا الأفران والمحارق ومعسكرات الموت والاعتقال .

يرى النقاد أن سنثيا أوزيك تعالج التاريخ اليهودى والهولوكست برشاقة أدبية ويقدر كبير من المعرفة بالموضوع لا يسبق له نظير فى الأدب الأمريكى . وهى تختلف عن الروائى شاؤول بيلو الذى يكره أن يسميه النقاد كاتبا يهوديا فهى أشد ما تكون حرصا على هذه التسمية . وقد أعلنت هذا الحرص عندما زارت معهد وايزمان فى اسرائيل عام ١٩٧٠ حيث اشتركت فى حوار ثقافى دار بين الاسرائيليين واليهود الأمريكان . وفيما بعد صاغت أفكارها فى هذا الحوار فى صورة مقال بعنوان «باتجاه لغة ييديش جديدة» نادت فيه بضرورة انشاء أدب يهودى مكتوب باللغة الانجليزية خاص بالولايات المتحدة ونابع من البيئة الأمريكية . وفى اعتقادها أن هذا الأدب لابد أن يقصر اهتماماته على الشئون اليهودية وأن يكون قادرا على الابتكار والتجريب والتنوير ومتميزا بالعمق والانسانية . وهى لا تريد من هذا الأدب أن يستجلى الجوانب الاجتماعية فى حياة اليهود بل أن يستجلى الدين اليهودى والقيم اليهودية . والجدير بالذكر أن أوزيك متبحرة فى الدين اليهودى ومصادره واللغة العبرية والتاريخ العبرى . وهى تستخدم جميع هذه العناصر وتنسجها عن طريق خيالها الواسع فى خلق عالم

روائى خاص بها . ولهذا فهى تختلف عن عدد كبير من الكتاب اليهود الأمريكان ممن يكتفون بخلق جو يهودى فى رواياتهم عن طريق تحرى الواقعية الاجتماعية فى حياة يهود أمريكا . ورغم أن أوزيك ترى أن الوثائق التاريخية أفضل سبيل لرواية أحداث الهولوكست فإن هذه الأحداث فرضت نفسها على فنها الروائى دون أن يكون لإرادتها أى دخل أو اختيار .

ولرواية أوزيك الأولى الصادرة عام ١٩٦٦ بعنوان «الثقة» أهمية خاصة فهى أثيرة إلى قلب المؤلفة كما أنها تتضمن أبرز اهتماماتها التى شغلتها فى رواياتها اللاحقة وعلى رأس اهتماماتها ذلك الصراع الذى سبق لماثيو أرنولد أن عالجه فى كتاباته وهو وجود هوة عميقة تفصل بين الفكر الهيلينى أى الأغريقى الذى تأثرت به الحضارة الغربية أبلغ الأثر وبين الفكر اليهودى أو العبرى : وهو صراع بين النظرة الموسوية الأخلاقية للحياة ونظرة الأغريق الفنية والحسية لها. تقول أوزيك إنها كانت تدين بالعلمانية عندما بدأت كتابة رواية «ثقة» ثم تحولت إلى الفكر القدسى والدين اليهودى أثناء تأليفها لها : «بدأت كروائية أمريكية وانتهيت كروائية يهودية ... أى أننى هودت نفسى أثناء تأليفى للرواية» . وقد وقع هذا التحول من خلال تصويرها للتطور الفكرى والأخلاقى الذى حدث للشخصية اليهودية الوحيدة الموجودة فى الرواية واسمها إنبوك فاتد الذى يمثل حجر الزاوية فى البناء الروائى .

وتدور رواية «الثقة» حول امرأة شابة تبحث عن هويتها وهى ابنة لأم تدعى اليجرا تزوجت ثلاث مرات . وتجسد الرواية كما أسلفنا تلك الهوة السحيقة التى تفصل بين القيم الأغريقية أو الهيلينية والقيم اليهودية . وهى تتضمن التبادل أو الاحتكاك الحضارى بين أمريكا وأوربا . فقد أحضرت الأم ابنتها من أمريكا إلى أوربا عام ١٩٤٥ وهى فى العاشرة من عمرها حتى تتأثر بالثقافة الأوربية غير أنها تكتشف أن أوربا ليست مركز اشعاع حضارى بل مصدرا للشر يضم معسكرات الاعتقال ومعسكرات الموت والمحارق .

وتنقسم رواية «ثقة» إلى أربعة أقسام : القسم الأول وهو بعنوان «أمريكا»

يستجلي النفوذ الاجتماعي والسياسي في حياة الراوية أما الجزء الثاني وهو بعنوان «أوربا» فيلقي الضوء على الجذور التاريخية لشخصية اينوك اليهودية . وهناك جزءان آخران أحدهما بعنوان «برايتون» يعالج نظرة وليم (زوج إليجرا فان الأول) إلى الأخلاق . ووليم مسيحي منافق أبعد ما يكون عن الفضائل المسيحية وهو بروتستانتي كالفيني متشدد يؤمن بقوة المال ويعادي السامية . ويحمل الجزء الرابع والأخير عنوان «دانيكريس» وهو يتناول الوثنية الشهوانية التي تمثلها شخصية جوستاف نيكولاس تيلبيك أحد أزواج أليجرا فان الثلاثة ووالد الفتاة الشابة بطلة الرواية والراوية لأحداثها. وقد تربت هذه الفتاة في كنف زوج أليجرا الثاني اليهودي إنيوك فان . ورغم انها ابنة تيلبيك فإنها تحمل اسم وليم زوج أمها الأول . وترفض الابنة أفكار والدتها التي تتلهى بالأدب والسياسة والفن كما ترفض نفاق زوج أمها وليم المسيحي . ورغم أن الرواية تصور ما في النظرة الهيلينية من قدرة على اغراء الناس واجتذابهم إلا أنها تؤكد قوة النظرة اليهودية ومقدار شيوعها وانتشارها .

وتقوم أوزيك بتقييم شخصياتها الروائية طبقا لردود أفعالهم ازاء الهولوكست وهي تتبع ردود الفعل هذه ابتداء من عام ١٩٣٨ حتى هزيمة النازية في عام ١٩٤٥ وأيضا في العقد الذي أعقب انتهاء الحرب العالمية الثانية وهي ردود فعل تتفاوت بين عدم الاكتراث بما حدث في الهولوكست وبين الالتزام بالتصدي له . ففاند اعترض على النازية في حين أن تيلبيك عاش في بحبوحة ورخاء في ألمانيا عام ١٩٣٨ ولم يظهر أي ضيق أو برم بالنظام النازي . ومن المفارقة أن نرى النظام النازي يتهم تيلبيك بأنه جاسوس شيوعي ثم قامت براغ فيما بعد بطرده منها باعتباره جاسوسا للنازية وكلتا التهمتين ليس لهما أي أساس من الصحة . فتيلبيك يصف نفسه بأنه محايد من الناحية السياسية . وهو يكسب قوته من العزف على البيانو لارضاء كافة الجوانب المتصارعة في الحرب . وقد تسبب الهولوكست في تحويل فان من شيوعي إبان الفترة السابقة على الهولوكست إلي يهودي يتمسك بدينه في الفترة اللاحقة عليه . وهو يصف نفسه بأنه خبير في جثث ضحايا الهولوكست فهو ينصرف إلى تعقبها واحصائها

وتسجيل أسمائها. ويمثل فان وجهة نظر أوزيك التى تمجد تاريخ اليهود . تقول أوزيك فى هذا الشأن : «إن تاريخ اليهود يستعبدنى . وهو يمسك بتلابيى فى نهاية الأمر» وتحمل الشخصيات غير اليهودية فى الرواية مثل اليجرا وابنتها التى تروى الأحداث عار الهولوكست وعدم الاكتراث بفظائعه الأمر الذى يضع غير اليهود فى قفص الاتهام ويحملهم مسئولية القضاء على اليهود أو اتخاذ موقف سلبى من إبادتهم . وقد بلغت قسوة اليجرا حدا جعلها تلوم الضحايا اليهود على مالحق بهم من أذى مؤكدة أن هناك ثمة عيبا فيهم . فضلا عن أنها تعيب على زوجها اليهودى اينوك انه يقيم الاحتفالات بذكرى ضحايا المحارق من اليهود وتعتبر مثل هذه الاحتفالات عديمة الجدوى . وهى بعبارة أخرى تريد من زوجها اليهودى أن ينسى بشاعات الهولوكست ويدير ظهره لها وكأنها لم تكن .

وتشارك أوزيك الروائى المعروف شاؤول بيلو اعتقاده بأن للكاتب صوتا أخلاقيا وأن الهدف من وراء تأليف القصص هدف أخلاقى يتمثل فى الحكم على العالم وتفسيره . وتبرز أوزيك الفرق بين السخط الأخلاقى الذى تشعر به الشخصيات الروائية اليهودية وبين اللامبالاة الأخلاقية التى تعانى منها الشخصيات غير اليهودية . وحتى تبرز المؤلفة الفرق بين اليهود وغير اليهود نراها تصور الثنائية بين الثقافة الاغريقية الهيلينية والثقافة العبرية ، وكذلك الفرق بين العقلية المسيحية والعقلية اليهودية . فغير اليهود يمجدون القتل ويعلون من شأنه فى حين أن اليهود يشجبون القتل ويدينونه . وتدعو الثقافة الهيلينية إلى نسيان الهولوكست فى حين تنادى الثقافة العبرية بتجديد المسئولية عن ارتكابه وضرورة الاحتفال بذاكره . وتمثل اليجرا عقلية أوربا الهيلينية فى حين يمثل اينوك العقلية اليهودية .

وقد تحولت أوربا تحت تأثير الفكر الهيلينى والتنوير الغربى إلى مقبرة تحتوى على الأفران والمحارق .

وتصور أوزيك هذه الثنائية بين حساسية اينوك (أى أخنوخ فى العهد القديم) للهولوكست فى اطار من اللغة مليء بالاشارات والأخيلة المستمدة من الكتاب المقدس

والأدب الشعبي اليهودي في حين أنها تصور موقف اليجرا إزاء الهولوكست في اطار من اللغة المسيحية المعادية للسامية : ورغم أن ابنة اليجرا التي تروي أحداث الرواية تظهر قدرا من الشفقة والعطف على ألم إينوك ويأسه من الهولوكست فإنها سرعان ما تتخلى عن هذا العطف وتعتبر استمرار اينوك في تذكر الهولوكست نوعا من الشذوذ غير العقلاني يرجع إلى الأرواح الشريرة التي تملكته .

وتحتوي رواية «الثقة» على شخص يهودي يدعى سيجفريد اعتنق الدين المسيحي هربا من الاضطهاد . ويكتشف هذا الرجل لخيبة أمله أن النظام النازي يصنف اليهود الذين اعتنقوا المسيحية لجيلين كيهود رغم نبذهم للشريعة الموسوية . وقد تعلم سيجفريد درسا قاسياً مفاده عدم الثقة بأي أحد لأن الثقة هي الطريق إلى الاعدام والضرب بالرصاص .

وترسم أوزيك صورة منفرة لأنيك – وهي سيدة أوربية تقوم بتربية الراوية – لأنها لا تجد أدنى غضاضة في الغدر بإينوك اليهودي وتبليغ قوات الاحتلال النازي عنه طمعا في الكسب ونشدانا للفائدة . ورغم أن رواية «الثقة» لا تصور معسكرات الاعتقال والمحارق فقد استطاعت المؤلفة أن تعطي قارئها صورة مباشرة ونابضة بالحياة عن حقيقة الهولوكست عن طريق تصوير عدد ضئيل من الناجين منه واستخدام اللغة الاستعارية . وقد اتبعت المؤلفة نفس هذا الأسلوب في تصوير الهولوكست في مؤلفاتها الروائية اللاحقة مثل «سفك الدماء» و «السباحة في الهواء» و «مجرة أكلة لحوم البشر» . وتشير المؤلفة إلى مهارة النازيين التكنولوجية التي تتمثل في قدرتهم على الاجهاز على الملايين بسرعة وكفاءة عالية . فضلا عن تحويل جلد اليهود بعد سلخه إلى أباجورات . وهناك في الرواية اشارة إلى محاكمات نورنبرج كما توجد إشارة إلى سلبية الله في مواجهة الهولوكست التي نجدها في أدب كل من ويزل ، وآي. ب . سنجر . ولالقاء الضوء على تطور اينوك الديني ، نقول إن هذا التطور بدأ بتخليه عن الحزب الشيوعي الذي ظل منضما إليه حتى وقع ستالين وهتلر على معاهدة الصداقة عام ١٩٣٩ . ورغم أن اينوك يلوم الله على سلبيته في مواجهة الظلم وانتهاكه للعهد

الذى أعطاه لشعب اسرائيل فإننا نراه يؤكد أنه لم يعرف الالحاد وإنكار وجود الله فى أى يوم من الأيام . يقول إينوك فى هذا الشأن : «لقد كنت دائما أدرك وجود الله . وشكواى تكمن فى أنه لم يستجب إلى ما أسديت إليه من جميل ... وأن الله هو الملحد الحقيقى . فهو ينكر نفسه بامتناعه عن الفعل كما أنه تنكر لألوهيته» . ورغم يأس إينوك من الله وتقريعه له لأنكاره عهده فإنه يشعر بالتضافر والتكاتف مع الشعب اليهودى مما دفعه إلى التوفر على دراسة العقيدة اليهودية وكتبها المقدسة . وانتهى الأمر بإينوك بالإيمان بأن واجب اليهودى يحتم عليه العمل كى يصبح التاريخ قادرا على شفاء اليهود من الأوجاع التى الحقها الهولوكست بهم . وكذلك المساعدة فى تحرير الله من اخفاء نفسه عن شعبه المختار . وهو الأمر الذى لن يتحقق إلا عن طريق الاستمساك بحياة اليهود التقليدية والانخراط فى العبادة ودراسة العقيدة اليهودية . وهكذا تطور اينوك المرتد ليدخل حظيرة الايمان ويصبح نموذجا للابن الضال الذى اهتدى إلى سلامة الديانة اليهودية إما بسبب مشاهدته للهولوكست أو تحت إرشاد أحد الناجين منه كما حدث لشخصية باليب فى قصة «سفك الدماء» وشخصية فينجولد فى قصة «السباحة فى الهواء» . وكلا الشخصيتين استطاعا الاندماج فى المجتمع غير اليهودى . ولكن اليهود المتمسكين بدينهم ممن شاهدوا الهولوكست قاموا بإرجاعهما إلى حظيرة الايمان التقليدى . ويشتمل ذلك الجزء من رواية «الثقة» الذى يتناول شخصية اينوك موضوع الأمل الذى يداعب كل يهودى فى أن الله دون ريب سوف يعاقب الأشرار ويثيب الأبرار . وتبرز رواية «الثقة» الشبه بين سعى الامبراطور الرومانى الغاشم تيتوس إلى تدمير اليهود تدميرا شاملا وسعى هتلر إلى إبادتهم . والرأى عند أوزيك أن كلتا المحاولتين مكتوب عليهما بالفشل لأن اليهود سوف يبقون على قيد الحياة رغم كل المحاولات المبذولة لتدميرهم .

وتؤكد رواية «الثقة» وجود علاقة وثيقة بين الهداية إلى الدين الحق الذى يصل إليه اليهودى المنكوى بنار الهولوكست وبين قدرته على استجلاء هويته . فلا غرو إذا رأينا اينوك يتحول من العلمانية إلى الالتزام بالعقيدة اليهودية . واكتشاف إينوك

لهويته يعتبر بمثابة ميلاد روحى جديد . وتترسم شخصية باليب فى قصة «سفك الدماء» وفينجولا فى «السباحة فى الهواء» خطى اينوك الذى أرشده أحد الناجين من الهولوكست إلى دراسة التوراة والتلمود ومبادىء الأخلاق اليهودية وسنة الأباء والأجداد . هذه العودة إلى حظيرة الديانة اليهودية التى تدعو إليها أوزيك فى رواياتها تجعل كتاباتها شبيهة بكتابات مؤلفى الهولوكست اليهود أمثال شاؤول بيلو وآى . ب . سنجر وآرثر كوهين .

وفى أدبها القصصى اللاحق تقوم سنثيا أوزيك بتطوير ما بدأته فى رواية «الثقة» حيث أنها تتبع فى هذه القصص الأثر المميز الذى تركه الهولوكست فى حياة اليهود الذين هاجروا إلى أمريكا فى الفترة السابقة على الحرب العالمية الثانية والذين لم يشهدوا الهولوكست أو يجربوه بأنفسهم بل لم يعرفوا نتائجه المباشرة كما عرفها إينوك .

وفى عام ١٩٧١ نشرت أوزيك مجموعة قصصية بعنوان «الحبر الوثني وقصص أخرى »وتحتوى هذه المجموعة على قصتين تهتمان اهتماما مباشرا وواضحا بوزر الهولوكست الأخلاقى ومغزاه التاريخى وأهميته بالنسبة لليهود الذين لم يشاهدوه . وتحمل احدى هاتين القصتين عنوان «الحسد أو لغة البيديش فى أمريكا» فى حين تحمل القصة الأخرى عنوان «الحقيبة» وتصف المؤلفة قصة «الحسد» بأنها مرثية اندثار لغة البيديش واندثار اليهود الذين يتحدثون بها فهى تعتبرها : «تحيبا واحتفالا بذكرى ستة مليون يهودى يتحدثون بلغة البيديش ويرقدون تحت تراب أوربا وبذكرى جيلى الذى ترفرف عليه الحرية الأمريكية والذى تخلص من أدب أسلافه فى سخافته وغباوته وأنانيته . والحق أن جيلى من الكتاب اليهود الأمريكان ممن يبلغون الآن منتصف العمر تعاونوا دون قصد منهم مع النازيين فى استئصال لغة البيديش» .

تدور أحداث قصة «الحسد» حول شاعر بيديش مغمور اسمه أدلشتين وكاتب قصة البيديش مرموق اسمه يانكل أو مستروفر . وتعالج القصة صعوبة التأليف بلغة البيديش التى لم تعد مستعملة . وفى حسده من زميله يانكل الناجح والمشهور يعزو

ادلشتين نجاح زميله إلى شعبيته بين القراء غير اليهود واستجابته لرغباتهم فى قراءة كتب الجن وخوارق الطبيعة . وينعى الشاعر الفاشل الذى يحظى بعطف المؤلفة عليه اندثار لغة البيديش قائلا : «لقد ضاعت هذه اللغة وتم الاجهاز عليها . وأصبحت لغة مختفية .» والجدير بالذكر أن أدلشتين يعبر عن حسده من زميله بلغة أقرب ما تكون إلى اللغة المستخدمة فى وصف بشاعة الهولوكست . ولكن أدلشتين يشعر بالاحتقار لنفسه بسبب سماحه لأحقاده الشخصية بتحريكه وباستخدامه لغة الهولوكست التى كان خليقا بها أن تقتصر على وصف ما كابده اليهود من عذاب على أيدى النازيين وليس للتعبير عن أحقاده ومتاعبه الشخصية . فضلا عن أن كره نفسه لأنه نجا بجلده من الهولوكست ولم يمت مثلما مات بنو جلدته فى معسكرات الموت والاعتقال . فهو الآن يحتسى أقداح الشاى فى نيويورك .

وهناك وجه شبه بين شخصيتى اينوك فى رواية «الثقة» وادلشتين فى قصة «الحسد» حيث أن كليهما يشعر بالارتباط بالتاريخ اليهودى . ويدعو أدلشتين إلى العودة إلى كتب اليهود المقدسة واحياء لغة البيديش حتى لا تندثر تماما . ففى رأيه أن هذه اللغة قمينة بالقضاء على الاحساس بالغربة والعدمية الذى كابده اليهود الذين قدر لهم أن يعيشوا بعد الهولوكست لأن مثل هذا الاحساس ينتمى إلى حضارة الغرب ولا ينتمى إلى الدين اليهودى الذى يؤكد الحياة . ففى التلمود يعتبر من ينقذ حياة فرد واحد أشبه بمن ينقذ العالم كله . كما تتمتع لغة البيديش التى تحبذها أوزيك بجوانب ايجابية لأنها خير معبر عن أفكار اليهود وعن تحرر أفكارهم واسترجاعهم لثقافتهم الضائعة بدلا من الانصهار فى بوتقة ثقافات غريبة عنهم ومغايرة لثقافتهم فى بلاد الشتات .

وهناك فى المجموعة القصصية المشار إليها قصة أخرى عن الهولوكست بعنوان «الحقيبة» ترسم الصراع المحتدم بين يهودية وعشيقها الألمانى ومواقفهما المتضاربة من أحداث الهولوكست . فذكرى الهولوكست حية ونابضة فى قلب المرأة اليهودية فى حين أن الألمانى نسيه ورماه وراء ظهره . كان الألمانى واسمه جوتفرايد

هنيك يعمل طيارا فى ألمانيا فى فترة الحرب العالمية الأولى قبل هجرته إلى أمريكا حيث انصهر فى بوتقة الحياة الأمريكية . ولأنه آثر أن ينسى وقائع الهولوكست فقد عبر عن زرايته بالشعب اليهودى الذى لا يزال يذكر وجيعته من الهولوكست الذى مضى وانصرم وطواه النسيان . غير أن عشيقته اليهودية واسمها جنفيف تلومه على موقفه الهروبى من مأساة الهولوكست ولا تفوتها مناسبة إلا وسمت بدنه وذكرته بآثام النازية ومسئوليتها بل إنها توجه إليه تهمة التعاطف مع النازية . ورغم أن هنيك ينكر تعاطفه مع النازية ويعبر عن رفضه لها فإن أقواله اللاحقة التى تصدر عنه فى لحظات انفعاله الشديد تدل على أنه يحمل العداء للسامية وأنه شديد الاعجاب بواحد من ألد أعداء السامية هو الفيلسوف الألمانى المعروف شوبنهور . وتشير أوزيك فى قصة «الحقيبة» إلى يهود أسبانيا الذين اضطرتهم محاكم التفتيش إلى اتباع أسلوب التقية والتظاهر باعتناق المسيحية هربا من اضطهاد الكنيسة الكاثوليكية . وتعتبرها المؤلفة النموذج المسيحى الذى اتبعه النازيون فيما بعد فى إبادة اليهود . وفى وصفها للتوتر المحتدم بين جنفيف اليهودية وعشيقها الألمانى نرى المؤلفة تشير إلى معسكرات الاعتقال والصلبان المعقوفة كما تشير إلى الموسيقى الألمانية التى كان النازيون يعزفونها أثناء اقتيادهم لليهود إلى غرف الغاز . وقد تعمدت المؤلفة وصف هذه الموسيقى الصادحة بمفردات لغوية مستقلة عن الهولوكست .

وتشير قصة «الحقيبة» إلى سياسة الختل والخداع التى اتبعها النازيون مع اليهود قبل إرسالهم إلى معسكرات الموت وغرف الغاز . فقد طلبوا من كل يهودى أن يعد حقيبته استعدادا لركوب القطار الذى سينقلهم إلى أماكن أخرى لتوطينهم فيها فى حين أن محطة وصول هذا القطار هى معسكرات الاعتقال فى أوسشفتز وتشيلمنو وغيرها وعندما تسمع جنفيف عشيقها هنيك يقول إنه سوف يذهب إلى البلاد الاسكندنافية لأن هذه البلاد لم تقترف أية جريمة ضد اليهود فى حين أن ألمانيا تزخر بالمصانع والمداخن نرى جنفيف تصرخ فى وجهه قائلة : «لا تحدثنى عن المداخن ... فأنا أعرف نوع الدخان الذى يخرج من هذه المداخن الألمانية اللعينة» . وهذه اشارة

واضحة إلى المحارق النازية التى حولت أجساد اليهود إلى رماد .

وتدور قصة «سفك الدماء» حول يهودى علمانى يدعى باليب وتنتهى القصة بأن ينبذ هذا الشاب علمانيته وينضوي تحت لواء طائفة دينية متصوفة تعرف بالطائفة الهاسيدية . ويكتشف باليب أن جميع أعضاء هذه الطائفة من الناجين من الهولوكست حتى زعيم الطائفة نفسه خضع فى معسكر الاعتقال النازى لتجارب غريبة أجراها الأطباء النازيون عليه الأمر الذي شوه جسده وترك فيه الندوب والجروح . ويتلقى باليب تعليمه الدينى على يد الزعيم الروحى للطائفة الهاسيدية فيتعلم منه القوانين التى نص عليها التلمود الخاصة بيوم كيبور أو يوم الغفران كما يتعلم منه على وجه الخصوص ذبح الأضحيات الأمر الذى يذكره بمذابح الهولوكست .

وتطرح المؤلفة فى قصة «سفك الدماء» (١٩٧٠) موضوعا طالما شغل بالها وهو البحث عن الهوية اليهودية . وتشبه قصة «المرتزق» قصة «سفك الدماء» فى أن الاثنتين تجمعان فى إطار موحد بين تاريخ الهولوكست والبحث عن الهوية اليهودية . وتشير أوزيك فى رواية «المرتزق» إلى اثنين من المرتزقة أحدهما أسود تلقى تعليمه فى اكسفورد وشعر بالضيق من الحياة فى نيويورك؛ بسبب ازدحامها باليهود . أما المرتزق الآخر فهو يهودى بولندى اسمه ستانسلاف لوشينسكى لجا من اضطهاد كل من ألمانيا النازية وروسيا ووضع نفسه فى خدمة بلد إفريقية صغيرة وبالنظر إلى أن لوشينسكى من مواليد أوربا التى تحمل تراثا طويلا من معاداة السامية وكراهية اليهود فإنه يحاول الهروب من جوها الخانق إلى بلد أفريقي صغير يضع أمامها خدماته رغم أن اقامته فيها لم تتجاوز عاما واحدا تقريبا . ولم تقتصر معاناة هذا اليهودى على صنوف الاضطهاد التى شاهدها فى بولندا بل امتدت لتشمل تجاربه المريرة على أيدى القوات النازية التى غزت بولندا فى الحرب العالمية الثانية . ومن المفارقة أن نعرف أن هذا اليهودى ينحدر من والدين يهوديين استطاعا الاندماج فى الحياة البولندية . أما الابن فقد شعر بوطأة يهوديته عليه وزاد من هذه الوطأة انه كان أسمر اللون ويبدو مثل الغجر فى مظهره الخارجي . وعندما اجتاحت القوات النازية الأراضى البولندية فكر

والداه فى الهرب من بولندا تاركين ابنهما الطفل لدى عائلة فقيرة من الفلاحين البولنديين . ولكن النازيين اكتشفوا هروبهما فقاموا بقتلهما بالرصاص . وخافت أسرة الفلاحين البولندية من افتضاح أمرها واخفائها ليهودى عندها فتخلت عن الصبى وتركته فى غابة يواجه مصيره ويعيد الفلاحون البولنديون النظر فى موضوع الصبى اليهودى فيقرروا تبليغ السلطات النازية عنه لمحاولة استرضائها حتى لا تعيث فى قريتهم نهبا وسلبا . وهكذا يستقر فى وجدان الصبى أن يهوديته هى سر شقائه ونكبة ووبال عليه . تقول القصة عن رغبته الملحة فى الاختباء التى استمرت معه طيلة حياته حتى بعد نجاته من الهولوكست : «لقد ملأ الهلع والخوف قلبه لدرجة أنه شعر بضرورة اختبائه إلى الأبد . لقد نجا بحياته بسبب اختبائه . وهو لا يستطيع أن يتصور أن يعيش بقية حياته دون أن يختبىء» وعندما يكبر الغلام ويشب عن الطوق يصبح شغله الشاغل الاختباء من يهوديته فى الأقطار الأفريقية الصغيرة . وهكذا ينسى هذا اليهودى المختبىء تاريخه وثقافته .

وفى نفس العام الذى أصدرت فيه سنثيا أوزيك قصة «المرتزق» نشرت مقالا بعنوان «كل العالم يريد موت اليهود» تناولت فيه اندلاع الحرب بين العرب واسرائيل عام ١٩٧٣ وسعى العرب لإبادة اليهود بعد أن حاول هتلر ذلك . وترفض أوزيك اعتبار الهولوكست جريمة نكراء ضد الجنس البشرى بأسره وتذهب إلى أنه جريمة اقترفت ضد اليهود على وجه التحديد لأن التعميم فى هذه الحالة من شأنه أن يشجع العالم على تكرار هذا العمل .

وفى قصة «سفك الدماء» نرى أن البحث عن الهوية لا يتم فى اطار العداء بين اليهود وغير اليهود كما هو الحال فى معظم أعمال أوزيك الروائية بل يقوم فى اطار الخلافات الموجودة داخل العالم اليهودى نفسه . وبطل هذه القصة يهودى يتعلم بفضل اتصاله بطائفة الهاسيديين التسامح مع اليهود ممن لا ينتمون إلى ملته ويطرأ عليه تجديد روحى شامل يتعلم فيه حب اسرائيل .

وأيضا تشبه المجموعة القصصية التى أصدرتها أوزيك عام ١٨٨٢ بعنوان

«السباحة فى الهواء» رواية «الشقة» و قصة «سفك الدماء» فى معالجة موضوع الهولوكست . وتحذو قصة «السباحة فى الهواء» حذو قصة «سفك الدماء» فى أنها تصور المقابلة التى تتم بين اليهودي الناجى من الهولوكست واليهودى الأمريكى الذى لم يعرف الهولوكست أو يجربه . وتروى لنا قصة «السباحة فى الهواء» حكاية زوج وزوجة يشتغلان بالتأليف الروائى . واسم الزوج جيم فينجولد واسم الزوجة لوسى . وفى حين تطالع الزوجة روايات جين أو أوستن وتقرض الشعر ينصرف زوجها إلى القراءة المستفيضة فى تاريخ اليهود واضطهاد أوربا لهم فى القرون الوسطى . ولهذا نراه يؤلف رواية عن شخصية تاريخية يهودية اسمها مناحم بن زيراتش عاش فى أسبانيا فى القرن الرابع عشر وشاء حظه النجاة من مجزرة راح ضحيتها ستة آلاف يهودى فى يوم واحد ولكن عائلته لقيت مصرعها فيها . والجدير بالذكر أن زوجة جيم فينجولد (أى لوسي) لم تكن يهودية بل ابنة قسيس بروتستانتى لم تجد غضاضة فى الزواج من رجل من سبط اسرائيل . ورغم أن الأمر انتهى بهذه المرأة البروتستانتية بالتحول إلى الديانة اليهودية فإنها كانت نافذة الصبر مع اليهود الذين يثيرون ضجة كبرى لا مبرر لها حول الهولوكست ويستمرون فى اجترار مظالمه .

ويصف الجزء الأول من الرواية التقارب بين الزوجين فى حين يصف الجزء الثانى التباعد والفرقة بينهما . ففى هذا الجزء الثانى نرى الزوجة تنحى باللائمة على زوجها لاستغراقه فى الفكر والتاريخ اليهوديين . وترى فى هذا الاستغراق سببا فى عزوف رجال الفكر والأدب عنه عدم اهتمامهم به . ويقيم الزوجان حفلة فيمتنع كبار الأدباء عن حضورها وكعادته نرى الزوج مشغولا دائما بالحديث إلى ضيوفه عن اضطهاد اليهود ويصف لمدعويه كيف أن صدور الماجنا كارتا فى القرن الثالث عشر لترسيخ الديموقراطية والحرية فى انجلترا لم يحل دون اضطهاد الانجليز لليهود ثم طردهم من أراضيها بعد مرور قرون على استقرارهم فيها .

وتمهد أوزيك لروايتها عن الهولوكست بدرس فى التاريخ حول القرون التى تعرض فيها اليهود للاضطهاد تماما مثلما فعل آي. ب. سنجر عندما استعرض تاريخ

معاداة السامية فى أوربا كمقدمة لتصوير الهولوكست . غير أن لوسى لا تظهر أدنى تأثر بحديث زوجها فينجولد عن المجزرة التى تعرض لها اليهود فى لندن عام ١٢٧٩ بسبب اتهامهم بسفك دم طفل مسيحى لاقامة شعائرهم الدينية إلى جانب تعرض المعبد اليهودى فى ميونيخ للاحراق عام ١٢٨٥ لنفس السبب ورغم أن لوسى لم تتحرك مشاعرها بسبب استشهاد اليهود فى القرون الوسطى فإن المهاجر الذى استمع إلى زوجها تأثر بوصفه للفظاعات التى ارتكبت ضد السامية . وكذلك تألم جميع اليهود الحاضرين فى الحفل لرواية فينجولد عن الفظائع فى حين أن لوسى زوجته التى أظهرت تعاطفا مع بنى اسرائيل القدامى الوارد ذكرهم فى العهد القديم لم يبد عليها أى تأثر أو اهتمام بمصير اليهود الذين جاءوا بعد بشارة السيد المسيح ومعنى هذا أن اهتمامها باليهود كان اهتماما ذا طابع رومانسى محض . وقد لعب الخيال دورا نشيطا فى تأثرها الرومانسى بصلب المسيح ، الذى بدا حقيقة واقعة أشد ايلاما على نفسها من ملايين اليهود الذين أثبتت الوثائق أنهم راحوا ضحية الهولوكست . والرأى عند المؤلفة سنثيا أوزيك أن رد فعل المسيحى للهولوكست يختلف اختلافا جوهريا عن رد فعل اليهودى له . ويتجلى عدم اكتراث المسيحيين بفظائع الهولوكست فى عدم مبالاة لوسى بما لحق باليهود من إبادة وتقتيل وتقطيع للأوصال كما كان ضرب اليهود بالرصاص وخنقهم بالغازات السامة يثير فى نفسها السأم والملل ، الأمر الذى يذكرنا بسأم إليجرا من الجهود المضنية التى بذلها زوجها فاند فى رواية «الشقة» من أجل توثيق الهولوكست وتسجيل الاحصانيات والبيانات الخاصة بضحاياه . ورغم أن لوسى البروتستانتية تحولت إلى اليهودية فإنها ظلت فى أعماقها لا تشارك اليهود مشاعرهم أو تاريخهم .

وفى عام ١٨٨٣ نشرت سنثيا أوزيك واحدة من أهم رواياتها بعنوان «المجرة آكلة لحوم البشر» تدور حول طالب يهودى يدعى جوزيف بريل يدرس الفلك فى جامعة باريس فى فترة الاحتلال النازى لها مما اضطره إلى الاختباء فى قبو فى دير راهبات طوال فترة الاحتلال النازى . وترعى الراهبات هذا اليهودى ويزودنه بذخيرة هائلة من

الكتب الأدبية والفلسفية كان أحد القساوسة الراحلين يحتفظ بها في مكتبة يحدوهن الأمل في أن يعتنق هذا اليهودي الدين المسيحي في يوم من الأيام . والطالب جوزيف ابن تاجر سمك يهودي يتسم بالتقوى والورع . وفي خلال فترة اختبائه نجد أن هذا الطالب المتشكك في الدين يتوفر على دراسة كتابات مفكر يهودي فرنسي يدعى ادموند فيلج من بينها كتاب «اسمعي يا اسرائيل» و «لماذا أنا يهودي» «والولد النبي» وجميع هذه الكتب توضح فضل اليهود على الحضارة الغربية وبالذات على حركة التنوير الفرنسي . وادموند فليج لا يدعو إلى التمسك بأهداب الدين اليهودي فحسب بل هو صاحب مشروع فكري وثقافي يملك على جوزيف بريل كل تفكيره في أعقاب الحرب العالمية الثانية . ويتلخص هذا المشروع الثقافي الكبير في انشاء مدرسة فكرية تقوم على المزج بين حضارتين عظيمتين هما الحضارة الغربية والحضارة اليهودية التي غارت في أعماق جوزيف بريل منذ نعومة أظفاره تقول رواية «المجرة أكلة لحوم البشر» في هذا الشأن : «أن الدافع الاسرائيلي الواحد المقدس والوحي الأخلاقي الاسرائيلي هما أساس العبقرية الفرنسية». وفي كتابه «أرض الميعاد» يوضح فيلج عدم وجود أدنى تعارض بين الوطنية الفرنسية والثقافة الغربية من ناحية وبين القيم اليهودية من ناحية أخرى . وتوحي كتابات فيلج إلى جوزيف بريل بالعمل على التوفيق بين باريس وأورشليم أي بين أن يكون المرء فرنسيا شديد الارتباط بالحضارة الغربية وبين القناعة اليهودية بأن مهمة اسرائيل هي الوصول بوحدة الانسان إلى درجة الكمال من خلال وحدة الله . وتشير الرواية إلى مكتبتين احداهما ملك الحبر اليهودي الذي تعلم جوزيف على يديه والتي احترقت في الهولوكست النازي ومكتبة القسيس المسيحي الراحل التي لم يمسسها النازيون بسوء .

وتدور رواية «المجرة أكلة لحوم البشر» حول علاقة الحب والكراهية التي تربط جوزيف بريل بوالدة احدى تلميذاته واسمها بيرولا . وتدعى أمها هستر ليلت . وكان بريل قد أنشأ هذه المدرسة عقب هجرته من فرنسا إلى أمريكا هادفا إلى وضع مشروع ادموند فيلج موضع التنفيذ وخلال السنوات العديدة التي قضتها ابنتها بهذه المدرسة

تسعى أمها إلى تنبيه صاحب المدرسة جوزيف .ريل إلى أنه يعيش فى وهم كبير حين يظن أنه بامكانه مزج الحضارة الغربية بالحضارة اليهودية . فمثل هذا المزج فى نظرها ليس سوى شعار أجوف . فضلا عن اتهامها لمدرسى المدرسة بأنهم لا يهتمون بغرس الثقافة في عقول النشء قدرا اهتمامهم بالنظام والضبط والربط . وترسل الأم إلى صاحب المدرسة مجموعة من المقالات التى تبين فيها فشل منهجها الدراسى إلى جانب دعوتها له لحضور المحاضرات التى تلقيها فى هذا الشأن . ويجد جوزيف بريل نفسه مشدودا إلى حديث الأم عن المجرة الآكلة للحوم البشر . وهى مجرة هائلة تتكون من الغازات التى تجذب نحوها وتلتهم المجرات الأصغر حجما الأمر الذى يذكره بما حدث لليهود فى أوربا التى كانت تلتهم بنى جلدته بينما هو آمن فى ظلمة قبو الدير تماما مثلما تقوم أمريكا بالتهام الثقافتين الأوربية واليهودية أما فكرة الأم الثانية التى راقت لصاحب المدرسة وجعلته يحس بغفلته فتتعلق بابنتها بيولاه التلميذة بالمدرسة . فقد كانت ابنتها من النوع الساكن الصامت الذى لا ينم عن الامتياز أو يبشر بالتفوق . وشرحت الأم لصاحب المدرسة أن الصمت ينطوى على امكانيات ومواهب كامنة تنتظر الخروج إلى النور . لقد أخطأ جوزيف بريل والمدرسون فى مدرسته فى تقديرهم لقدرات هذه التلميذة فاعتبروها تلميذة خائبة ومتخلفة . غير أن الواقع كذب ذلك وأثبت أن هذا خطأ فادح فقد أصبحت هذه التلميذة فيما بعد رسامة يشار إليها بالبنان تخصصت فى رسم العدم فى لوحاتها التى تثير الخيال كما تثير عددا لا ينتهى من التداعيات . وهكذا بات من الواضح أن فكرة الأم عن العدم الذى يحمل فى احشائه الامكانيات والقدرات اللانهائية فكرة سليمة وليس هناك غبار عليها . وأحس بريل بغفلته لأنه نسى حقيقة يهودية تعلمها منذ نعومة أظفاره وهى أن الخليقة جاءت من العدم » .

ويعنى ما يمكن تفسير رواية «المجرة أكلة لحوم البشر» بأنها تحذير لليهود من أخطار الانصهار فى بوتقة الثقافة الأمريكية أو أية ثقافات أخرى غير يهودية . والرواية على أية حال تصور جوزيف بريل وهو نهب مقسم بين ثقافتين مغايرتين وعالمين

مختلفين . تقول الرواية فى هذا الشأن : «كان (جوزيف بريل) الذى تلقى تعليمه فى السوربون يشغل نظارة المدرسة ويدير منهجا مزدوجا . منهج يمكن تنفيذه ولا يمكن تنفيذه فى نفس الوقت . أو بالأحرى يمكن تنفيذه فى الخيال فقط فى حين أنه كان فى الحقيقة منهجا أمريكيا كله ... الأطفال يمثلون أمريكا والمدرسون يمثلون أمريكا حتى حوائط مصنع انتاج الكراسى يمثل أمريكا» .

وتتميز «المجرة آكلة لحوم البشر» عن روايات سنثيا أوزيك الباكرة فى أنها تتبع بدقة أكبر ردود الفعل المختلطة والمتباينة إزاء الهولوكست . وفى حين كانت أعمال أوزيك الباكرة تسجل ردود الفعل هذه وتصف الأدوار الثانوية التى يلعبها الناجون فى الهولوكست كشهود ومعلمين يهمهم تنبيه اليهود الأمريكان إلى مخاطر الاندماج الكلى فى الحياة الأمريكية نجد أن الشخصيات الأساسية فى «المجرة آكلة لحوم البشر» هى التى تلعب هذا الدور .

وتشبه هذه الرواية فى أسلوبها الواقعى ومناظرها الأوربية رواية «الثقة» كما أنها تشبه رواية «سفك الدماء» فى تناولها لموضوع الهولوكست كموضوع له أثره الفلسفى والعملى فى حياة الشخصيات . وتضيف الرواية بعدا جديدا إلى أدب الهولوكست الأمريكى يتمثل فى دمج المصادر الأدبية الدينية والعلمانية فى نسيج واحد .

وتتناول أوزيك فى هذه الرواية جذور العداوة المسيحية للسامية فى فرنسا . فضلا عن أنها تعتبر حكومة فيشى المتعاونة مع النازيين حكومة خانت اليهود وغدرت بهم . وأيضا يكتشف جوزيف بريل أن كتابات فولتير تدعو إلى العداء ضد اليهود . ومما يزيد من نفور جوزيف بريل من المجتمع الفرنسى المسيحى أن عاشقا فرنسيا للأدب يدعى كلود راوده عن نفسه فى شبابه فلما صده شن عليه كلود هجوما عاتيا عليه وعلى أمثاله من اليهود الأمر الذى نفره من الحياة الفرنسية وجعله يتعلق بيهوديته أكثر وأكثر ويعتقد بوجود علاقة بين العداء الفرنسى التقليدى لليهود المتمثل فى الكنيسة الكاثوليكية وبين خيانة حكومة فيشى للمهاجرين اليهود من روسيا وشرق أوربا الذين

اختاروا فرنسا كى تكون وطنا لهم . وقد اتضح لليهودى جوزيف بريل أن فرنسا التى تعتبر معقل الحرية والمساواة غارقة لأذنيها فى معاداة اليهود . ومعنى هذا أن حركة التنوير الفرنسى لم تنجح فى القضاء على كراهية يهود فرنسا التى تزهو بالحرية والإخاء والمساواة فهى التى اتهمت دريفوس البرىء بالخيانة العظمى . وعندما برأ القضاء ساحة دريفوس من تهمة الخيانة حدثت أعمال شغب بين الجمهور . أى أن خيانة حكومة فيشى لليهود واضطهاد النمسا وألمانيا النازية لهم ليس سوى استمرارللتنكيل الذى لقيه دريفوس اليهودى على يد السلطات الفرنسية ورغم أن جوزيف بريل تعود على العداء المسيحى ضد السامية فإنه احتار كثيرا أمام عداوة فولتير لها وخاصة لأن فولتير علمانى وملحد ينكر وجود الله . وقد دفعت هذه المفارقة الحبر اليهودى بولت أن يتقدم بتحليله الساخر من حركة التنوير . يقول الحبر فى هذا الصدد : «ان حركة التنوير خلقت شعارا جديدا مفاده «لا يوجد إله ولكن اليهود قتلوه» . وأمام هذه التحيزات التقليدية ينفر جوزيف بريل من دراسة الأدب الفرنسى وينصرف إلى دراسة الفلك التى لا تعرف التحيزات الشخصية . ولكن أحد أعضاء حكومة فيشى وهو أستاذ الفك بالجامعة استبعد اسمه من دراسة الفلك .تبدأ أحداث رواية «المجرة آكلة لحوم البشر» بوصف حريق لكتب يذكر القارىء بالحرائق التى كانت تندلع إبان فترة الهولوكست . وبينما يساعد جوزيف الحبر اليهودى فى حزم أمتعته استعدادا للهرب من زحف القوات النازية على فرنسا ، يحضر البوليس الفرنسى لمحاصرة المنطقة المجاورة . ويجرى جوزيف إلى البيت ليجد «كل شىء هادئا وفى مكانه . فالخبز على المائدة قد تم تقطيعه إلى شرائح غير كاملة . ويستغرق جوزيف عشرين دقيقة كى يعود إلى بولت الحبر اليهودى ليجد المنظر وقد تغير تماما حيث تحطم زجاج المحل الكائن أسفل شقة الحبر كما تم خلع باب شقته . وإلى جانب ذلك القيت كل الكتب التى سبق أن حزموها فى حقائب فى الليلة الماضية فى كومة . وتم احراق بعض هذه الكتب فتحولت إلى رماد كما تفحم بعضها الآخر فقط . فالغزاة أشعلوا فيها النار للتسلية.

والصورة التى ترسمها المؤلفة لهذه الحرائق تعكس صورة معسكرات الاعتقال

كما تعكس اهتمام المؤلفة بتسجيل الوقائع وتوثيق الأحداث ويصيب جوزيف بريل القلق على مصير عائلته فى بولندا وعلى أخواته الثلاث الأكبر منه سنا اللاتى كن يزمعن الهرب إلى السويد . ولا يختلف مصير عائلته فى شىء عن مصير غيرها من اليهود الذين تم جمعهم فى المعسكرات تمهيدا لأقتيادهم إلى غرف الغاز . وتعطينا أوزيك وصفا للمصير التعس الذى أنتظر اليهود والفرنسيين وخاصة المنحدرين من أصول أجنبية مثل عائلة جوزيف بريل فقد جمعهم النازيون فى العراء، وتحت شمس الصيف القائظ وتركوهم بدون طعام أو ماء لمدة خمسة أيام متتالية كما تركوهم محرومين من الصرف الصحى فى منطقة فيلدروم ديفير . وهى نفس المنطقة التى شاهدت المظاهرات الصاخبة ضد اليهود عام ١٩٣٧ والتى كانت سجنا مؤقتا للمهاجرين اليهود الألمان عام ١٩٣٩ وسجن النساء الأجانب عام ١٩٤٠ . ويلاحظ أن اللغة التى تستخدمها أوزيك لوصف هذه البشاعات مليئة بالأخيلة المتصلة بالخلاص والتطهير وبالآيات الواردة فى التلمود . وهكذا تنتقل المؤلفة من وصف الأعمال الوحشية التى تمارس فى باريس إلى لغة المعجزات والخلاص فى أرض الميعاد والواردة فى الكتاب المقدس .

ونظرا لأن فتاة مسيحية اسمها رينيه لى تيفر اكتشفت أختباء جوزيف بريل فى الدير فقد خشيت الراهبات أن تبوح الفتاة بهذا السر لأحد . ولهذا قامت اليهوديات فى أخريات الحرب بنقله إلى جرن الغلال الذى كان أكثر تعرضا للأخطار من القبو الآمن الأمر الذى جعله يتذكر حياة بنى جلدته التعسة فى ظروف مماثلة أو ظروف أشد منها سوءا .

ومن الواضح أن عنوأن الرواية «المجرة لأكلة للحوم البشر» تشير إلى ممارسات النازية للقضاء على اليهود تماما كما تقضى المجرة الكبيرة على المجرات الأصغر حجما وتبتلعها .

وأهدت أوزيك أحدث رواياتها عن الهولوكست «مسيح ستوكهولم» (١٩٨٧) إلى الروائى اليهودى الأمريكى فيليب روث . وعندما كان روث مسئولا عن تحرير

سلسلة بنجوين «كتاب من أوربا الأخرى» كلف أديبتنا بمراجعة كتاب من تأليف يهودى بولندى اسمه برونر شولتز الذى يحمل عنوان «شارع التماسيح» . وفى مقال كتبته سنثيا عن هذا المؤلف تراها تصفه بأنه «واحد من أكثر المؤلفين تمتعا بالخيال الأدبى فى أوربا الحديثة . كما أنها ركزت اهتمامها على سيرة حياته التى تروى مآسى الهولوكست التى تعرض لها . فضلا عن اهتمامها بإنتاجه الروائى وفى مقالها تنعى سنثيا فقدان كانت عظيم اغتالته فرقة مخابرات ألمانية في مدينة محلية عديمة الأهمية في جاليشيا الشرقية . وفي خلال الزيارة التي قامت بها سنثيا إلى السويد تواترت أخبار بالعثور على مخطوط رواية من تأليف برونر شولتز بعنوان «المسيح» . ورغم أن هذه الأنباء لم يكن لها أى أساس من الصحة فإنها أوحت لها بتأليف رواية بعنوان «مسيح ستوكهولم» (١٩٨٧) . وظنت سنثيا فى بادىء الأمر أن بمقدورها تأليف قصيرة مستوحاة من رواية شولتز ولكنها أمضت عامين كاملين تحولت فيها هذه القصة القصيرة إلى رواية كاملة . ورغم أن هذه الرواية لا تقول إن شخصياتها تنحدر من أصل يهودى فأسماؤها سويدية إلا أنها فى الواقع شخصيات يهودية تركز كل تفكيرها على ما يجرى من محاولة القضاء على التاريخ اليهودى . وعلى الرغم من هنا فإن سنثيا تذهب إلى أن جو الرواية العام وتصويرها لقتل برونو شولتز يؤكد وجود عنصر الهولوكست فيها . وتكشف الرواية عن تأثرها بعدد من الأدباء وعلى رأسهم برونو شولتز وهنرى جيمس وآى . ب . سنجر وفيليب روث الذى تتردد أصداء كتاباتهم فى الرواية .

تدور أحداث رواية «مسيح ستوكهولم» حول شخصية محورية تدعى لارس أنديننتج الذى يشبه المؤلفة فى ولعه الشديد بالأدب ويعمل لارس ناقدا أدبيا لجريدة يومية سويدية وهو شديد الاهتمام فى كتاباته الصحيفة بمعالجة كتاب وسط وشرق أوربا . ولارس مهاجر بولندى قامت بتربيته أسرة سويدية . وهو قارىء نهم لا يكف عن الاطلاع . ومن فرط إعجاب لارس بشخصية برونو شولتز نراه يفكر فيه دائما ويعتبر نفسه بمثابة ابن له لدرجة أنه تعلم البولندية خصيصا كى يتمكن من مطالعة

كتب شولتز فى أصولها .

وتبرز رواية أوزيك الخسارة التى تكبدتها الحضارة نتيجة الهولوكست وهلاك الكثيرين من الكتاب والفنانين والفلاسفة والعلماء والدارسين ورجال اللاهوت . ويختلف لارس عن بقية شخصيات أوزيك اليهودية في أن تفكيره لا يتركز في يهوديته . ورغم أن صلته بالدين اليهودى واهية فإنه على أية حال يجد تطابقا بين حياته وتاريخ اليهود . ولا تكتفي المؤلفة بتذكر الكاتب برونو شولتز الذى هلك في الهولوكست بل تشير أيضا إلى شاعرة الهولوكست نيلى ساشيس . وإلى جانب لارس البولندى توجد فى الرواية شخصية من أصل ألمانى تدعى الدكتورة هيدى إكلوند تنافسه في البحث والاستقصاء عن كل شيء يتعلق بشولتز . وفى حين ركز لارس بحثه عن إنتاج شولتز الأدبي وخاصة مخطوطة رواية «المسيح» نجد أن اكلوند قصرت اهتمامها على ظروف مقتل شولتز في الهولوكست على يد رجل مخابرات نازى . والذى دعا اكلوند إلى الاهتمام البالغ بمقتله أنه كانت لها تجربة واسعة وعريضة بشأن أحداث الهولوكست المأساوية ويزيد من تشابك حبكة الرواية وتعقيدها أن امرأة اسمها أديل زعمت أن مخطوطة رواية «المسيح» التى ألفها الراحل شولتز وقعت فى يديها . وبقدر ما فى رواية أوزيك «المسيح فى ستوكهولم» من سريالية فى السرد نلاحظ التزاما بالواقعية وتوثيقا للأحداث . ولكن لارس على أية حال يحجم عن نشر المخطوطة لأنه يتشكك فى صحتها بسبب مزاعم كل من اكلوند وأديل .

هذا عن عالم سنثيا أوزيك الروائي اللاحق . أما عن أعمالها الباكرة فيجدر بنا أن نذكر أن المجموعة القصصية التى ألفتها أوزيك عام ١٩٧١ بعنوان «الحبر الوثنى وقصص أخري» تمهد لظهور عالمها الروائي اللاحق . وهو عالم يتميز بالخيال والانفراد وهو عالم يسكنه يهود يعيشون فى أمريكا دون أن يتأمركوا ويستخدم اللغة الانجليزية للتعبير عن أدق أفكار اليهود وخلجاتهم دون أن يهتم بمشكلة الانصهار فى بوتقة الثقافة الأمريكية . وتدور أبرز قصص المجموعة وهى بعنوان «الحبر الوثني» حول دارس للاهوت اليهودى يقوم بزيارة أرملة حبر زميل له اسمه ايزاك كورنفليد

اعتنق الوثنية وأقدم على الانتحار فى حديقة عامة . وتعطى الأرملة للراوى الكراسة التى دون فيها زوجها ايزاك تطوره الروحى وردته عن الدين اليهودى إلى الوثنية والرواية توضح اختفاء الوثنية الحديثة تحت اقنعة مفاهيم حديثة مثل المذهب الانسانى والايكولوجيا (دراسة البيئة) : وتشمل «الحبر الوثنى وقصص أخرى» عنصرا مهما استخدمته المؤلفة فى أنتاجها الأدبى بشكل عام وهو ظهور المعجزات والخوارق بشكل طبيعى فى الحياة اليومية المألوفة وهى أيضا تعكس الصراع الذى احتدم عبر قرون بين الديانة اليهودية والأفكار الهيلينية أو الاغريقية .

٨ - آرثر ألين كوهين (١٩٢٨ - ١٩٨٦)

Arthur Allen Cohen

سيرة حياته :

ولد آرثر ألن كوهين الروائي ودارس اللاهوت والناقد الفني في مدينة نيويورك يوم ٢٥ يونيه ١٩٢٨ . وهو ينتمي إلى الجيل الثاني من اليهود المهاجرين إلى أمريكا . ورغم يهوديته بحكم المولد فقد حرص في مقابلة صحفية نشرت بعنوان «لماذا اخترت اليهودية ؟ على القول أنه ولد من جديد وأنه اهتدى إلى الدين اليهودي . ويخبرنا كوهين انه نشأ وترعرع في أسرة لا تراعي أو تقيم الشعائر الدينية . فقد كانت هذه الأسرة تحرص على النجاح وفقا للمفاهيم الأمريكية العلمانية . وعندما اتضح لكوهين أثناء دراسته في جامعة شيكاغو أن الفكر المسيحي يضرب بجذوره العميقة في الثقافة الغربية لاحت له فكرة اعتناق الدين المسيحي ، الأمر الذي دفع بعائلته إلى الاسراع بعرضه على حبر يهودي هو ميلتون ستتاينبرج . وساعده هذا الحبر على اكتشاف اليهودية واتخاذ قرار واع باعتناقها . ولكن اعتناقه للدين اليهودي لم يمنعه من الاستمرار في استجلاء القضايا العلمانية المتصلة بالحضارة الغربية . ولهذا نراه في كتاباته اللاهوتية يستقصي الفرق بين ما يسميه اليهودي «الطبيعي» واليهودي «الخارق للطبيعة». وهو يعرف اليهودي الطبيعي بأنه اليهودي التاريخي الذي تحركه الخصوصية القومية والعوامل الزمنية والحضارية . أما اليهودي الخارق للطبيعة فهو في نظره نتاج اختيار الانسان الانتماء إلى مجتمع يهودي يتجاوز التاريخ ويستطيع استشراف الخلاص . والرأي عند كوهين أن كلا الجانبين موجود في كل فرد وأن الواجب يقتضي من هذا الفرد الالتزام بالدين على نحو يجعله يحمل الاحترام والتقدير لكلا الجانبين . يقول كوهين في بحثه «اليهودي الطبيعي واليهودي الخارق للطبيعة» : «إذا شاء الدين اليهودي تحقيق طبيعته الأصيلة فيجب عليه أن يعيد اكتشاف علاقته بالثقافة . ولا أعني بذلك الثقافة اليهودية فحسب بل أيضا ثقافة كل زمان

ومجتمع ..»

حصل كوهين على شهادة البكالوريوس من جامعة شيكاغو عام ١٩٤٦ ثم شهادة الماجستير فى عام ١٩٤٩ . ولكنه نبذ بحثا كان يجريه بعنوان «استخدام المجاز واللغة الميتافيزيقية فى الأدب » من أجل الالتحاق بالدراسة فى اتحاد المعهد اللاهوتى ثم فى المعهد اللاهوتى اليهودي ، وبعد ذلك انصرف إلى الاهتمامات الأكاديمية فأجرى عددا من البحوث النقدية بدأها ببحثه عن مارتن بوبر . ثم اشتغل ناشرا قبل أن يصدر روايته الأولى . وتدل كتاباته على تأييده لرأى جان بول سارتر الذى يعتبر أن الفنان يخلق أو يصنع العالم من جديد . وهو رأى يمزجه كوهين بالدين . وإلى جانب أعماله الروائية اللاهوتية كتب كوهين عن الأديب الروسى اليهودى المنشق على ستالين أوسيب ماندلستام والفنانة سونيا ديلوناى وأهمية الطوبوغرافيا فى المذهب الفنى العدمى المعروف بالدادية . وفى عام ١٩٥١ ساهم كوهين فى انشاء دار نشر اسمها نونداى نشرت كتابات الناقد الانجليزى مدلتون مرى عن كيتس وبعض كتابات أي. ب سنجر . وفى عام ١٩٥٥ قام بتصفيه دار النشر نونداى وأسس دار نشر ميريديان بوكس التى نشرت بعض أعمال هاناه أرندت وفيليب راهف وليونيل تريلينج واريك أورباخ . وقرب وفاته أفتتح كوهين وزوجته الرسامة إيلين لوستيج كوهين معرضا ومكتبة متخصصة تتاجر فى الوثائق التاريخية الفنية النادرة .

الهولوكست فى أعمال آرثر ألن كوهين :

ألف كوهين عددا من الروايات تحمل العناوين التالية : «سنوات النجار» (١٩٦٧) – «أيام سيمون شتيرن» (١٩٧٣) – «بطل فى زمانه» (١٩٧٦) – و«سرقات» (١٩٨٠) – «أمرأة تدعو للاعجاب» (١٩٨٣) – «فنانون وأعداء» (١٩٨٧) . فضلا عن العديد من المقالات والكتابات النقدية . ولم تصب روايته الأولى «سنوات النجار» نجاحا كبيرا .

والرأى عند مؤلفنا أن كل اليهود سواء أصابهم الهولوكست بالتشوهات

البدنية أم لا يعانون من آثاره النفسية حتى بعد نجاتهم منه . وهو يصف الناجين من الهولوكست بأنهم ذلك الجيل الذى يحمل الندوب دون الجروح .

ويذكر أنه يتعين على هذا الجيل أن يتعلم من التاريخ وأن يجد للهولوكست معنى يقول كوهين فى هذا الشأن :

«إن الهول (أى الهولوكست) أكبر من أن يكون حدثا تاريخيا . فهو يمثل تصعيدا لأكثر المخاوف اليهودية فظاعة . ومؤداها أن الشعب الخالد (أى بنى اسرائيل) لم يعد خالدا وأن شعب الله المختار منبوذ وأن الشعب اليهودى بشر غير مخلد . وإذا كان قد استقر فى الوعى اليهودى شيء مؤكد فهو اسطورة حصانة اليهود من الفناء وواجبهم الأخلاقى الذى يحتم عليهم الصمود والتشبث . ورغم ذلك فقد أمكن فى ستة أعوام القضاء تقريباً على ثلاثة آلاف عام من هذا الصمود وَ الجلد والتحمل . فهل هناك أية غرابة فى اعتبار هول الهولوكست سببا يجعل اليهود يعيدون النظر فى تاريخهم وفى تقييمهم لأنفسهم .؟ »

تتميز رواية «أيام سيمون شتيرن» (١٩٧٣) بالثراء الثقافى والتعقيد الفلسفى . وهى تجسد أساطير الكتاب المقدس والخطاب اللاهوتى القائم على التلمود. وفوق ذلك كله نظرية الخلاص على يد المسيح المخلص وتتلخص فى الاستفادة من دروس الهولوكست» .

وقد امتدحت أوزيك كوهين لما يتمتع به من بصيرة لماحة وعلم غزير لا يتوفر لغيره من الروائيين . وقد أتقن كوهين دراسة النصوص اليهودية المقدسة واللاهوتية . وتقوم الرواية بفحص التجربة اليهودية فى أوربا من منظور اللاجئين والناجين من الهولوكست والدراسات الوثائقية . وهو مثل معظم الكتاب الأمريكان لا يركز مباشرة على تصوير معسكرات الاعتقال بل يصور الهولوكست فى اطار تاريخ اضطهاد السامية مثلما فعل أندريه شوارتز بارت فى رواية «آخر العادلين» حيث أنه يسجل نماذج من محاكم التفتيش الأسبانية وحملات الابادة ضد اليهود فى روسيا . وهو يركز

فى روايتـه «فى أيام سيـمون» أكـثـر من أى روائى أمـريكى آخـر على تخلى قـوات الحلفاء عن يهود أوربا وفشل القيادات اليـهودية فى أمريكا فى لفت نظر العالم إلى هذه المأساة أو اقناع الحكومات بالتصدى لهذا الاضطهاد .

وتسجل الرواية مجهودات سيمون شتيرن اليهودى الذى جاءته البشارة بأنه سيلعب دور المسيح المخلص وأنه سوف يتولى مهمة انقاذ واعادة توطين عدد من الناجين من معسكرات الموت . والرواية تبدأ فى بولندا فى أواخر القرن التاسع عشر بإعلان زواج والدى سيمون ومولد ابنهما المسيح المنتظر ثم هجرته إلى أمريكا حيث أصاب سيمون ثراء فاحشا . وتنتهى الرواية بالفترة اللاحقة على الهولوكست التى يمارس فيها سيمون نشاطه فى انقاذ بنى جلدته . ومن أبرز الاسهامات التى أضافتها هذه الرواية إلى أدب الهولوكست فى أمريكا هو استجلاؤها بشكل لا نظير له لأثر الهولوكست على الفكرة اليهودية القديمة القائلة بأن الخلاص سوف يجيء عن طريق المأساة التاريخية . والرواية فوق كل شيء تبشر بمستقبل جديد للكتابات اليهودية بفتح موضوع كيفية اعادة تنظيم الدين اليهودى فى بلاد الشتات بعد تدمير اليهود فى الشتات الأوربى . والرواية – وهى خليط من الفكر الدينى اليهودى والتاريخ والاجتماع تشتمل على المقال والحكاية والأحلام والمواعظ والخطابات والتأملات والتعليقات . وتربط بين جميع هذه المتفرقات شخصية كاتب من غزة اسمه ناثان يقدم نفسه ككاتب سيرة القديسين والأنبياء . وهو يدون حياة المخلص سيمون شتيرن أحد الناجين من معسكرات الموت النازية . وتنبع مصداقية ناثان من كونه أحد شهود الهولوكست . أصيب ناثان بالعمى فى الهولوكست ولكن هذا لم يحل دون تمتعه بالبصيرة الأخلاقية النافذة . وتقدم الرواية صورة للعداء المسيحى والنازى ضد السامية . وتحكى لنا الرواية عن ارغام اليهود فى أسبانيا على اعتناق الدين المسيحى مثل الدون رافائيل أكوستا الذى ظل فى سريرته يدين باليهودية رغم تحوله الظاهر إلى العقيدة المسيحية . وتلقى الرواية الضوء على الفرق بين عداوة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية وعداء النازيين لليهود . ويجادل أكوستا إن اليهود واليهودية سوف يبقيان

على الرغم من صمت الله على ما يلحق بهما من دمار . وهو رأى ينطوى على الايمان بالخلاص الأمر الذى يوحى إلى سيمون شتيرن بتأسيس جمعية لإنقاذ وبعث اليهود .

وينتهى الجزء الأول من الرواية بأن نرى سيمون شتيرن يستمع إلى خطاب يلقيه تشايم وايزمان فى ١ مارس ١٩٤٣ فى ميدان عام . ويرى شتيرن أثناء اقترابه من الميدان امرأة ترفع لافتة كتب عليها : «تذكروا ما حدث على ظهر سانت لويس» . ويشير المؤلف هنا إلى المصير الذى لقيه ٩٠٧ مهاجرا يهوديا من ألمانيا كانت السفينة سانت لويس تقلهم دون أن يجدوا دولة واحدة ومن بينها الولايات المتحدة على استعداد للسماح لهم بالإقامة فيها الأمر الذى أرغمهم على العودة إلى أوربا ليلقوا حتفهم . وفى هذا الاجتماع علم سيمون شتيرن أن النازيين قد قاموا فعلا بإبادة اثنين مليون يهودى . ويسمع تأكيدات الرئيس روزفلت «إن النازيين لن ينجحوا فى إبادة ضحاياهم» ولكن كلام الرئيس روزفلت فشل فى اقناعه فى حين أنه اقتنع بكلمات وايزمان الختامية التى تقول : «لقد تم تدميرنا عن طريق مؤامرة صمت» وعقب القاء وايزمان خطابه يصور المؤلف سيمون شتيرن وقد تصور أن حلما راوده عن خيبة أمل اليهود فى عدم اكتراث الحكومة الأمريكية بما حدث لهم فى الهولوكست النازى ويصور هذا الحلم اجتماعا عقدته القيادات اليهودية مع روزفلت فى ٨ ديسمبر ١٩٤٢ . ويظهر روزفلت فى الحلم وقد أصاب الشلل جسده وهو شلل يستخدمه المؤلف كرمز لسلبيته فى التعامل مع الهولوكست . ويشير هذا الحلم إلى عدم اهتمام الولايات المتحدة بموت الجماهير اليهودية . وأيضا يشير هذا الحلم إلي الشكوى من الاضطهاد التى يجأر بها اليهود وسعى وزارة الخارجية الأمريكية إلى التهوين من شأن خسائرهم . فضلا عن قول روزفلت ان وثائق الصليب الأحمر تتحدث عن نظافة المعسكرات وعدم وجود دلائل على سوء معاملة أو تفشى الأمراض . كما أن الوفيات فيها كانت قليلة بسبب تميز الخدمات الطبية فى المعسكرات . ويحتوي التقرير الرسمى الذي أصدره الصليب الأحمر على ما يلى : «كانت المعسكرات فى أوربا الشرقية فى جوهرها معسكرات حجز بينما المحجوزون ينتظرون اعادة توطينهم فى أماكن أقيمت بعيدا عن

خطوط القتـال . ويبـدو أن الألمان كـانوا عـازمين على إعـادة توطين السكان ومن ثم فالحديث عن إبادة اليهود يعتبر شيئاً غير مسئول» .

ويعترض أعضاء الوفد اليهودى المجتمع مع روزفلت على تقارير الصليب الأحمر ويقدمون شهادات الهاربين من النازية والبولنديين الأحرار التى تدل على قيام الألمان بتدمير اليهود . ومثل هذه الشهادات تفرق بين حوادث القتل التى وقعت فى المعسكرات الألمانية حيث توفى مائة يهودى ثم مائتا يهودى فى أسبوع واحد وبين المجازر التى حدثت لليهود فى معسكرات الاعتقال فى أوربا الشرقية . ويرد روزفلت على هذا قائلا بقوله إن الحرب تؤدى إلى قتل الكثيرين دون أن يعبأ بالتقارير اليهودية عن عدد الضحايا . وهكذا يجد اليهود أنفسهم عاجزين عن إقناع الرئيس الأمريكى بوجود فرق بين الذين يموتون فى حومة الوغى والمدنيين الذين يموتون نتيجة فوضى الحرب وبين الاختيار المنظم لليهود بهدف إبادتهم . ويحلم سيمون شتيرن بأنه يتوسل إلى الرئيس كى ينقذ اليهود الأسرى من براثن النازية عن طريق دفع فدية عنهم . ويذكر هذا التوسل القارىء بما حدث للمهاجرين اليهود المتوجهين فى فترة الحرب العالمية إلى الأراضى الأمريكية وكيف أن أمريكا اتبعت سياسة معادية للسامية فقد رفضت نزولهم فى أراضيها رغم علمها بأن مثل هذا الرفض معناه نجاح برنامج هتلر فى إبادة اليهود . ويدل هذا الحلم الذى يتصور سيمون شتيرن أنه رآه على استخدام المؤلف كوهين لعنصر السخرية .

ويهدف سيمون إلى الاضطلاع بأعمال الخلاص وإنقاذ البقية الباقية من بنى جلدته من الهلاك بعد أن عرف من الخطاب الذى ألقاه وايزمان فى ميدان حدائق ماديسون أن عدد ضحايا الهولوكست وصل إلى اثنين مليون يهودى وأن يهود أوربا مهددون جميعا بالإبادة . ويدرك سيمون فى عام ١٩٤٣ أن مهمة انقاذ اليهود من نصيبه فكرس نفسه وثروته لها ووهب هذه الثروة إلى جمعية إنقاذ وبعث اليهود التى أنشئت من أجل الإحياء الروحى للناجين من الهولوكست . ويقيم سيمون مجتمعا معزولا عن المجتمع الأمريكى يقترح إعادة توطين اليهود فيه بحيث يتوفرون على

اتباع الأساليب اليهودية التقليدية فى الحياة واكتساب المعارف بعيدا عن أية محاولة للأنصهار فى بوتقة المجتمع الأمريكى . وأيضا تهدف الجمعية إلى تسجيل شهادات الناجين من الهولوكست . ويتم بلوغ هذا الهدف عن طريق استجلاء تاريخ الشتات اليهودى ودراسة معاداة السامية من الناحية التاريخية وهى الأساس الذى مهد لظهور النازية . فضلا عن استجلاء فشل الحكومة الأمريكية فى مواجهة الهولوكست النازى وحماية اليهود منه .

ويتطرق المؤلف كوهين إلى فشل الصحافة الأمريكية فى تغطية أخبار الهولوكست ويشير إلى تهوينها من الخسائر اليهودية . وبذلك تكون الصحافة الأمريكية قد شاركت وزارة الخارجية الأمريكية فى التهوين من شأن هذه الخسائر وفى عدم الالتفات إلى التقارير الموثوق بها . تقول الرواية فى هذا الصدد : «تنتقل الأخبار إلى سويسرا ومن سويسرا إلى لندن ومن لندن إلى نيويورك ويقومون بإعداد المذكرات . ويقوم الموظفون المدنيون فى المستشفيات ومراكز اللاجئين فى سويسرا بتدوين المعلومات وكتابتها وإرسالها بالبريد إلى الصليب الأحمر الدولى . ويتحدث الصليب الأحمر الدولى إلى لندن قائلا : «بهذه المناسبة توفى عشرة آلاف آخرون فى معسكرى موثوسن وتريبلينكا . رجاء تبليغ نيويورك .»

ومن الواضح أن مثل هذه الكلمات تستهين بما حدث لليهود وتشير إلى وجود مؤامرة صمت وإلى عزوف الحلفاء عن عمل شىء ايجابى لإنقاذ اليهود . ولكن إذا كانت الصحافة الأمريكية قد استهانت بفداحة ما حدث فى الهولوكست فإن صحافة اليديش سجلت فداحة وخطورة الأمر . غير أن صحيفة النيويورك تايمز نشرت بعض المواد الدالة على فداحة الموقف ولكنها نشرتها فى صفحاتها الداخلية الأخيرة . ويداوم سيمون شتيرن ومساعده الدكتور كلاى كل شهر على نشر قائمة بعدد الضحايا المتزايدة فى صحف اليديش .

وينتهى الجزء الثانى من الرواية بذكر سفينة سانت لوى وموافقة العالم على تدمير اليهود . ويحدثنا المؤلف فى هذا الصدد عن رفض قوات الحلفاء عام ١٩٤٤

العرض الذى اقترحه النازيون لمقايضة بقايا اليهود المجرمين بعدد من عربات النقل والامدادات . فقد قام النازى المعروف أدولف ايخمان بإرسال يهودى مجرى تقول الرواية ان اسمه جويل براند قرب نهاية الحرب للتفاوض مع الحلفاء على استبدال مليون يهودى بعشرة آلاف عربة والطعام والامدادات الطبية . وفى خطاب مؤرخ بتاريخ ١١ يوليه ١٩٤٤ يقول براند ان ايخمان المكلف من قبل النظام النازى بإبادة اليهود فى كل من بولندا وتشيكوسلوفاكيا عرض عليه أن يتوسط لدى الحلفاء واعدا إياه بالامتناع عن إبادة مليون يهودى مجرى فى مقابل أن يعطيه الحلفاء كمية من الطعام والشاحنات (بمعدل شاحنة لكل عشرة يهود أى مقابل عشرة آلاف شاحنة) . وتضيف الرواية أن السلطات البريطانية عرقلت مساعى براند للتفاوض حول هذه المقايضة فقد ألقت القبض عليه وأودعته فى سجن بالقاهرة . وتتهم الرواية الأمريكان بالضلوع مع الانجليز فى اعاقة التفاوض من أجل الصفقة غير أن شتيرن لم يقف مكتوف اليدين أمام مؤامرة الصمت فقام بإرسال ستة ملايين دولار إلى النمسا للعمل على إنقاذ فلول اليهود فى المجر من القوات الروسية الزاحفة عليها بعد أن دحرت القوات النازية المحتلة . فضلا عن أنه أرسل كمية من الذهب قيمتها مليون دولار لإنقاذ حفنة من اليهود تحت الحماية السويدية ويعبر شتيرن عن يأسه من سياسة التخاذل التى اتبعها الحلفاء نحو اليهود . فقد كتب إلى زميله الدكتور كلاى يقول : «يجب أن نبدأ بالاعتراف بحقيقة مفادها أن اليهود كم مهمل يمكن الاستغناء عنه » وبالنظر إلى ادراكه أن عدد الضحايا اليهود سوف يصل فى نهاية الحرب إلى خمسة ملايين فإنه يركز اهتمامه على إنقاذ البقية الباقية منهم . ولهذا السبب نرى شتيرن فى أعقاب الحرب يسافر إلى أوربا لإنقاذ الأحياء من اليهود الذين هلكوا فى معسكرات الاعتقال وترحيلهم للإقامة فى المركز اليهودى الذى أنشأه ويقوم المخلص سيمون شتيرن بانتقاء اليهود الذين يعيد توطينهم فى مركزه من مختلف الطبقات والخلفيات والوظائف كى يثبت للعالم أن اليهود لن يندثروا أبدا .

ورغم أن كوهين لا يستخدم الهجاء إلا نادرا فإنه يستغرق فى استخدامه

للتعريض بعدم اكتراث الحلفاء بإبادة اليهود . وهو لا يكتفي بالسخرية من بريطانيا وأمريكا بسبب حجبها لأخبار الهولوكست في الفترة من ١٩٤٢ حتى ١٩٤٣ بل يسخر أيضا من سوء إدارة البرنامج الذي وضعته الأمم المتحدة لغوث اللاجئين . وسخرية كوهين من البريطانيين تفوق سخريته من الأمريكان الذين يصفهم بالنشاط والبراجماتية ومنتهى السذاجة . ويتهم المؤلف النمساويين بالإفراط في معاداة السامية رغم شدة احتفالهم بفن الأوبرا وبالحفلات الموسيقية الراقية : ورغم هذا المظهر الراقي فإن الجماهير النمسوية تتصف بالعداء الشديد لليهود لدرجة أن السلطات النمسوية تساهلت مع حوادث الشغب التي كانت تحدث يوميا عام ١٩٣٨ .

وعلى النقيض من ابشتين وسنجر وإلمان الذين يركزون في أدبهم على تصوير الهولوكست في بلد واحدة نرى كوهين يصور جماعة من الناجين منه ينتمون إلى جنسيات مختلفة الأمر الذي يوسع رقعة تجربة الهولوكست . وأسلوب كوهين في تناول الهولوكست يختلف عن أسلوب الآخرين في أنه يستخدم لمحات خاطفة من الذكريات عن معسكرات الاعتقال بدلا من الاستفاضة والاستغراق في وصف هذه الذكريات . ويروي لنا ناثان تاريخ الهولوكست الذي يبدأ بعودته إلى المجر في منتصف الثلاثينات من فلسطين حيث كان يصاحب عمه الضرير في رحلة توبة إلى الأراضي المقدسة في فلسطين . وبعد عودته إلى أوربا استقر فيها ليتوفر على دراسة المذهب الصوفي اليهودي المعروف بالهاسيدية . وبالنظر إلى أنه كان يعيش في قرية نائية قرب الحدود المجرية فإنه لم يشعر بالهجوم النازي حتى بدأ في سماع قاذفات القنابل الألمانية وهي تقصف المواقع المجرية . وبعد ذلك ألقى النازيون القبض عليه وزجوا به في معسكر اعتقال تمهيدا لنقله إلى معسكر أوسشفتز . ويروي ناثان ظروف نجاته من الموت عام ١٩٤٣ ومعاناته من المرض والتضور جوعا . يقول ناثان : «كدنا بكل تأكيد أن نتضور جوعا ... وقد مات يهودي طاعن في السن في فراشه المجاور لي . راقبته وهو يموت . كان ذلك في منتصف الليل . وتحت مخدته وجدته يحتفظ بثلاث حبات من البطاطس المسلوقة وجزرة وقطعة خبز . فالتهمتها على الفور فقد خشيت إذا أتى

الصباح أن يأتى آخرون ويبحثوا عن هذا الطعام ويأخذونه منى إذا راودتهم الشكوك فى أنى أخفيه عنهم» .

ويدفع الرجل ثمنا باهظا لنهمه والتهامه هذا الكم الهائل من الطعام فقد شعر بالوجع في بطنه وبتقصلات الاسهال . وفى صبيحة اليوم التالى شعر بالمرض يزحف فى أوصاله فخشى أن يرسلوه إلى معسكر الموت . فاختبأ وراء الجثث التى كانوا يحتفظون بها لمدة ثلاثة أو أربعة أيام قبل ارسالها إلى المحرقة». ويقدم الرجل ثلاثة سجائر كرشوة إلى المشرف على المساجين كى لا يبلغ عن غيابه . وفى عام ١٩٤٤ تم نقل ناثان من معسكر أوسشفتز وأعيد احضار فرق اطلاق الرصاص على المساجين بالجملة كى تتخلص من الضحايا الواهنين والضعفاء . أما المساجين الأشداء فقد تم ترحيلهم من بولندا إلى النمسا وجنوب شرق ألمانيا للعمل كعبيد فى منطقة الألب فى جنوب بافاريا . وأثناء سير القافلة إلى معسكر داخاو انتهز ناثان هذه الفرصة كى يختبىء فى حفرة حتى اختفت القافلة عن الأنظار .

واستطاع أن يحتفظ بحريته حتى يناير ١٩٤٥ حيث اكتشف أمره ثلاثة مجندين صغار السن واقتادوه إلى الشاويش . فأرسله الشاويش بدوره إلى معسكر بوخنفالد حيث التقى بسيمون شتيرن فيما بعد . وقد سببت له فترة الاعتقال عاهة مستديمة فأصبح يحجل أثناء المشى ويجر رجله المشلولة خلفه فضلا عن أنه أصيب بالعمى بسبب انتقال العدوى إلى عينيه . ورغم فقدانه البصر فقد أصبح نافذ البصيرة . وجعلته تجربة الهولوكست يفهم مأساة المصير البشرى بصورة واضحة وجلية . وعندما انهزمت القوات النازية وقامت قوات الحلفاء بتحرير الأسرى شعر ناثان بخواء هذا التحرير . وفى الشهور الأولى من التحرير توفى ألوف الناجين من الهولوكست كما مات مائة وخمسون ألفا من الناجين من الهولوكست فى نهاية عام ١٩٤٥ .

ويصف كوهين فى روايته استمرار أوربا فى انتهاج سياسة معاداة السامية حتى بعد الهولوكست النازى . فالبلاد الأوربية لم ترحب بعودة اليهود الناجين من الهولوكست إليها . ففى بولندا قام المواطنون البولنديون الكاثوليك بالاستيلاء على

ممتلكات اليهود وبيوتهم . وحين فكر بعض اليهود بعد الحرب في العودة إلى بولندا قام البولنديون بقتلهم . وبعد أن أصبحت بولندا شيوعية اعتبرت اليهود العائدين إليها من الصهاينة . ولهذا أثر هؤلاء اليهود البقاء في معسكرات النازحين في انتظار الهجرة إلى أمريكا .

ويصور كوهين في روايته شخصية نصف يهودية هي شخصية جانوس بالتار فقد كان أبوه يهوديا وأمه مسيحية . ويزعم جانوس أنه كان أحد ضحايا معسكرات الاعتقال النازية . ويطلب هذا الدعي من سيمون شتيرن أن يقبل انضمامه إلى جمعيته ويشك ناثان والدكتور كلاي في أمر هذا الدعي فيجندان مخبرا سريا للاستقصاء عنه . وتوصل المخبر السري إلى أنه قاتل محترف . ويتتبع المؤلف هذه الشخصية الاجرامية فيقول انه نتاج الفساد الأوربي وأنه كان ضحية العنف . فلا عجب إذا رأيناه يمارس العنف ضد الضعفاء الذين لا حول لهم ولا قوة . وأدرك الدعي بالتار أن الطريق أمامه مسدودة فاليهود لا يعتبرونه يهوديا خالصا في حين يعتبره النازيون يهوديا كاملا الأمر الذي جعله لا يحس بالانتماء إلى أي جانب ويجري عليه طبيب متخصص في علم الأجناس تجارب معملية تهدف إلى استئصال شأفة يهوديته وابراز أثر مسيحية والدته فيه . ويكتب هذا الطبيب النازي تقريرا عن حالته بعد العلاج ويوصي بصلاحيته للانضمام إلى صفوف الجيش الألماني عام ١٩٤١ . واشتهر بالتار بالقسوة والسادية ووصفه أحد زملائه بأنه يجد لذة بالغة في تعذيب الناس ثم الحنو عليهم ومعاملتهم برفق بعد ذلك . ويصور كوهين من خلال شخصية السادي بالتار قدرة الهولوكست على خلق الشر الذي ليس له حدود أو نهاية حيث أن شر متجدد .

ورغم هذا فإن المؤلف يؤمن بإمكانية الشفاء من آثار الهولوكست فاليهود في رواية كوهين يضطلعون برأب الصدع الذي خلفه الهولوكست ويدعم بني جلدتهم والدين اليهودي . وإذا كان بالتار في ساديته مدمرا وضارا فإن سيمون شتيرن يلعب دورا ايجابيا في شفاء بني جلدته من وبال الهولوكست عن طريق المركز التأهيلي الذي أنشأه .

وعلى النقيض من أدب سنجر وإلمان المحتج على الله نرى أن كوهين يحذو حذو اليهود القدامى الذين لا يلومون الله على ما أصاب هيكلهم من دمار وعلى ما أصاب الشعب اليهودي من شتات . فضلا عن أنه يرى أنه من العبث وغير المجدى لوم الله أو محاكمته .

ولا يتوقع بعض شخوص الرواية من الله أن يفكر كما يفكر البشر باعتبار أن مفهوم العدالة مفهوم بشرى وليس له أى معنى عند الله . ولهذا نرى الحبر اليهودى ستاينمان لا ينوح على حال البشر بل يذرف الدمع سخينا على حال الله لأن الله يريد الكثير ولا يحقق سوى القليل . وإذا كان الحبر ستاينمان يستسلم أمام سر الله المغلق فإن شخصية جوناس بالنار تمثل نسف ايمان الناجين من الهولوكست فى وجود إله عادل ورحيم . ويخلص سيمون شتيرن إلى نظرية لاهوتية مفادها أن الله هو خالق الخير والشر ومن ثم فهو يحتوى على كليهما .

٩ - تشايم بوتوك (١٩٢٩ -)

Chaim Potok

سيرة حياته :

ولد الروائى اليهودى تشايم بوتوك فى ١٧ فبراير ١٩٢٩ عن والدين يهوديين بولنديين مهاجرين هما بينامين ماكس بوتوك ومولى فريدمان . ونشأ تشايم فى جو عائلى يهودى تقليدى كما أنه تلقى تعليما يهوديا دينيا تقليديا . وتلقى تعليمه الدينى والعلمانى فى جامعة شيفا حيث حصل على درجة البكالوريوس فى عام ١٩٥٠ من المعهد الأمريكى اللاهوتى الذى منحه جائزة الأدب العبرى وجائزة الوعظ الدينى وجائزة الكتاب المقدس . ثم تم تعيينه حبرا عام ١٩٥٤ . وفى عام ١٩٦٥ حصل تشايم على درجة الدكتوراة فى الفلسفة من جامعة بنسلفانيا . وحين ظهر حب تشايم للأدب وقع اختياره على الرواية كى تكون وسيلة للتعبير عن الحضارة اليهودية . وفى الفترة من ١٩٥٥ حتى ١٩٥٧ عين كاهنا ملحقا بخدمة الجيش الأمريكى فى كوريا . وأيضا تولى بوتوك مهمة التدريس بكفاءة واقتدار . كما أظهر تفوقا فى اجراء البحوث الخاصة بالدراسات اليهودية والأدب الأمريكى . ومارس التدريس فى الجامعة العبرية فى لوس انجلوس فى عام ١٩٥٧ حتى عام ١٩٥٩ . ونذر نفسه للبحث فى مركز هار صهيون فى فيلادلفيا من عام ١٩٥٩ حتى عام ١٩٦٣ . وباشر التدريس فى معهد المعلمين اللاهوتى فى ١٩٦٣ - ١٩٦٤ . وهو الآن يضطلع بالتدريس فى جامعة بنسلفانيا . واسندت إليه فى عام ١٩٦٤ - ١٩٦٥ مهمة تحرير مجلة الدين اليهودى المحافظ إلى جانب انضمامه إلى هيئة تحرير جمعية المطبوعات اليهودية من ١٩٦٥ حتى ١٩٧٥ حيث ساهم فى اصدار ترجمة جديدة معتمدة من الكتاب المقدس . ويدل كتابه «التجوال فى تاريخ اليهود» الصادر فى عام ١٩٧٨ على تبحر مؤلفه فى قضية المواجهة بين الحضارة اليهودية وغيرها من مختلف الحضارات والثقافات .

أهم أعمال تشايم بوتوك وموضوعاته :

ألف تشايم بوتوك الروايات التالية : «المختارون» (١٩٦٧) - «الوعد» (١٩٦٩) - «اسمي آشرليفي» (١٩٧٢) - «في البداية» (١٩٧٥) - «كتاب الأنوار» (١٩٨١) - «قيثارة دافيتا» (١٩٨٥) - «هدية آشرليفي» (١٩٩٠) - «أنا من طين» (١٩٩٢) - «الشجرة هنا» (١٩٩٣) - «الأسماء الآن» (١٩٩٥) إلى جانب كتابات أخرى مثل «اليهودي يواجه نفسه في الأدب الأمريكي» (١٩٧٥) و«التجوال في تاريخ اليهود» (١٩٧٨) .

يدل انتاج تشايم بوتوك على شدة التزامه بالدين اليهودي فضلاً عن شدة تأثره بأعمال ايفلين فوه وجيمس جويس وفلانري أوكنور في تصويره علاقات شخصياته الروائية بالله وابراز أهمية الدين في عصر يتسم بالعلمانية .وتشبه شخصيات بوتوك شخصيات كل من فوه وجيمس جويس في إدراكها المستمر والمتصل لتاريخها القومي كما أن شخصياته تتحرك في إطار متطلبات الأسرة والمجتمع والدين . ويلاحظ أن كل إنتاج بوتوك الروائي لغاية روايته «أنا من طين» تدور حول التجربة اليهودية الدينية والتاريخية والثقافية في عالم غير يهودي . ومؤلفنا يصرح أنه يستمد من دينه اليهودي رؤيته للعالم واحترامه العميق للحياة ومحاولة ايجاد معنى لهذه الحياة في وسط الفوضى الضارية أطنابها وايجاد الخير وسط الشر وهو في دفاعه عن قداسة الحياة ونبل الانسان في تحمله وصموده يرفض الاغتراب واليأس السائد في القرن العشرين . وشخصيات بوتوك عليمة بأمور اللاهوت اليهودي والتفسيرات والتعليقات الدينية ونصوص التاريخ اليهودي . كما أن شخصياته نشأت وترعرعت في بيئة تمارس الشعائر والطقوس اليهودية . وهي تنصرف إلى العبادة والصلاة وخدمة المجتمع . وحتى عندما تلتحق شخصياته بوظائف علمانية فإنها تعيش عيشة متدينة في حياتها الخاصة . وتزخر روايات بوتوك بالدارسين والمدرسين ذوي العقول المضيئة واللامعة ممن نجدهم كثيرا في أدب اليديش. ويظهر بوتوك براعة خاصة في تصوير التعليم اليهودي العالي الذي يصل إلى أرفع درجة وأرقى مستوى .

وأحد الموضوعات المتكررة فى عالم بوتوك الروائى تعامل التقاليد اليهودية مع علمانية القرن العشرين . فهو يكتب عن يهود يحتفظون بدينهم التقليدى الراسخ فى قلوبهم . وهم فى نفس الوقت يواجهون الحضارة الحديثة . ونحن نشاهد هذه المواجهة الحضارية بين اليهود وغير اليهود فى روايتى «المختارون» و «الوعد» ويتمثل شق من هذه المواجهة فى اطار الدين اليهودى نفسه حيث يصطدم الدين اليهودي التقليدى بالديانة اليهودية المتصوفة المعروفة بالهاسيدية . ثم تتسع دائرة هذا الصراع ليشمل الصدام بين الدين اليهودى التقليدى وبين المذهب الانسانى العلمانى فى العالم الغربى. ونحن نرى فى روايتى «أسمى أشرليفى» و «موهبة أشرليفي» هذا الصراع محتدما فى عالم الفن الغربى . وفى رواية «البداية» تتخذ المواجهة صورة الصراع بين النقد العلمى للكتاب المقدس وبين معاداة العالم الغربى للسامية . وفى «كتاب الأنوار» تتمثل المواجهة فى العلاقة بين دول الشرق والمضامين المدمرة لفيزياء الذرة . أما المواجهة فى «قيثار دافينا» فهى مع الشيوعية . وكل رواية من روايات تشايم بوتوك تناقش ما إذا كان اليهود- الأمريكان قد استسلموا للمذهب العلمانى أم أنهم استخدموا الحرية التى توفرت لهم فى اعادة تعليم أنفسهم وخلق حضارة يهودية جديدة فى فترة ما بعد الهولوكست.

الهولوكست في أدب تشايم بوتوك الروائي :

قلنا إن بوتوك استمد آراءه الفلسفية والأخلاقية من الدين اليهودى ومن التوراة والتلمود . غير أنه استمد نظرته الجمالية والفنية من الفلسفة والآداب والفنون العربية . ويشبه بوتوك كلا من شاءول بيلو وبرنارد مالامود وسنثيا أوزيك وآرثر كوهين وآي. ب. سنجر فى رفضه الاغتراب وإيمانه بالجوانب الايجابية المتمثلة فى قدرة المثالية اليهودية على مواجهة الشر والعذاب . وتعكس روايات بوتوك أصداء التاريخ اليهودى واندلاع معاداة السامية فى الفترة من ١٩٣٩ حتى ١٩٤٥ وهى فترة الحرب العالمية الثانية . فلا غرو إذا رأينا الهولوكست يشكل خلفية عالمه الروائى . ولا يتناول بوتوك موضوع الهولوكست بطريقة مباشرة بل يعالجه على نحو غير مباشر

مركزا تركيزا واضحا على امكانية ابلال اليهود من فظائع الهولوكست وكذلك على تجديد الدين اليهودي وعلى الوجود اليهودي في كل من أمريكا واسرائيل . وتتكون شخصيات بوتوك في العادة من يهود متمسكين بعقيدتهم ويداومون على اقامة الشعائر ويتوفرون على دراسة التلمود واللاهوت اليهودي . وأبطال روايات بوتوك يسعون جاهدين إلى إعادة بناء قلب الدين اليهودي من كنوز الماضي اليهودي ومزجها بأفضل الأشياء في المذهب العلماني وخلق فلسفة جديدة وأدب جديد وعالم جديد من الفن ومجتمع جديد وأخذ معنى كلمة التحرير بطريقة جادة .

والجدير بالذكر أن قصة بوتوك القصيرة «المكان المظلم بالداخل» ظهرت عام ١٩٦٧ وهو نفس العام الذى نشرت فيه أولى رواياته الرائجة «المختارون» وهذه القصة القصيرة تصور ناجيا من الهولوكست اسمه ليفى ابراموافتش يعيش فى اسرائيل ويعانى من التشويه النفسى رغم انقضاء ستة عشر عاما على الهولوكست . ونحن نراه فى مناسبة سعيدة هى احتفاله بعيد ميلاد ابنه الخامس ينعى موت ابنائه الأربعة الذين قتلهم النازيون مع أمهم فى غرف الغاز . وبينما فرقة الاعدام النازية تطلق النار على المساجين اليهود تصادف أنه سقط على بعض الشجيرات الكثيفة قبل أن تصيب الطلقات أهدافها الأمر الذى مكنه من الهرب والاختفاء فى جرن يمتلكه فلاح بولندى . ولكن الجنود النازيين طاردوه وحطموا وجهه وطعنوه بسنكى البندقية حتى نزف الدم بغزاره من جسده . وتركه النازيون معتقدين أنه مات . وجاء فلاح بولندى ورآه بين الحياة والموت فقام بتضميد جراحه وعلاجها عن طريق الأعشاب. هذه الذكريات الموجعة كانت تطوف بمخيلة ليفى من آن لآخر الأمر الذى وقف عائقا أمام تجدده وشفائه من آثار الهولوكست . وفى حين نرى أن شخصيات بوتوك الأخرى تستعيد توازنها النفسى وتنجح فى الحصول على الشفاء من آثار الهولوكست عن طريق التمسك بالدين والالتزام بالمجتمع اليهودى نجد أن ليفى يعجز عن ذلك كما يعجز عن التصالح مع الله بسبب حدوث الهولوكست . ولهذا فإن ليفى يشبه شخصيات أى . ب. سنجر التى تحتج على الله وتعبر عن غضبها من عجزه وعدم اكتراثه بعذاب

الضحايا اليهود . يقول ليفى محتجا على الله :«أومن بالله . واعتقد أنه يمثل جميع المغفلين في الكون» ثم يضيف إلى ذلك قوله : «أؤمن بالله . واعتقد أنه يمثل جميع المغلفين في الكون» ثم يقول : «الله هو الغباوة بعينها . الله يضحك . الله مغفل» . وبعد وفاة زوجته يتسلم ليفى الساعة التى كانت تلبسها فتهتاج مشاعره وينخرط فى احتجاج يائس وينتابه شعور جارف بالاغتراب عن الله والانسان ويسعى ليفى لتهدئة أفكاره الهائجة فيخاطب نفسه قائلا : «لا يوجد أحد يمكنني التحدث معه الآن . بل لا يوجد إله أتحدث إليه» . ولكن ليفى أبراموامتش فشل فى تهدئة نفسه الملتاعة نتيجة مقتل زوجته وأولاده الأربعة . وعندما يتسلم ساعة زوجته نجده لا يقوى على التحكم فى مشاعره الملتاعة والهائجة . فيوجه الاتهام إلى الله قائلا : «يا سيد الكون لو كنت فى الحقيقة موجودا فأنت إذن قاس ولا حول لك أو قوة وإذا كنت تستطيع أن تمنع الشر ولكنك لا تريد منعه فأنت غليظ وقاس وإذا كنت ترغب فى منع الشر ولا تستطيع فأنت إذن بلا حول أو قوة وإذا كنت قادرا وراغبا فى منعه فلماذا يوجد الشر إذن ؟ »وتجتاحه الكراهية الممتزجة بالاحتقار لله . ويعبر الرجل عن يأسه العميم قائلا : «أؤمن ايمانا كاملا بأنك غير جدير بإيماني الكامل بك . فأنت لم تعد تستحق الاحترام» .

وتعتبر رواية «المختارون» نموذجا لأسلوب بوتوك فى معالجة موضوع الهولوكست . وتقع أحداث هذه الرواية فى أحد أحياء مدينة بروكلين الأمريكية وتدور حول نوعين من الآباء والأبناء وممارساتهم ودراساتهم للديانة المسيحية من منطلق الهولوكست وانشاء دولة اسرائيل . وتظل هذه القوى التاريخية فى خلفية الرواية فى حين أن القضايا والانقسامات الدينية بين اليهود تتصدرها .وتبرز الرواية موضوع الهولوكست كما تبرز أثره الضخم فى حياة الشخصيات الروائية وعلى رأسها المعلم دافيد بالتر وابنه روفن اللذين يدينان بالدين اليهودى التقليدى ويتعرضان لتأثير الفلسفة والدراسة الغربية . وهناك أيضا شخصية رب شونلز المعلم المؤمن بالمذهب التصوفى الهاسيدى والذى يقاوم الأفكار غير الهاسيدية ويتوقع أن يسير ابنه على

درب الهاسيديين كما يتوقع منه أن يتولى زعامة الطائفة الهاسيدية من بعده . وينبع التوتر الدرامى فى الرواية من التفسيرات المتعارضة والمتباينة للكتابات والعبارات والممارسات اليهودية . وأحد معايير الخلاف بين المتدينين التقليديين وطائفة الآباء الهاسيديين يكمن فى طريقة ردود فعلهم إزاء الهولوكست واقامة الدولة العبرية فى اسرائيل . ونحن نرى أن ردود الفعل المتباينة لهذين العنصرين فى التاريخ اليهودى فى القرن العشرين هو السبب فى اختلاف الأبناء وانقسامهم على بعضهم البعض .

وتعالج رواية «المختارون» موضوع خذلان الحلفاء لليهود وعدم أكتراثهم بإبادة هتلر لهم . فنحن نرى دافيد مولتر ينتقد السير أنتونى ايدن الذى ألقى فى عام ١٩٤٢ خطابا فى مجلس العمومى البريطانى ذكر فيه بالتفصيل خطة النازيين فى ابادة اليهود دون أن يتجاوز مرحلة الكلام ويتصدى لمقاومة هذه الخطة . وتثور ثائرة مولتر بسبب اخفاق بريطانيا الأخلاقى فى القيام بواجبها التاريخى نحو اليهود . تقول الرواية : «وأخذت كل آلة التعبير الديموقراطى تتحرك للتأثير على الحكومة البريطانية كى تفعل شيئاً . ولكنها لم تفعل أى شيء وأظهر كل شخص تعاطفه (مع اليهود) . غير أن هذا التعاطف لم يتحول إلى موقف . وسمح البريطانيون لبعض اليهود بدخول أراضيهم ثم أغلقوا فى وجوههم أبواب الهجرة . ونفس الشيء حدث فى أمريكا . ولم يظهر أحد اهتماما كافيا وأغلق العالم أبوابه (فى وجه اليهود) مما أدى إلى ذبح ستة ملايين يهودى .»

ورغم أن الهولوكست لا يتصدر مناقشات أبطال روايات بوتوك الشبان فإنهم يبدون اهتماما بالغا وقلقا شديدا على ما تكبده اليهود من خسائر فيه . وبعد أنتهاء الحرب العالمية الثانية وتسرب الأنباء الخاصة بفظاعات معسكرات الاعتقال يعبر روفن عن عجز عقله عن فهم أو استيعاب الجرائم النازية ضد اليهود . وعندما يتحدث رب شوندرز عن مجرزة اليهود فى أوربا فإنه يقوم بتفسير هذه المأساة فى اطار تاريخى . فهو يعتبر البشاعة النازية حلقة فى مسلسل اضطهاد اليهود عبر التاريخ . ورغم اقتناع سوندزر على مضض بأن الهولوكست تعبير عن إرادة الله واعتباره سلبية الله

سرا غامضا فإنه يلوم الله على حدوث الهولوكست . يقول سوندرز مخاطبا الله : «يا سيد الكون لماذا تسمح لمثل هذا الشيء أن يحدث» . وفي حين يركز كثير من كتاب الهولوكست على الأعمال الوحشية التي تعرض لها اليهود أثناءه يركز بوتوك في العادة على احتمالات الشفاء من آثاره الوخيمة . ويرفض دافيد مولتر قبول ما يذهب إليه سوندرز من أن الهولوكست يمثل إرادة الله فيقول داحضا هذا الرأى : «نحن لا نستطيع انتظار الله . وإذا كانت هناك إجابة (عن الهولوكست) فيجب أن نعطيها بأنفسنا . ومن ثم فهو يقوم بإرشاد وتعليم اليهود الأمريكان والعمل من أجل الدولة العبرية في فلسطين . » ويؤمن سوندرز بقداسة دولة اسرائيل التي بشر المسيح بإقامتها وبأهمية طابعها الديني . ولهذا فهو يرفض الصهيونية لأنها حركة علمانية وليست حركة دينية كما ينبغي أن تكون . ويرى بعض أتباع المذهب الهاسيدى ان اقامة دولة . علمانية في اسرائيل انتهاك للتوراة . كما يذهب مولتر إلى أن ذبح مليون يهودى في الهولوكست يحتم على يهود أمريكا العمل الدءوب على استعادة كنوز الدين اليهودى الضائعة وتدريب المدرسين والأحبار على قيادة شعب اسرائيل وهدايته وخلق نهضة دينية بين اليهود الأمريكان . وينشرح صدر رب سوندرز عندما يرى بنى جلدته يعودون إلى ارتياد المجامع حتى إذا كانوا من غير المتعلمين . وفي نظره أن مهمة القائمين على الدين اليهودى هي ارشاد وتعليم إخوتهم في الدين الذين آثروا الاندماج في المجتمع الأمريكي حتى يعودوا إلى حظيرة الدين اليهودي . وهو يعتقد أن واجب اليهود في أعقاب الهولوكست مباشرة هو ضرورة استعادة يهود أمريكا لدينهم اليهودى لئلا يتعرض للاندثار حتى قبل انشاء دولة اسرائيل . ويتحمس دافيد مولتر لمساندة الدعوة إلى الصهيونية ويعمل كل ما في وسعه لتحقيق الأهداف الصهيونية وفي اجتماع جماهيرى حاشد ينعقد في ميدان حدائق ماديسون يحث مولتر العالم كي يستجيب إلى مطلب اليهود اليائس والملح لاقامة دولة اسرائيل في فلسطين كملاذ على وجه الخصوص لليهود الناجين من أفران هتلر . يقول مولتر في هذا الشأن : «ان ذبح ستة ملايين يهودى لن يكون له أي معنى إلا إذا أنشئت دولة اسرائيل . عندئذ فقط تبدأ

التضحيات التى قدموها فى أن يكون لها شيء من المغزى . عندئذ فقط يصبح للابتهالات وأناشيد الايمان التى أنشدوها وهم فى طريقهم إلى غرف الغاز معنى . وعندئذ فقط يصبح اليهود مرة أخرى منارة مضيئة للعالم» وحين قررت الأمم المتحدة تقسيم فلسطين بين اليهود والعرب تهلل مولتر وشاعت فى نفسه البهجة التى شاعت فى صفوف المجتمع اليهودى كله . تقول الرواية : «وأخيرا أصبح لموت ستة ملايين يهودى معنى . وفى النهاية أقيمت دولة اسرائيل بعد مرور ألفى عام . وأصبحنا شعبا مرة أخرى وأصبح لنا أرضنا . نحن جيل مبارك لأننا أعطينا الفرصة لمشاهدة انشاء الدولة العبرية» وعرض روفين نفسه للخطر عندما قام بتهريب السلاح إلى الجيش الاسرائيلى كى يتصدى لتهديد العرب لهذه الدولة الجديدة الوليدة . ومن منطلق الاحترام لرغبة والده امتنع روفن عن تأييد الحركة الصهيونية . ومع تصاعد حدة الصراع العربى الاسرائيلى وزيادة عدد القتلى بين اليهود نرى أن الجمعية التى أنشأها رب سوندرز تؤثر الصمت إزاء اعتراضها على اقامة دولة علمانية فى اسرائيل . ويتوجع المعارضون لاقامة مثل هذه الدولة من الهاسيديين ويتألمون للدماء اليهودية الزكية النازفة من جديد وكأن الدماء التى أسالها الهولوكست لا تكفى . ويجد الهاسيديون المعارضون لاقامة دولة علمانية فى اسرائيل أوجه شبه بين العداء النازى والعداء العربى للسامية . فيصرخ سوندرز : «لم يكن هتلر كافيا فالمزيد من الدم اليهودى يسفك والمزيد من اليهود يتعرضون للمجازر ماذا يريد العالم منا . ألا يكفى أن يموت ستة ملايين يهودى ؟ هل يطلب العالم المزيد من الضحايا اليهود ؟ »وأمام هذا النزيف المستمر يتخلى الهاسيديون عن معارضتهم لفكرة اقامة دولة علمانية فى اسرائيل .

وتعتبر رواية «الوعد» استكمالا لرواية «المختارون» . وهى أيضا تتبع حياة كل من روفن مولتر الذى يعد نفسه كى يصبح حبرا يهوديا ودانى سوندرز الذى يعمل فى عيادة لعلاج الأمراض النفسية . ويجد روفن نفسه فى قلب الصراع الدائر بين غلاة المتدينين الأصوليين والتقليديين وبين الدارسين الذين يستخدمون أدوات نقد النص

الدينى فى تحليل المصادر الدينية . ويمتد الصراع المحتوم فى رواية «المختارون» بين المتدينين التقليديين وطائفة الهاسيديين إلى صراع فلسفى بين المواقف الدينية الأصولية والمواقف المحافظة فى دراسة التلمود . ويمثل ابراهام جوردون الموقف الدينى المحافظ كما أن جماعة الناجين من الهولوكست تمثل المواقف التقليدى الذى يتبناه المعلمون فى مؤسسة دافيد مولتر التعليمية . وأيضا يمثل راف كالمان المدرس في اكليريكية ريفين اللاهوتية هذا الاتجاه التقليدى. والجدير بالذكر أن جوردون باحث أمريكى وانه لم يعان من الهولوكست في أوروبا مثلما عانى منه كالمان ورغم ذلك فقد غير الهولوكست مجرى حياة جوردون الذى اعتراه الشك فى صحة الدين . وقد ذهب جوردون إلى أوروبا لمواصلة أبحاثه في المنطق بعد حصوله على درجة الدكتوراه . وأدرك جوردون أن هتلر لن يهدأ له بال حتى يبيد اليهود . ولهذا رفض أن يستجيب إلى دعوة جامعة هارفارد له لتدريس علم المنطق فيها مفضلا الانضمام إلى مدرسة لتعليم اللاهوت اليهودى حتى يساهم فى اعادة بناء اليهودية الأمريكية وهى يهودية تروق للمثقفين التقدميين لتحررها من الأفكار الدينية الأصولية المتزمتة .

وبينما يبرز الروائيون الأمريكيون بيلو ووالنت وإلمان التشوهات النفسية التي أصيب بها اليهود الناجون من الهولوكست نرى أن بوتوك مثل سنجر يعالج المضامين الدينية واللاهوتية التى تنطوى عليها تجربة الهولوكست ويتميز الناجون من الهولوكست (ممن هاجروا فيما بعد إلى أمريكا) بالاستمساك القوى بالدين التقليدى واعتراضهم الشديد على تحديث العبادات والممارسات والدراسات اليهودية التقليدية الراسخة . هؤلاء الناجون الذين عجز هتلر عن القضاء عليهم جاءوا إلى أمريكا ونذروا أنفسهم للتصدى لدعاة الحداثة الدينية فى العالم الجديد . ولهذا نراهم يقاومون بشدة من يخالفونهم فى الرأى وفى تفسير الدين اليهودى . ولا غرو إذا رأيناهم يطالبون باستبعاد جوردون وطرده من الحظيرة اليهودية . فضلا عن هجومهم على مؤسسة دافيد مولتر التعليمية . وتتسم عبادة اليهود الناجين من الهولوكست بممارسة الطهارة الدينية والعيش وفقا لوصايا الله والدفاع عن التوراة والعمل على بعث واحياء الدين

اليهودى . ومعنى هذا أن الشخصيات الناجية من الهولوكست فى أدب بوتوك تعنى بالشفاء من اضراره وتجديد الدين اليهودى واحياء شعب بنى اسرائيل تقول رواية «الوعد» عن اليهود الناجين من الهولوكست المقيمين فى وليامزبرج بأمريكا : «هنا فى وليامزبرج أخذوا يعيدون بناء عالمهم الذى احترق وبالنظر إلى ما أصاب عائلاتهم من تدمير فقد تزوجوا من جديد وأقاموا نسلا جديدا . ولأن عائلاتهم تحطمت فقد اجتمع شيوخهم وأنشأوا عائلات جديدة ولأن أبناءهم قتلوا فقد حرصت نساؤهم على أن يحملن إلى الأبد» .

هؤلاء الناجون من الهولوكست فى أدب بوتوك الروائى يختلفون عن نظرائهم فى أدب سنجر الذين يندون بظلم الله فشخصيات بوتوك لا تحتج على سكوت الله على الظلم ولا تتشكك فى الدين وولاؤها كامل للتوراه والدين اليهودى . وهم لا يتحدثون عن ضحايا الهولوكست كموتى بل كمجاهدين ماتوا فى سبيل الله وكشهداء عند ربهم يرزقون .

ومن بين الناجين من الهولوكست نجد أن الشخصية الوحيدة التى عنى المؤلف بوتوك بتطويرها والاستفاضة فى ذكر تفاصيلها هى شخصية راف كالمان الساعى إلى تمجيد اسم الله وتكريم اليهود المتمسكين بالتوراه وبالله عن طريق التوفر على دراسة الكتب المقدسة . ونحن نعلم من حديث تلاميذه عنه انه كان يشتغل فى مدرسة ذات سمعة طيبة وعالية فى مدينة فيلنا ببولندا التى اشتهرت بمؤسساتها التعليمية اليهودية الرفيعة المستوى وأنه أمضى سنتين من عمره فى معسكر اعتقال فى شمال بولندا . وسرت اشاعة بأن رجال المظلات النازيين أطلقوا الرصاص على زوجته وبناته الثلاث أمام عينيه . وتتحدث الرواية عن تكرر هروبه من معسكرات الاعتقال وأنه نجح فى الهرب إلى الحدود الروسية حيث انضم إلى صفوف الجيش الأحمر لمحاربة الألمان . ويقال أيضا أنه نجح فى الهرب إلى شنغهاى حيث ظل يعيش تحت المراقبة اليابانية حتى انتهاء الحرب . ثم هاجر إلى أمريكا بعد ذلك .

وفى حين نجد أن شخصيات والانت ومالاامود وسنجر تتحدث حديثا مباشرا

عن تجاربها الخاصة بالهولوكست أو أنها على أقل تقدير تجتر هذه التجارب المرة فإننا نرى أن الشخصيات اليهودية عند بوتوك التى لم تنكو بعذاب الهولوكست تتخيل العذاب الذى كابده الناجون منه . حتى الناجون من الهولوكست فى أدب بوتوك لا يحدثوننا عن الفظائع التى كابدوها فى الماضى بل يركزون على الحياة واستمرارها .

ويمثل دافيد مولتر صوت العقل فى كلتا الروايتين «المختارون» و «الوعد» وهو يؤكد لنا بطولة كالمان فى محاربة القوات النازية ونجاحه فى قتل عدد من جنودها. وتحكى لنا الرواية « الوعد » عن فظائع الهولوكست بطريقة غير مباشرة حيث تخبرنا بأن التجارب الطبية التى أجراها الأطباء النازيون على كالمان هى السبب فى اصابته بالعجز الجنسى الأمر الذى منعه من الزواج . وعلى نفس المنوال غير المباشر نرى أبراهام جوردون يتحدث عن العذاب الذى لقيه كالمان فى الهولوكست قائلاً : «لقد دمرت معسكرات الاعتقال ما هو أكثر من يهود أوربا ... دمرت ايمان الانسان بنفسه . ولا يمكننى أن ألوم راف كالمان لشكه فى الانسان ولإيمانه بالله وحده . فماذا يدعو أحدا إلى الإيمان بالإنسان ؟! وسوف تمضى عقود من الفوضى قبل أن نتعلم الايمان بالإنسان مرة أخري» .

ويتضح من روايات بوتوك أن الشخصيات التقدمية فيها تضارع شخصياتها الدينية التقليدية والأصولية فى إصرارها على بعث الحياة فى اليهود عن طريق احياء الدين اليهودي . ولهذا يمكن القول بأن شخصيات بوتوك تختلف عن الناجين من الهولوكست المحطمين والعاجزين الذين نجدهم فى روايات كل من والانت وبيلو وسنجر فى أن بوتوك لا يصور شخصياته كشخصيات عاجزة من الناحيتين البدنية والنفسية ولكن كيهود أشداء وأقوياء بإخلاصهم وتفانيهم فى عقيدتهم اليهودية . هؤلاء اليهود يخلصون لدينهم سواء كانوا أحباراً أم طلبة ودراسين أم صهاينة . وهم كذلك يؤمنون بإحياء اليهودية وازدهار الشعب اليهودى ونجاته من كل شر وأذى كما يؤمنون بسطوع شمس النهضة اليهودية من خلال الهولوكست وأهواله .

ويواصل بوتوك فى روايته التالية «فى البداية» اهتمامه بالدين والتاريخ

اليهودى . ويدور موضوع هذه الرواية حول المواجهة بين اليهود ومعاداة السامية سواء كانت أوروبية أم عربية أم أمريكية . ويشبه بوتوك كلا من بيلو وابشتين ووالانت سنجر فى الايمان بوجود علاقة قوية بين الهولوكست والعداء المسيحى التاريخى لليهود . وهو يختلف عن بعض نظرائه من الروائيين الأمريكان فى أنه يصور بتفصيل أكبر كلا من العداء العربى والأمريكي ضد السامية . ويرسم بوتوك صورة الهولوكست فى حياة اليهود الأمريكان وحياة الناجين منه كقوة دافعة لهم للالتزام باليهودية والصهيونية . وترسم رواية «فى البداية» صورة العداوة التاريخية للسامية التى يصفها «بالجزء السفلى المظلم من الحضارة الغربية» جاعلا منها قلب الرواية ومحورها الدرامى ويرى بوتوك أن العداوة للسامية والهولوكست يمثلان أهمية بالغة فى الوعى اليهودى – الأمريكى . ويقول فى هذا الشأن :

«من المحتمل أن يرزح اليهودى الأمريكى تحت وطأة الشعور بالذنب العظيم لأنه لم يقم أبدا بما فيه الكفاية فى اللحظات الحرجة بأى جهد من شأنه وضع نهاية للهولوكست أو الاحتجاج عليه . ولست أرى كيف يمكن للمرء أن يرى العالم بعيون يهودية دون أن يشاهد أمام ناظريه شاشة الهولوكست الملطخة بالدماء . وسوف أذهب إلى ما هو أبعد من ذلك فأقول لست أظن أنه يمكن لأى إنسان يتحلى بالعقل سواء كان يهوديا أو غير يهودى أن يتدبر أمر العالم فى هذا القرن دون أن يفكر فى الهولوكست . »

وفى رواية «فى البداية» يحدثنا بطلها اليهودى دافيد لورى عن حياته منذ الطفولة حتى بلوغ سن الرشد كاشفا النقاب عن إدراكه لمعاداة السامية من خلال الذكريات التى سمعها من أبيه حول الممارسات الأوروبية ضد اليهود . وكذلك من خلال تجربته الشخصية مع نفر من جيرانه البلطجية ممن يحملون العداء لليهود . وتقع الأحداث فى منطقة برونكس التى يسكنها مهاجرون من أوربا ينقلون عداوة العالم القديم لليهود إلى ذريتهم فى أمريكا أو العالم الجديد . ويرسم لنا بوتوك صورة العداء المحتدم الذى يحمله اليهود لغير اليهود فى منطقة برونكس . ومن الكارهين لليهود

فى الرواية طفل يدعى ادى كولانسكى ابن أحد المهاجرين البولنديين إلى أمريكا . وهو يحمل كراهية مشبوبة لليهود رغم صغر سنه . ورغم أن دافيد لورى درس تاريخ معاداة السامية فى أوربا ويعلم ما تعرضت له عائلته اليهودية من اضطهاد فإنه يندهش لانتشار المشاعر المعادية لليهود فى أمريكا وعندما يعلم المهاجر البولندى إن عائلة دافيد لورى جاءت هى أيضا من بولندا نراه ينفث سمومه ضد اليهود ويعبر عن عدائه لهم بلغته الأصلية وهى البولندية ويردد ما جاء فى كتاب «بروتوكولات حكماء صهيون» التى تحكى عن المؤامرات التى يحيكها اليهود سرا لتدمير البلاد المسيحية ثم السيطرة على العالم بأسره حيث أنهم يملكون بيوت المال والصحف وسائر وسائل الاعلام التى تتحكم فى الأخبار وتشكل أفكار الناس .

ويسوق ماكس لورى دافيد مجزرة مدينة تولشن فى بولندا كدليل دامغ على غدر المسيحيين باليهود . وأبدى اليهود الندم على أنهم أحسنوا الظن بالمسيحيين . يقول ماكس أن القوزاق القادمين من روسيا هاجموا مدينة تولشن حيث يعيش اليهود والبولنديون فأبلى اليهود بلاء حسنا فى الدفاع عن المدينة . وكان بوسع اليهود مواصلة القتال حتى يتم لهم دحر القوزاق فى حين أراد البولنديون منهم الاستسلام . ولكن أحبار اليهود نصحوا بنى جلدتهم عدم مواصلة القتال حتى لا يتعرضوا لسخط البولنديين عليهم وسلم يهود تولشن كل ممتلكاتهم للبولنديين الذين قاموا بدورهم بتسليمها إلى القوزاق وظن اليهود أنهم بذلك يفتدون المدينة بأموالهم وذهبهم ومجوهراتهم حتى تسلم من تدمير القوزاق لها . ولكن القوزاق لم يكتفوا بغنائم اليهود بل طالبوا البولنديين بتسليمهم إليهم . ففعل البولنديون ذلك ، وطلب القوزاق من اليهود اعتناق الدين المسيحى ولكن اليهود رفضوا فعاقبهم القوزاق بذبحهم ولهذا تتساءل الرواية : «ماذا هناك فى المسيحية غير مذهب عبادة الذبح وسفك الدماء» وهكذا تعلم ماكس من واقع تجربته عدم جدوى طلب اليهود المساعدة من العالم غير اليهودى لمجابهة النازية . وتترسخ لديه قناعة بأنه ليس أمام اليهود بديل عن المقاومة المسلحة ضد النازيين . ويشارك ماكس لورى شخصيات سنجر اليهودية فى كراهيتها

للبولنديين .

ويروى ماكس لابنه أخبار المجازر التى تعرض لها اليهود فى بولندا فى الحرب العالمية الأولى على يد الروس والأوكرانيين والبولنديين أنفسهم ويحكى له عن العذاب اليهودى تحت حكم البطل البولندى القومى المارشال بيلسودسكى الذى رفض التدخل لمنع أعمال الشغب ضد اليهود التى قام بها الفلاحون البولنديون . ويشبه ماكس لورى والد المؤلف فى أنه اشترك فى الذود عن بولندا إبان الحرب العالمية الأولى ليكتشف أن البولنديين أنفسهم يمارسون معاداة السامية . ومن دلائل هذه المعاداة ذلك الجرح الذى شوه جسد ماكس . فأثناء عودته من الحرب إلى أرض الوطن أقله قطار مع كتيبته . فإذا بقطاع الطرق يهاجمون القطار ولا يسرقون أحداً سوى الجنود اليهود . ولكن ماكس قاومهم ورفض أن يعطيهم الشال الذى يستخدمه فى الصلاة فأصابه قاطع طريق بجرح فى وجهه دون أن يتقدم لنجدته أحد من زملائه الجنود البولنديين . فلا غرو إذا رأينا ماكس يدعو اليهود فى كتيبته إلى تشكيل جمعية يهودية للدفاع عن النفس ضد خيانة المسيحيين لهم واعتدائهم عليهم .

وتهدف الجمعية التى أنشأها دافيد لورى إلى حث اليهود على رفض الاضطهاد تقول الرواية عن أعضاء هذه الجمعية «أنهم تعلموا ألا ينسوا أبدا الأذى الذى يلحقه أعداؤنا بهم . لقد تعلمنا أننا نستطيع عن طريق العمل المشترك أن نهزم أعداءنا . لن نقف مكتوفى الأيدى عندما يقوم أعداؤنا بالهجوم علينا . ولن نفعل ما فعلته بعض عائلاتنا فى مدينة تولشن منذ ثلاثة قرون تقريبا حين قررت الامتناع عن مهاجمة البولنديين فى هذه المدينة لأنهم خشوا اعتداء البولنديين على اليهود فى المدن الأخرى» .

وعندما تصاعدت أعمال العنف ضد اليهود مع ظهور النازية قررت الجمعية اليهودية للدفاع عن النفس ارسال ممثل لها لمساعدة اليهود على الخروج من أوربا . فضلا عن مد يد المساعدة لليهود الذين يواجهون الرعب النازى .

ويشعر دافيد بالأسى يمزق نياط قلبه عندما ترامت إليه أخبار المجزرة التى تعرض لها بنو جلدته فى أريحا على يد العرب وتصيبه الدهشة لما يحدث لليهود فى فلسطين . ورغم علمه باندلاع أعمال العنف من جانب العرب فى أماكن كثيرة متفرقة مثل أورشليم وتل أبيب وحيفا فإن ذبح الطلبة الاسرائيليين فى أريحا أصابه بالانزعاج أكثر من أى شيء آخر، الأمر الذى يدعوه إلى عقد مقارنة تاريخية بين القيادة الدينية اليهودية فى تولشن فى الماضى البعيد والقيادة الدينية اليهودية فى أريحا فى زمن الانتداب البريطانى على فلسطين ويعبر ماكس عن سخطه الشديد على زعماء اليهود فى أريحا لأنهم رفضوا الالتجاء إلى جمعية دفاع اليهود عن النفس رغم توقعهم اندلاع أعمال العنف العربى حتى يتجنبوا إثارة غضب القائد البريطانى الذى ضمن حماية اليهود بشرط عدم قيامهم بأى شيء من شأنه إبادة العرب أو التحرش بهم ويذهب المؤلف إلى آن مجزرة أريحا فى زمن الانتداب البريطانى تمهيد للهولوكست النازى . تقول الرواية فى هذا الشأن : «فى الخامس عشر من أغسطس فى يوم الصلاة وقعت أعمال شغب عربية فى أورشليم . وفسر البريطانيون هذه الاضطرابات بأنها رد فعل ضد المظاهرات التى نظمها (اليهود) أتباع جابونسكى فى المنطقة الغربية من حائط المبكى للاحتجاج على الاجراءات الجديدة التى اتخذت للتدخل فى الطقوس الدينية اليهودية عند الحائط ولكننا نعرف البريطانيين على حقيقتهم ... فقد صرحوا بأنهم غسلوا أيديهم من دم اليهود ولم يعودوا مسئولين عنهم بسبب انخراطهم فى هذه المظاهرة . وفهم العرب مغزى هذا التصريح . ففى اليوم التالى للمظاهرة .. قامت جماعة من العرب بضرب اليهود المجتمعين للصلاة عند حائط المبكى .. عندئذ نشر مفتى فلسطين اشاعة مفادها أن اليهود كانوا يستعدون للاستيلاء على الجوامع المقدسة المشيدة على جبل المعبد فى أورشليم وتدنيسها . وبدأ العرب يدخلون أورشليم قادمين من كل أنحاء فلسطين وفى أريحا حيث كانت أواصر الصداقة تربط العرب باليهود قال العرب إن أتباع المفتى وأعوانه حضروا إلى المدينة للوعظ فى المساجد قائلين أن اليهود هاجموا العرب فى أورشليم ودنسوا مساجدهم» .

عندئذ اجتمع زعماء اليهود سراً فى أريحا وعلموا أن المنظمة اليهودية للدفاع عن النفس على أتم استعداد لأن ترسل جماعة من الشبان المسلحين للدفاع عن اليهود فى أريحا . وفى نفس الوقت علم زعماء اليهود أن القائد البريطانى ضمن سلامة اليهود فى أريحا بشرط عدم تحرشهم بالعرب . وأمر بعدم السماح لأى غريب من دخول أريحا . ولهذا قرر اليهود أن يرفضوا العرض الذى تقدمت به المنظمة اليهودية للدفاع عن النفس أى أنهم تصرفوا بنفس الطريقة السلبية التى تصرف بها أسلافهم فى تولشن منذ نحو ثلاثة قرون . غير أن طغمة من العرب عادوا إلى أريحا بعد أن حضروا اجتماعا جماهيريا عقده المفتى وأتباعه فى أورشليم ليعيثوا فى المدينة فسادا ويهاجموا اليهود فقتلوا طالبا اسرائيليا . وبدأ العرب يتقاطرون على المدينة من كل حدب وصوب حاملين البنادق والمسدسات والسكاكين والسيوف فاضطر اليهود أن يوصدو أبواب منازلهم بالضبة والمفتاح . ونصحهم البوليس بعدم الخروج من منازلهم فجاء العرب وقاموا بذبحهم كالشياه فى عقر ديارهم وضربوهم بالرصاص وطعنوهم بالسلاح الأبيض ومزقوهم إربا وفقأوا عيونهم وقطعوا أيديهم ثم حرقوهم داخل بيوتهم بل وداخل مستشفى الهاساداه فى أريحا . هذه القطاعات فى رأى المؤلف عبارة عن تمهيد لما سوف يفعله هتلر باليهود أثناء الحرب العالمية الثانية وفى رأيه أيضا أن اختيار العرب يوم تيشاباف وهو يوم الصلاة المقدس عند اليهود للهجوم عليهم يشبه اعتداء النازيين على جيتو اليهود فى وارسو ببولندا فى يوم الفصح . كما أن غدر بريطانيا باليهود فى حيفا يشبه نسفهم لجهود الوساطة التى قام بها جويل براند لإنقاذ أقلية ضئيلة من يهود المجر عام ١٩٤٤ . وباختصار أن ما حدث لليهود فى فلسطين تحت الانتداب البريطانى مهد السبيل فيما بعد لحدوث الهولوكست النازى أثناء الحرب العالمية الثانية .

وتصور الرواية تاريخ معاداة السامية جنبا إلى جنب مع تجربة القيام بأعمال الشغب ضد اليهود فى كل من بولندا وفلسطين . ويركز المؤلف بوتوك فى روايته على الأعمال المعادية لليهود التى يمارسها البولنديون والعرب . وتبين الرواية الفرق بين

رخاوة دافيد فى التصدى للمعتدين على اليهود ورجولة ابيه الذى لايهاب مواجهة المعتدين على بنى اسرائيل . وروايات الهولوكست الأمريكية ضنينة فى معالجة الدور الأمريكى فى إنقاذ يهود أوربا من براثن الهولوكست . ولكن تشايم بوتوك شأنه فى ذلك شأن آرثر كوهين يعترف بأهمية الهجرة إلى أمريكا فى التعامل مع الهولوكست . ويذكر دافيد مجزرة أريحا فيستغرق فى استعراض شريط أفكاره ويتخيل نفسه لابسا جلباب أبيه الرافض لسلبية اليهود فى رد اعتداءات غير اليهود عليهم فيتصور نفسه مقاوما لهذه الاعتداءات . ويحذو الابن حذو الأب فيعيب على اليهود سلبيتهم واكتفاءهم بإنشاد المزامير كرد على العدوان عليهم فالمزامير لن تمنع أعداء السامية من شق رقاب اليهود . وعندما يستعرض النازيون قوتهم يتخيل دافيد نفسه بطلا مغوارا يتصدى لهم ويشق صفوفهم ويحرق مبانيهم وممتلكاتهم كما يتصور نفسه يقتحم هيكلا يهوديا محترقا لا يبالى بألسنة اللهب كى ينقذ بعض لفائف المعبد المقدسة . والجدير بالذكر أن استخدام الأحلام والتهيؤات إحدى السمات البارزة التى تميز أدب الهولوكست فى أوربا . ولكن هذه التهيؤات لا تلبث أن تنحسر وتتلاشى بتصاعد الاعتداءات النازية على اليهود . وتزول أحلام اليقظة عن دافيد وتختفى فيلجأ إلى الصمت . ويتحرق دافيد شوقا إلى مجيء موسى عليه السلام كى يخلص شعبه من براثن النازيين .

ويقع الجزء الأخير من الرواية فى فترة الهولوكست وكذلك فى الفترة التالية لها . وهو يعالج معاداة السامية فى أمريكا كما تتمثل فى الحركة التى أسسها القس تشارلس كوفلين باسم «حركة العدالة الاجتماعية» . وهذا القس كان ينفث دعايته المناهضة للسامية فى أحاديثه الاذاعية وفى صحيفة التابليود التى يصدرها بعنوان «العدالة الاجتماعية» الأمر الذى حفز حثالة الأمريكان بداهمة طلبة المدارس اليهودية ومهاجمة كبار السن من اليهود . كان هؤلاء الرعاع يعرضون صحيفتهم المعادية للسامية على اليهود كى يشتروها فإذا رفض أى منهم شراءها تكاثروا عليه وأوسعوه ضربا وعايروه بيهوديته قبل أن يلوذوا بالفرار .

وأوضح ماكس لورى لابنه الفرق الكبير بين عداوة الأوربيين للسامية وعداوة الأمريكان لها قائلا إن كراهية اليهود فى أوربا وجدت دعما ومساندة لها من جانب الحكومات الأوربية فى حين أن الحكومة الأمريكية رفضت أن تؤيد انتهاج سياسة مناهضة لليهود . ورغم هذا الفرق الجوهرى فقد لاحظ الابن دافيد وقوف البوليس الأمريكى مكتوف اليدين أمام اعتداء الغوغاء على اليهود . ويهدف المؤلف بذلك أن يبين شدة ارتباط عداوة المسيحيين التقليدية للسامية بعداء النازيين لها .

وبينما قام السوقة الأمريكان بمهاجمة اليهود فى الشوارع الأمريكية عارض الأمريكان المسئولون والمهذبون فى مجلس الشيوخ دخول اليهود إلى الأراضى الأمريكية رغم ادراكهم للموت الجماعى الذى تعرض له يهود أوربا . تقول الرواية فى هذا الشأن : «قبلت أوربا وانجلترا هجرة عدد قليل من اليهود إليهما . وفعلت أمريكا نفس الشيء . ولم تكن هناك أى بلد ترغب فى هجرة الكثيرين منهم إليها» وعندما أخذ النازيون يصعدون اضطهادهم لليهود أصاب اليأس الأب المناضل ماكس وبالنظر إلى أن يهود أمريكا أدركوا عجزهم عن مساعدة بنى جلدتهم فى أوربا إبان الحرب العالمية الثانية نرى أن جمعية الدفاع عن النفس اليهودية ترسم سياستها لإنقاذ البقية الناجية من الهولوكست فى أوربا من الاندثار والجدير بالذكر أن ماكس يدعو إلى الحاجة لإنشاء جيش يهودى فى فلسطين لمقاومة سعى بريطانيا للحيلولة دون هجرة اليهود إلى الأراضى المقدسة .

ويسجل المؤلف بوتوك عن طريق رسمه لشخصية روث لارى والدة دافيد الأثر العميق الذى تركه الهولوكست فى المهاجرين اليهود إلى أمريكا بعد أن هلكت عائلاتهم فى أوربا . فروث التى هاجرت إلى أمريكا تاركة والديها اللذين رفضا الهجرة إليها تولى الاهتمام بعائلتها الأمريكية من الناحية المادية فى حين يخلو اهتمامها من الحرارة والدفء والعاطفة فقد نجح الهولوكست فى قتل مشاعرها . وفى بداية الحرب لا تدرك عائلة لورى مدى الدمار الشامل الذى حل باليهود فى شرق أوربا ولكن بشاعة معسكرات الاعتقال النازية تكشفت لها فى وقت لاحق وبمرور الزمن

أخذت الصحف تنشر صور البشاعات النازية : عندئذ تولى المؤلف تصويرها بصورة محفورة فى الأذهان . ولم يتأثر دافيد فى حداثته بهذه الفظائع قدر تأثره بالقتلى من الأطفال اليهود . عندئذ فقط استوعب دافيد كلام معلمه الذى وصف النازيين بأنهم اتقنوا تكنولوجيا الموت . تقول الرواية عن النازيين فى هذا الشأن :

« لقد دمروا حضارة بأسرها . وعلم النازيون أن الحضارة الغربية ليست السيارات فقط التى يمكن أنتاجها بالجملة بل أحداث القتل أيضاً »

يتوخى بوتوك الواقعية فى رسم صورة الهولوكست ولكنه أحيانا يمزجها بشطحات الخيال فعندما يرى دافيد الصور الواردة من معسكرات الاعتقال بينما هو يسير على حافة بارزة تطل على نهر الهدسون . وأثناء نظره إلى خطوط السكك الحديدية الممتدة يقع على صخرة فيجرح أصبعه وينزف منه الدم غزيرا . وتسقط قطرات الدم فى النهر فيتحول لونه إلى اللون القانى . ويصطبغ العالم كله بهذا اللون الأحمر . وعندما تمر بجواره قطارات البضائع بجواره يتذكر صورة القطارات التى كان النازيون يسيرونها فى أوربا المحتلة وبداخل أبوابها المغلقة تراءت له صورة عدد غفير من الآدميين يتلوون من فرط الألم وتحيط بهم القذارة وقد ارتسمت ملامح الرعب على وجوههم ؛ وتدفع بشاعات الهولوكست كما تتمثل فى الصور الفوتوغرافية دافيد إلى دراسة الكتاب المقدس بطريقة علمانية وليس بالطريقة التقليدية التى كان يدرسه بها .

ويتوفر الغلام دافيد (الذى تسمى باسم عمه الذى هلك فى الهولوكست) على دراسة نقد الكتاب المقدس ليس بهدف الحط من شأنه والزراية به فهو يحب التوراة حبا جما ويبغى الدفاع عنه ضد من يهاجمونه . ولكن والده يعترض على أسلوبه فى دراسة التوراة القائم على نقد نصوص الكتاب المقدس . لأن هذا الأسلوب النقدى نشأ أول ما نشأ فى ألمانيا الحديثة التى يمقتها كما أنه نتاج الدارسين اليهود الألمان فى القرن التاسع عشر الذين دعوا إلى« إصلاح الدين اليهودى » وهى دعوة رأى فيها والده نسفا للدين اليهودى من جذوره .

وفى نهاية الرواية يصبح الغلام دافيد دارسا متبحرا فى الكتاب المقدس ويسافر إلى ألمانيا لدراسة احدى المخطوطات . وهناك يبدأ دافيد فى البحث عما جرى لعائلته . وعندما يقترب من معسكر برجن للاعتقال الموجود فى ألمانيا والذى تم نقل أفراد عائلته إليه يجتاحه الفزع الذي يشل حركته . ويشعر برغبته فى الهرب من المكان ولكنه يسمع صوت عمه يناشده ألا يضعف ويرى صورة معلمه تأمره بأن يرى بقايا عائلته التى أخلصت لدينها ونذرت نفسها للتوراة . ويناشده عمه الذى أبيد فى مجزرة لبرج أن يبدأ من جديد ويثق بأن الدين اليهودى سوف تكتب له الحياة والازدهار مهما أصابه الموات وتحول إلى رماد . فالبعث اليهودى آت لا محالة . ويرى دافيد فى دراسة الكتاب المقدس وسيلة إلى احياء اليهودية وتجديدها ويقرأ دافيد أرقام الضحايا اليهود الذين ماتوا بمئات لألوف فى المعسكر ويندب عائلته التى ماتت . ويتساءل :

«من الذى يرقد تحت أقدامي، وقدماى تطحنان جثث الموتى من أفراد عائلتي»

ويتصور دافيد أن أباه وعمه قد عادا من الأموات ليحثانه أن يبدأ من جديد .ومهما فعل أعداء اليهود فلن ينجحوا فى القضاء عليهم . ويقارن المؤلف بوتوك بين تكنولوجيا الابادة التى أتقنتها ألمانيا النازية واصرار اليهود على البقاء على قيد الحياة عن طريق التكاثر والانجاب . وهو يرى فى سماح الشرع اليهودى للأخ بأن يتزوج زوجة أخيه الميت لاقامة نسل له رمزا لهذا الاصرار على الحياة ، ويصلى دافيد على عائلته المفقودة صلاة الكاديش أو صلاة الموتى وهى صلاة مفعمة بالأمل فى بعث اليهود وبقائهم على قيد الحياة فى نفس الموقع الذى شاهد مصرع الكثيرين منهم .

وتذهب رواية «فى البداية» إلى أن البعث اليهودى سوف يتحقق عن طريق تجديد التعليم الذى يتلقاه اليهودى الأمريكى وعن طريق انشاء ومساندة اسرائيل النابضة بالحياة والجدير بالذكر أن والد المؤلف يشبه ماكس والد الصبى دافيد الذى يرفض اتباع اليهود للسياسة السلبية فى مواجهة ما يلحق بهم من ظلم وخسف واضطهاد . وماكس من أشد الناس تحمسا لهجرة اليهود إلى اسرائيل . فضلا عن أنه يؤيد الغارات التى شنتها منظمة أرجون اليهودية على الفلسطينيين .

إن التوفيق حالف بوتوك فى إتقان حرفته الروائية حيث أنه نجح فى دمج نصوص الكتاب المقدس وخاصة سفر التكوين مع معالجة الموضوعات التاريخية . وتتميز رواية «فى البداية» عن روايات بوتوك الباكرة فى أن هذه الرواية الأخيرة لا تقتصر على تصوير المحليات والمجتمعات الصغيرة بل تعدتها إلى تصوير مجتمع متعدد الأعراق . هذا المجتمع صورة مصغرة لتفاعل اليهود مع العالم فى القرن العشرين . وتبشر الرواية بعودة اليهود من الشتات إلى أرض الميعاد الأمر الذى يذكرنا بنهاية سفر التكوين حيث أدرك يوسف الصديق أن الله سوف يخرج الخير من الشر وأنه سوف ينقذ شعبه من اضطهاد فرعون مصر .

وخلاصة القول أن تشايم بوتوك نذر نفسه للدفاع عن دولة إسرائيل والتوفر على دراسة الدين اليهودى . وهو يؤكد أن الشفاء من الهولوكست لن يتحقق إلا عن طريق الالتزام الكامل بالعقيدة اليهودية وإن الخير سوف يخرج من تحت أنقاض الشر . ومن ثم فإن تضحيات اليهود فى الهولوكست لم تكن عبثا .

١٠ - جورج شتاينر (١٩٢٩ -)

George Steiner

سيرة حياته :

ولد جورج شتاينر الناقد والروائي الأمريكي في باريس من أبوين يهوديين وتلقى تعليمه في جامعتي شيكاغو وهارفارد ثم في كلية باليول في اكسفورد وقام بالتدريس في جامعة برنستون في الفترة من ١٩٥٦ حتى ١٩٦٠ . ثم في جامعة كامبريدج عام ١٩٦١ . وفي الفترة من عام ١٩٧٤ حتى ١٩٩٤ عين أستاذاً للأدب المقارن وزميلا بكلية سانت آن في اكسفورد عام ١٩٩٤ - ١٩٩٥ . ومن أهم كتاباته «موت المأساة» (١٩٦٠) و «اللغة والصمت» (١٩٦٧) و «برج بابل» (١٩٧٥) و«أنتجون» (١٩٨٤) و «الحضور الحقيقي» (١٩٨٩) .

الهولوكست في أدب جورج شتاينر :

كان من حسن حظ عائلة شتاينر انه ترك فيينا عام ١٩٢٤ وهرب إلى فرنسا عام ١٩٤٠ ليهاجر بعدئذ إلى أمريكا . ولهذا فهو لم يعرف تجميع اليهود في الميادين العامة في انتظار الترحيل كما أنه لم يعرف ارغامهم على الانفصال عن ذويهم . وكذلك لم يجرب شتاينر الزج به في معسكرات الاعتقال والعمل الاستعبادي والتضور جوعا . ورغم أنه نجا من أذى الهولوكست فإنه لم ينج من الاحساس بالذنب بسبب حدوثه . ويعتبر جورج شتاينر نفسه مشوها لأنه نجا من اضطهاد النازيين له . وقد أنعكست المأساة التي وقعت لليهود في أوربا على موقفه من ابنائه . فضلا عن انعكاسها على آرائه في اللغة والأدب والسياسة والمصير البشري . يقول شتاينر في هذا الشأن : «إن تفجر حمم البربرية في أوربا الحديثة يسيطر على وعيي كما يسيطر

عليه القتل الجماعي لليهود وتدمير عبقرية المذهب الانساني المتفردة في وسط أوربا .
ولأن الهولوكست نابع من داخل الحضارة الأوربية وقلبها ولأن صراخ القتلى يسمع بالقرب من حرم الجامعات ولأن ممارسة السادية استمر قريبا من معاقل الثقافة من المسارح والمتاحف فقد سعى شتاينر إلى شرح وتوضيح العلاقة بين حدوث الهولوكست في التاريخ وسياقه الثقافي وخصوصافي اللغة الألمانية وآدابها .

ويعتبر شتاينر نفسه منفيا في كل مكان كما يعتبر أن الذين لم يشاهدوا الهولوكست يعيشون على كوكب آخر . والرأي عنده أن الاعتقاد بأن معسكرات الاعتقال لا تصلح لأن تكون مادة تحرك الخيال اعتقاد يجانبه الصواب . ويرد شتاينر عداوة أوربا للسامية إلى أن أوربا المسيحية الساعية إلى التخلص من لوم النفس على روحها الوثنية ضاقت ذرعا باليهود لأن اليهود يجسدون الضمير الانساني . وأيضا آمن شتاينر أن هناك ثمة علاقة وثيقة بين فساد اللغة الألمانية والمسلك الاجرامي لألمانيا النازية .

ويفحص شتاينر في كتابه «اللغة والصمت» الذي أصدره عام ١٩٦٧ العلاقة بين الهولوكست والثقافة التي تفرزه . ويعنى كاتبنا باللغة ويهتم باستقصاء الضرر الذي يصيبها من جراء خدمة الفساد والانحطاط السياسي . ويذهب شتاينر إلى أن اللغة لها القدرة على «استيعاب كتل الهستيريا والأمية والابتذال .. ولكن لابد من أن يؤدي هذا إلى نقطة تنكسر عندها اللغة . فإذا استخدم المرء اللغة بهدف التفكير والتنظيم وتبرير معسكر اعتقال بلسن وكذلك إذا استخدمها لوضع مواصفات بناء غرف الغاز أو لنزع انسانية الانسان طوال اثنى عشرة عاما من الوحشية المحسوبة فإن شيئا ما سوف يحدث لهذه اللغة .وإذا صنع المرء بالكلمات ما فعله هتلر وجوبلز بها لبث الفزع والافتراء فإن شيئاً أيضا سوف يحدث للكلمات وسوف يستقر شيء من الأكاذيب والسادية في نخاع اللغة . وسوف تخترق هذه الأكاذيب نظام اللغة بطريقة غير محسوسة في باديء الأمر مثلما تخترق الاشعاعات بسمومها عظام الانسان . ولكن السرطان والدمار الغائر سوف يبدءان في الظهور . وسوف تتوقف اللغة عن

النمو والازدهار ولن تؤدي وظيفتها بالكفاءة التى كانت تؤديها به . ووظيفتا اللغة الأساسيتان هما التعبير عن النظام الدمث الذى تسميه القانون وتوصيل نبض الروح الأنسانية التى نسميها اللطف . »

ويصف المؤلف افساد النازيين للغة الألمانية بأنه واحد من أكثر مظاهر الفترة النازية وضاعة مضيفا إلى ذلك قوله إن النازيين سجلوا بأنفسهم الجريمة التى ارتكبوها والافساد الذى اقترفوه :

«وفى الزنزانات الموجودة فى القبياء التى أشرف عليها الجستابو قام كتبة الاختزال بتدوين بحرص أصوات الخوف والألم المنزوع من قلوب المحبوسين والمحترقين ومن انهال الجستابو عليهم بالضرب حتى فقدوا أصواتهم الآدمية . كما تم تسجيل بدقة التعذيب والتجارب التى أجريت على الأحياء فى معسكرى بلسن وماثوسن . وفى معسكر داخاو كانت الاجراءات التى تحدد عدد الضربات التى يتلقاه السجين ... تسجل بالكتابة وعندما أرغم النازيون أحبار اليهود البولنديين على نزح المراحيض المتنقلة بأيديهم وأفواههم كان هناك ضباط ألمان مهمتهم تسجيل الواقعة وتصويرها ثم تصنيف الصور الفوتوغرافية التى يلتقطونها »

ويقر شتاينر بوجود قدر من الصحة فيما كتبه كاتب الهولوكست المعروف إيلى ويزل إنه ينبغى على روائى الهولوكست التزام الصمت وعدم معالجته فى قالب روائى . يقول ويزل : «ربما يكون أفضل شيء الآن بعد الكثير الذى كتب فى هذا الشأن التزام الصمت بدلا من اضافة الغثاثة الأدبية والنقاش السسيولوجى إلى ما لايجوز الكلام عنه» .

ويشبه شتاينر ويزل الذى انتهى به الأمر إلي تغيير رأيه فى هذا الموضوع . فقد دعا ويزل فيما بعد إلى محاولة فهم الهولوكست والتعلم منه والادلاء بشهادة تدين جرائم النازيين المروعة وأيضا الشهادة بتواطؤ غير الألمان فى ارتكاب هذه الفظاعات . ومن هذا المنطلق نجد أن شتاينر أسهم اسهاما كبيرا إلى أدب الهولوكست

الروائي بنشر ثلاث قصص طويلة بعنوان «بعد ميلاد المسيح» المنشورة عام ١٩٦٤ و «باب سان كريستوبال» (١٩٨٢) . ولم يهتم شتاينر بوصف الجيتو ومعسكر الاعتقال . ولكنه وصف أحوالهما من خلال الأحكام التي تصدرها الشخصيات الروائية ضد النازيين وأعوانهم . ويستخدم شتاينر رواياته كمحاكمات للنازيين على جرائمهم ضد الانسانية وبذلك باستعمال تكنيك الفلاش باك الذي يرد على بال الناجين من الهولوكست . وغالبا ما تتم هذه المحاكاة عن طريق أحكام يصدرها الكورال . وسواء كان المنظر الذي يصوره جورج شتاينر على الشواطيء الفرنسية أو في مستشفى أمراض عقلية في الريف أو في غابة في البرازيل فإنه يعد بمثابة استعارة أو مجاز لإعداد مسرح تعقد فيه محاكمات نورنبرج ويكتب شتاينر كأنه وكيل نيابة مهمته استجواب شهود الهولوكست من النواحي التاريخية والنفسية والأخلاقية .

وتسعى قصص «بعد ميلاد المسيح» إلى استجلاء ذكريات الحرب والحاجة إلى الإبقاء على هذه الذكريات حية . وكل قصة من هذه القصص الثلاث تلقي الضوء على موضوع التواؤم مع الاضطراب الذي يعاني منه الإنسان متأخرا أثناء الحرب . وتصور قصتان من القصص الثلاث تجربة اليهود في الحرب فضلا عن أن هذه التجربة لا تظهر بصورة محورية بل على نحو موجز وهامشي إلى حدما .

وتصور قصة «بلا عودة» ضابطا ألمانيا صار رجل صناعة ثرى بعد أن وضعت الحرب أوزارها يعود إلى زيارة منطقة نورماندي الفرنسية حيث كانت خدمته العسكرية. وسبب هذه الزيارة هو الرغبة في الزواج من فتاة فرنسية كان قد أمر بشنق أخيها على شجرة . وترفض العائلة زواج ابنتها من هذا الضابط بسبب ماضيه الملطخ بالجرائم . وعبثا يحاول الضابط أن يدافع عن نفسه وأن يظهر أمام هذه العائلة بمظهر انساني وأيضا عبثا يحاول اقناع عائلة الفتاة الفرنسية بأنه قد تغير وأصبح الآن يحترم الحياة الانسانية وأنه يقدر جمال الريف الفرنسي . يقول الضابط الألماني مدافعا عن نفسه :

«نشأت في حلم مزعج صارخ . فأنا لا أتذكر أي وقت لم نكن نمشي فيه في

طوابير عسكرية أو نصرخ كما أني لا أتذكر أي وقت لم تكن فيه الاعلام ترفرف في الشوارع . وعندما أفكر في طفولتي فإن كل ما أذكره بوضوح هو قرع الطبول والزي العسكري الذي كنت ألبسه كرائد للشباب والاعلام الحمراء الكبيرة المرسوم عليها دائرة بيضاء يتوسطها صليب معقوف ...»

«أما المدرسة فكانت أضل سبيلا إذ كان قرع الطبول فيها أعلى صوتا وكان عدد الأعلام المرفرفة أكبر . وفي طريق عودتنا إلى منازلنا كنا نلعب لعبة صيد الأرانب فنطارد اليهود ونرغمهم على الجري فوق بلاعات الشوارع حاملين كتبنا المدرسية فإذا سقطت منهم طرحناهم على الأرض وتبولنا على وجوههم» .

ويدلنا هذا على أن شتاينر في أدبه القصصي عالج موضوع لوم بعض النازيين لأنفسهم بسبب ما ارتكبوه من جرائم . ويعترف الضابط الألماني بارتكاب الفظاعات في سالونيكا حيث علق أعداء بلاده على الخطاف الذي تعلق عليه الذبائح . وعندما تصر العائلة الفرنسية على رفضها تزويجه من ابنتها نراه يقول ان بإمكانه أن يبقى في ألمانيا ويتزوج من أرملة ميسورة الحال وأن ينسى الماضي ويولي له ظهره تماما حيث «إننا جميعاً مصابون بفقدان الذاكرة أو لعل شخصا وضع ياقات من الحديد حول أعناقنا حتى لا نتمكن من النظر إلى الخلف» ويردد شتاينر في مقال له بعنوان «المعجزة الجوفاء» نفس الملاحظات التي أوردها الضابط الألماني . ويقارن كاتبنا بين اعتراف الألمان بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ بجرائم هتلر وبين سعي ألمانيا بعد عام ١٩٤٨ (وهو عام نشوب الحرب الأولى بين العرب ويهود فلسطين) إلى تحقيق الانتعاش الاقتصادي واسترداد عافيتها الاقتصادية . وفي هذه الفترة ركزت ألمانيا على الازدهار المادي والوفرة في الانتاج والتقدم الصناعي على نحو أنساها الجرائم التي اقترفها النازيون ضد اليهود بالأمس القريب وجعلهم يزعمون أن هذه الجرائم غير حقيقية ومبالغ فيها . ولكن حب الضباط الألماني للفتاة الفرنسية يدعوه للاعتراف بما اقترفه النازيون من جرائم . والجدير بالذكر أن ردود فعل العائلة الفرنسية متباينة فمن أفرادها من حبذ قبول الضابط الألماني لقاء ثمن باهظ ومنهم من رفضه

رفضا باتا ومنهم من اعتبر انجلترا وليس ألمانيا العدو الحقيقى للفرنسيين . وأخيرا يتغير موقف الفتاة من الضابط الألمانى وتقبل الزواج منه رغم أنه شنق أخاها . وأثناء حفلة الزفاف ينتحى أخو الفتاة الباقى على قيد الحياة جانبا يحيط به نفر من أصدقائه يتمتمون كالكورال بكلمات تدين هذا الزواج الأمر الذى يوحى باستحالة نسيان الوحشية النازية أو العفو عنها .

ويقدم المؤلف القصة الثانية وهى بعنوان «الكعكة» من وجهة نظر أمريكى برىء وجد نفسه فى معترك الكابوس النازى . وهذا الأمريكى طالب دراسات عليا يسافر إلى أوربا لاستكمال بحثه ، فى الوقت الذى اندلعت فيه نيران الحرب . ويشعر هذا الطالب بالاشمئزاز من نفسه بسبب جبنه فيوافق على توصيل الرسائل إلى المقاومة ضد النازية . وعندما يحاصر الجستابو الشاب الأمريكى يختبىء فى مستشفى للأمراض العقلية فى حماية طبيب يناصب الفاشية العداء . وفى هذه المستشفى يقع الشاب فى غرام فتاة يهودية مختبئة تشي بها نزيلة تغار منها بسبب منافستها على حب الشاب الأمريكى .

وتتجلى مأساة اليهود فى قصة «الكعكة» أكثر من تجليها فى أية قصة أخرى من قصص المجموعة . وتتكشف لنا أحداث القصة من خلال الفلاش باك الذى يمر بخاطر الأمريكى الذى يعود بعد انتهاء الحرب إلى زيارة مستشفى الأمراض العقلية الذى كان يختبىء فيه . وتكشف له محبوبته اليهودية عن أهوال الهولوكست التى تعرضت لها عائلتها . كما أنه يتذكر الفظاعات التى ارتكبها الجستابو داخل المستشفى .

ويميط المؤلف اللثام عن الإجراءات التى اتخذها النازيون ضد اليهود فى فرنسا من خلال الفتاة اليهودية راحيل جاكوبسن التى قابلها الراوى الأمريكى فى مستشفى الأمراض العقلية . ويتحرى المؤلف الواقعية فى استجلاء فظاعات الهولوكست فيعقد مقارنة بين سلام وهدوء الحياة الفرنسية قبل ظهور النازية واضطرابها بعد ظهورها . وتنتمى الفتاة المذكورة إلى عائلة يهودية ثرية تعيش فى مدينة بروكسل اندمجت تماما

فى الحياة البلجيكية . وهى عائلة تحفل بالثقافة الرفيعة مثل موسيقى شوبان ولوحات شاجال إلى جانب اقتنائها للكتب المؤلفة بعدة لغات . ولم تكن العائلة تواظب على ممارسة الشعائر اليهودية ولكنها كانت تذهب إلى المعبد اليهودي مرة أو مرتين كل عام. وشيئاً فشيئاً بدأت هذه العائلة التعسة تحس بوطأة تدخل النازيين فى حياتها حتى بلغت المضايقات النازية ذروتها . ومن بين هذه المضايقات أن شانئيها وضعوا على عتبة بيتها طرودا تحتوى على الخثى والبراز بدلا من زجاجات اللبن . وتواترت الأنباء بأن ترحيل اليهود أصبح وشيكا تمهيدا لإبادتهم . ونصح البعض الأب بتهجير أولاده قبل أن يفتك النازيون بهم . وقررت العائلة ترحيل راحيل لإنقاذها من براثن النازيين . وباختفاء هذه الفتاة انقطعت عنها أخبار العائلة فاستنتجت انهم هلكوا فى الهولوكست . ويلاحظ الشاب الأمريكى الراوى للأحداث على راحيل شدة الانزعاج والقلق على مصير أخيها الأصغر فيحاول هذا الشاب أن يخفف من كربها بقوله إن المانيا بلد متحضر أنجبت شيلر وبيتهوفن ومن ثم فهى لا تعرف البربرية والوحشية كما يحاول أن يطمئنها أن أسرتها بخير . وتحرص الفتاة اليهودية على رواية مأساة عائلتها للراوى الأمريكى حتى يرويها بدوره للأجيال القادمة فلا تبيد أو تندثر . ومن جانبها اتبعت راحيل عادات اليهود الجميلة في اضاءة شمعة مرة فى العام لأحياء ذكرى موتاهم .

وأيضا يتناول المؤلف فى قصة «الكعكة» وجود العداء للسامية فى أوربا حتى قبل ظهور النازية . فإحدى نزيلات المستشفى المتقدمات فى السن تحذر الأمريكى الشاب من راحيل وتصفها بهذه اليهودية الصغيرة القذرة الأمر الذى ذكر هذا الأمريكى بالممارسات المناهضة للسامية بين الطبقات العليا الأمريكية وبتخصيص المدارس الخاصة الراقية نسبة محدودة من الطلبة اليهود للالتحاق بها . فضلا عن حرمان اليهود من الالتحاق بالنوادى الاجتماعية وشيوع التحيز ضد السامية فى جامعة هارفارد . حتى الرواى نفسه يعترف بشعوره بعدم الارتياح فى حضرة اليهود وميله إلى تجنبهم . والرأى عند المؤلف أن غير اليهود لا يرتاحون إلى اليهود بسبب ما يتمتع

به اليهود من كمال أخلاقى يجعل غير اليهود يغارون منهم ويحسون بالنقص والدونية نحوهم .

ومن الموضوعات التى تتردد فى مقالات شتاينر أهمية اللغة فى سلوك الإنسان والنفس البشرية . ويتجلى لنا هذا من خلال موقف غير اليهود من استخدام اليهود للغات غير اليهودية . ويدرك الشاب الأمريكى بوصفه دارسا للأدب أهمية الاضافة التى أضافها اليهود إلى اللغة والأدب . ولكن ادراكه لهذه الحقيقة لا يخلو من شيء من العداء للسامية. وهو عداء يشاركه فيه كثير من المتعلمين الأمريكان . يقول الشاب الأمريكى الراوى للأحداث : «لا يوجد أحد مهتم بالدراسة الأدبية لا يعرف موهبة اليهود اللغوية» . ورغم أن الراوى يحمل بعضا من آثار العداء للسامية فإنه يحن ويشتاق إلى ذكرى راحيل حتى بعد أن جاء الجستابو إلى المستشفى لاقتيادها نتيجة وشاية المرأة العجوز بها بسبب غيرتها منها . والذى يدل على أن الراوى لا يزال متعلقا بالفتاة اليهودية حرصه بعد انتهاء الحرب على زيارة مستشفى الأمراض العقلية التى اختبأ فيها لمشاهدة حجرة راحيل . وتمنى لو أنه رآها فى غرفتها رغم معرفته بهلاكها فى الهولوكست . تقول الرواية : «سوف أصرخ باكيا كى أقول لها إن حياتى منذ أن تركتنى أصبحت رمادا» .

وتبدأ رواية «باب كريستو بال» بمنظر درامى مذهل يتمثل فى اكتشاف فرقة بحث اسرائيلية مكان اختباء أدولف هتلر فى غابة فى الأمازون بأمريكا الجنوبية . وتدور حبكة الرواية حول نقل البعثة الاسرائيلية لهتلر فى غابات وأحواش الأمازون إلى سان كريستوبال لتقديمه إلى المحاكمة . ويذهب شتاينر فى هذه الرواية إلى نفس الرأى الذى سبق أن ذهب إليه فى مقال «المعجزة الجوفاء» . وهو أن إفساد النازية للغة الألمانية يتجلى فى تحويل هتلر الكلمات إلى أسلحة قتالية فتاكة . تقول الرواية عن طلاقة هتلر فى الكلام وقدرته الفذة على تحويل الكلمات إلى أسلحة ماضية :

«يقولون إن صوتك يستطيع أن يحرق المدائن ويقولون انك عندما تتحدث تتحول أوراق الشجر إلى رماد ويجهش الرجال بالبكاء . ويقولون إن النساء المتلهفات

لسماع صوتك على استعداد لأن يمزقن ثيابهن» .

ولهذا نرى قائد فريق البحث الاسرائيلى يحذر الرجال عبر الأثير أن يجبروا هتلر على التزام الصمت أثناء اقتيادهم له فى الغابة حتى لا يضعفوا أمامه ويستسلموا له ويتعاطفوا معه . يقول هذا القائد عن هتلر : «ولكن سيأتى رجل له فم يحرق كالفرن ولسان يقطع كالسيف . وسيعرف هذا الرجل قواعد النحو الخاصة بالجحيم ويعلمها للآخرين . وسوف يعرف أصوات الجنون والكراهية . ويجعل هذه الأصوات تنساب كالموسيقى ... فلا تجعلوه يأخذ حريته فى الكلام»

ويضفى المؤلف مغزى رمزيا على عملية اقتياد فريق البحث الاسرائيلى لهتلر فى رحلة عبر أحراش الأمازون . فهذه الرحلة شبيهة مع الفارق برحلة ضحايا النازية وقد اقتادهم جلادوهم فى طوابير طويلة نحو معسكرات الموت . وتمثل الأحراش سر هتلر المغلق وسر ماهيته وما أقدم عليه من أفعال . كما أن اخراجه من مخبئه فى الأحراش يعنى أن العالم الغارق فى لجج نسيان التاريخ والذى فقد ذاكرته بخصوص الهولوكست قد بدأ يفيق لفظاعة ما حدث .

ويعيش خيال شتاينر فى أسطورة تغاير الواقع وتتعارض مع الحقيقة وهو أن الفوهرر لم ينتحر ولكنه هرب من ألمانيا إلى أمريكا الجنوبية . ونلاحظ أن بناء الرواية يضع مناظر الغابة فى مقابلة مع مناظر العالم المتحضر . فإيقاع الرواية يتأرجح بين صراع اليهود ضد هتلر الذى صنع الهولوكست وبين أجهزة المخابرات الدولية فى كل من ألمانيا وفرنسا وروسيا وبريطانيا وأمريكا التى تدرس المزايا التى تجنيها والأضرار التى سوف تلحق بها فى حالة بقاء هتلر على قيد الحياة وعودته إلى حظيرة المدنية .

ورغم أن الرواية تركز على محاكمة هتلر فى سان كريستو بال فإن المؤلف يحاكم المجتمع الدولى ويرميه بالفساد . فهذا المجتمع لا يكترث بإبادة اليهود والقوى العظمى تغض الطرف عنها كما يتضح من وصف المؤلف لمواقف أجهزة المخابرات الدولية المختلفة . فالمخابرات البريطانية تعنى باستجلاء جانب الطب الشرعى فى

عملية الهولوكست والمخابرات الألمانية تعنى بتقصى الجانب القانونى والمخابرات الروسية تهتم بالجانب السياسى فى حين تهتم المخابرات الفرنسية باكتشاف المتعاونين مع القوات النازية والأمريكية بالاستفادة وانتهاز الفرص، والاسرائيلية بمعاقبة النازيين. ويسعى شتاينر فى روايته إلى اماطة اللثام عن الأهداف القومية لمختلف البلاد عن طريق رسم شخوص روائية دولية وتتبع استخدامها أو سوء استخدامها للغة.

والرواية لا تستفيض فى تصوير اهتمام بريطانيا وأمريكا بهتلر والهولوكست فى حين أنها تركز على اهتمام اسرائيل وروسيا وألمانيا بهما . ويمثل الجانب البريطانى خبير فى الطب الشرعى يدعى أيفلين رايدر الذى تمكن من التعرف على شخصية هتلر من بقاياه . ويوضح رايدر أسطورة بقاء هتلر على قيد الحياة . هذه الأسطورة تذهب إلى أن الذى انتحر لم يكن هتلر نفسه بل شبيها له وأن هتلر هرب كى يستعد للعودة لإحياء التاريخ النازى من جديد . وأيضا يلقى رايدر الضوء على طبيعة البعثة الاسرائيلية الباحثة عن هتلر ومدى تقدمها فى عملها . ويعرب رايدر عن غضبه من اصرار البعثة الاسرائيلية على تعقب المجرمين النازيين ويرى أن هذه البعثة جانبها الصواب عندما ظنت أن الشخص الذى أسرته فى أحراش الأمازون هو هتلر . يقول رايدر فى دحضه لهذا الزعم الاسرائيلى بأنه يتعارض مع أسلوب هتلر ونفسيته، والجدير بالذكر أن رايدر يهتم بتفاصيل الطب الشرعى وبشخصيات الاسرائيليين المتعقبين لهتلر دون أن يقيم وزنا للهولوكست . وتتسم ملاحظات البريطانيين حول الهولوكست بأنها عديمة القيمة والاحساس ومحايدة من الناحية الأخلاقية . وهو ما يمثل موقف الحكومة البريطانية فى زمن الهولوكست من الابادة الجماعية لليهود .

ويتناول شتاينر تاريخ الهولوكست من خلال ذكرياته عن إسرائيلي اسمه ايزاك أمسل تعرف به أثناء الحرب . وبالنظر إلى أن أمسل كان يعمل تحت القيادة البريطانية فقد استطاع الخروج والدخول إلى بولندا بكل يسر . حاول أمسل عبثا أن يحث البريطانيين على نسف خطوط السكك الحديدية المؤدية إلى معسكرات الاعتقال. ويذكر خبير الطب الشرعى الانجليزى رايدر بدون أن تظهر عليه امارات الدهشة

الأخلاقية أن أمسل حاول اقناعه بالذهاب إلى القائد البريطانى العجوز ليخبره بأمر الأفران التى يستخدمها النازيون فى حرق اليهود . ولكن الرجل العجوز رفض أن يصدقه لأنه لم يتعود على مثل هذا النوع من الحروب الأمر الذى يكشف عن أفكار واتجاهات القيادة العليا البريطانية كما يكشف عن طبيعة شخصية رايدر نفسه . فهو لم يلق بالاً لفشله فى اداء مهمة الوساطة . فضلا عن أنه لم يهتم بموقف بريطانيا غير الأخلاقى حيث كانت على علم تام بالخطة التى وضعها النازيون عام ١٩٤٢ لإبادة اليهود . ومع ذلك فقد شاءت تكتم الخبر . وادراكا من ايزاك أمسل باحجام بريطانيا عن مساعدة اليهود الذين انكووا بنار الهولوكست على الهجرة فقد آثر أن يترك عمله تحت أمر القيادة البريطانية كي يساعد بنى جلدته على النزوح إلى اسرائيل متحديا بذلك سياسة الحظر التى انتهجتها بريطانيا . والجدير بالذكر أن القائد البريطانى لم يتبين ما فى موقفه من حطة وتخاذل . والأدهى من ذلك أنه لم يشعر بأى ذنب أو تقصير نتيجة تصرفه المخجل والمشين فى منع اليهود الواقعين تحت نير النازية من الهجرة إلى فلسطين حتى بعد انتهاء الهولوكست . وهكذا تعالج الرواية موضوع تواطؤ غير الآريين وتضافرهم مع الآريين فى تدمير اليهود . وهو نفس الموضوع الذى عالجه شتاينرفى مقال كتبه بعنوان «نوع من الناجين من الهولوكست» . وفى هذا المقال ينحى جورج شتاينر باللائمة على كل من الأمريكان والبريطانيين لامتناعهم عن قصف خطوط السكك الحديدية المؤدية إلى معسكرات الموت بالقنابل كما أنه لام الروس لأنهم لم يحذروا سلفا المجتمعات اليهودية رغم معرفتهم بأمر الابادات التى ارتكبها النازيون فى المناطق التى قاموا باحتلالها .

ويعتبر جورج شتاينر موقف الأمريكان من اليهود أكثر سوءا من موقف الانجليز لأنهم أكثر لزوجة وقدرة على التمويه . فالرواية تحكى عن عميل أمريكى يستقى الأخبار من جاسوس دسه الانجليز لتتبع رحلة الفريق الاسرائيلى الباحث عن هتلر . ولا يفوت شتاينر أن يهجو المسئولين الأمريكان الذين يدلون بتصريحات رسمية قادرة على التمويه من أجل أخفاء مايعرفونه من معلومات خاصة برحلة البعثة

الاسرائيلية إلى غابات الأمازون وحتى تتجنب أمريكا إثارة غضب حكومات النمسا والمانيا الاتحادية وألمانيا الديموقراطية نراها تقرر إحالة موضوع تقديم هتلر إلى المحاكمة إلى الأمم المتحدة لتتخذ فيه الاجراءات التى تراها مناسبة . وتتهم الرواية الأمريكان بتجاهل مصالح يهود اسرائيل الذين أصابتهم النازية بالضرر المباشر حتى لا تسوء علاقتها بالحكومات الآنفة الذكر . وأيضا تلقى أمريكا باللوم على اسرائيل لأنتهاجها سياسة التعتيم حول عمل البعثة الاسرائيلية . وعندما يتساءل صحفى اسرائيلي عن نقل هتلر إلى اسرائيل لتقديمه إلى المحاكمة هناك يرد الأمريكيون بلغة تفتقر إلى التعاطف وبنوع من الاستنكار أن هذا الأمر شبيه باختطاف النازى المعروف ايخمان لمحاكمته فى أسرائيل . وكنموذج لهجاء جورج شتاينرلفشل الولايات المتحدة للتصرف على نحو أخلاقى فى مسألة محاكمة هتلر فى اسرائيل وهى مسألة بالغة الأهمية لها ، نرى أمريكا تشغل بالها بتوفير الضمانات القانونية اللازمة التى تمكن هتلر من الدفاع عن نفسه .

ويخلو الجزء من الرواية الخاص بموقف السوفيت من محاكمة هتلر فى اسرائيل من أى ذكر أو إشارة للجرائم التى ارتكبها الفوهرر ضد اليهود . ويحرص المؤلف على ابراز دكتاتورية النظام السوفيتى وموقفه من موت هتلر وتصف الرواية حديثا متبادلا بين ضابط مخابرات سوفيتى ومواطن روسى عاقبته السلطات السوفيتية لأنه تشكك فى موت هتلر إذ قامت بتعذيبه ونفيه إلى معسكر عمل فى سيبريا لمدة ثمانية أعوام . وفى ضوء المعلومات الاسرائيلية التى تفيد بأنه لا يزال حيا يرزق قامت المخابرات السوفيتية بممارسة ضغوط رهيبة على الرجل لتغيير رأيه ويسحب أقواله ويؤكد أن هتلر لا يزال على قيد الحياة بعد أن أرغمته فيما مضى على الاعتراف بموت هتلر . ومن الواضح أن المؤلف يسخر هذا الجزء من الرواية لإدانة النظام السوفيتى الشمولى الذى يستخدم أساليب القسر والتعذيب لانتزاع مايشاء من اعترافات كاذبة تخدم أغراضه السياسية ومعنى هذا أن الهولوكست لا يشغل بال هذا النظام فى قليل أو كثير .

أما الجزء من الرواية الخاص باستجلاء موقف فرنسا من أسر اسرائيل لهتلر فينم على أن فرنسا معنية فى المقام الأول والأخير بتأكيد عزتها وكرامتها القومية . وهذا الجزء مكتوب من وجهة نظر ضابط مخابرات فرنسي ينحدر من عائلة فاشية كان يعمل فى حكومة فيشي التى تعاونت مع الاحتلال النازى . ويسعى هذا الضابط قدر استطاعته إلى تعطيل اسرائيل فى تقديم هتلر إلى المحاكمة . ولكن الجانب الأعظم من اهتمامه ينحصر فى تجنب ذكر أى شيء من شأنه أن يشين فرنسا أو يسيء إلى سمعتها . ويؤكد هذا الضابط أنه لا يحق للبعثة الاسرائيلية أن تقوم بأسر هتلر واحضاره إلى اسرائيل لأن دولة اسرائيل لم تكن قد أنشئت أيام الهولوكست وأيام محاكمات نورنبرج . فضلا عن أنه يرى أنه إذا كان لابد من محاكمته فإن فرنسا هى المكان المناسب لعقد هذه المحاكمة وهو لا يشجع على أية حال اجراء هذه المحاكمة لأنها تتضمن احراجا لفرنسا ونكئا لجروحها القديمة وتذكير العالم بعمالة حكومة فيشى لألمانيا النازية والرأى عند هذا الضابط أن حكومة فيشى نابعة من تربة فرنسا وليست مفروضة بالقوة عليها فهى تنبع من طبقة الاكليروس الفرنسى من ذوى الأراضى وهى طبقة محافظة معروفة برفضها لمباديء الثورة الفرنسية فضلا عن أنها تكره اليهود كراهية لا مزيد عليها . ويرى ضابط المخابرات الفرنسى ان اعداء فرنسا الحقيقيين ليسوا الألمان بل الانجليز واليهود . والجدير بالذكر أن الطبقة التى تكونت منها حكومة فيشى المتحالفة مع النازية تؤمن بضرورة اتحاد العنصرية اللاتينية (أى الفرنسية) بالعبقرية التيوتونية (أى الألمانية) لمواجهة بربرية أمريكا المادية التى تقلدها روسيا السوفيتية وتحذو حذوها . وفى نظر ضابط المخابرات الفرنسى أن جرائم القتل التى ارتكبها النازيون ليست عملا اجراميا بشعا بل مجرد عمل يفتقر إلى الكياسة واللياقة . وفى الجزء الفرنسى من روايته يصب جورج شتاينر هجوما لاذعا على حكومة فيشى التى ضارعت النازية فى رفضها للسامية .

ويصور المؤلف موقف الألمان من محاكمة هتلر المزمعة فى اسرائيل فيشير إلى المفارقة التى تجمع بين قدرتهم على التعذيب واستخدام غرف الغاز ومعسكرات

الاعتقال وقدرتهم على تذوق فن جوته وريلك الرائع وتمتعهم بموسيقى باخ وشوبير الرفيعة . ويمثل الدكتور روثلنغ الاعتزاز بالانتصارات التى حققتها النازية والولاء الكامل لهتلر . وروثلنغ يريد أن يمحو جرائم النازيين من التاريخ وأن يسقطها من ذاكرته . وهو يعارض فكرة تقديم الألمان المسئولين عن جرائم الحرب إلى المحاكمة كما أنه يهاجم الباحثين عن زبانية النازية المختبئين عقب هزيمتهم أمام الحلفاء ويتهمهم بالهستيريا والسعى إلى الاثارة . وروثلنغ لا يشعر بالخجل من تأييد النظام النازى غير الأخلاقى . وهو يجد متعة ولذة فى ممارسة العنف ويتمثل الجمال فى احتلال ألمانيا النازية لهولندا . وهو يستمد فرصته من النازية لأنها جعلته يعايش التاريخ معايشة كاملة ويحيا مثلما يحيا الأبطال الصناديد . ويختلف الدكتور روثلنغ عن شخصية قصة «لا تعودوا مرة أخري» فى أنه لا يبدى ندما على جرائم النازية . فروثلنغ لا يشعر بأن النازيين أجرموا فى حق الانسانية وهو حزين لأن بلاده خسرت الحرب كما أنه أشد ما يكون سخطا على ابنته لندمها على جرائم النازية . وهو لا يزال يشعر بالحنين إلى عهد هتلر . وبينما روثلنغ مستغرق فى خيالاته وسارح فى أفكاره عن عظمة الرايخ الثالث النازى تطوف بمخيلته الأنباء الواردة عن عثور البعثة الاسرائيلية على هتلر حيا . وبوصفه رجل قانون تطلب منه الحكومة الألمانية أن يسدى إليها النصيحة القانونية بشأن ما ينبغى عليها عمله فى حالة وجود هتلر على قيد الحياة . ويستشير دكتور روثلنغ محاميا أصغر منه سنا فيقترح إقامة محكمة دولية تتكون من صغار السن الذين لم يعاصروا هتلر أو يتذكروا أفعاله . ويضيف المحامى الشاب أن تقدم هتلر فى السن الطاعن سوف يجعل من العسير تقديمه إلى المحاكمة فقد مضت ثلاثون عاما على انتهاء الحرب الأمر الذى يومى بأن هتلر سوبرمان يقف فوق القانون . ويسعى روثلنغ إلى استغلال تخصصه فى القانون لخدمة أغراضه السياسية الأمر الذى يذكرنا بالمحامين والأطباء الألمان الذين خدعوا اليهود وعذبوهم فى سبيل مصلحة الرايخ النازى ورغم أنه يريد استبعاد الأخلاق من مجال القانون فإنه يصر على ضرورة اتباع كافة الأشكال والتقاليد والاجراءات القانونية السليمة فى حالة

محاكمة هتلر . وهو لا يقلق من إدانة هتلر بقدر ما يقلق من إدانة ملايين الألمان الذين ساندوه . فهو يعرف أن المسئولية لا تقع على عاتق هتلر وحده بل على عاتق الجماهير الغفيرة المؤيدة له .

وإذا كانت الدول المشار إليها تهتم ببحث البعثة الاسرائيلية عن هتلر فإنها لا تكترث كثيرا بالجرائم التى ارتكبها كما أنها لا تكترث بمصير ضحاياه فالرواية تدور أساسا حول نشاط البعثة الاسرائيلية التى عانى أفرادها من الهولوكست كما سيطرت عليها فكرة تقديم الفوهرر إلى المحاكمة . ويرأس الفريق الاسرائيلى الباحث عن هتلر رجل اسمه إيمانويل ليبر الذى يدير عمليات البعثة بالراديو من تل أبيب . وقد أمضى هذا الرجل ثلاثين عاما فى اعداد خطته التى كللت بالنجاح واكتشفت مكان أدولف هتلر فى أحراش الأمازون وهو يوجه فريقه فى عواصم مختلفة : من لندن وتورين وتل أبيب . ولايخبرنا المؤلف جورج شتاينر الكثير مما كابده ليبر فى الهولوكست فكل ما نعرفه أنه زحف على بطنه ليخرج من حفرة تكدست فيها جثث الضحايا اليهود الأمر الذى جعله يكرس حياته لمحاسبة النازيين على ما اقترفوه . ويحمل ليبر فى ذراعه وشما يرمز إلى قسوة الهولوكست . وقد أقسم ليبر مع أعضاء بعثته على العثور على هتلر حيا أو ميتا حتى إذا كلفهم الأمر حياتهم . ورغم أن الشكوك ساورت البعثة فى أن هتلر قد لا يكون حيا فإنها عقدت العزم على مواصلة البحث عنه رغم علمها بخطورة ردود الفعل الدولية فى حالة نجاحها فى مهمتها . ولم تثن المخاطر البعثة الاسرائيلية عن إتمام مهمتها رغم علمها بأن الدول سوف تغض الطرف عما ارتكبه هتلر من جرائم وفظاعات . فهذه الدول لا تريد أن تتذكر مغزى الفاجعة الانسانية وأبعادها السياسية بل تريد اسقاطها من ذاكرتها . وقد تأكد ذلك للإسرائيليين بعد عثورهم على هتلر الأمر الذى يدل على بعد نظرهم .

ويختلف فريق البحث الاسرائيلى فى تخيل نوع العقاب الذى يودون الحاقه بهتلر . فجدعون بناسيراف الذى رأى النازيين يحرقون أحد ابنائه حيا ويدفعون بابنه الثانى وبالأم إلى غرف الغاز يرى ضرورة الابقاء على حياته واعطائه حرية الحركة

داخل اسرائيل لإذلاله حتى يتسول من الاسرائيليين كل يوم الماء والطعام والمأوى . أما ايزاك أمسل فيرى أنه ليس هناك فى هذه الدنيا عقاب يتناسب مع جرمه حتى إذا نزعوا أظافره أو قذفوه فى حفرة من نار يتلظى فيها أو فى الزيت المغلى ستة ملايين مرة بعدد الستة ملايين يهودي الذين أبادهم ويرفض أمسل فكرة اعدامه لأن اعدامه سوف يريح ضمير الدول التى تواطأت معه ويجعلها تغلق ملف الهولوكست لأن المسئول عنه وهو هتلر قد نال جزاءه أما أكثر شخصيات جورج شتاينر تدينا وهو إيلى بادوخ فيريد أن يترك لله أمر محاسبته هتلر . ويتدبر هذا الرجل التقى الورع أمر الهولوكست فى إطار فلسفى حول طبيعة الشر الانسانى . وهو يذكر معلمه الفاضل الحبر الذى باد واندثر فيشعر بالذنب - مثل المؤلف نفسه - لأنه لم يمت مع من ماتوا فى الهولوكست ويصلى هذا الرجل الطيب إلى الله كى يجعل من البعثة الاسرائيلية اداة لمشيئته الالهية وليس بديلا عنها . يقول الرجل فى صلاته : «يا إلهى لا تطلب منا أن ننتقم أو نرحم . فهذا الأمر أجل وأعظم منا جميعا . وهو يتجاوز الفهم . وليكن أمر الرجل الذى سلمته إلينا فى يدك تماما» وبالنظر إلى أن هتلر الآن قد أصبح طاعنا فى السن وغير قادر على السير فى الاحراش فإن إيلى باروخ يقترح على بنى جلدته حمله على ظهورهم بهذا يتضح الفرق بين وحشية هتلر وانسانية اليهود . تقول الرواية فى وصف وحشية النازيين فى معاملة اليهود المشلولين والطاعنين فى السن :

«رجال ونساء فى التسعين من العمر . المشلولون والعميان والذين يبصقون الدم من أفواههم . جعلوهم يسيرون حفاة الأقدام على الشارع المرصوف بالحجارة . والذين تخلفوا نتيجة سقوطهم على الأرض صبوا الماء على أقدامهم حتى يتجمد فيجمدهم على الحجارة حيث يظلون فى مكانهم حتى يدركهم الموت . وهناك من يحترقون وهم أحياء داخل جلودهم . وفى شلمنو كان هناك حبر يصنع الأعاجيب يبلغ من العمر مائة عام . قطعوا لسانه وأرغموه على حمله أثناء السير لمسافة ميل بل أكثر من ميل حتى جاء إلى حفرة مشتعلة باللهب وطلبوا منه أن يغنى قائلين : غن يا صانع الأعاجيب» .

ويشبه المؤلف الآلام التى كابدتها البعثة الاسرائيلية فى أحراش ومستنقعات الأمازون بآلام اليهود أثناء الهولوكست . وعندما يخوض ايزاك أمسل فى مستنقعات الغابة الموبوءة بالفئران يتذكر بالوعات الجيتو وكيف أنه كان يخشى أن يرفع عنها الغطاء حتى لا يظهر له حذاء نازى برقبة طويلة يركله فى وجهه» . وفى هلوساته يتخيل أمسل نفسه وهو يتفنن فى إماته هتلر فى كل لحظة حتى يتشفى وينتقم لبنى جلدته الذين أمعن هتلر وزبانيته فى اذلالهم قبل قتلهم . ويشطح به الخيال فيتصور أنه يقيد هتلر بذيل من البارود طول مائة ميل «وأنه يشعل النار فى طرفه فيرى الفوهرر المرعوب النار وهى تقترب منه شيئاً فشيئاً . فإذا ما كادت هذه النار أن تحرقه أطفأها كى يعيد العملية مرارا وتكرار ليملأ قلب الطاغية برعب ليس له نهاية .

ويمثل ليبر رئيس البعثة الاسرائيلية ذاكرة التاريخ والواجب الأخلاقى. وعندما تنجح بعثته فى العثور على هتلر يصلى إلى الله شاكرا وحامدا فضله ومآثره مستخدما صورة النور الذى يبدد ظلمة النازية . وهو يسعى دوما إلى التذكير بالجرائم النازية ضد اليهود . كما أنه ينعى مأساة اليهود نعيا أقرب ما يكون إلى بكائيات الشعر ويتسم بالوقار والجلال . وهو يذكر ما ألحقه النازيون باليهود من تشويه نفسى وبدنى ومن اذلال واغتصاب وتعذيب وتجويع ودفع إلى الانتحار . ويردد ليبر ما يذكره المؤلف شتاينر فى تصويره لمعسكرات الاعتقال والموت فى مقال له بعنوان «قلعة بلوبيرد» حيث يبرز الكاتب وجه التشابه بين عالم النازية وصورة الجحيم كما يتخيلها أدباء وفنانو الحضارة الغربية . ويبرز شتاينر التشابه بين وصف دانتى للجحيم فى الكانتو ٣٣ ومعسكرات الاعتقال . ويقول ليبر إن فظاعة الهولوكست تتجاوز قدرة الانسان على الوصف والتصوير . ناهيك عن التصور : «نحن نستطيع أن نتخيل صرخة فرد أو جوع فردين أو احراق عشرة أفراد . ولكن إذا تجاوز العدد مائة فرد فإن المرء يعجز عن تخيل الصورة بوضوح» . وحتى يبين بشاعة الهولوكست نراه يستغرق فى احصاء ضحايا من اليهود . وهو أمر واضح الاستحالة وكذلك يؤكد ليبر تواطؤ غير الآريين مع الآريين فى إبادة اليهود . فبدون هذا التواطؤ لم يكن بإمكان هتلر أن

يفعل كل ما فعل .

والجدير بالذكر أن الباحث فى أدب الهولوكست الفين روزنفلد كتب فى كتابه «تخيل هتلر» يقول إن هتلر يكاد أن يكون غائبا فى معظم أدب الهولوكست الجاد . ولكن جورج شتاينر يذكر هتلر بوضوح واستفاضة فى روايته «باب سان كريستوبال» وبالنظر إلى امتلاء هذه الرواية بالجرائم فإنها تبدو وكأنها رواية من روايات الاثارة تبدأ بالجريمة وتنتهي بالعقاب . ولكن المؤلف يحاول جاهدا أن ينأى بروايته عن مواصفات الجريمة والاثارة بأن يخلع على روايته طابع العمق الخاص بدستوفسكى ويلقى الفصل الأخير من الرواية الضوء على العلاقة بين بربرية الهولوكست وفساد اللغة، فالبعثة الاسرائيلية تتذرع بسعي الدول إلي اختطاف هتلر منها فتسرع بمحاكمته فى الغابة وليس فى اسرائيل كما كان من المفترض . ويتجاهل أعضاء البعثة تعليمات ليبر بعدم اعطاء أدولف هتلر فرصة للاستفاضة فى الحديث . ويقدم حديث هتلر المطول والمستفيض دليلا عمليا على قدرته الهائلة على افساد اللغة بسبب شره وفساد أعماله فهو يستخدم اللغة فى الكذب والتمويه وتشويه الحقائق وسوء التمثيل وتلطيخ اليهود وتدنيس الدين اليهودى .

ومن مظاهر كذب هتلر وافترائه زعمه بأنه استقي فلسفته فى التمييز العنصرى من المذهب اليهودى نفسه وبالذات عن طريق قس مشلوح يدعى جاكوب جريل كان والده أحد أحبار اليهود البولنديين . ولكن أقوال هذا القس المشلوح تنم عن شدة جهله بالدين اليهودى . ومن مظاهر الزيف فى استخدام اللغة ادعاء هتلر أن ايمانه بتفوق الجنس الأرى شبيه بوقوع اختيار الله على اليهود كشعبه المختار . ولكن عندما يتناول شتاينر هذا الموضوع فى قالب مقال نجد أنه يتناوله بشكل مختلف . يقول شتاينر فى مقاله فى هذا الشأن :

« إن احدى سخريات التاريخ العميقة والقاسية تتمثل فى فكرة شعب الله المختار وتمجيد أمة على حساب بقية الأمم بسبب خصوصية مصيرها . وهى فكرة نشأت فى اسرائيل . ونحن نجد فى اللغة التى استخدمتها النازية عناصر تتضمنها

المعارضة الشامتة التى تحاكى الزعم اليهودى بقصد الزراية به . إن الفكرة اللاهوتية المتمثلة فى وقوع الاختيار على شعب بعينه فوق جبل سيناء تتردد فى مزاعم الجنس (الاري) السيد ».

وأيضا يذهب هتلر إلى أنه وجد فى الكتاب المقدس ما يبرر انتهاجه سياسة الابادة حيث إنه تعلم منه «أن يقوم بالقضاء على مدينة من أجل فكرة....» ويستخدم هتلر صورا وأخيلة مستمدة من الأمراض من أجل نشر دعاياته العرقية . يقول هتلر فى هجومه على اليهود بسبب مثاليتهم ودعوتهم إلى الكمال الأخلاقى : «لقد مارس اليهود الضغط علينا ثلاث مرات بهدف ابتزازنا بأفكارهم المثالية التى تتجاوز عالم المحسوسات كما أن اليهود دنسوا دماءنا ولوثوا عقولنا ثلاث مرات بجرثومة الكمال».

ويتمثل سعى اليهود إلى هذا الكمال فى ايمانهم بوحدانية الله والمناداة بالمساواة الاجتماعية والاقتصادية . ويردد شتاينر فى روايته نفس الفكرة التى يعبر عنها فى مقالاته ومفادها أن وثنية العالم الغربى هى التى تجعله يكره اليهود لأنهم اخترعوا الضمير ووحدانية الله . فهتلر يقول : «هل هناك اختراع أقسي وأكثر وجيعة للوجود الإنسانى من الدعوة إلى الايمان بإله قادر على كل شيء ويرى كل شيء ، ومع ذلك فهو خفى وغير محسوس أو ملموس!»

ويردد شتاينر نفس المحاجة فى مقاله «قلعة بلوبيرد» حيث يقول : «يبدو لى أمرا لا يقبل النقاش أو الجدل أنه يجب النظر إلى الهولوكست من منظور سيكولوجية الدين وأن هذا المنظور حيوى عند مناقشة الثقافة. إن الهولوكست لم يحدث نتيجة مجرد سيكولوجية فرد أو نتيجة عصابية دولة واحدة ... فهناك تماثل من حيث التكنيك والكراهية فى ارتكاب بعض المجازر المماثلة . ولكن هذا التماثل ليس له وجود على الصعيد الأنطولوجى أو على مستوى الهدف الفلسفى . هذا الهدف يجرنا إلى عدم الاستقرار الموجود فى نسيج الثقافة الغربية وفى علاقة الغريزة بالدين . فسخرية هتلر من الضمير كاختراع يهودى يوضح لنا الأمور . إن مؤرخى الأديان

يخبروننا أن بزوغ المفهوم الموسوى عن الله حقيقة فريدة من نوعها فى التجربة الانسانية حيث أنه لم يسبق لهذه الفكرة أن ظهرت فى أى زمان أو مكان آخر . إن هبوط التنزيل على موسى بشكل فجائي ونهائية العقيدة التى نزلت عليه فى سيناء مزقت النفس الانسانية من جذورها القديمة . »

وأيضا يهاجم هتلر الدين اليهودى قائلا : «يجب علينا أن نكظم غضبنا ونكبت رغباتنا ونعذب أبداننا ونمشى منكفئين فى المطر . أنتم تسموننى طاغية وصانعا للعبودية . وهل هناك طغيان واستبعاد أعظم من خيالات اليهود المريضة . أنتم لستم قتلة الله بل صانعى الله وهو أشد سوءا إلى ما لا نهاية من قتل الله (إشارة إلى صلب المسيح) . إن اليهود اخترعوا الضمير ثم تركوا الإنسان يشقى ويتعذب به» .

ويردد شتاينر فى تحليله لأسباب معاداة السامية نفس المحاجة التى يستخدمها هتلر فى الرواية حين يهاجم مبدأى اليهود الجوهريين : مبدأ دعوة المسيح الأخلاقية إلى أنكار الذات وايثار الغير ومبدأ دعوة ماركس الاجتماعية إلى بناء مجتمع خال من الطبقات .. يقول شتاينر شيئاً مماثلا عندما يكتب فى مقال له : «وحدانية الله على جبل سيناء والدين المسيحى البدائى والاشتراكية التى تبشر بالخلاص . هذه أسمى ثلاث لحظات تواجه فيها الثقافة الغربية بالمثل العليا .. فاليهودية دعت إلى الكمال وسعت إلى فرضه على الحياة الغربية . »

ويدافع هتلر عن نفسه بأن العالم كله تخلى عن اليهود عندما التفت اليهم للقضاء المبرم عليهم . يقول الفوهرر فى دفاعه عن نفسه : «عندما تحركت ضد اليهود لم يبادر أحد بانقاذهم . ففرنسا وانجلترا وروسيا بل حتى أمريكا نفسها المكتظة بهم لم يفعلوا شيئاً من أجلهم . بل إن الفرحة ملأت قلوبهم لأن الابادة قد حدثت شاعرين بالبهجة فى قرارة قلوبهم» . ويضيف هتلر انه ليس شيطانا رجيما بل رجلا عاديا ونتاج عصره وأن ملايين الناس لم تتبعه لتفرده أو امتيازه بل لأنه كان يمثلهم . والرأى عنده أنه ينبغى على اليهود أن يعترفوا له بالفضل فلولا الهولوكست لما قامت

لاسرائيل قائمة : «هل كانت فلسطين لتصبح اسرائيل . وهل كان اليهود ليأتوا إلى قطعة الأرض الجرداء المسماة بالشرق الأدنى . وهل كانت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى توافقان على الاعتراف باسرائيل وضمان بقائها لولا حدوث الهولوكست ؟! إن الهولوكست هو الذى أعطاكم شجاعة من يحس بالظلم وجعلكم تطردون العرب من ديارهم وحقولهم لأنهم يقفون عقبة فى الطريق الذى رسمه الله لكم .. ربما أكون المسيح ... المسيح الحقيقي» .

وهكذا يعتبر هتلر نفسه صاحب فضل على اليهود ومبعوث العناية الالهية وأداة يستخدمها الله لتنفيذ مشيئتة . إن الخطاب الذى ألقاه هتلر فى الفصل الأخير من رواية «باب سان كريستوبال» ينطوى على أخطار ومزالق لأنه ملىء بالمغالطات والأكاذيب المضللة والتى تبدو معقولة للوهلة الأولى . ولهذا فإن شتاينر لم يسلم من انتقاد بعض النقاد له لأن المنطق الذى يستخدمه هتلر فى الدفاع عن نفسه يبدو مقنعا فى نظر كثير من المتعلمين الأمر الذى يربك ذهن القارىء ويجعل دفاع هتلر يبدو بمثابة اعتذار ذكي عن جرائمه .

فى عام ١٩٨٨ صدر كتاب بعنوان «الكتابة والهولوكست» نشرته دار نشر هولمز وماير اشترك فى تحريره لفيف من الكتاب من بينهم جورج شتاينر الذى يطرح السؤال التالى : هل هناك لغة إنسانية يمكنها أن تصف طبيعة الله . وهو يرد على تساؤله بقوله إن اللغة لا يمكن أن تتجاوز حدود العقل والخيال البشرى . ومن ثم فهى عاجزة عن وصف الله لأن الله بطبيعة الحال يتجاوز حدود العقل والخيال البشريين. يقول شتاينر أن هذه المشكلة أشد ما تكون وضوحا فى اللاهوت المسيحى التفسيرى فى حين أنها لا تحتل مكانا بارزا فى اللاهوت اليهودى التأويلى . فاللاهوت اليهودى لا يعنى بالتفكير فى طبيعة الذات الالهية وخصائصها لأن هذا الجانب الميتافيزيقى لا يشغله فالذى يشغل بال اليهودى المتدين هو العيش فى صحبة الله وحضرته وهناك منذ سيدنا ابراهيم عقد أو ميثاق بين اليهودى المؤمن والله لا تعوقه مشكلة اللغة حيث أن الله وبنى اسرائيل يشتركون فى نفس اللغة .

ولكن مع حدوث الهولوكست ظهرت في الفكر اليهودي سواء كان دينيا أو علمانيا مشكلة وجود لغة انسانية يمكنها أن تستوعب معسكرات الاعتقال وتعبر عنها الأمر الذي حدا باليهود إلى الاعتقاد بقصور اللغة وعجزها عن تصوير الهولوكست . وقد أدى هذا بالتالي إلى تساؤلهم على المستوى اللاهوتي عن ماهية اللغة التي يتعين على اليهودي استخدامها عندما يخاطب ربه . وثمة تساؤل آخر ما هي اللغة التي يستطيع اليهودي استخدامها عن الحديث عن الله . وقد برزت منذ الهولوكست مشكلة استخدام اليهودي للغة بصورة أخطر مما نراه في اللاهوت التفسيري المسيحي . وبعد الهولوكست تساءل كثير من اليهود : «ما هي اللغة التي تصلح للصلاة بعد أن أصبح حتما على هذه اللغة أن تتسم بالتشكك واليأس وبتوجيه الاتهام إلى الله لأنه سمح بحدوث هذه الفظائع . وقد ترتبت على غياب الله إشكالية إيجاد لغة تناسب أهوال الهولوكست وتتجاوز مجال الطقوس والشعائر . ومن الواضح أيضا أن الهولوكست قد جعل اليهود العلمانيين والملحدين يعتبرون أن هويتهم ترتبط أوثق الارتباط بالشعب اليهودي ومعجزة بقائه على قيد الحياة .

ويذهب شتاينر إلى أن معسكرات الاعتقال النازية تدل على موت الإنسان ككائن عضوي يتمتع بالقدرة على الكلام وعلى أن يحلم بالتقدم وأن اللغات التي يستخدمها الإنسان على كوكب الأرض الدنس والملوث لم تعد لغات انسانية بل لغات تتجاوز حدود ما هو انساني . هي لغات تخدم أغراض مخلوقات فقدت انسانيتها . والرأي عنده أنه إذا كانت هناك في عالمنا لغة تتصف بالإنسانية فهي اللغة التي يتحدث بها الناجون من الهولوكست . وهو يسوق في هذا الصدد قول ثيودور أدورنو «لم يعد للشعر وجود بعد معسكر أو سشفتز للاعتقال » . ويرى شتاينر أن هذه المقولة تعني أن الفصاحة بعد معسكر أو ستشفتز أصبحت ضربا من البذاءة .

والجدير بالذكر أن شتاينر كان يرى أن الصمت هو أفضل وسيلة للتعبير عن الهولوكست حيث أن الألفاظ تعجز عن التعبير عنه . ورغم ذلك فقد آثر شتاينر التخلي عن الصمت وانصرف إلى كتابة الروايات والمقالات عن الهولوكست . ويبرر

شتاينر دفعه السابق عن التزام الأديب الصمت أمام الهولوكست بقوله إنه يدرك أنه سياسة انتحارية . ولكن شعورا عارما اعتراه بأنه من العبث محاولة الحديث أو الكتابة الواضحة والمفهومة عن معسكرات الاعتقال أو محاولة تفسيرها فمثل هذه المحاولة قمينة بأن تبوء بالفشل لأن الهولوكست يتجاوز قدرة الإنسان عن التعبير عنه .

والأدهى من هذا فى رأى كاتبنا أن اللغة الاستعارية أو المجازية التى مكنت الإنسان فى الماضى من التعبير عن الله لم تعد لها قائمة بعد الهولوكست . ومن الجائز أن الإنسان بعد الهولوكست لم يعد يجد ما يدعوه إلى الحديث مع الله أو الحديث عنه حيث أن جوهر الذات الالهية تمخض عن إنتفائه . ولأن الإنسان خان الكلمات فإن الكلمات بدورها خانته . «بمعنى آخر إن الله لم يعد له وجود فى اللغة» رغم اعتقاد شتاينر ان اللغات الأخرى عاجزة عن التعبير عن الهولوكست فإنه يرى أن اللغة الألمانية هي الوحيدة القادرة على ذلك . ويتضح لنا هذا بجلاء من النبذات التى سطرها المصلح الدينى الألمانى المعروف مارتن لوثر نحو عام ١٥٤٠ ودعا فيها إلى ضرورة اقصاء اليهود عن أوربا وحرقهم أحياء . وكذلك يتضح مقت الألمان لليهود مما كتبه الفيلسوف فيخت فى مبحثه «خطابات إلى الأمة الألمانية» . واللغة الألمانية فى رأى مؤلفنا استطاعت أن تبرر بوضوح حرق الأطفال أمام عيون آبائهم واغراق كبار السن والعجائز فى بحيرات البراز .

وينتقل شتاينر إلى تناول الهولوكست فى الأدب الاسرائيلي فيقول إن أدباء اسرائيل امتنعوا عن تناوله فى بادىء الأمر . ولكنه يعترف بأن هذا الوضع قد تغير الآن . ويؤكد مؤلفنا أن الهولوكست حادثة فريدة من نوعها فى التاريخ الانسانى رغم يقينه من أن هذا التاريخ ملطخ بدماء الضحايا . فالمؤرخون يقدرون عدد الضحايا من الكولاك (المزارعين) الروس المتمردين على ستالين بأكثر من عشرة ملايين مزارع . فضلا عن ملايين القتلى الآخرين فى أنحاء كثيرة من العالم مثل يوغندا وبوروندى في أفريقيا وأندونيسيا وكمبوديا فى شرق آسيا . وكذلك مجازر الأرمن على يد الأتراك

والفجر على أيدى النازيين . ويرفض شتاينر المحاجة التى ترى أن ما يميز الهولوكست النازى عن غيره من المجازر هو أن القائمين على تنفيذه استخدموا أحدث الوسائل التكنولوجية وأعقد الأدوات البيروقراطية ويرى كاتبنا أن الفرق الحقيقى بين الهولوكست وهذه المجازر يكمن فى دلائله الرمزية والميتافيزيقية واللاهوتية . ويضيف شتاينر أن أهمية الهولوكست وتفرده ترجع إلى أنه أفضى إلى انشاء دولة اسرائيل الفريدة حتى تكون المقابل لمعسكرات الاعتقال المتفردة . فضلا عن أن شدة تماسك اسرائيل يرجع فى الأساس إلى خوف الاسرائيليين من تكرار حدوث الهولوكست . فهذا الخوف يمثل أكبر دعامة للهوية اليهودية . فهذا الخوف هو الذى يجمع بين الاسرائيليين المتدينين والاسرائيلين الملاحدة وبين التقليديين المداومين على الصوم والصلاة وممارسة الشعائر والعلمانيين وبين الصهاينة والمناهضين لهم وبين اليهود الذين يعيشون داخل اسرائيل واليهود المشتتين فى أرجاء العالم وبين اليهود المحافظين واليهود الشيوعيين التروتسكيين فالذى يربط بين هؤلاء جميعا هو منطق البقاء على قيد الحياة والنجاة من عمليات الابادة والتطهير العرقى .

ومعنى هذا أن الوشائج التى تربط الاسرائيلي بالاسرائيلى واليهودى باليهودى وشائج نفسية لا محيص عنها . ولهذا ترى اسرائيل تعتذر بالهولوكست لتبرير سياساتها المتطرفة داخل وخارج حدودها . وهذا الخوف من تكرار الهولوكست هو الذى يعطى اليهود المنصهرين فى الحياة الغربية بوجه عام والحياة الأمريكية بوجه خاص الاحساس المتملق للنفس والباعث على رضاها بأنهم يشتركون مع بنى جلدتهم فى مصير مأساوى واحد . وقد تمخض هذا الوضع عن شعور جارف بالرعب له مردود تجارى أحيانا حول شهود الهولوكست اليهود ممن كتبت لهم النجاة منه . وأحيانا أدى شعور اليهود بالعجز عن مقاومة الهولوكست إلى نوع من احتقار الذات والتعويض عن احتقار النفس بالانجذاب نحو ممارسة العنف . ولا يجد شتاينر فى هذا الصدد غضاضة من الاعتراف بأن اليهود شعب من المجانين والمشوهين وأن تشوههم هو الذى يؤلف بينهم ويمنعهم من التشرذم .

ورغم إيمان شتاينر بتفرد الهولوكست وبأنه خارج حدود التاريخ الانسانى فإنه يرى فائدة في دراسته على مستوى البحث العقلانى فى التاريخ والاجتماع والاقتصاد. كما أنه يرى أنه من المفيد أن يتوفر المؤرخون على توثيق المعلومات الخاصة بمعسكرات الموت والمجازر الجماعية والمقاومة اليهودية لأن مثل هذا التوثيق من شأنه أن يؤدى إلى البعث أو الاحياء اليهودي . ولكن شتاينر يرى أن دراسة الهولوكست على هذا النحو العقلانى لا يكفى لتفسيره . والقول بأن الهولوكست نتاج نفسية هتلر المريضة غير كاف لأن إبادة اليهود جاءت على حساب المجهود الحربى النازى الذى كان سيستفيد بشكل أوضح لو أن النازيين ركزوا كل جهودهم لمحاربة الحلفاء ولم يبددوا جزءا من طاقتهم وامكانياتهم فى تصفية اليهود .